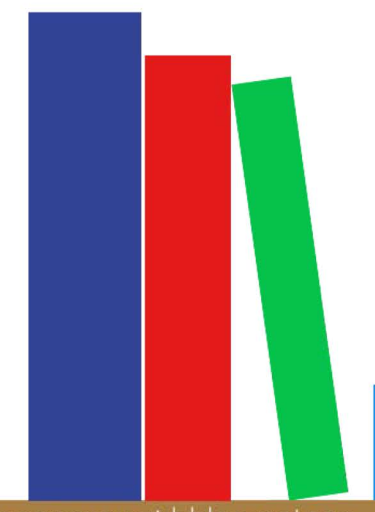


رحلات ومغامرات
عبر صحراء الرّبع الخالي

للرّحالة البريطاني: برترام توماس

ترجمة: د. أحمد إيبش



روّاد المشرق العربي

رحلة ومغامرات

عبر صحراء الرّبع الخالي

(كتاب العربيّة السّعيدة)

للرّحّالة البريطاني

برترام توماس

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
DS207 .T512 2013
Thomas, Bertram, 1892-1950

رحلة ومغامرات عبر صحراء الربع الخالي/ للرحالة البريطاني: برترام توماس؛ ترجمة وتعليق: أحمد إيبش. ط. 1.-
أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)
تدمك: 8 - 176 - 17- 9948 - 978
ترجمة كتاب: Arabia Felix : across the "empty quarter" of Arabia
1. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات.
2. شبه الجزيرة العربية -- الأحوال الاجتماعية. 3.الربع الخالي (السعودية) -- وصف ورحلات. أ. إيبش، أحمد.
ب. السلسلة. ج. العنوان.





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabdhabi.ae
www.tcaabdhabi.ae

رحلـة ومغامـرات

عبر صحراء الرّبع الخالي

(كتاب العربيّة السّعيدة)

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثّقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشّرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثّقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التّاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة

هذا الكتاب

نقـدّم اليوم للقـرّاء الكرام كتاباً قيّمـاً يصف رحلة أوّل مغامـر أوروبي يجتاز بنجاح صحـراء »الرّبع الخالي« المخيفة، انطلاقاً من صلالة بظُفار في جنوبيّ عُمان ووصولاً إلـى الدّوحة بقطر، وهو الرّحّالة البريطاني برترام سـيدني توماس. أبدأ حديثي عنه بأنّ المؤلف أطلق عليه تسمية مثيرة للجدل، إذ سمّاه *Arabia Felix* أي «العربيّة السّعيدة»، وهذا خطأ على اعتبار أنّ هذه التّسـمية ترد لدى جغرافيي الإغريق، وأخصّهم سـترابو وبطليموس، كتسـمية للأجـزاء الخصبة من جنوبي جزيرة العـرب، أي تحديداً: اليمن وظُفـار، بينمـا موضـوع الكتـاب يختـصّ بأكثر صحـارى جزيـرة العرب إقفـاراً على الإطلاق.

* * *

يعـدّ الرّبـع الخالـي[1] من أكبـر التجمّعـات الرّملية المتصلـة في العالـم، ويقع في جنوب شـرقي جزيرة العـرب، وينحصر حوضه بين جبال الحجر من الشـرق، وجبال ظُفـار وحضرموت من الجنوب، وجبال السّـروات وجبال طويـق من الغرب، وهضبة الصّمّان من الشـمال. ويبلـغ أقصى طول له نحو 1200 كيلومتـر، في حين يبلغ أقصى عرض له نحو 650 كيلومتراً، وتبلغ مساحته الإجماليّة نحو 550 ألف كيلومتر مربع.

والرّبـع الخالي واحـد من أربعة تجمّعات رئيسـة للرّمال في قلـب الجزيرة، وهي،

(1) بدر الخريف: الرّبع الخالي، بحر الرّمال العظيم ومثير الرّعب قبل النّفط، جريدة الشّرق الأوسط، 25 مارس 2011. وهو بحث قيّم وموسّع.

إضافة إليه: النّفود الكبير، والدَّهناء، والجافورة، وقد شبّه بعض الجغرافيين الرّبع الخالي بالبحر، لوجود بعض الصّفات المتشابهة بينهما؛ كسعتهما، وتشابه أشكال مكوّناتهما، وحركتيهما، وصعوبة الحركة فيهما إلا عن طريق الخبرة والمهارة.

ومنذ القرن الثامن عشر شدّت الصحراء العربية - ومنها الرّبع الخالي - اهتمام الكثير من المستشرقين والرّحّالين الغربيين الذين جذبهم سحر الصّحراء وتكويناتها الرملية، وغموضها، وقيم مجتمعاتها، وشغفهم بها وبالأساطير التي نسجت حولها - كونها موطناً لحضارات سابقة اندثرت ودفنتها الرّمال - إلى أن يقطعوا قفارها وفيافيها، رغم الخطورة والمشاق، وعدم توفر الوسائل المساعدة، وصعوبة الأوضاع الأمنية والاجتماعية في ذلك الوقت، في محاولة لكشف أسرارها وخباياها، والبحث عن حضاراتها المفقودة. وقد ساعد تكوين الرّبع الخالي، ووعورته، وسعته، وقلّة موارده، وظروفه المناخية، وأوضاعه الأمنية - منذ القدم - على جعل دخوله واجتيازه مغامرة صعبة، ومهمّة ليست يسيرة، لذلك ظلّ هذا الجزء من جزيرة العرب مجهولاً.

وظلت فكرة عبوره واستكشافه حلماً يراود الكثير من المستشرقين والرّحّالين الغربيين الذين جاؤوا إلى المنطقة لسبر أغواره وكشف أسراره. وقد كتب عنه الكثيرون من الرّحّالين الأوروپيين الذين زاروا أطرافه، ومنهم: الرّحّالة الألماني البارون أدولف فون ڤريدِه (A. von Wrede 1843) الذي وصف الجزء الجنوبي الشرقي من الرّبع الخالي، وتحدّث عن سبخة أم السّميم والرّمال المتحرّكة المحيطة بها وسمّاها «بحر السّافي»[1]. كما كان الرّحّالة روبرت إرنست تشيزمان R. E. Cheesman من أوائل الأوروپيين الذين زاروا واحة يبرين الواقعة على أطراف الرّبع الخالي الشّمالية الغربية، بين عامي 1923-1924، وقام بوصفها في كتابه «في جزيرة العرب المجهولة» *In Unknown Arabia*، وقد فتحت هذه الزيارة المجال أمام الرّحّالين لتحويل الخيال إلى واقع والحلم إلى حقيقة من خلال بعض الرّحّالين الإنكليز، حيث عبر بعض أجزائه كل من: برترام توماس بين عامي 1930- 1931، ثم هاري سنت جون فيلبي

(1) كثير من كتّابنا العرب ترجموا العبارة بالغلط: الصّافي، بينما السّافي هو الرّمل النّاعم.

(عبد الله فيلبي) في عام 1932، ثم ولفريد ثِسيجَر (مبارك بن لندن) في رحلتين خلال عامي 1946-1947.

ورغم أنهم لم يغطّوا كامل أراضي الرّبع الخالي، وحاولوا تجنّب بعض مناطقه الوعرة، فتُسجّل لهم الرّيادة والسّبق في ذلك، نظراً للإمكانات المحدودة والظّروف السّائدة في ذلك الوقت، حيث كانت الدّواب وسائل النقل، ومواد التّموين تكاد تكون معدومة، إضافة إلى الأحوال السّياسية والظروف الاجتماعية والأمنية الصّعبة السّائدة في هذه المنطقة ومحيطها، ومع ذلك عبروا الرّبع الخالي، وأجادوا في وصف معالمه الطبيعية وسكّانه، وما يحويه من حياة نباتية وحيوانية، إضافة إلى وصف الحياة الاجتماعية السّائدة في ذلك الوقت، وقد رسم «فيلبي» خلال رحلته خارطة مفصّلة لأجزاء من الرّبع الخالي.

* * *

وهؤلاء هم الرّحّالون الذين عبروا الرّبع الخالي:

1 - برترام توماس Bertram Sidney Thomas: يعدّ هذا الرّحّالة رائد مستكشفي الرّبع الخالي، وقد زار في البداية أطرافه الشّمالية والغربية وواحة يبرين، ويعدّ أول من عبر الرّبع الخالي من الرّحّالين الغربيين، وقد اجتازه من الجنوب إلى الشمال، من صلالة في ظفار إلى الدّوحة في قطر بين عامي 1930-1931، وقد بدأ رحلته من صلالة باتجاه الشمال الغربي عبر رملة شعيت، ثم عروق ابن حمودة، عبر ثرب ابن يماني - الواقع في ما بين خور ابن حمودة وخور ضحية - مروراً بخور ابن حمودة، ثم خور أبا العشوش عبر الدّكاكة، وصولاً إلى بئر شَنَّة في القماعير، ومن بئر شَنَّة كان اتجاهه نحو الشّمال الشّرقي مروراً بأبي خشبة، ثم قصمان، ثم عبور السّواحب وصولاً إلى خور بينها - الواقع ما بين الدّكاكة والبوح - ثم عبور منطقة البوح إلى أم المليسة بمحاذاة القرائن عبر السّنام وصولاً إلى بئر فرجة، وقد أشار إلى موقع الحديدة وبئر أم الحديد، ومن بئر فرجة اتجه شمالاً إلى آبار الدّويرس وصولاً إلى بئر بنيّان في الجوب، ومنها اتّجه إلى الدَّوحة عبر الجيبان. وقد ألّف كتابه «العربيّة السّعيدة» وضمّنه وصف رحلاته ومشاهداته في الرّبع الخالي. توفي عام 1950.

2 - هاري سنت جون فيلبي Harry St. John Philby (عبد الله فيلبي): أشهر من عبر الرّبع الخالي من الرّحّالين الغربيين، وقد أبدع في وصف رحلته في كتابه الذي ألّفه بعد انتهاء الرحلة، وسمّاه «الرّبع الخالي»، ويعدّ من أفضل ما كُتب في وصف معالم الرّبع الخالي وسكانه وبيئاته والحالة الاجتماعية السّائدة فيه في ذلك الوقت؛ إذ أجاد في نقل مشاهداته وملاحظاته، وقد قطع خلال عبوره مناطق من الرّبع الخالي أوسع مما قطعها غيره، وقد ساعده في ذلك دعم الملك عبد العزيز له في رحلته.

وقد بدأ رحلته بداية عام 1932 بقافلة تتكون من 19 رجلا و 32 راحلة، انطلاقاً من مدينة الهفوف مروراً ببلدتي الجشّة والطرف باتجاه الجنوب الشّرقي عبر رملة الجافورة إلى آبار: الباعج وبعيج، ثم إلى بلدة سلوى، ومنها إلى قرن أبو وائل ثم السّكك، ومنها إلى بلدة نباك، ثم اجتاز رمال الجافورة مرة أخرى باتجاه الغرب إلى واحة يبرين، حيث مرّ بقرى الخن، وأم أثلة، ويبرين، والحفاير، ومنها اتجه جنوباً إلى آبار: القصب، والعوج، وبئر مقينمة، ثم بئر فاضل، ومنها إلى شقّة الخلفات، ثم شقّة الرّعلاء، وبئر النّميلة، ثم بئري: الطّويرفة، وفرجة، عبر رمال السّنام وبني مكسر، ثم مرّ بالحديدة - ويعدّ أول من وقف على موقع الحديدة من الرّحّالين الغربيين - ثم اتّجه منها إلى بئر أم الحديد، وآبار البريهمية، ثم خلّة بني مشروع، ثم حاذ فارس، ثم منطقة بني جلاب، ثم حاد وآبار: عنسلة، وحدرج، إلى بئر نيفة، ومنها إلى بئر شَنَّة مروراً ببئر الزّكرت وبني جفنان وأبو خشبة.

وكان يعتزم اجتياز الرّبع الخالي جنوباً باتجاه ظُفار وحضرموت، إلّا أن الظروف الأمنية السّائدة في تلك المنطقة في ذلك الوقت لم تكن مواتية، فقرّر العودة عبر مسار آخر باتجاه السّليل لنيّته مواصلة السّير إلى مكّة المكرّمة لأداء فريضة الحج، فاتجه من بئر شَنَّة غرباً للوقوف على آبار: عرفجة وابن سويلم ومعمورة وزويرة وطويرة، ومنها الاتجاه نحو الشّمال الغربي إلى السّليل عبر السّواحب، وبعد مسيرة خمسة أيام ومن منطقة الحوايا، اضطرّت القافلة إلى العودة مرّة أخرى باتجاه الجنوب الشّرقي نحو بئر نيفة للتزوّد بالمياه، ومن بئر نيفة رأى تقليص حجم القافلة، نظراً لطول المسافة إلى

السّليل ووعورة الطريق وانعدام الموارد، وقرّر أن يعود جزء من القافلة باتجاه الشّمال إلـى الرّياض عبر الأحسـاء، على أن يستمرّ هـو وبقية القافلـة باتجاه الشّـمال الغربي قاصدين السّـليل، فاتجه هـو ورفاقه من بئر نيفة عبر حاذ عنسـلة وخلّة عدرج، ثم حاذ بني زينان، ثم الشّـويكلة، والحوايا، ثم عروق الأوارك، ثم شـقة السّـحماء، ثم عروق بنـي معـارض، ثم أبو بحر، ثـم الرّملية، ثم القونـس، ثم عرق الرّماك، ثم الشّـيدية إلى السّـليل عبر الفرشـة (وادي الغر). وقد اسـتغرقت رحلته قرابة شهرين ونصف الشّهر، وقـد ألّف بعدهـا كتابه «الرّبع الخالـي» *Rub'Al-Khali* ورسـم خارطة توضح أجزاء الرّبع الخالي. وقد توفي عام 1960.

3- ولفريد ثِسـيجَر Wilfred Thesiger (مبارك بـن لندن): اجتاز الرّبع الخالي في رحلتيـن ومن منطقتين مختلفتين، ففي أواخـر عام 1946 بدأ رحلته الأولى، حيث عبر الأطـراف الشـرقية للرّبع الخالي، بدءاً مـن مدينة صلالة في ظفار إلى شِـصر، ثم جدّة الحراسيس، مروراً بوادي مقشـن، وخور ابن عتريت، وبئر الحليـو في غنيم، ثم رملة الغافة، مروراً بالقعد، ثم عروق الشّـيبة إلى قـرب واحة الجواء (اليواء)، ثم العودة إلى مدينـة صلالة بمحـاذاة الأطراف الشّرقية والجنوبية الشّـرقية للرّبع الخالـي عبر رملة الرّبـاض، وأودية: العين وأسـود والعميـري، ثم الاتجاه جنوباً إلى بلـدة الجويرة على ساحل بحر العرب، ومنها اتجه إلى بلدة صلالة، وقد استغرقت رحلته قرابة شهرين.

وفي بداية عام 1947 قام برحلته الثانية من مِنْوَخ في اليمن، وقطع الأطراف الغربية للرّبع الخالي مبتدئاً من بلدة مِنْوَخ في رَيدة الصّيْعَر جنوبي الرّبع الخالي مروراً بعروق الزّيزاء، ثم القعاميّات، ثم عروق الأوراك، ثم الجلدة، ثم عروق بني معارض محاذياً حافة جبال طويق من الشّـرق إلى بئر الحسـي عبـر وادي الحنو، ثم إلى السّـليل، ومنها اتجه إلـى دبيّ مروراً بالأفـلاج، ومنهـا اتجه إلى واحة يبرين عبـر نفود الدّهناء، ثم مرّ ببئر الذّيبي وسـبخة مطي، ثم الأطراف الغربية لواحة الجواء (اليواء)، ومنها اتّجه إلى أبوظبي، ثم البريمي، ومنها إلى الشـارقة، ثم دبيّ. وقد قطع الرّبع الخالي من بلدة مِنْوَخ في الجنوب إلى بئر الحسي شمالاً في نحو 16 يوما، كما استغرقت الرحلة الثانية بكاملها أكثر من شهرين.

وقـد ألّـف بعد ذلك كتابـه: «الرّمال العربيـة» *Arabian Sands* وضمّنه مشـاهداته وملاحظاتـه خـلال رحلتيه، وقد عـاد إلى المنطقة مـرّة أخرى عـام 1977، فزار عُمان والإمارات العربيّة المتحدة وبعض أجزاء الرّبع الخالي التي عبرها في رحلته السـابقة، وقد لمس تغيّراً في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتطوّر الذي شهدته المنطقة، وقام باجتياز جزء من خط سيره السابق ورحلته الأولى باستخدام السّيارات، وذلك لتوثيقها تلفزيونياً. وتوفي عام 2003.

4 - رحلة الشّـيخ عبد الله بن خميس: قام الأديب والباحث الشـيخ عبد الله بن خميس عـام 1995 بصحبة مجموعة من المرافقين، ومن ضمنهم بعض أبنائه، برحلة عبروا خلالها أجـزاء من أراضي الرّبع الخالي، وقفوا خلالها على بعض مظاهره الطبيعية وموارده المائية ومراكـزه السّـكانية، وقـد ألّف بعدها الشـيخ عبـد الله بمشـاركة ابنه طارق فـي عام 1998 كتـاب: «رمـال الجزيرة - الرّبع الخالي»، ضمّناه نبذة تاريخية عن المنطقة، ووصفاً لمسـار رحلتهمـا ولأهـم المظاهر الطبيعية، والموارد المائية، والنّباتات والسّـكان والمسـالك في الرّبع الخالي، وموجزاً لرحلات بعض المستشرقين للمنطقة.

5 - رحلة هيئة المساحة الجيولوجية السّعودية: نظراً لما يمثله الرّبع الخالي من أهمية بيئيـة واقتصادية واعدة، ولأهميـة التّعريف به، نظّمت هيئة المسـاحة الجيولوجية عام 2006 رحلة علمية لاستكشـاف منطقة الرّبع الخالي، بمشاركة نخبة من المتخصّصين أكاديمياً، وقد هدفت الهيئة من هذه الرحلة إلى تغيير الصورة النمطية السائدة منذ القدم عن الرّبع الخالي من كونه منطقة رمال وعرة ومقفرة وموحشة.



برترام سيدني توماس

أمّا عن المؤلّف فهو ينتمي إلى عائلة متواضعة، لكنّه حقّق شهرة عالميّة كبيرة عندما كان أوّل من اجتاز صحراء الرّبع الخالي، وهي مغامرة عظيمة لبثت تراود مخيّلة جميع رحّالـي الإنكليز طويلاً وعجـزوا عنها. حتـى أنّ الرّحّالة الألمانيّة دوروتيـا فون لينكِه

(الكونتيسّة دوشكا مالمينياتي) حلمت بذلك إبّان رحلتها إلى المدينة المنوّرة عام 1914 وراحت تبذل جهدها لإقناع الشّيخ الشّاب سلطان الطّيّار شيخ عشيرة الوِلد علي العنِزيّة بمرافقتها. غير أنّ قيام الحرب العالميّة الأولى حطّم أحلامها بالجملة، وممّا قيل إنّها كانت تخطّط لعبوره أولاً بطائرة أو منطاد، ثمّ خطّطت لعبوره برّاً غير عارفة بمدى مشقّة ذلك، ولو أنّها حاولت لراحت ضحيّة محاولتها على الأرجح.

ولد برترام توماس في إيستون إن غوردانو بالقرب من بريستول في 13 يونيو من عام 1892، وتابع دراسته بمفرده ثم دخل كليّة ترينيتي في كامبردج وحصل منها على الدّكتوراة، وعمل في الخدمة المدنيّة 1908-1914. قاتل إبّان الحرب العالميّة الأولى على الجبهة الغربيّة في بلجيكا عام 1914-1915، ثم تمّ نقله إلى العراق في السّنتين الأخيرتين من الحرب 1916-1918 فلفت انتباه السّير آرنولد تالبوت ويلسون Arnold T. Wilson الذي كان يشغل آنذاك منصب المفوّض المدني البريطاني في الخليج العربي. وكان المحرّك الفعلي لرحلات توماس اللاحقة في الجزيرة، وإليه أهدى كتابه.

بعد ذلك عُيّن ممثلاً بريطانياً مساعداً في إمارة شرقي الأردن 1922-1924، ثم وزيراً للماليّة لدى سلطان مسقط (تيمور بن فيصل بن تركي) بين 1925-1932. وفي أثناء ذلك، قام بعدّة رحلات في قلب الصّحراء مستهدفاً أن يكون أوّل من يجتاز الرّبع الخالي، فكانت محاولته الأولى عام 1928 لكنّها مُنيت بالفشل، غير أنّه أعاد الكرّة بنجاح في شتاء 1930-1931 وكان له ما أراد. وفي رحلاته، انطلق برترام توماس بوسائله الخاصّة، يرتدي زيّ الأقوام المحلّيين ويتكلّم لهجاتهم. ولكونه وزيراً لسلطان مسقط فقد مكّنه ذلك من متابعة رحلاته الطّويلة إلى قلب برّ عُمان، وعُدّت هذه الرّحلات «مساهمة بالغة القيمة في المعرفة الجغرافيّة والإثنولوجيّة حول هذا القسم من الجزيرة».

تزوّج توماس من بِسي هويل Bessie Hoile عام 1933، وتابع حياته المهنيّة بنجاح كضابط مستعمرات، ليضحي فيما بعد ضابطاً للعلاقات العامّة في البحرين

1942-1943، ثـم مديـراً لمعهد الشّـرق الأوسـط للدّراسـات العربيّـة MECAS في فلسطين 1943-1946 ثم في فرع آخر للمعهد بشملان في جبل لبنان، وكان أول مدير لـه 1947-1948. وهـذا المعهـد لم يعمّر طويـلاً، إذ أغلق أبوابه إبّـان الحرب الأهليّة اللّبنانيّـة عـام 1978 وكان لِزلـي ماكلوكليـن آخر مدير لـه، وكان اليسـاريّون في لبنان يسمّونه «وكر الجواسيس».

* * *

أمّـا أوّل طبعـة لكتاب توماس فقـد صدرت بلندن عام 1932 عن دار نشـر جوناثان كايـپ، وفي السّـنة ذاتها صـدرت الطّبعة الأميركيّـة الأولى في نيويورك عـن دار أبناء تشـارلز سـكريبنَر. وكنـت منـذ ثلاثـة أعوام قـد حصلـت على طبعـة حديثـة مصوّرة بالأوفسـت نشرتها دار Read Books عام 2008، وعليها عملتُ. ثم بعد ذلك تمكنت مـن الاطـلاع علـى الطبعـة اللّندنيّة الأولى فـي مكتبة الجامعـة الأميركيّة فـي بيروت، ونسـخت منها صور الكتاب بالكامل. ثم ظفرت من أميركا مؤخراً بنسـخة نادرة وقيّمة عن طبعة نيويورك.

بذلتُ جهداً كبيراً في ضبط أسماء الأماكن، وما أكثرها، في متن الكتاب، والمؤلّف لا يتّبع طريقة دقيقة في كتابة الأسـماء، ممّا جعل المهمّة شـاقّة للغاية، لكنّني لـم أكتب اسـماً إلّا بعـد مراجعته بدقّة على المعاجم الجغرافيّـة وخرائط مقياس 1/ 1,000,000 وحتى خرائط 1/ 500,000. وما تعذّر أثبتّه كما ورد بالإنكليزيّة.

* * *

كان تومـاس نشـر وقائع رحلته عبر الرّبـع الخالي للمرّة الأولى فـي مجلّة الجمعيّة الجغرافيّـة الملكيّة بلندن، عدد سـبتمبر 1931، وضمّنها خارطته ومجموعة من صوره المتقنة لوقائع الرّحلة، ثم صدرت في كتاب بطبعتيه عام 1932 كما أسلفت.

وأنوّه إلى أنّ له كتاباً آخر مهمّاً في الرّحلات البحريّة حول سـواحل عُمان، بعنوان: «مخاطر وجولات في جزيرة العرب»:

Alarmas and Excursions in Arabia.

نشر في لندن وفي إندياناپوليس بأميركا عام 1931.

وكذلك له كتاب قيّم عن دَور العرب في الحضارة البشريّة، نشرته بلندن دار ثورنتون بَتَروورث عام 1930:

The Arabs: The Life Story of a People Who Have Left Their Deep Impress on the World, Thornton Butterworth Ltd., London 1930.

وله مقالة عن شبه جزيرة مُسندم وسكّانها الشّحوح، نشرت في صحيفة الجمعيّة الملكيّة الآسيويّة عام 1929:

"The Musandam Peninsula and its people the Shihuh", *Journal of The Royal Central Asiatic Society*, Volume 16, Issue 1, 1929.

ودراسة فيلولوجيّة أخرى حول لهجة قبيلة الشّحوح، نُشرت في الصّحيفة ذاتها عام 1930:

"The Kumzari dialect of the Shihuh tribe and a vocabulary", *Journal of the Royal Asiatic Society* (Oct 1930).

وأيضاً مذكرات أثناء خدمته في العراق، ترجمت إلى العربيّة بعناية عبد الهادي فنجان وكامل سلمان الجبوري، مؤسسة العارف للمطبوعات 2002.

ولقد حُفظت أوراقه ومراسلاته وصوره في أرشيف مكتبة المعهد الشّرقي بجامعة كامبردج. ومؤخراً في عام 2004 عُرض عن رحلته فيلم وثائقي لريتشارد ميور بعنوان: "The Forgotten Explorer".

وكما سنرى في أثناء مسيرة رحلة برترام توماس، أشار إلى مروره في مكان غير بعيد عن موقع حضارة وَبار الضّائعة (أتلانتيس الصّحراء)، فأوقد ذلك مخيّلة من قاما باكتشافها في عصرنا: رانولف فاينز ونيكولاس كلاپ، اللذين استندا إلى وصفه وخطّ مسار رحلته.

* * *

أخيـراً، نرجو أن نكون قـد قدّمنا ما هو جديد ومفيد، وخاصّة أنّه يتمّم بشـكل مفيد كتـاب رحلة البريطانيين ثيودور ومايل بِنت «جنوبـيّ جزيرة العرب»، وكتاب الرّحّالة فريا سـتارك «البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب»، اللذين نشـرناهما في هذه السّلسـلة، كما نُعدّ للنّشر الآن كتاب «تطواف البحر الأريتري». والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، *19* يوليو *2013*

د. أحمد إيبش

ARABIA FELIX:

ACROSS THE EMPTY QUARTER OF ARABIA

by BERTRAM THOMAS

O.B.E. [Mil.]; formerly Wazir to H.H. the Sultan of Muscat and Oman, sometime Political Officer in Iraq, and Assistant British Representative in Trans-Jordan. Founder's Medallist of the Royal Geographical Society; Burton Memorial Medallist of the Royal Asiatic Society; Gold Medallist of the Royal Geographical Society of Antwerp; and Cullum Gold Medal of the American Geographical Society

WITH A FOREWORD BY

T. E. LAWRENCE (T.E.S.)

AND APPENDIX BY

SIR ARTHUR KEITH, F.R.S., M.D., ETC.

CONTAINING ALSO

MAPS, CHARTS, DIAGRAMS
AND ILLUSTRATIONS COMPLEMENTARY
TO THE TEXT



LONDON:
JONATHAN CAPE, THIRTY BEDFORD SQUARE
& AT 91 WELLINGTON STREET W. TORONTO

1932

نموذج طبعة لندن الأولى، دار جوناثان كايب 1932

ARABIA FELIX

ACROSS THE "EMPTY QUARTER" OF ARABIA

by

BERTRAM THOMAS

O.B.E. [Mil.]; formerly Wazir to H.H. the Sultan of Muscat and Oman, sometime Political Officer in Iraq, and Assistant British Representative in Trans-Jordan. Founder's Medallist of the Royal Geographical Society; Burton Memorial Medallist of the Royal Asiatic Society; Gold Medallist of the Royal Geographical Society of Antwerp; and Cullum Medallist of the American Geographical Society, New York

WITH A FOREWORD BY

COLONEL T. E. LAWRENCE

[T. E. S.]

AND AN APPENDIX BY

SIR ARTHUR KEITH, F.R.S., M.D.

CONTAINING ALSO

MAPS, CHARTS, DIAGRAMS, AND ILLUSTRATIONS COMPLEMENTARY TO THE TEXT

NEW YORK

CHARLES SCRIBNER'S SONS

1932

نموذج طبعة نيويورك الأولى، دار تشارلز سكريبنَر 1932

THE ARABS

THE LIFE STORY OF A PEOPLE WHO HAVE LEFT THEIR DEEP IMPRESS ON THE WORLD

By

BERTRAM THOMAS

O.B.E. (Mil.): Ph.D. (Cantab): D.Litt. (hon.)
Bristol: D.Sc. (hon.) Acadia, Nova Scotia
For some time Political Officer Mesopotamia: Assistant British
Representative, Trans-Jordan: Prime Minister
to the Sultan of Muscat and Oman

Gold medallist of the Royal Geographical Society: the Royal Geographical Society of Antwerp: the Geographical Society of New York: the Royal Geographical Society of Scotland: and Burton Memorial medallist of the Royal Asiatic Society



DOUBLEDAY, DORAN AND CO., INC.
Garden City, New York
1937

كتاب «العرب» لتوماس، طبعة نيويورك الأولى عام 1937

ALARMS AND EXCURSIONS IN ARABIA

by BERTRAM THOMAS

With a Preface by
SIR ARNOLD T. WILSON

ILLUSTRATED

INDIANAPOLIS
THE BOBBS-MERRILL COMPANY
PUBLISHERS

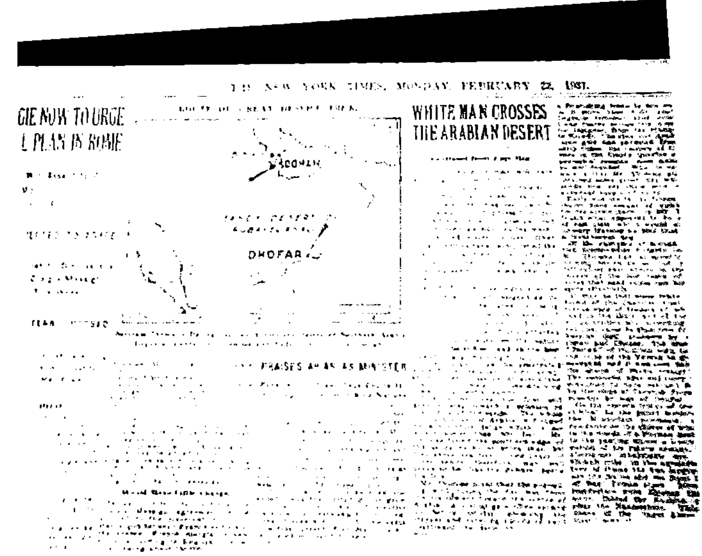
كتاب «مخاطر وجولات» لتوماس، طبعة إنديانابوليس عام 1931



برترام سيدني توماس، المستكشف والمستعرب
لوحة زيتيّة للرّسّام والتر وِستلي رَسل (بين 1918–1931)



برترام توماس بالزّيّ العربي وقد أطلق لحيته



THE NEW YORK TIMES, MONDAY, FEBRUARY 23, 1931.

GIE NOW TO URGE
L PLAN IN ROME

ROUTE OF GREAT DESERT TREK.

DOHAH

DHOFAR

PRAISES AMAN AS MINISTER

WHITE MAN CROSSES
THE ARABIAN DESERT

صحيفة نيويورك تايمز تعلن نبأ اجتياز أول «إنسان أبيض»
لصحراء الرّبع الخالي، عدد 23 فبراير 1931



برترام توماس كما صوّر نفسه قبيل انطلاق رحلته الأولى



برترام توماس مع رفاقه في بداية رحلة اجتياز الرّبع الخالي



أعضاء مجلس الوزراء العُماني عام 1928

(تشكّل لأول مرة عام 1920)

من اليسار الى اليمين: الشّيخ راشد بن عزيز الخصيبي (وزير الشّؤون الشّرعية)، السّيد محمّد بن أحمد (والي مَطْرَح)، برترام توماس (وزير الشّؤون الماليّة)، الزُّبير بن علي الهُوتي (وزير العدل)



برترام توماس وفريقه الذي عبر به الرّبع الخالي

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكّن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التّركيّة العُثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التّركيّة العُثمانية والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3 - أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڤوڤل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أنّ גנה هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أنّ بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: وليكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأنّ «اللّسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حُذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (ڠيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسـماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرفٌ سـاكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشـكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاتـه مـع حرف C في الإيطاليّـة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تـش)، كقولهـم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشـكل حاسـم قديماً وحديثاً: فبالعُثمانية القديمة تُكتـب الجيم الشّـجريّة كالعربيّـة ج، وأمّا اللهويّة فاسـتعاروها من الفارسـيّة گـ. وفي التّركيّـة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشـكل سـهل وذكـي، فخصّصوا حرف g للجيـم اللهويّة، كقولهـم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّـجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّـا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشـكلة، إذ ليس لديهم جيم شـجريّة أصلاً بل لهويّة فحسـب، كما في: Gewehr (غِفير)، وإن أرادوا رسـم الاسـماء العربيّة لقوا التّباريـح، كقولهم في «جبـل»: Dschebel، حيث أنّ حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفـظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسـپان، فحـرف G له أحكام يطول شـرحها، فالأصل في القشـتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللـزوم كما في: Miguel ميغيـل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّـة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسـمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragón: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكـنّ التّعبير فـي العربيّة عن حرف الجيـم اللهوي بكتابته جيمـاً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّـعوديّة) يمكن حسـم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شـجري مُشـبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهـوي مُشـبع، وكلاهما من حروف القلقلـة. ثم إنّ الجيم لا تصلـح للتّعبير عن جميع الكلمـات الأجنبيّـة، وحتـى في مصـر لا يمكن لأحـد أن يكتـب: جرناطـة، بُرتُجال،

بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّي البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4 - ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أريبه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5 - نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس

لايبـزغ، زولنغِن وليس سـولنجن، كولن وليـس كولونيا، ڤِلهِلم وليـس وليَم، ريخارد وليس ريتشـارد. ثم نكتب أميركا وليس أمْريكا، ڤارشـاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليـس بـراغ، بيجينغ وليـس پكين. وفـي الپرتغاليّة الأصح لفظ: كريشـتيانو، كوشـتا، جوزيه، جُواو. ولكنّ ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابهـا بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشـوت (وصوابه بالقشـتاليّة: دون كيخوتِه)، باريـز أو باريس (وصوابها بالفرنسـيّة: پاري)، لويـس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، بُرج إيفِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفـظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسـي فيـه غُنّة، كما لو كانوا يلفظـون اسـم Evian أو Christian، حتى لم يسـلم من ذلك الاسـم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسـي ابن فرنسـيّ، علماً أنّ ثمّة شـيئاً في التّركيّة يسـمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6 - حـرف H يُكتـب ولا يُنطـق بجميـع اللغـات اللاتينيّـة: الإيطاليّـة والإسـپانيّة والپرتغاليّة والفرنسـيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خـلا حالة في الپرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيُلفظ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيـو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسـم الفرنسـي Henri هنـري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغـرب الأمثلـة هي الأسـماء العربيّة التي ترد على ألسـنة المسـلمين من غير العرب، فنسـتوردها بصيـغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسـم التُّركي ميرڤَـت Mervet الـذي ترنّمـت بـه الأسـماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسـم فتاة الشّاشـة التّركيّة Tuba الـذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسـم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طُوبَى.

وثمّة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسـيّة: -Jean Béy بينما الاسـم تركي قديـم يعود إلى عصر المماليك، ولفظـه بالتّركيّة: Can-Bey (جـان بيـه)، ومعنـاه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسـم قَبَـلان، وصوابـه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجـب من هذا وذاك اسـم سـوريا، الذي هو صيغـة هيلّينيّـة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُمّيت بها بلاد الشّام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سـيناً ومـا زلنا إلـى اليوم نلفظه مغلوطـاً بعد 27 قرناً مـن الزّمان. وكذلـك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأنّ الهاء بآخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

توطئة

بقلم توماس إدوارد لورَنس

(لورَنس العرب)

صدمني برترام توماس لمّا طلب إليّ كتابة تقديم لكتاب رحلته الرّائع، ليس لأنّ كتابة المقدّمات تستعصي عليّ (وقد يكون هو يستمتع بها إلى حدّ ما) ولكن بغية الاستعانة بي. ولقد أخذ مني ذلك فترة أتأمّل بهذه الهفوة.

تدرون أنّه كان في زماني ثمّة مستعربون مخضرمون حقيقيّون. وكنتُ في كلّ مرّة أعود فيها إلى الشّرق أرجع إلى داوتي، الذي يبدو عملاقاً، أبيض بسنواته الثّمانين، وله رأس ولحية كأنّما هو إشعيا عصر النّهضة. كان داوتي يتراءى كزمنٍ سالف في شخصه. وبعده كنتُ أزور ولفريد بلَنت. ثمّة مُهرة عربيّة تأخذ زوّار بلَنت عميقاً ضمن دغلة من أدغال سَسِكس إلى بيته المنقوب، المدمّك بالحجارة والذي يُعلّق فيه سجّاد موريس. هناك في مقعد ضخم كان يجلس، مستعداً لي كعملٍ فنّي لا مُبالٍ في أثواب عربيّة حسنة الهندام، ووجهه المنحوت يؤطّره شعرٌ فضّي متموّج. كان صوت داوتي دافئاً ليّناً، وطبيعته عذبة، أمّا بلَنت فكان ناراً ما زالت تتأجّج فوق رماد ثوران قديم.

هكذا كان أستاذاي في العروبة، رجلين في الأربعين من العمر، قبل خمسين عاماً. أمّا هوغارث وغرترود بِل، فمن خلال عشرين عاماً من الدّراسة كانا قد أحرزا أيضاً بعض الصّيت. كما كان هناك بعض الضّبّاط الشّبّان الواعدين، مثل شيكسپير وليتشمان، بالإضافة إلى رجل سياسة هو وايمان بُري، قد بدأوا بداية طيّبة. والواقع أن التّوق إلى التّمكّن من أصول العروبة ليس بحال من الأحوال طموحاً سهلاً أو قريب المنال.

لقد رحلوا جميعاً، هؤلاء العظماء. لقد عمّر الشّاعران طويلاً وحازا ما يستحقّان من التّكريـم. وقد توفّيا بطبيعة الحال. بينما أثقلت الحـرب كاهلي هوغارث وغرترود بِل بالمسؤوليّات السّياسـيّة. لقد كرّسا نفسيهما بالكامل، ورأيا عملهما مكتملاً ثم رحلا. أمّـا الرّجـال الأصغر سـنّاً الذين ذكرتهـم فقد ماتوا أثنـاء أداء واجبهم، مباشـرة. ولهذا السّبب لا بدّ أن يكون توماس قد أتاني.

أفترض أنّه ما من سـالف سـادس بوسـعه أن يمنع نفسه من الشّـعور كم أنّه يقلّ عن هؤلاء الرّفاق العظماء هناك عندما دخل المدرسـة. ولكن هل بوسـع حشـدنا الصّغير اليـوم أن يكـون حتى ضمـن التّقليد؟ أخشـى أن الجواب لا. لا ريب أنّ مجـرّد الرّغبة بالكـون مُسـتعرباً تفضح جـذور النّزوة. ولكن أيام سـابقينا كانت أيامـاً أعظم، وكانت مجـرّد رؤيـة جزيرة العرب هدفاً بحدّ ذاته. لقد ألّفوا مجرّد كتب تجوال، فجعلت شـبه الجزيرة العظيمة من نثرهم شـيئاً متميّزاً. (ومن باب المصادفة، أنّ كتب جزيرة العرب التي تسـتحق القراءة هي جميعها باللغة الإنكليزيّة، ما عدا واحداً. ولقد شـارك يهودي وسويسـري وإيرلنـدي وغيرهم بمسـاعدة الإنكليز فـي كتابتها. وهنـاك بعض الكتب الألمانيّـة ذات النّـص الجـاد زيادة عن اللّـزوم، وكتاب واحد هولنـدي). إنّ صحارى جزيـرة العرب قد نقّت وأثْرَت أقـلام داوتي وپالغريف وبوركهـارت وبلَنت، وأعانت راونكيـر فـي كتابه عـن الكويت، وبُرتـون وواڤِل فـي حجّتيهما، وبُري مـا بين ضِياعه اليَمَنيّة التي سفعتها الشّمس.

إنّ نفوسنا الضّعيفة لا تجرؤ على أن تكون عربيّة من أجل جزيرة العرب بذاتها، ولا واحد منّا ما عدا رَتَر Rutter كما أظنّ، وما أروع كتابه وما أرفع مستواه![1] أمّا الآخرون فينبغـي لهـم تقديم الأعـذار على ترحالهم. أحدهم سـوف يُثبت خطـوط عرض، وما أسـخف ذلك، والآخر يجمع نباتات أو حشـرات (ليس لأجل الأكل بل لجلبها معه)،

(1) يريد الرّحّالة البريطاني إلدون رَتَر Eldon Rutter صاحب كتاب:
The Holy Cities of Arabia, London and New York, 1928.

وثالث يخوض حرباً لا طائل منها كمن يبيع الماء في حيّ السّقّائين[1]. نحنُ لسنا سوى مبدّدين لولاءنا وانتماءاتنا.

لا مناص بالطّبع في أنّ هذه الشّوائب توجد دوماً. وكلّما ازدادت ضحالة الغدران زاد نُتنها. كان بوسع رالي Raleigh أن يغري بجدّي: «راوِغ، نحن لا نعرف من عالَمنا سوى حيّز صغير». ولكن ما بعده فإنّ القارّة القطبيّة الشّماليّة، والجنوبيّة، وأنهار آسيا وأفريقيا، وغابات أميركا قد كُشفت أسرارها. وفي العام الفائت كان بوسعي أن أردّ: «ليس هنالك ما نجهله سوى حيّز صغير»، وأنا أعني ذاك الرّبع الخالي البِكر، القطعة الأخيرة من الأرض غير المدوّنة، التي يبلغ حجمها ما يكفي لكي يدورها المرء بجولتين معتبرتين أو ثلاثاً قبل أن يقعد عن التّرحال. وأمّا الآن فليس يفصل بين متعة القارئ وقصة اختراق الرّبع الخالي غير فقراتي القليلة هذه. واليوم نحن نعرف الأرض بالكامل. ولعلّ الشّباب الجوّالين الآن يبقون غير راضين، إلى أن يأتي جيلٌ ذو أجنحة ليحطّ على الكوكب التّالي للأرض.

قلّة من الرّجال هم من يستطيعون أن يضعوا خاتمة لعصر ما. وليس بوسعنا أن نعرف من هو الرّجل الأول الذي سار عبر الأرض البكر أوّل مرّة حبّاً في معرفة الجديد، ولكن توماس كان هو الأخير. ولقد قام برحلته حسب الأسلوب القديم، بكدّ قوائم بعيره، ولا مُعين له بل على حساب وقته ونفقته الخاصّة. كان بوسعه أن يطير بطائرة، أو يجلس في سيّارة، أو يدبّ في دبّابة. ولكنه بدلاً من ذلك قد انتزع في السّاعة الثّالثة والعشرين النّصر الأخير على الأقدام، وأطلق لنا حرّيتنا. وطالما أنّ كلّ شيء

(1) يقصد لورنس بذلك نفسه، إذ أنّه بعد انقضاء الحرب العالميّة الأولى 1918 بانتصار الحلفاء على ألمانيا وحليفتها الدّولة العُثمانيّة، قلب الإنكليز لحلفائهم العرب ظهر المجنّ، وبعد أن وعدوهم بتأسيس إمبراطوريّة عربيّة واحدة ذات سيادة، تبيّن أنّهم اتفقوا مع الفرنسيين (اتفاقيّة سايكس پيكو) فاقتسموا المشرق العربي ودخلوه محتلّين بعد عامين فحسب 1920. كان من نتيجة ذلك أنّ لورَنس امتعض وعدّ نفسه مخدوعاً ومطيّة لحكومة منافقة، حتى أنّه غيّر اسمه إلى T. E. Shaw ورفض نيل ألقاب التّشريف البريطانيّة وأوسمتها، وآثر الانزواء إلى حين موته بحادث درّاجة ناريّة في عام 1935. وثمّة من يرى أنّ الحادثة كانت مدبّرة للتّخلّص منه.

قد تمّ بأبطأ نحو، فبوسعنا التّركيز على السّرعة، بتضخيم عين السّلحفاة بعينَي الأرنب والطّير. إنّ توماس يستحق كلّ التّكريم. وها هي ذي الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة تمنحه ميداليّتها، وكذلك يحوز على وسام الإمبراطوريّة البريطانيّة O. B. E..

سوف لن أقول كم يعجبني هذا الكتاب، مخافة أن يعمد النّاشر إلى اقتباس جملتي المنمّقة كدعاية مبالغ فيها. لقد سمح لي توماس بقراءة المسوّدة، ثمّ بذلتُ ما بوسعي للتّعليق بشكل مفيد، ولاحظت على الفور بأنّ روايته كانت وافية بوصف رحلته - وهذا ليس حُكماً مجحفاً، أطلقه على ما أظنّه أفضل شيء في استكشاف جزيرة العرب. ففيما هو يروي مجريات رحلته، يبدو الإنجاز واضحاً جليّاً، هذا لأنّه رجلٌ مُجيدٌ لجميع فنون الصّحراء. وها هنا من جديد نرى أنفسنا أمام رحّالة قادر متمكّن من رحّالي جزيرة العرب يصنع لنفسه مكانة سامقة. لا أقلّ من عشرين مرّة طفقت أدنى لمساته تذكّرني بتلك الفيافي مترامية الأطراف التي عشقتُها، قبل عشرين عاماً، وأملتُ بألّا أحسّ بذلك مجدّداً. ولهذا السّبب كما أفترض، أكتب له هذه التّوطئة عديمة الفائدة، لهذا ولتفهّمي مدى المخاطر التي مرّ بها. بفضل فصل مناخ ملائم فحسب أمكن لهذا الشّخص الفريد، من بعد العناية اللامحدودة والبراعة في التّحضير، أن يغامر بحياته على التّكافل الذي تدين به الصّحراء لابن سعود، ففاز أخيراً في مسعاه. إنّ توماس لعَمري رجلٌ محظوظ بقدر ما هو جدير.

توماس إدوارد شو[1]

* * *

(1) كما أسلفنا أعلاه، غيّر لورنس اسمه إلى T. E. Shaw بعد عودته إلى وطنه الأم.

مقدّمة المؤلّف

العربيّة السّعيدة! من الغريب أنّ هذه التّسمية «سعيدة» قد أُطلقت على بقعة من سطح الأرض أغلبها قاحلٌ مُقفر، وفيها منذ فجر التّاريخ لبث البشر في حرب دؤوبة مع بيئتهم المحيطة ومع جيرانهم. ومع ذلك فلا يمكن لنا أن ننحو باللائمة على الجغرافيين الكلاسيكيين القُدامى. بالنّسبة لسترابو وپلينيوس وبطليموس، كان تعبير «العربيّة السّعيدة» يُستخدم لتسمية سائر شبه الجزيرة الواقع إلى الجنوب من البادية السّوريّة (العربيّة الصّحراويّة) Arabia Deserta والجبال المتاخمة لسيناء (العربيّة الصّخريّة) Arabia Petræa. وعلى ذلك، فالمعنى لا ينطبق أبداً على قفار الرّبع الخالي المُجدبة التي تؤلّف قسماً غير بسيط من جزيرة العرب، ولكن هنالك في الجنوب الأوسط، على مشارف المحيط الهندي، توجد أرض ذات روعة فيزيائيّة نادرة وشهرة قديمة. وإن كانت هناك أيّة بقعة في جزيرة العرب تستحقّ أن تسمّى «سعيدة» ما عدا اليَمَن، ولها أمجاد معروفة جيداً لدى الأقدمين، فهي إقليم ظُفار هذا جنّة الغابات الوارفة التي تكسو الجبال المتحدّرة المطلّة على البحر، ذات الجداول الجارية والمروج المؤنقة، بمناظرها الفسيحة وفُرجاتها الخضراء. هنا، حسب مدوّن سِفر التّكوين كان يهوه قد خطّ نهاية العالَم المعروف «حينما تجيء نحو سفار جبل المشرق». وإلى هنالك كان يأتي المصريون القُدامى طلباً للُّبان لتحنيط فراعنتهم المقدّسين. وربما هنا نُحتت أعمدة هيكل سُليمان، هذا إن لم تكن ظُفار مكان أوفير بحدّ ذاتها، والسّوق التّقليديّة للعاج وريش الطّواويس.

فـي الصّفحات التّاليـة حاولتُ أن أصف مجريات رحلتي الأخيرة على متن الجمل عبـر صحـراء الرّبـع الخالـي، وكذلـك أبحاثي فـي إقليم ظُفـار الماتع هـذا، وهو كان المُدخل إلى رحلتي، وأراه بالنّسبة لي إقليم «العربيّة السّعيدة» ليومنا الحاضر.

الرّبـع الخالـي البكر، الصّحراء الجنوبيّة العظمى! إنّ من يعمل في جزيرة العرب لا بدّ له من أن يتذوّق سـحرها، وقبل سـتة أعوام عندما غادرتُ إدارة شـرقي الأردن إلى بلاط مسـقط وعُمان كنت قد هِمتُ بأحلام سـريّة. إنّ مجاهل الأرض القاصية، القارّة القطبيّـة الشّـماليّة والجنوبيّـة، ومنابع نهر الأمازون، والمسـاحات الشّاسـعة الدّاخليّة في قارّتي آسـيا وأفريقيا، قد أفضت الواحدة تلو الأخرى بأسـرارها إلى فضول البشـر، إلـى أن بقـي الرّبع الخالي وحده بشـكل غريب الأرض المجهولـة *terra incognita* الوحيدة، وهو شـيء مُدهش نظراً للصّفة الأثريّـة الكبيرة للمناطق الحضريّة من جزيرة العرب، التي لامست أراضيها الحدوديّة بواكير حضارتي مصر وبابل.

مـع ذلك، لبثـت جزيرة العرب أرضاً عصيّة محظورة. وعبر قرون لم يتمكّن سـوى عشرين رحّالة أوروبيّاً من الاختراق بشكل مُجدٍ إلى قلبها الصّعب. ولهذا الأمر سببان اثنـان: الأول، هـو نقص المطر والحـرارة التي لا تُطاق في صحـراء الجزيرة، والتي لا تتيـح إلا لوجـود بضعة مجتمعـات بدويّة قحّة متناثـرة، تعيش في مجابهـة دائمة معها فتجعـل مـن حياتهـا غير آمنـة. الثّاني، هـو أنّ ديانة قـوم الصّحراء أولئـك، على الأقلّ مـن النّاحية العمليّة، تتّسـم بالتّشـدّد والحصريّة. وهم بين الفينـة والأخرى يعدّون من الفضيلة تطبيق الإسـلام بحدّ السّـيف. في جزيرة العرب بحدّ ذاتها، كان جميع الزّوّار الأوروپيين رجالاً فُرادى، ولمرّة واحدة في تاريخها بأسـره، وذلك في عصر الرّومان، أثـارت الجزيـرة (التي اعتُقد أنها بـلاد الذّهب) شـهيّة الغزاة الأوروپيـين، ولذا فلدى سـكّانها الذيـن تُركـوا بالكليّة وحدهـم، لبث الانغـلاق والتّعصّب بمثابـة طبع محلّي لازب علـى امتـداد أجيال طويلة. وهكذا فإنّ مسـاحةً تعادل نصـف أراضي أوروپا قد ظلّت بقعة خاوية على خرائطنا.

لقـد فتنـت ريتشـارد بُرتـون، الذي عـرض في عـام 1852 خدماتـه علـى الجمعيّة

الجغرافيّة الملكيّة من أجل ما سمّاه «إماطة هذا الخزي عن المغامرة المعاصرة»، غير أنّه أذعن للعقبات الرّسميّة ولم يضع خطّته أبداً موضع التّنفيذ. وبالنّسبة لي فلقد حزتُ على عدّة مزايا. فإنّ ثلاثة عشر عاماً من الخدمة ما بعد الحرب في عدّة سلطات سياسيّة ضمن ثلاث جهات من جزيرة العرب، قد مكّنتني من الحصول على معرفة متميّزة باللّهجات الصّحراويّة وبعوائد العرب، وبأن أغدو متأقلماً. وكنت قد هيّأتُ نفسي في السّنين الماضية لمعضلتين: كيفيّة العثور على الوسيلة لدخول قلب الصّحراء، وكيفيّة التّعامل مع القبائل هناك. وكوزير في مجلس الدّولة بعُمان، أضحى اسمي معروفاً على امتدد جنوب شرقيّ جزيرة العرب، وحيث أنّي كنت وزير السّلطان وبسبب العلاقات الودّيّة القائمة بين الحاكم وبيني، أمكنني أن أحوز على علاقات شخصيّة مع أكثر العرب نفوذاً في تلك المنطقة. ومن جرّاء ذلك نشأ تجاهي موقف متسامح، أنا الإنكليزي المسيحي، ولولا ذلك لما كان بوسعي أبداً أن أحلم بالتّحرك بعيداً عن المناطق المأهولة.

وفضلاً عن ذلك أيضاً، كنت على علم بعقلية السّلطة ولذلك تجنّبتُ طلب الإذن للقيام بمخطّطي. أوليس درس بُرتون ماثلاً أمام ناظري؟ إنّ الموقف الرّسمي البريطاني - ذروني أضيف - الذي أتعاطف أنا معه، هو غير مُحبّذ للاستكشاف، على ضوء التّشتّت السّياسي الذي يسود عموماً في صحراء جزيرة العرب. إنّ المسؤول الجيّد ينبغي أن يتجنّب المسؤوليّة والالتزام، وأن يعلم عن، دون أن يمنع، حملةً تفترض تصريحاً ضمنيّاً. ولذلك فإنّ مخطّطاتي قد وُضعت في حيّز الظّلام، ورحلاتي كان لا يُعلن عنها غير اختفائي فحسب، وكنت أنا من تولّى الإنفاق عليها وتمّ تنفيذها تحت رعايتي الخاصّة. وخلال مدّة خدمتي في مسقط بأكملها اخترتُ قضاء صيفياتي هناك، لكي أوفّر أذوناتي المحلّيّة (المُزمع لي من قبل السّلطات بأن أمضيها في الهند لتفادي حرّ مسقط)، لأجل استكشاف جزيرة العرب في غضون فصل الشّتاء، وهو الوقت الوحيد الممكن لذلك من النّاحيّة الجسديّة.

على هذه الشّاكلة شرعتُ أستكشف الرّبع الخالي وأرسم خارطة له شيئاً فشيئاً.

وفي شتاء عام 1927–1928 قمت برحلة لمسافة 600 ميل على متن البعير عبر المناطق الحدوديّـة الجنوبيّة اعتباراً من مُرتكز جزيرة العـرب الأقرب من الهند إلى ظُفار. وفي عام 1929–1930 قمت باستكشـاف البادية[1] the steppe لمسـافة 200 ميل شـمالي ظُفـار إلـى حافّة رمـال الصّحراء. وفي خـلال هذه الرّحـلات، كنت أتزيّـا كالبدو ولا أتكلّم إلا باللّهجات المحلّيّة، وعشـت كسـائر القوم، وأمسـكتُ عن الدّخان وشـرب الخمر لأكسـب سُمعة بالاستقامة كيما يساعدني ذلك في النّهاية على اجتياز الصّحراء العظمى من البحر إلى البحر.

بيّنـت لي هـذه الرّحلات خطـأ الانطباع السّـائد بأنّ هـذا الجزء من جزيـرة العرب يمكن استكشـافه علـى أفضل وجه باسـتخدام الوسـائل الحديثة المتمثّلة بالسّـيارات والطّائـرة. ولقد اقترح بعضهم بأنّ منطادنا R.101 تعيـس الحظ[2] ينبغي أن يطير فوق هـذه الصّحراء المجهولة في خلال رحلة عودته من الهند. وقبل ثلاث سـنوات، خطر في بال مليونير أميركي من أصحاب المشـاريع مخطّط مماثل، واقترح اسـتئجار منطاد لتنفيـذه، وقـد تم الاتصال بي علـى نحو ما لكي أكون عضواً في بعثته هذه. ولم أشـعر بالأسـف عندمـا أخفق مخطّطه في الخروج إلى حيّز الواقـع، هذا لأنّ تجربتي علّمتني أنّـه رغم كون هذه الوسـيلة للنّقل مفيدة في وقتها ومكانهـا، فما من نتائج علميّة يمكن توخّيها منها. والمشاكل التي كانت بحاجة إلى حلّ كانت اكتشاف بُنية وانحدار جنوبيّ جزيـرة العرب، ودراسـة سـيحها المائـي وتركيبهـا الجيولوجي، وتغطية المسـاحات الهائلة الخاوية على الخارطة، وكذلك دراسة النّباتات، والسّكّان من البشر، وصِلاتهم

---

(1) يستخدم المؤلف تعبير السُّهب steppe، أي السّهل الفسيح الخالي من الأشجار، الذي ينمو فيه العُشب. وهذه العبارة مصطلح جغرافي عام يمكن أن يوجد في مناطق أخرى من العالم، كسهوب آسيا مثلاً، ولكنّه في بيئتنا العربيّة يحمل اسماً مخصوصاً هو: البادية، وهكذا سأترجم العبارة على نطاق الكتاب.

(2) يقصد المؤلف حادثة سقوط المنطاد خلال رحلته الأولى خارج بريطانيا، وكانت إلى فرنسا، في 5 أكتوبر 1930. وقد قضى في هذه الحادثة 48 شخصاً، ومن جرّائها ألغي برنامج المناطيد التّجاريّة البريطانيّة.

العرقيّة واللّغوية، وعوائدهم وسلوكيّاتهم ووسائط حياتهم. فهذه الأهداف لا يمكن بحال من الأحوال تقصّيها بشكل وافٍ من خلال عمليّة مسح جوّي، ولن يمكن إضافة أيّ اسم على الخارطة، ولا مجال لإرساء أيّة معلومة واحدة ذات أهميّة في مجال الأنثروبولوجيا أو علم الحيوان أو الجغرافيا.

وكذلك يبدو هناك شيء من الفظاظة في اقتحام الآلات الغربيّة في هذه الأماكن البِكر الهادئة، وهذا شعور ينبغي عدم الخلط بينه وبين إثارة المجهول، الذي يتبدّى هنا في حافّة طَبَق السّماء المكفوء، أو مع المحرّض الذّهني الذي يتأتّى من المخططات في خلال عمليّة الإنجاز العارضة، سواءٌ أكان ذلك جوّاً أو بحراً أو برّاً. ولكن جميع هذه الأمور ذات شأن. وبالنّسبة لمن خبرها، لمن تعلّم أن يتحدّث إلى رفاقه الوحيدين لمدّة شهور طويلة، رغم كونهم من عُتاة الصّحراء الأفظاظ وغير المثقّفين، والإعجاب ببعض صفاتهم الرّجوليّة، وكذلك لمن اعتاد ركوب متن البعير والمسيرات الطّويلة، فهذا كلّه في الختام هو ما يصنع سحر جزيرة العرب.

12 ديسمبر 1931

برترام توماس

* * *

ARABIA

FAR are the shades of Arabia,
Where the Princes ride at noon,
'Mid the verdurous vales and thickets,
Under the ghost of the moon;
And so dark is that vaulted purple
Flowers in the forest rise
And toss into blossom 'gainst the phantom stars
Pale in the noonday skies.

Sweet is the music of Arabia
In my heart, when out of dreams
I still in the thin clear mirk of dawn
Descry her gliding streams;
Hear her strange lutes on the green banks
Ring loud with the grief and delight
Of her dim-silked, dark-haired Musicians
In the brooding silence of night.

They haunt me—her lutes and her forests;
No beauty on earth I see
But shadowed with that dream recalls
Her loveliness to me:
Still eyes look coldly upon me,
Cold voices whisper and say—
'He is crazed with the spell of far Arabia,
They have stolen his wits away.'

WALTER DE LA MARE

قصيدة «جزيرة العرب»

والتر دي لا ماره



رمال العربيّة السّعيدة

الفصل الأول

بداية مبشّرة واختبار مبكر

كان الوقت منتصف ليلة الرّابع - الخامس من أكتوبر 1930 ومرفأ مسقط الصّغير يغطّ في النّوم. شخصٌ واحد فقط من سكان المدينة ورغم أنه الأمير بينهم، السّيد سعيد بن تيمور، كان، في غياب والده السّلطان، قد عُهد به إليَّ وكُلّف بمهمة الإشراف على شؤون الشّاطئ. هناك، كان الرّجال يقومون بسحب البَدَن[1] قريباً من الشّاطئ، وخادمي المطيع محمّد يعمل على نقل صناديق سيّده سرّيّة المُحتوى وبندقيّته وقتب الجمل إلى متن القارب. بقدر كبير من التّكتّم، كنت أقوم بالإعداد للشّروع في تحقيق حلمي العتيد المتمثّل باستكشاف المجاهل الجنوبية لصحراء جزيرة العرب. في الغد، سيصعق نبأ اختفائي كل من السّوق، وسينسج الخيال الشّرقي الخصب بلا شك مجموعة متنوّعة من التّكهّنات بشأن اختفائي.

كانت سفينة جلالة الملك، سيكلامَن *Cyclamen*، تتلألأ داخل المرسى الدّاخلي، وذهبت لإحضار تعويذةٍ للفأل الحسن كان پمبرتون Pemberton، قبطانها، الذي كان للتّو يتناول عشاءه معي، حسبما قال، قد أودعها لدى الشّخص المسؤول عن المراقبة. مُقسمين على كتمان السّرية، انطلق بحّارتي البلوش إلى عرض البحر الواسع. مكّنني ضوء البدر السّاطع من استحضار مقدّمة فورية لتعويذتي - كانت قصيدة لوالتر دي لا مارِه Walter de la Mare بعنوان: «جزيرة العرب» *Arabia*، والأهم، أنني تمكنت من طمأنة نفسي إلى محتويات البرقية التي في يدي:

---

(1) البدن قارب تجديف محلّي صغير.

«السّـفينة البريطانيـة إس. إس. غرينادير Grenadier تصل عند السّادسـة صباحاً، وهي على مسافة ثلاثة أميال من مرفأ مسقط الرّئيسي».

كان الطّيـف الدّاكـن لناقلـة النّفط العملاقـة التي تزن 10,000 طن قـد بدأ يلوح في الأفـق. وقـد أدّت راية كنت قد رفعتهـا الوظيفة المطلوبة منها علـى أكمل وجه. جرى نقلـي بسـرعة إلى سـفينة أخـرى، وكانـت سـفينة غرينادير Grenadier البريطانية في طريقها إلى الوطن مرّة أخرى قبل أن تقرع أربعة أجراس، حاملة إيّاي بعيداً عن مسقط.

كنـت قـد خطّطـتُ للنّزول فـي ظُفـار Dhufar في منتصـف الطّريق على السّـاحل الجنوبي لجزيرة العرب، إذا ما سـمحت الظّروف المناخية لموسـم الرّياح الموسـمية الجنوبية - الشّرقية بذلك؛ وإلا، فإنّي سأستقل أول مركب شراعي عربي (داو) dhow تلقي به الأقدارُ في طريقنا.

فـي اليـوم التّالي، خفّفت الرّيح المهاودة من سـرعة مركبنا، وبـات من غير المؤكد وصولنـا إلـى صلالـة Salala قبل حلول الظّـلام. لم يكـن مكوثنا طـوال الليل بالأمر السّهل، لذلك توجّهنا نحو أول مركب داو شراعي عربي dhow تراءى لنا عن بُعد. وما هي إلا لحظات حتى كان زورق نجاته الصّغير المتهوّر يتهادى بحذاء مركبنا، استجابة لصفّارة إنذارنا.

انزلقنا أنا ومحمّد بلباسـنا العربي على أحد جوانب المركب أسـفل سـلّم القبطان. كانت صناديقي تشـكل حمولة لا تقدّر بثمن، لكن المركب الشّراعي العربي لـم يخيّب ظننـا، وحملنا بسـلام فوق الأمـواج المتقلبة حتى المرسـى. أرسـلت إلينـا الغرينادير Grenadier البريطانيـة إشـارة «حظـاً طيّبـاً» ومضت فـي طريقها تمخر عبـاب الموج للرّسو في المياه الرّمادية البعيدة عند مغرب الشّمس.

هزّ القبطان العربي لسـفينة «فتح السّـلام»، وهو اسـم مركبنا الشّـراعي العربي، هزّ رأسـه عندما تحدّثت عن الرّسـوّ؛ فقد كان له في الواقع وجهات نظر مغايرة. حتى في أحسن الظّروف المناخية، يمكن لموجة قعر زلزالية ground swell أن تندفع بقوة على

امتداد هذه الشّـواطئ المتدرجة بلطف، وترسل بأمواجها الدّائرية العملاقة تضرب في عمق اليابسـة. فـي هذه الحالـة، يحتمل لأيّ زورق صيـد حيتان أو غيره مـن الزّوارق والمراكب البريطانية أن يتحطم، لكن الأخشـاب المُشـبَّكة المحلّيـة الصّنع (البنّوش) والمعالجـة ببراعـة من قبل جماعـة الصّيادين، أقبلت تتبختر بسـلام، رغم اعتقادنا في بعض الأحيان أنها كانت تنتصب مترنّحة على مؤخّرتها ونحن ننظر إليها نظرات ملؤها الخـوف والتّوجّـس، مدركين بأنّ البحـر الهادر من حولنا لن يرأف بأيّ سـباح يجترئ عليه.

متنبهاً لمقاييس الكرونومتر خاصتي، أقنعت القبطان، بعد كثير من الجدل، بالتّوجه صوب ريسوت Risut، وهو خليج آمن قرب السّاحل. وبعد ساعتين من طيّها ورفعها، مـا انفكت الرّايةُ تخفـق بنبضات مكتومة، بينما أظهر المشـهد الرّتيـب للقلعة البيضاء والمسجد وسط حقول جوز الهند، ومن خلفهما جبال القَرَا Qara الزّرقاء، التي تشكل كل ما يمكن رؤيته من ظُفار Dhufar من البحر، أننا بالكاد تحركنا من مكاننا.

سـاعدنا أحدُ الحيتان اللعوبة على تمضية الوقت؛ وحشٌ هائلُ الحجم بلون رمادي داكن، أقبل نحونا واسـتوى إلى جانبنا كأنّه غوّاصة جانب سـفينتها الأم، مصمّماً على أن يثبت لنا بأنه ليس أصغر بكثير من فتح السّـلام. بدا لي بأنّه ودود، لكنه ودٌّ محفوف بالمخاطر، حينما كان يغوص أسـفل منّا مباشـرة ويظهر على مسافة أقدام قليلة مخترقاً صفحة المياه وهو يصدر صفرةً أشبهَ بالشّخير، قبل أن يغوص عميقاً مرة أخرى، مخلّفاً وراءه بعـض الـرّذاذ والكثير من الفقاعـات الهوائية، دلالة على انطلاقتـه. كان بحّارتنا علـى قدر جيد مـن التّنبّه واليقظة. مـع تركيزهم على زورق النّجـاة المثبّت وراءنا عند مؤخـرة المركب، فقد دأبوا على إحداث جلبة مفزعـة من خلال الضّرب على صفائح زيت الكاز الفارغة. اشـتدّت سرعة الرّياح لمساعدتنا على الوصول، وعند الظّهيرة كنا نرسو في خليج ريسوت[1] Risut حيث نزلت إلى اليابسة.

---

(1) كتب المؤلف: كان البرتغاليون المغامرون في القرن السّادس عشر، الذين كانوا في أيامهم من أعتى قساة الأوروبيين في آسيا، اعتقدوا بأن خليج ريسوت Risut كان جديراً بنضالهم

هنا، ونظراً لكوني في حالة من التّعب والإعياء بعد أربع وعشرين ساعة من الحرمان من النّوم، فقد كان علي أن آوي إلى غرفتي القديمة داخل الحصن. لكنها لم تكن ليلة هانئة، فالبعوض كان منتشراً بكثرة، وحشدٌ من الزّنابير الصّفراء كانت تبني لنفسها عشاً في الدّعائم الخشبية في الأعلى. وحشرة متناهية في الصّغر أيضاً أشبه بذبابة الرّمل، لكنها لا تقلّ عنها إزعاجاً، كانت تقتطع ضريبتها من دمي.

علمتْ صلالة بوجودي، لكنها ينبغي ألّا تعلم بخططي. السّرية كانت أمراً لا بدّ منه. فالكشفُ عن خططي كان يعني استجلاب العداوة وذيوع الخبر في الخارج، كما تنتشر كل الأخبار في جزيرة العرب، التي تلبث في خضمّ الجهل والأمّية، بسرعة البرق، ناهيك عن المبالغات غير المنضبطة التي لن تبزّها صحيفة لندنية مسائية.

أين كان سهيل الرّاشدي؛ البدوي الذي لا ينكث عهداً؟ كنت قد علّقت آمالاً كبيرة على هذا الشّخص من آخر أفراد قافلتي، وأبرمت معه اتفاقا سرياً يقضي بأن يلتقيني في صلالة في منتصف ربيع الأول الحالي مع قافلة من الجمال تقلّني إلى جوف الصّحراء. كان قد أقسم على أن لا شيء سوى الموت سيحول دون قدومه. أظهرت التّحرّيات غير المباشرة بأن أحداً لم يسمع عنه شيئاً في ظُفار Dhufar منذ أن غادر إلى قبيلته ومعه المئتا دولار والجنيّة - ثروةٌ طائلة كنت قد أعطيته إياها سرّاً آنذاك. في حال لم يكن هذا المبلغ والوعد بالمزيد كافياً لحمله على الوفاء بعهده الذي قطعه على نفسه، فعلى خططي وطموحاتي السّلام. وآل راشد، القبيلة التي ينتمي إليها الرّجل، هي القبيلة الوحيدة الأصيلة والمحترمة في جنوبي جزيرة العرب، ومن دون مساعدتهم، فكل أحلامي باجتياز الصّحراء ستذهب أدراج الرّياح.

كانت أخبار الصّحراء في ظُفار أخباراً لا تبشّر بالخير. الحرب! قبيلتا راشد وصاعِر

وتضحياتهم. ولا تزال مجموعة من المدرّجات وبعض التّحصينات الأثرية قائمة تخلّد ذكراهم. واليوم، يعدّ خليج ريسوت Risut القاعدة البحرية الوحيدة المهيأة لهبوط وإقلاع الطّائرات «الجومائية» خلال شهور الصّيف الموسمية، على هذا السّاحل الجنوبي المركزي لجزيرة العرب الممتدّ لمئات الأميال.

(صيْعَـر) Sa'ar كانتـا فـي حالة اقتتـال، الأولـى، قبيلة أصدقائـي المُؤَمَّليـن، والثّانية، أعداؤهـم الأقويـاء التّقليديون من شـمال حضرموت - أحقاد ثأريـة قديمة. لقد باتت جميع الأراضي الدّاخلية المحاذية للسّاحل بنتيجة هذه النّزاعات تحت رحمة الغارات والهجمات التي يشنّها الغزاة، أو ما هو أسوأ من ذلك.

تبيّن لي بأنّ سُهيلاً، في أحسن الأحوال، لم يكن قادراً على تشكيل جماعة من أبناء قبيلتـه بالـذّات لإدارة الهجمات على السّـاحل من أجلي. فإمّا أن تكون قبيلته منشـغلة بعمليـات هجومية في حضرموت، أو أنهم انسـحبوا وتوغّلوا فـي عمق الصّحراء. هنا كانت المعضلة. فالمدخل إلى الصّحراء بالنّسبة لي بدا مغلقاً، ومقفلاً بمزلاج.

لـم أتمكـن من إيجاد أيّ مخـرج. كان اثنان من أبناء قبيلة راشـد، معيوف Ma'yuf وخُويتـم Khuwaitim، قد حضرا إلـى ظُفار لجني البخور، وأنا أرسـلت في طلبهما، لأنـه، على الرّغم مـن كونهما دون جمال ودون تواصل مع القبيلـة، فقد كانا على قدر لا بـأس بـه من النّباهة والفطنة وحسـن الاطلاع. مع ذلك، من الصّعب أن تكسـب ثقة العربـي قبل أن تمنحـه ثقتك، وقد يكون من التّهوّر أن أمدّ يدي بالسّـلام قبل أن يحين الأوان. وهكذا كنا نجلس يوميا للتّشـاور والتّحاور، إلى أن خلصت إلى نتيجة مفادها أنّ قبيلة الرّاشدي قد تكون في مكان ما على مسيرة شهر من الشّمال إلى الغرب، وهي بالتّأكيد ليست في وضع يؤهّلها لترك محميّتها الصّحراوية.

سـأكون مرغماً في أحسـن الأحوال على تشـكيل قافلة مسـتقلّة، إن تمكنتُ، لنقلي إلى إحدى الآبار عند تخوم الصّحراء (كانت هنالك ثلاثة آبار محتملة) والتّعويل على قـدرة الرّاشـديين ورغبتهم بالمجيء إلـى هناك للقائي ونقلي إلـى وجهتي المقصودة. لكـن التّجربـة غير المشـجّعة لرحلتـي السّـنة الفائتة كانت قـد أحاطتني علمـاً بحدود إمكانـات القوافـل الجبليـة وقلـق الرّجال على أرواحهـم وجمالهم، حتـى في أوقات السّـلم. إنّ نائب الحاكم، الذي تجرّأت بالكشـف له عن هذا الجانب فقط من خطتي، قد سـلّم معي على سـبيل التّملّق والمداهنة، ولكن لا توجد هنالك أيّة سلطةٍ فاعلةٍ في هذه الجبال، وقد استشفَّيتُ حالة غير معلنة من العداوة قد تجعل من توغّلي في جوف

الصّحراء مع مثل هؤلاء الأعوان، ضرباً من الجنون.

بـدا بأن خططي الطّموحة الموضوعة بعناية وسـرية للسّـنة الفائتة قد شـارفت على نهايتها.

هل سـيكون من الحكمة الوثوق بهذين الرّاشديَّين؟ الأمل الوحيد هو الإيحاء لهما بالثّقة وكسـب ولائهما بمنحهما الحافز الصّحيح للمخاطرة بنقل رسـالةٍ إلى شيخهما لحمل قبيلته معه؛ فقد آن أوان الجد.

كشفت لهما عن خططي بعد أن أقسما لي على الكتمان؛ تلك الخطط كانت ستصل إلى مسـامع الشّـيخ فقط. كانت هنالك جوائز مغرية. أُبرم اتفاق بهذا الشّـأن. سيقومان بالمهمـة. وإذا ما جنّبهما اللهُ شـرّ قبيلة صيْعَر، فسـوف يصلان إلـى الصّحراء، وإذا ما وُفّقـا في العثور على قبيلة الرّاشـد، فهما يعرفان مهمتهمـا، والمكافأةُ المالية هي رهنٌ بالنّتائج.

لقد نمَّت عباراتُ الوداع التي تلفّظا بها عن أسـلوب البدو الحقيقي في التّعامل مع الآخرين، وأيّ نوع من الرّجال كانا.

قلت له: «اسمع يا خويتم، ليس لديك بندقية. إليك بهذه. إنها هدية متواضعة لك». فعلّق قائلاً وهو يتناولها من يدي ويقلّبها متأملاً: «ماذا! ألن تعطيني معها أيّة طلقات؟». أهو جحودٌ بدوي، أم عفوية بدوية؟ إنه يعزو النّعمة التي حلّت عليه إلى مشيئة الله، ولا علاقـة لمشـيئتي وإرادتي البتّة بهذه الهدية التي قدّمتُها لـه؛ لقد كان أمراً مقضياً؛ هذا ما شاء الله وما قدّر فعل.

تأجّل الرّحيل إلى ما بعد صلاة الظّهر في المسجد. وتحت وطأة القلق الذي استحوذ علي نتيجة التّأجيلات السّابقة، فقد اقترحتُ المغادرة في الحال. لكنهما لم يوافقا.

«ألسنا مسلمين؟» ردّ خويتم قائلاً.

* * *

وهكذا فقد يمّما شطر الجبال سيراً على الأقدام، حيث كان من المقرّر، بالتّنسيق السّري مع رحّالةٍ عجوز من أصدقائنا القدامى في رحلة سابقة يدعى سالم التّميم، أن يُزودهما سراً بخيرة جماله المخصّصة للرّكوب، ويبادر بعدها إلى التّخفّي في أعماق الصّحراء القاحلة دون أن يدري به أحد.

لم يكن لديهما أيّة فكرة عن تاريخ عودتهما، ربما في خلال ثلاثين أو أربعين يوماً، وربما لن يعودا على الإطلاق.

إذا ما تمكّنا من إحضار مجموعة من الرّجال والجمال من الصّحراء، فلا بأس، وإلا فعليّ أن أتقبّل الفشل راغماً.

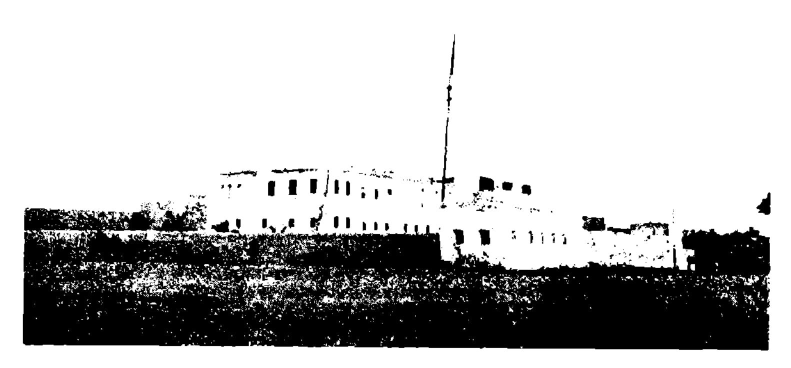
لقد كان الأمل حتى بالشّروع في رحلتي المنشودة، أملاً واهياً للغاية.

لم يكن أمامي على أيّة حال سوى التّرقّب والانتظار هنا لأسابيع طويلة، دون أيّ أمل أكيد.





بستان شجر جوز هند في ظُفار



حصن السّلطان



منظر في أحد شوارع مدينة بظُفار

الفصل الثّاني

في ظُفار، تشتّت حُكم، غدر، وكرم ضيافة

كانت بساتين النّخيل أسفل نافذتي في الحصن تتدرّج نزولاً باتجاه البحر، وإحدى المراكب الشّراعية تتهادى في المرسى لحظة وصولها قادمة من البَصرة. كانت محمّلة بأولى شحنات التّمر الطّازج لهذا الموسم، ومعلنة عن طريق أعلامها الزّاهية وطلقات مدفعها الهاون، بأنها لم تعد غريبة عن ظُفار.

تمتـدّ محافظة ظُفار[1] على طول هذا السّـاحل البحري، من حَضْبَرَم Hadhbaram حتـى ضَربـة علـي Dharbat Ali، وهـي مكوّنة من سلسـلة جبلية بارتفـاع 3000 قدم تتحدّر مباشـرة صوب البحر من جهتي الشّـرق والغرب، وتتراجـع عند المركز لتعانق سهل جربيب Jurbaib البحري هلالي الشّكل.

تعدّ محافظـة ظُفار بالمعايير العربية محافظةً مكلّلـة بالعناية والرّعاية الإلهيّة، وهي تديـن بمناخها الفريد للرّياح الموسـمية الجنوبية الغربية الهنديـة، التي تطلق هنا أولى نداءاتها وتنعش ذرى هذه الجبال برهام غيثها الصّيفي وتغدق على هذه المناطق نعائم الخير والبركة. تزدهر فوق الفالق الجبلي مباشرة حقولُ البخور لجزيرة العرب. تجري مقايضـة هذا المحصول الثّمين، الذي يُرسَـلُ إلى معابد الهنـد، بالأرزّ والقماش والبنّ

(1) كتب المؤلف: لكلمة «ظُفار» أيضاً مدلولٌ أكثر محدودية. فهي تشير أحياناً لعاصمة الإقليم، الذي هو عبارة عن مجموعة من ثلاث قرى وهي صلالة والحافة Hafa والحصن Al Husn، وهي تتوافق من ناحية ما مع عادات الصّحراء حيث الهفوف تدعى فقط بالحَسَا Hasa والدّوحة بقَطَر.

والتّوابل، التي تُعرض فوق أكشاك البيع العائدة لصاحب المحصول. لطالما شكّلت مواسم البخور مصدراً من مصادر الرّخاء والازدهار لأبناء ظُفار عبر التّاريخ، مع وجوب عدم الخلط بين ظُفار جزيرة العرب، وظُفار التي يذكرها آريان Dhufar of Arrian قرب صنعاء في اليَمَن، وهو خطأ وقع فيه أبو الفداء.

والقبيلتان المستوطنتان الرّئيسيتان في المحافظة هما قبيلة القَرَا Qara في الجبال، التي يعيش أبناؤها على تربية المواشي وعوائد البخور، وقبيلة آل كثير Al Kathir الذين يشتغلون بصيد السّمك والزّراعة والتّجارة مع القرى المجاورة في مناطق السّهول.

في أثناء شهور الصّيف الماطرة، عندما تكون البحار هائجة مائجة ولا تسمح للسّفن والقوارب المحلية بالملاحة، تشهد مناطق المحافظة هجرة جماعية[1] exodus من السّهول إلى الجبال، حيث تكون حقول البخور بأمسّ الحاجة إلى مناجل الحصّادين، ويكون الحليب متوفراً بكثرة.

ومياه الآبار المتواجدة حول القرى متوفرة بغزارة على عمق لا يزيد عن قامة بشكل عام، ولولا الأيدي الآثمة للعُصاة والمتمرّدين من أبناء القبائل، لجعلت هذه الآبار الارتوازية من كل مناطق السّهل جنّة غناء. بالإضافة إلى حقول جوز الهند، تسهم هذه الآبار، التي يشكّل العبيد والثّيران والجمال السّواد الأعظم من العاملين فيها، في تخديم وسقاية حقول وبساتين البرسيم، وقصب السّكر، ولسان الحَمَل، والقمح، والدُّخن، والقطن، والنّيلة.

تُقتطع حصّة مقدارها 1/ 16 من كل محصول على شكل ضريبة من قبل الحكومة، والتي، بخلاف ذلك، تتلقّى خزينتها حصّة اسمية مقدارها 5 ٪ فقط من محاصيل الجبال. يسود في هذه المناطق النظام القديم الجيد للحكم، أو الخطة البسيطة المتمثلة بإعطاء مُكوس المحاصيل لصاحب الأمر والسّلطة، بينما يحتفظ بالمحصول من هو

(1) كتب المؤلف: تجد هذه الهجرة موازياً لها في هجرتين موسميتين أخريين للإنسان في جنوب شرقي جزيرة العرب: الهجرة إلى بساتين النّخيل الغنّاء في عُمان، وإلى ساحل الإمارات العربية المتصالحة Trucial coast قاصدين مصائد اللؤلؤ الصّيفية.

قادر على الاحتفاظ به، وإذا ما سَرَت أوامرُ السّلطان بقوة على امتداد السّاحل، فمن غير المؤكد أن تسري بذات الزّخم والقوة في مناطق الجبال.

على صعيد الأنثروبولوجيا الثّقافية، تُعدّ ظُفار، مثلما هي على صعيد الجغرافيا، وحدة إدارية جزئية داخل وحدة أكبر. والتّقاليد القبليّة تتّسم بالفوضى وعدم الانضباط والنّزاعات الدّموية طويلة الأمد، تتخلّلها فترات عابرة من أشكال الحكم المتقطّعة. لا يمكن اقتفاء أيّ أثر لتاريخ مكتوب لسكان هذه البلاد، رغم الجهود المضنية التي بذلتُها للاستفسار عن هذه المسألة من كل مثقف متنوّر من أبنائها المقيمين. إذ أنّ الأمّية مستشرية، والقاضي العجوز هو الشّخص الوحيد القادر على سرد حكاية مترابطة منطقياً، رغم كونها غير منتظمة في سياق واحدٍ متصلٍ للأحداث، عن تاريخ هذه المنطقة. لطالما وجد شعبُ هذه البلاد، المكوّن بمعظمه من قبائل متنافسة مولعة بالحرب والقتال، في النّظام والقانون مصدراً للضّيق والانزعاج.

إنهم يعشقون الحرّية الشّخصية غير المقيّدة أكثر من عشقهم للحياة نفسها، وكذلك المجد والعزّة في حروبهم المتوارثة. لطالما كان قبولهم ببديل عن سلطة ثانوية غير أساسية في الماضي مقترناً بفرض مثل هذا البديل بالقوة فقط، أو وفق المبدأ القائل: القبول بأهون الشّرّين، بعد فترات من التّعب والاستنزاف، وعلى الجيل الجديد أن يتعلّم دروس وعِبَر الجيل السّابق، كما أنّه لا يمكن لأيّة سلالة أو طائفة أن تتموضع وتتقوقع حول نفسها إلى الأبد.

لا وجود عملياً لمعالم تاريخية بارزة، وهي تبدأ في خلال حقبة ما بعد الإسلام مع الحاكم محمّد بن أحمد المنجوي al Mingowi، الذي لا تزال آثار عاصمته البائدة بادية للعيان فوق سبخة خور روري[1] Khor Ruri. والمنجوي هو اسم قديم جارٍ

(1) كتب المؤلف: الآثار المتعلقة بـ خور روري Khor Ruri - حصن Mirahadh وبوابة Inqitat (يذكرها بِنت باسم خاطية Khatyia) - تشغل مكان الموقع المحتمل لميناء مُسخا Moscha القديم المذكور في كتاب «التّطواف في البحر الأريثري» *Periplus* (وهي أبيسّاپوليس Abys-sapolis التي ذكرها بطليموس كما اقترح بِنت Bent). والجغرافيون العرب يقترحون مرباط Murbat على أنها الموقع القديم لميناء ظُفار وعاصمتها والتي استمرّت حتى القرن العاشر

علـى لسـان أقوام هذه المناطق أكثر من غيرهم، ومعظـم الآثار والأوابد في هذه البلاد تنسب له.

بعـد المنجـوي، فـي عـام 1279 للميـلاد، جـاء سـالم بـن إدريـس الحبوضـي al Habudhi. ونتيجـة القحـط الـذي حل بموطنـه الأم في حضرموت، فقد شـد الرّحال نحو ظُفار، كمطمع في البداية، ثم كبلدٍ مسـتباح. في القرن السّـادس عشـر، برز سيف الإسلام غسّان Ghassan من سلالة أمراء صنعاء، والذي كان قصره قلعة البُليد Balid، التـي تشـكل اليـوم أحد أهـم الأوابد التّاريخية في سـهل ظُفـار. مئة عام مـن الفوضى والصّراعـات القبليـة وضعت أوزارها على يد أحد السّـادة من آل كثيـر، أعقبتها حقبة أخرى دون تسمية استمرّت حتى نهاية القرن الثّامن عشر. وأحد السّادة المستقلين، من سلالة الرّسول الأكرم، رفع رايته بنجاح خلال السّنوات الأولى من القرن التّاسع عشر واستمرّ على مدى خمس وعشرين عاماً، إلى أن قتله أبناء قبيلة القَرَا.

بعد خمسين عاماً، حوالي العام 1880، طرأ على المشهد الرّتيب للأحداث تغيّرٌ آنيٌّ مفاجـئ تمثل بمجيء الفضل بـي علوي Fadhul bin Aliyowi، من أبناء حضرموت، مطالباً الحكومة العثمانية بحقّه في السّلطة، لكنه لم يتمكن من تأكيد صحة ادّعائه بهذا الحق، فطُرد خارج المنطقة.

التفتَ بعدها أبناءُ ظُفار إلى السّلطة الحاكمة في مسقط بهدف استعادة السّلطة على بلدهم وإدارة شـؤونها بأنفسـهم. وعلى الرّغم من مضيّ خمسين سنة ونيّف على تلك الأحـداث، فقد تنامى نفوذ آل البوسـعيدي Al Sa'idi ليطال أجزاء كبيرة من أراضيهم الحالية، وإن كانت إدارة هذه الأقاليم من أصعب الإدارات على السّـلطنة اليوم، فليس هنالـك إقليـم اليوم يشـهد إدارة رشـيدة أكثر منها. مع ذلـك، فقد جرى إرسـاء قواعد

من حقبتنا. ومرباط الحاليّة تبعد عشرين ميلاً شرقي نسختها الأصلية التي كانت هنا. والرّبط باللسان الشّحري Shahari هو سيق Sik ويبدو بأنه يحتفظ بالجذر الأساسي للاسم مُسخا.
قلت: يظنّ النّاس اليوم أنّ الاسم القديم المذكور في كتاب «التّطواف» هو موشكا، وهذا غلط فليس في اليونانيّة شين أصلاً، وسنتوسّع بذكره في نشرتنا للكتاب قريباً.

الحكم والإدارة بالدّم. والرّواية جديرة بالسّـرد، ليس كوصف أدبيّ للتاريخ الحديث، وإنما لتسـليط الضّوء على سـيكولوجية الحاكـم والمحكوم من أبنـاء القبائل في تلك الأصقاع النّائية من جزيرة العرب.

كان سيدي تركي بن سعيد Saiydi Turki bin Sa'id، جدّ السّلطان الحالي، حاكم مُسـقط الذي كان أبناء ظُفار يلجأون إليه للحماية. ولتركي الآن عبدٌ يدعى سـليمان بن سـويلم، أولاه كامل ثقته؛ وكان قد أعتقه وأنعم عليه بتعيينه مستشاراً له والقائد الأعلى لقواته المسـلحة، وهو ليس بالقدَر المسـتحيل لعبد في جزيرة العرب[1]. كان سليمان يتمتّـع بقدر كبير مـن الاحترام بين قبائـل عُمان لخصاله وصفاته الشّـخصية الحميدة. فقد كان شـجاعاً غير هيّاب، ورجلاً قوياً صاحب مبادئ، وإن كان صيتُ الظُفاريين قد ذاع عن جدارة واسـتحقاق كأناس خارجين عن القانون، فلم يكن لأحد أقلّ شـأناً من سـليمان أن يرسّخ سلطة مسـقط ونفوذها، على الرّغم من قدرة مُسقط المحدودة على دعمه ومؤازرته. لذلك، فقد كان سـليمان الشّـخصية المختارة التي أرسـلها السّـلطان كأول وُلاته على ظُفار.

ألـم يكـن الحاكـم معتاداً علـى مخاطبة عبـده بــ *abana* «أبانا»؟ سـألني مُحدّثي، وهـو جنـدي عجوز متقاعد كان قـد قدم إلى ظُفار فـي تلك الأيـام الخوالي مع جيش الاحتـلال الأول، وبقـي هنـاك من ذلك الحيـن. عبّود بن عيسـى Abud bin 'Isa' من أبناء نجد، محارب قديم شجاع، ذو عينين بنّيتين متألقتين وفكّ سفلي عريض، وأذنين كبيرتين شـكّلتا دليلاً على أنه لم يكن من أبناء جنوبي جزيرة العرب. على غرار الكثير مـن أمثاله، المعروفين بالنّسـبة للعُمانييـن بـ«أهل الغرب»، كان عبـود قد غادر موطنه الأصلي صغيراً للخدمة في جيش حاكم مَسـقط تحت إغراء المال: ثلاثة دولارات في الشّهر لبدوي من أعماق جزيرة العرب كانت في ذلك الزّمان مكافأة يسيل لها اللّعاب.

---

(1) انظر مثلاً ما تقدّم في كتاب «حجّة إلى رُبوع نجد» للرّحّالين البريطانيين آن وولفريد بْلَنت، حول العبد جوهر العَنبر الذي عيّنه أميرُ جبل شَمَّر محمّد بن رَشيد حاكماً على الجوف حتى عام 1900.

كان هـذا الجيـش من المرتزقـة بمثابة القـوة الدّاعمة لحاكـم بلادٍ تتنازعهـا صراعات المتنافسـين على السّـلطة؛ لم يكن أسـاس هذا الجيش مسـتنداً إلى مجموعة من خيرة المقاتلين وحسب، وإنّما إلى ولاءٍ راسخ غير متأثر بالولاءات المحلّية.

ثماني عشرة شـخصية من هـؤلاء النّجديين وصلـت مع الوالي سـليمان لاحتلال ظُفـار. كانـت قوّة صغيرة، لكنها شـكّلت نقطة البداية، وقبيل وصـول الحامية العُمانية المكونة من مئة عسكري، كان سليمان قد شرع ببناء سجن قلعةٍ في صلالة على النّمط العُماني، مسخّراً لهذا الغرض الأيدي العاملة للعبيد والضّعاف[1] Dha'af.

لكـن زخـم نشـاطاته التـي توّجها بنشـاط جبايـة الضّرائب لم يَـرُق لأبنـاء القبائل، وسـرعان مـا انتشـر اللّغط والثّرثـرة بين أبنـاء قبيلة القَـرَا؛ ولو كان سـليمان رجلاً أقلّ تصميماً وأضعف شـكيمة، لثبطـت عزيمته أمام مثل هذه التّحديات. لم يكن سـليمان من الرّجال الذين يحيدون عن قرارهم، وقراراته لـم تكن تعرف المهاودة؛ كان يتصرّف بصـورة اسـتبدادية. والآن جاء التّحدّي. فقـد لقي أحدُ رجاله حتفه فـي كمين نصبه له مجموعة من الرّجال في حمران Hamran.

لم يكن سـليمان ليجرؤ على سَـجن فنخور Finkhor، الزّعيـم القوي لذلك الفخذ مـن قبيلة القَـرَا المتورّط بالقتل، رغم اضطراره لتحاشـي هذه الإهانـة العلنية. وجرى قتـال نشـب في طاقـة Taka تلقّى فيه عسـكر الحكومة الدّعم من عناصـر من آل كثير، لـم يسـفر عن أيّة إصابـات من الجانبين كليهما - وهي حالة غيـر اعتيادية في الحروب القبلية العربية، مع تبادل لإطلاق النّار من مسافات بعيدة. لكن هذا الأمر تسبّب بشعور من الارتياح دفع بالفريقين كليهما إلى الرّكون لفترة طويلة من السّلام الدّائم. وجاءت الظّروف في صالح سليمان، فمع قسم الولاء، جاءته هدية قوامها مئة رأس من الماشية.

---

(1) كتب المؤلف: كان هنالك في ظُفار نظام طبقي دون المرتبة النّبيلة لأبناء القبيلة. كانت هنالك طبقة البحارة Bahara والضّعاف Dha'af، إضافة إلى طبقة العبيد. وكانت طبقة الضّعاف Dha'af أعلى بدرجة من طبقة البحارة Bahara من منطلق أنّ نساءهم لم تكن تختلط بالرّجال، كما أنّ أبناء طبقتي البحارة والعبيد كانوا يمارسون صيد السّمك.

بافتقاره إلى القوة الكافية للحكم بشهامة وتسامح، واصل سليمان استخدامه للوسائل التّرهيبية التي تناسب شخصيته أكثر من غيرها، ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت القبيلة مرة أخرى على طريق الحرب. كان أحد أبناء القبيلة قد شارك في غزوة سابقة (الخوف من غارات من مناطق الجبال على مناطق السّهل لازال قائماً حتى يومنا هذا)، وقام سليمان بمعاقبته ليكون عبرة لغيره. لم يكن مثل هذا التّصرّف مبرّراً بالنّسبة للعقلية القبلية، وثارت ثائرة القبيلة التي لم يلوِ ذراعها ويرغمها على الخضوع، إلّا الحصار الذي فرضه سليمان على الجبال[1].

كانت كأس الغضب القبلي ضد سليمان قد أُترعت عن آخرها، لكنها لم تطفح بعد، إلى أن غادر سليمان في إجازة قاصداً عُمان، مسلّحاً بكل الأسباب الموجبة للرّضا والقناعة بالإنجازات السّيادية التي حققها من خلال جهوده الدّؤوبة على مدى ثلاث سنوات. كان سليمان قد خلّف وراءه ولديه، علي ومسعود، لإدارة شؤون الحكم في غيابه. عندها، رأى آل كثير، الذين مكّنه دعمهم له من التّعامل مع منافسهم القديم، قبيلة القَرَا، بأنّ فرصتهم باتت سانحة في غياب سليمان، لا سيّما وأنّ أقبية الحصن مليئة بمكوس العشر وعوائد الضّرائب من سمن وأرزّ وتمور.

كانت غريزة الطّمع، التي تفاقمت واستشرت بشكل غير سوي لديهم، حاضرة ومتأجّجة، فدُبّرت المؤامرة. ثمّة فريق من آل كثير يتقدّم باستدعاء ضد فريق آخر، ومع المضي قُدماً في إجراءات التّقاضي، يجري إرسال المزيد من الشّهود من أبناء كثير، إلى أن يفرضَ جيشٌ منهم سيطرته على المدينة. وهذا ما كان. كان الشّك سيساور سليمان لو أنّهم جاؤوا تحت أيّة ذريعة أخرى. وكما هو مخطّط، فقد ظلّت قوات الحكومة مبعثرة فوق السّهل تقوم بأداء واجباتها الاعتيادية. هذا الصّباح، على غرار الأيام الأخرى، شهد جلوس الحاكمين الشّابين عند مدخل الحصن لأداء واجبات الاستقبال الصّباحية المعتادة. كان

---

(1) كتب المؤلف: كان الحصار يطبّق فقط على نقل سمك السّردين. والسّر في نجاح هذا الحصار كسلاح، كان يكمن في حقيقة أنّ مورد الجبال الرّئيس كانت الماشية، وفي مواسم قحط معيّنة خلال العام، هنا، كما في عُمان، كان السّردين يشكل مادة العلف الرّئيسة لقطعانهم.

فنجـان القهوة المُرّة قد دار دورته علـى الحاضرين من أبناء قبيلة كثير عندما حانت اللحظة المنتظـرة. عمليـة غدر وخيانـة غاية في البراعة الإتقان! بإشـارةٍ من الزّعيـم، وثب البدوي مـن مكانه والسّـيف في يده وانقض علـى مُضيفيه، حيث أجهز على علي ومسـعود، ولديّ سـليمان، وجنودهمـا المسـاكين بلا رحمة، ثم اندفـع البدو نحو الأقبية حيـث نهبوا كل ما فيها، ثم سوّوا الحصن الحكومي بالأرض.

كل ما تبقى من حكومة مسقط في ظُفار كان رجل يدعى بخيت بن نوبي Bakhit bin Nubi وأربعون جندياً فرّوا جميعهم إلى مرباط Murbat والتجأوا إلى بعض أصدقائهم مـن أبناء قبيلة القَرَا. كان بخيت هذا زنجياً، وكان بالإضافة إلى ذلك شـخصية متميّزة. كان أحـد عبيـد سـليمان، وكان للعبد أن يقتني عبـداً آخر أو غير ذلك مـن المقتنيات، دون أن يكون له حقّ بالإرث، بحيث أنه في حال وفاته، يؤول كل ما يملك إلى سـيده. كان لأربعة شـهور أن تنقضي - بعد أن قطعت الرّياح الموسـمية الجنوبية الغربية سُبل الاتصـال بعُمـان - قبـل أن تصل الأنباء إلى مسـقط ويجـري إرسـال التّعزيزات. أخذ بخيـت على عاتقه مهمّة التّصرّف، وكان على خطواته أن تتسـم بالحكمة والشّـجاعة، لأنـه مع انقضاء الوقت، ودنوّ موعد القصاص، كان عليه اسـتمالة المتمرّدين وحملهم على الاقتناع بأن الوقوف إلى جانبه ودعمه كان السّبيل الوحيد لنجاتهم.

اسـتدعت الأحداث في عُمان من سـليمان البقاء هناك، حيـث أنه عندما عاد لاحقاً إلى ظُفار، كان ذلك في زيارة مؤقتة لمناقشة التّرتيبات المستقبلية. أحد رجال الحرب البريطانييـن جـيء به كسـفير للسّـلطان، وتمّـت معاقبـة القبائل المذنبـة وجرى إذلال زعمائهـا وتحقيرهم. لكن الأوان كان قد فات على إعادة الأوضاع إلى سـابق عهدها، باسـتثناء أن البـاب الرّئيـس للحصـن القديم تم اسـترجاعه لتزيين الحصـن الحكومي الجديـد الأكبر حجمـاً والأكثر قوة الذي سيشـيّد على أنقاض الحصـن القديم، حيث لا زال قائما حتى اليوم. جرى تعيين بخيت حاكماً. وكان سـيده القديم سليمان (الذي كان مقـدّراً لـه هو بالذّات بعد ذلك بوقت قصيـر أن يلقى حتفه غيلة على يد أحد القتلة المأجورين في عُمان) ترك معه هذه الرّسالة:

«إذا ما سمعتُ بأن آل كثير قد اختاروا شيخاً منهم، وبقي على قيد الحياة، فسوف يُقطعُ رأسُك». لم يضطرب بخيت أو يتردّد، وقد تم في خلال سنوات حكمه السّبع التّخلّص من عشرةٍ من الرّؤوس المدبّرة للشّغب والقلاقل على يد عبيدٍ أُوفدوا لهذه المهمة. صحيحٌ أنّ هؤلاء الشّيوخ كانوا قد مُنحوا عفواً عاماً من قبل المندوب السّامي من مسقط، لكن ذلك لم يكن له ذاك التّأثير على ضمير أيّ من الفرقاء، لأنه عندما يكون الغدر والخيانة من سجايا المرء، فإنّ الرّجال يتصرّفون وفق ما تمليه عليهم المقتضيات الملحّة للحظة الحاضرة، وليس المبادئُ الأخلاقية.

إنّ الاضطرابات والقلاقل هي السّمة المميزة لأيّ نظام في جزيرة العرب القَبَلية، وهي متأصّلة في الذّات العربية ونابعة من الدّور الغالب ذي الأرجحية الذي تلعبه الشّخصيات واللاأهمية النّسبية للآلة. فحيثما تتواجد الشّخصية القوية للحكومة، أو يكون للحكومة السّيطرة على كل المقدرات، تسير كل الأمور على ما يُرام. والعكس صحيح. وهكذا، عندما استُبدل حكم بخيت مع الزّمن بحكم عبد الله بن سليمان، وهو رجل حُرٌّ ذو شخصية ضعيفة، تراجعت هيبة الحكومة وتوقفت القبائل عن تأدية مستحقاتها.

قاموا باحتقار الوالي الجديد لضعفه، أكثر ممّا أعجبوا به لشهامته وتسامحه، وهكذا فقد مات غير مأسوف عليه من قبل الرّجال الشّجعان، تاركاً لخليفته - صاحب المنصب الحالي محطّ الإعجاب - الذي كنت ضيفه حالياً، مهمّة إعادة ترسيخ أركان تلك السّلطة التي بدّدها وتخلى عنها هكذا بلا مبالاة.

عندما وقفتُ على تلك الشُّرفات القديمة مسترجعاً في مخيّلتي مشاهد كهذه، أحضروا لي الخيول إلى المدخل الخارجي في الأسفل من إصطبلات البلاط - وهذه النّوعية من الخيول لا يوجد لها مثيل ضمن مسافة ثلاثمئة ميل. فقد جرى اختيارها من بين حوالي اثني عشر رأساً كان السّلطان يأتي بها من وقت لآخر، لأنه كان شديد التّعلّق بظُفار، ورحلات صيد الغزال والصّيد بالصّقور هناك، وأمضى أكثر من موسم صيف هناك خلال الفترة التي تولّيتُ فيها منصبي.

اليوم كنتُ في طريقي إلى صلالة لزيارة سعد بن عبد العزيز، أغنى تجّار المنطقة، وهو رجل ذو نَسَب متواضع وغامض، كما هي حال أمراء العرب من التّجار في أغلب الأحيان. كان طريقنا يمرّ بالقرب من السّوق الصّغيرة، خارج مدخل البلدة، عبر أحد بساتين جوز الهند (يحلُّ نخيلُ جوز الهند في ظُفار محلَّ نخيل البلح الموجود في كل مكان من جزيرة العرب) مروراً بحقول القطن والنّيلة وهكذا عبر الشّريط السّهلي الضّيق قبالة بلدة السّلطان. لقد كانت مهيبة حقاً تلك البيوت الشّامخة متعدّدة الطّبقات بحجارتها البيضاء المبهرة - جرى اقتطاع الحجارة من السّهل المشيّدة عليه - بينما أضفت عليها الزّخارف[1] مسحةً من العراقة التي لا تتناسب والحالة المزرية والرّثّة لهذه البيوت من الدّاخل.

كان منزل سعد يشمخ كالقصر المُنيف في منتصف الطّريق قبالة البلدة؛ ولكن حتى هناك، وجدنا باحته تعجّ بالذّباب وتفوح منها رائحة أبقارها المربوطة داخل الإصطبل. كانت الدّرجات الأضيق تؤدي من هناك إلى غرفة المضافة في أعلى المنزل، وهي غرفة رحبة تتوسّطها دعامة مركزية جميلة من خشب السّاج من سواحل مالابار (مَلَبار) تحمل السّقف؛ وهي جيدة التّهوية بفضل النّوافذ العديدة غير المُقزَّزَة، حيث أنّ الألواح الزّجاجية غير معروفة في تلك البلاد[2].

كانت قطع الأثاث قليلة، لكنها من النّوع الفاخر. وكان كل شبر من أرضية الغرفة مفروشاً بالسّجاد الجميل، كلٌّ على حدة، والمتنافر بمجموعه. وكان في الغرفة ما لا يقل عن اثنتي عشرة مرآة بالحجم الطّبيعي وضمن إطارات رائعة، كانت تزيّن الجدران وكأنها خزانة خيّاط؛ كانت الفجوات الجدارية ملأى بالمباخر ومعدّات القهوة وتحفٍ

(1) كتب المؤلف: سمة نموذجية للبيوت والمساجد الكبيرة وجود هذه الزّخارف السّقفية المسمّاة بالتّباشير tabashir عند زوايا السّقف والحواف الجانبية. وتصميمها المتدرج يذكّر بالزّخارف النّبطية في البتراء ومدائن صالح. سمعت عن وجود مثل هذه الزّخارف في المكلّا Makalla والشِّحر Sheher ومناطق أخرى من حضرموت، لكني لم ألمح أيّاً منها في مَسقط أو عُمان.

(2) كتب المؤلف: نخيل جوز الهند يستخدم على نطاق واسع في ظُفار لإطارات النّوافذ والدّعائم السّقفية، وكونه مادة قوية وتدوم طويلاً، فهو يستخدم في الأبنية العُمانية بديلاً عن جذوع النّخل الهشّة وليفية القوام.

وعادياتٍ مختلفة من شتّى الأشكال والألوان موزعة كيفما اتفق. دخلنا وجلسنا في صفّ واحد حول أركان الغرفة الأربعة. اتخذتُ مكاني عند إحدى الزّوايا حيث كان هنالك المزيد من الوسائد، التي تشبه في صلابتها أقراص الدّواء المكوّرة، لكني كنت مستمتعاً بتلك اللّمسة الشّرقية الكامنة في لونها القرمزي الوهّاج أو حواشيها وزركشاتها الزُّمُردية. فقط مضيفنا وولداه وبعض العبيد المحليين كانوا هناك للقيام بواجب الضّيافة بجانب طاولة انتظم فوقها عدد من زجاجات شراب اللّوز والعصائر المجمّدة الملوّنة وكؤوس الشّراب ذوات القواعد الدّائرية. على غرار كافة المناسبات الاجتماعية في المناطق القبلية العربية، لا مجال لظهور النّساء على الإطلاق أو حتى الإتيان على ذكرهن. تلك النّساء ذوات المكانة المتميّزة كن يحتجبن عن الظّهور حتى مغادرة الأغراب من الرّجال الدّار، وأيُّ طيف لأنثى حاسرة الرّأس ممكن أن يخطر عبر باحة الدّار، لا بدّ أن يكون لأمَةٍ من الإماء. اتخذ العجوز سالم الصّايل Sail مجلسه إلى جانبي، وهو تاجر آخر من الأتقياء وحكيم من الحكماء بين أمثاله.

الطبيعة البشرية جعلته يدّعي تحدّره من سلالة آل غسان النّبيلة، في الوقت الذي كان جميع الرّجال يتهامسون بأنه كان لقيطاً من أصل شِحريٍ Shahari وضيع كان قد جرفه سيل جبلي ورمى به في مصب مائي مالح[1] freshet.

مع بلوغه الثّمانين، كان بصر سالم قد بدأ يضعف تدريجياً، رغم أنّ عينيه لا زالتا قادرتين على أن تشعّا بالبريق عند استراقهما خلسة لأيّ مشهدٍ مثير للشّهوة الجنسية. في أوقات أخرى، كما هي الحال الآن، فهو يبدي اهتماماً أكبر بأخبار الرّجال. «هل هنالك من حرب ما بين الدّول، يا صاحِب؟».. «ما هي أخبار الألمان؟».. و«هل الطّليانيّون *Italiyaniyin* أصدقاؤك؟».

---

(1) كتب المؤلف: تسمى فصول السّنة الأربعة:
الخريف: من يوليو حتى سبتمبر - شهور المطر
السروب Surub: من أكتوبر حتى ديسمبر
الشتاء: من يناير حتى مارس
القيظ Al Gaidh: من أبريل حتى يونيو

إنّ قُربَ ظُفار الجغرافي من بلاد الصّومال والمؤثرات الإيطالية في اليَمَن قد يفسر حقيقة تعلّقهم بالعادات والتّقاليد الإيطالية أكثر من بقية الأوروبيين، ولم أسمع عنهم وعن إدارتهم إلا الأشياء الجيدة.

تدخّل الآن أحد الشّيوخ الجبليين ليضفي نكهة مميّزة على الحديث.

سألني: «لِمَ حُجومُكم كبيرة هكذا ونحن أصغر منكم حجماً؟».

أجبته: «لعل السّبب يكمن في تُربتنا وهوائنا».

قال: «ولكن، نحن، والله أعلم، أصغر بكثير من أسلافنا. أنظر إلى قبورهم في خور روري، إنها بطول عشرين خطوة. كانوا ضخاماً إلى هذا الحدّ».

أجبته: «الله أعلم»، محاذراً المسَّ بالمشاعر الدّينية، لأن أحد مُفسّري القرآن الكريم يقدّر طول آدم بحوالي سبعة أمتار، وبقيّة الأنبياء على هذه الشّاكلة النّسبية (رقم متواضع قياساً بالأرقام التي يعطيها آخرون). «أليست رحمة الله؟».

قال: «كيف؟».

«إنه صعب بما فيه الكفاية»، أجبته قائلاً: «هذه الأيام، مع وجود هذا العدد الكبير من البشر في العالم، بات من الصّعب إشباعُ بطون بهذا الحجم» (وصوَّرتُ له كرة قدم تقديرية): «لو بقينا على هذا الحجم، لاحتاج كل واحد منا إلى كيس من الأرزّ في كل وجبة؛ فكّر بالكلفة!».

تردّدت ضحكات عصبية مكبوتة في أنحاء المكان، وأظهر صمتُ سائلي بأنه كان مقتنعاً بأنّ الموضوع قد أُفرغ من مضمونه. خطرت لي ذكرى أحد البحارة، ويدعى خميس من عوقد Aukad سبق أن زار بلدي. (لم يكن لدى هذا المواطن أيّة فكرة عن اتجاه أوروبا، ويشير إلى الشّرق، باتجاه الهند، معتقداً بأنها موطن الإنكليز). خميس، الرّجل الحر، كان مع ذلك أباً لطفل وُلدَ عبداً، لأنه كان قد تزوّج على زوجته جاريةً كانت زوجة رجلٍ آخر، وهكذا فالطّفل وفق القوانين المحلية يخصّ مالكها. الثّلاثمئة دولار التي كان قد دفعها ثمناً للمرأة، كانت ثمن يدَها، وليس حريتها، وبات الآن

متورطاً بدفع خمسمئة دولار أخرى لسيدها، لشراء الحرية لذريته[1] هو بالذّات.

قدّم لنا أحد العبيد طبقاً من الفوالة Fuwala، وهي نوع من الضّيافة التي تشكل السّمة المميّزة لأيّة زيارة مجاملة - صينية كبيرة عليها طبق من شرائح لحم البقر المشوي السّوداء المقرمشة والسّباغيتي بصلصة الطّماطم وشرائح الأناناس. ثم قُدّمت لنا القهوة بعد لقيمات تناولناها، وأخيراً جاء دور المبخرة لبضع ثوان، ونحمد الله أنهم لم يمرّروها أسفل أنوفنا، وقام عبد بمداولتها من شخص لآخر، كما هي الحال في عُمان، لكنّ دخانها كان يتصاعد في اتجاهي.

في أرض البخور الحقيقي هذه، الذي لا يفوقه بخورٌ آخر في العالم، كان مضيفي يتفوّق على نفسه باستخدامه لبديل مستورد أدنى جودة باعتقادي، لكنه هنا أغلى ثمناً. كان يسمى «العود» aud، وهو نوع من أنواع خشب الصّندل الذي يمكن استخدامه كبخور في الكنائس الأوروبية. هنالك مقولة دعائية رائجة بين العرب تقول: «بعد العود لا تجود». البخور المقدّم هو في الواقع ذو دلالة لا ينبغي للضّيف أن يخطئها، فبعد دقيقة أو اثنتين من الصّمت التّوددي، يتمتم أحدهم بعبارة «أرخصوا لنا» ثم ينهض ويغادر.

«نأمل أن تكون إقامتكم طويلة»، سألني مضيفي قائلاً من باب المجاملة من جهة، وللتّعرف إلى خططي من جهة أخرى.

«نعم! أنا في إجازة لمدة شهرين»، أجبتُه قائلاً. «لقد وافق الشّيخ حسن على اصطحابي إلى جباله للصّيد الأسبوع القادم؛ فقد وعدني بنمر أسود ووعلٍ جبلي».

---

(1) كتب المؤلف: اكتشفتُ بأن هنالك استثناء لهذه القاعدة المتعلقة بنَسَب الأمَة التي تخصّ مالكها دون سواه، لكنها تنطبق فقط على المحكمة. بالنّسبة لقضيّة المحكمة، فإن العبد الذي يتزوج من أمَة تتبع مالكاً خاصاً، فإن النّسَب أو الذُّرّية، كأفضلية من أفضليات المحكمة، يجب أن تكون مشتركة. النّتيجة هي أن المالك الخاص سيوافق على مضض على زواج بين عبد وجارية عن طريق المحكمة لأنه زواج غير مُجزٍ بالنّسبة له، والعبد عن طريق المحكمة سيجد بالتالي من الصّعب عليه العثور على عروس من خارج دائرة زنجيات المحكمة.

بالـكاد تمكنـت من الاسـتيقاظ باكراً صبـاح اليـوم التّالي لمعايـرة أجهـزة الكرونومتر خاصتي، عندما تناهى إلى سـمعي صوت دمدمة مكتومـة، ثم لفت انتباهي صدى أصوات نسـائية. وسـرعان ما لمحت اثنتي عشـرة زنجية قادمات في الأسفل عبر باحة السّجن وهن يتمايلـن بحـركات مثيرة وأعناق ملويـةٍ كالأفاعي لموازنـة جرار الماء المـلأى عن آخرها فـوق رؤوسـهن. كانت هذه جوقـة الاسـتحمام، وهو تقليد ثابـت معترف به عندمـا كنا أنا والسّـلطان في الـدّار، والخزّان في غرفة الحمام يجب أن يُملأ يوميـاً. وعندما مررن بحذاء باب غرفتي توقفن للغناء؛ شـابة صغيرة منهن، جريئة جداً وواثقة بشبابها، غامرت ورمقتني بنظـرة خاطفـة، لأنهن في عالمهن الخاص في ظُفار، لا يحسـدن أحداً على الإطلاق. أثناء خروجهن، توقفت كل منهن لبرهة كي تلتفت صوبي وتحيّيني بانحناءة غنج ودلال.

إحدى الزّنجيات الرّؤوفات العجائز، تلكأت للحظة لتسأل عن الإخوة والأزواج في بلاط السّلطان في مسقط، وإذا كنت قد جلبت أيّة رسائل؟ ثم سرعان ما وجَّهت مسارَ الحديث للسّـؤال عن الدّفعـة الاعتيادية، ولكن مع كل هذه المفاتن السّـمراء المتلهفة لشـيء مـا، فمن الواضح أنه لن يكون لها نصيب. كان مـن الواضح وجود فريقين على الأقل، يستحوذ على كل منهما الهاجس الوحيدة بكونهن سمراوات.

«هـل قمت بإحصاء عددنا أيهـا الوزير؟» صرخت إحداهن قائلة. «أربع وعشـرون هنا، وأربعة في الأسفل»، تقول أخرى (هذه كذبة وقحة).

«قم بعدّنا، أيها الوزير! ليقم مساعدك محمّد بعدّنا!».

وعدتهن والابتسـامة تعلو وجهي بسلّة من التّمر وبعض الدّولارات غداً، فاستجبن بمـرح باصطفافهـن في باحتي العلويـة، وهو «المكان الذي نقوم فيـه بجمع الجوز في مايو»، ونهبط السّلالـم بعد حفلة باليه مرحة يتخلّلها الغناء والنّقر على الدّفوف. وهكذا كنت أنتظر بلهفة الاسـتمتاع بالحمّام الذي أعددنه لي في حين تبدأ أنغامهن بالتّلاشـي شيئاً فشيئاً حتى تغيب كلياً في النّهاية.

* * *



مجموعة من رجال قبيلة الشّحري



مجموعة من رجال قبيلة اليافعي



المؤلف وسط مجموعة من رجال قبيلة القَرَا



المؤلف وسط مجموعة من رجال قبيلة الرّاشدي ومُرّة

الفصل الثّالث

قياس جماجم ورقصة الشّيطان

«من أيّ عرب أنت؟» هكذا كان يُطرح عليَّ السّؤال في الصّحراء من قبل أبناء المنطقة العارفين بأنّي أتحدر من عرق يختلف عن عِرقهم، لأن كلمة عربي تستخدم من قبلهم للدّلالة على «النّاس» أكثر منها على عِرق بعينه.

ولكن هل هو أمر مؤكد إلى هذا الحدّ أنّ العرب أنفسهم هم أمّة واحدة على صعيد العرق؟ لا غلازَر Glaser الباحث، ولا بُرتون Burton الرّحّالة، كانا من أنصار هذا الاعتقاد. فالأول كان يعتبر سكان جنوبي جزيرة العرب من الحاميّين Hamitic وليس من السّاميين Semitic. والأخير أعلن بأنه عثر على الدّليل بشأن الأعراق الثّلاثة. في كل الأحوال، فإنّ حدس بُرتون واستنتاجه المسبق بأنّ الفوارق «الفيزيولوجية» الكافية لتبرير تساؤلنا حول الأصل المشترك للعائلة العربية هي فوارق موجودة، كان حدساً صائباً. فاقد اكتشفت الكثير الكثير من مثل هذه الفوارق في هذه المنطقة الوسطى من جزيرة العرب: ليس فقط الفيزيولوجية، وإنما الفوارق الثّقافية واللغوية التي تشكل مجتمعةً تحدّياً حقيقياً لمفهوم الكيان العرقي الواحد لكامل شبه الجزيرة.

أتيتُ في الواقع مسلّحاً بأدوات ومعدّات لقياس أبعاد الرّأس head callipers لإجراء قياسات لأبعاد الجمجمة، لأن مثل هذه القياسات ذات أهمية بالغة بالنّسبة لعلماء الأجناس البشرية[1] anthropologists. وما يتسم بالأهمية أيضاً هي تلك

(1) كتب المؤلف: لقد أسهم السّير آرثر كيث مشكوراً بتحقيقاته في هذه البيانات الواردة ضمن الملحق الأول.

المشـاهدات البصرية للشّـخص الأجنبي المقيم لبضع سنوات في جزيرة العرب، لأنّ عقله يغدو مطبوعاً بشـكل عفوي بالخصائص الفيزيولوجية للسّكان الأصليين ويكون بذلك مُدركاً بدقة للحالات الوراثية الشّاذة للأنماط العرقية عندما يلتقي بها.

وهكذا، وبعد إقامتي المتواصلة في جزيرة العرب من عام 1915 فما بعد، أعمل في مجالات جعلتني على احتكاك مع عرب بلاد ما بين النّهرين Mesopotamia والأردن والخليج العربي، تملّكني لدى لقائي بالسّـكان الأصليين للمناطق الوسطى من جزيرة العـرب - مجموعـة ظُفـار Dhufar bloc شـعورٌ بوجـود بعـض الفوارق الأساسـية. والمنـدوب السّياسـي في عـدن الميجور جنـرال ميتلانـد Maitland، سـجل انطباعاً مشابهاً من خلال العبارات التّالية:

«ينتمي سكان جزيرة العرب لعرقين متميّزين ومختلفين بشكل ظاهر. الفكرة السّائدة عن النّمط العربي... هي أنهم أشخاص طوال القامة ذوو لحى ووجوه واضحة المعالم تشبه ملامح الصّقور. وعرب جنوبي جزيرة العرب هم أصغر حجماً، أكثر سُمرة، أكثر خشـونة، وغيـر ملتحين تقريبـاً. كل المصـادر الموثوقة متفقة علـى أنّ عرب الجنوب على صلة عرقية تقريباً بالأحباش. مع ذلك، يبقى من المستغرب القول بأنّ أبناء العرق المصـري- الأفريقي Egypto-African هم العرب الأقحاح، بينما السّـاميُّون العظام من أبناء الشّمال هم من المستعربين... أي عرب بالتّبنّي والإقامة أكثر منه بالنَّسَب».

الباحثـون العـرب أنفسـهم توارثـوا تقليـداً مفـاده أنّ عرقهـم يتحدّر من سـلالتين رئيسـيتين هما قحطان وعدنان، لكن القبائل المشـتّتة والمتفرقة في أنحاء شبه الجزيرة التـي تدّعـي اليوم تحدّرها من سـلف أو آخر من هؤلاء الأسـلاف، تتحـدّر من أنماط عرقيـة يتعـذّر تمييزها. من جهة أخرى، فـإنّ الفوارق الموثّقة من قبـل بُرتون وميتلاند وغـلازَر، وفي جيلنا نحن بالذّات، من قبل راتيينـز Rathjens هي فوارق مميّزة تماماً، والقبائل المتمايزة على هذا الأسـاس لا تتطابق فـي خصائصها العرقية مع الخصائص المميّزة لقحطان وعدنان.

عـلاوة على ذلك، فإنّ أحـداً من الأوروبيين لا يمكن أن يكـون على دراية واطّلاع

بمجموعة قبائل ظُفار التي التقيتُها، والتي يوجد دليل أنثروبولوجي ولغوي دامغ لاعتبار أنّها على الأغلب متفرّدة، أو على الأقلّ مختلفة عرقياً.

إنّ النّصوص والكتابات القديمة والمدن البائدة في جنوب غرب جزيرة العرب، تقف شاهداً على الحضارتين القديمتين، المعينيّة Minaean والسّبئيّة Sebaean اللتين أفل نجمهما قبل ظهور الإسلام في القرن السّابع الميلادي. نعرف أيضاً عن الغزوات الحبشية والرّومانية الأولى وعن المدن الإغريقية والآرامية. فمن يكون هؤلاء العرب الجنوبيون من أبناء جزيرة العرب؟ إذا كان الجواب على هذا السّؤال موجوداً عند علماء الأجناس البشرية، كما هو بالتّأكيد، فإنّ جمع المعلومات ذات الصّلة كان اهتماماً أساسياً بالنّسبة لي خلال أسفاري.

سبق أن راودتني أحلام وطموحات في الماضي حول التّنقيب والكشف عن جماجم قديمة وإرسالها إلى الوطن، لكن مخاطر المسّ بالحساسيات والمشاعر الدّينية في جزيرة العرب كانت جمّة. أن تعبثَ برفاتٍ لمتوفى جرى دفنه على الطّريقة الإسلامية، هي الحماقة بعينها، ولطالما شكّلت سبباً وجيهاً لوقوع المشاكل، كما حدث مرةً في بلاد ما بين النّهرين خلال الحرب عندما عمد أحدهم، عن سوء تقدير منه، إلى قيادة سيارته عبر مقبرة إسلامية مهجورة. من هنا أيضاً كانت منطقة القبور الصّخرية المغطاة بحجارة مبعثرة ومفككة في وادي ذيكور Wadi Dhaikur التي زرتها عام 1927-1928 أرضاً محظورة. حالفني في خلال رحلتي عام 1929-1930 حظٌّ أفضل، حيث صادفنا في حاسك Hasik أحد الكهوف التي قام ذئب أو وحش ما بإحداث فجوة في بابها. كان ذلك في وضح النّهار، حيث كانت حرّية التّصرّف بالنّسبة لي مقيدة بوجود عدد من المرافقين العرب؛ لكنني اختلقت ذريعة للتوقّف هنالك، دون أن يعلم أحدٌ صباح اليوم التّالي بأنّ جمجمة وجدت في الكهف كانت مخبأةً في ملابسي - رغم أن عظمة الفك كانت مفقودة وباقي الهيكل العظمي قد اختفى كلياً. أخذتها إلى مسقط ومن هناك إلى الكلّية الملكية للجراحين في لندن. ولكن في بيتي في مسقط حيث نزعت الغطاء عن الكنز، بات خادمي مبروك، وهو عبدٌ جرى إعتاقه،

مـدركاً لهواية سـيده الغريبة، وأعلن في اليوم التّالـي بأنه كان قد أحضر هدية من أجلي وأخرج من رزمة كانت في يده جمجمة بشرية مكتملة. خادمٌ عربي آخر ظهر من خلف الباب وهو يضحك ضحكة مكتومة ليشـرح لنا بأنّ مبروكاً قصد ليلاً قبر والده، وأنّ ما قدّمـه لي بالأمس لم يكن سـوى أحـد الأجزاء الحيوية لوالده الموقّـر. في تلك الليلة، أعـاد مبـروك، الذي عُنِّف ووبّخ بشـدة، ولـم يتلـقَّ أيّة مكافأة، الجمجمـة إلى مرقدها. من الصّعب التّنبؤ فيما إذا كانت مشـاعر العرب قد تأذّت على خلفية دينية في مثل هذه الحالة، فالعبيد بالتّأكيد لا يصلّون في هذا الجزء من جزيرة العرب، ولا يُعدّون بالتّالي مسلمين ملتزمين.

بالعـودة إلى ظُفـار وعملية قياس الرّؤوس، فـإنّ العثور على متطوّعيـن يقبلون بأن تُقـاس رؤوسُـهم، لم تكن مهمّة سـهلة. هنالـك دائماً نزعة خوف من السّـحر أو ما هو أسـوأ منه معشّشـة في عقول البسـطاء والجهلة من النّاس، بينما يمقت المتدينون منهم أن يُمسَكوا أو يُعامَلوا بخشونة من قبل الكفرة. في الصّحراء، لم أكن أجرؤ على وضع جهاز القياس على رأس بدوي - فالقبلي الجلف قد يسـتلّ جَنبيّته، والبدو كانوا أحياناً ينقلبون ضدّي لمجرد محاولتي تصويرهم في لحظة غير مناسبة - ولكن هنا في ظُفار، شعرت أنّ بإمكاني العمل دون خوف على السّجناء والقادة والأصدقاء المقرّبين خلف الأبـواب المغلقـة، ومع هـؤلاء وبعض المثقفين مـن التّجار الأجانـب كان بمقدوري خـلال فتـرة إقامتي إجراء خمس وأربعيـن عملية قياس رأس، تغطّي شـريحة جغرافية واسعة، والتقاط مئة صورة وجهية تبرز المميّزات العرقية.

العديـد مـن المواقف والحوادث الطّريفـة كانت تضفي الحيوية علـى العمل، لكنه كان عمـلاً غير مستحبّ مـن النّاحيـة البدنيـة، لأن النّماذج كانـت إمّا بدوية بشـعرها الأشـعث المليء بالتّراكمات الرّملية وغيرها من الشّـوائب، أو حَضَرية مولعة بالقعود الطّويـل بشـعرها الدّهني من كثرة اسـتخدام زيـوت جوز الهند. في صبـاح أحد الأيام صـادف أن كان زبائنـي مـن الصّوماليين، وهم سـلالة تعبر البحر الأحمـر كي تمارس تجارة ناجحة في السّـوق، أو كوسطاء لإبرام عقود لاستثمار محاصيل حقول البخور.

وصل ستة منهم، وراغوا عن الإجابة على سؤالي حول ما إذا كانوا من الصّوماليين الأقحاح، أي صوماليين من ناحية الأم والأب كليهما - وهو شرط لازم، لأن النّماذج أو العيّنات مختلطة النّسب هي نماذج عديمة الفائدة من النّاحية الأنثروبولوجية. لكن دراسة متأنّية لأنوفهم الفُطس وعظام رؤوسهم المتراجعة إلى الخلف تظهر بوضوح بالغ بأنهم كانوا زنوجاً، لذلك فقد استبعدتهم من تجربتي لعدم صلاحيّتهم.

«هل أنت متأكد تماماً من نقاء نَسَبك؟» سألتُ أحد الصّوماليين من العاملين في سلك الشّرطة كان دوره التّالي. «أزعم أنني كذلك»، أجابني قائلاً، «لكن الله وحده العالِم، ثم أمّي».

سريع البديهة هذا راقت له نكتته الخلاعية وهبط السّلم وهو يقهقه من الضّحك، واعداً إيّانا بالعودة صباح الغد مع عدد من العيّنات المماثلة له في نقاء النَّسَب.

بعدها جاء دور عسكر الحكومة، هؤلاء القبليّون المُرتزقة من أبناء حضرموت أو أقاليم عدن الدّاخلية الذين يخدمون تحت راية سلطان مسقط، كالنّجديين القدامى الذين يطلق عليهم العُمانيون المحليون اسم «الحضارم» Hadharim. كانوا أربعين شخصاً يخدمون في ظُفار، لذلك لم أجد صعوبة في تحديد ستة من أنقاهم نسباً من قبائل الأزد Yazid ويهر Yahar وآل سعد Ahl Sa'ad من فروع تابعة لحلف «يافع» Yafa أجريت القياسات والتقطت الصّور، لكنني سرعان ما تبيّنت بأنهم كانوا يعترضون على مصطلح حضاريم كتسمية تشير إليهم. «الحضارم يا سيّدي تسمية تطلق على أفراد الطّبقة الدّونية من أبناء الشّحر Shahar وغيرهم من اللاقبليين: القبلي الأصيل لا يقنعه سوى اعتباره منتمياً إلى أحد اثنتين من الأحلاف المتنافسة: «يافع» Yafa أو هَمْدان Hamdan - وليس أيّ حِلف آخر!» كان ردّهم.

في اليوم التّالي، كنت أُجري عملية القياس لشخص من نمط عرقي آخر يدعى علي الضَّبعان[1] Dhab'an، وهو بدوي من عشيرة المشايعة[2] Mashai' التي تجوب

(1) هكذا تبيّن لي الاسم كما يكتبه المؤلف بالإنكليزيّة، ولا دليل جازم أمامنا.

(2) المشايعة أحد قبائل بالعبيد وهم يرجعون لباحيان ويسكنون عطف المشايعة في وادي عرماء

الصّحـراء على الجانب الشّـمالي من حضرموت. وهو فتى غاية في الوسـامة، كان قد رافقني في رحلتي الأخيرة إلى مُغْشِـن Mugshin وبات الآن رفيقي الدّائم وهو مصدر لا ينضـب للمعلومـات حـول الصّحراء. كان على دراية واسـعة بالمناطـق الحدودية، وسبق له أن أراق دم أحد الرّواشد ثم أخذ إحدى الفتيات الرّاشديّات زوجة له لتحاشي انتقامهم.

كان يريد مني هديّة وداع قبل ذهابه إلى جبال القَرَا للمطالبة بأربعة رؤوس من الغنم مـن آل كثير كدفعة على الحسـاب من أصل دِيَّة لـدم ولده الذي قُتل عن غير قصد على يد أحد أفراد قبيلتهم السّنة الفائتة.

ما كان يريده تبيّن بأنه لا أكثر من خمسـين طلقة بندقيّة - البدو لا يتحرّجون بطلب أيّ شيء كان!

«كلّا»، قلت له، مسـتذكراً سـجلّ علي وميوله. «بالتّأكيد لا!» فقد كان علي معروفاً بقتله لخمسين رجلاً؛ آخر جرائمه، التي كانت قبل ثلاث سنوات، أعقبت مباشرة زيارة إلـى مخيّمـي فـي Auhi: كان قد قتـل عامرياً مسـكيناً 'Amari التقاه فـي البرية وطمع بجملـه. لكن الجمل، للأسـف، لم يقوَ علـى إكمال الرّحلة إلى ظُفـار، ولـم يكن لدى علـي مـا يبرّر به سـفك دم الرّجل، فعـزى ذلك مبتهجاً إلـى قدر الله ومشـيئة، دون أن يشـعر بأدنى مسـؤولية أو تأنيب ضمير، لكنه لا يجرؤ على مقابلـة أحد من رجال تلك القبيلة مرة أخرى. «سأعطيك ثلاثة دولارات يا علي»، أضفتُ قائلاً، «إذا ما أتيت معنا فـي رحلة صيد إلى الجبال الأسـبوع القـادم: لكن الطّلقات، لا! فأنـت تريدها لمآرب شريرة، ولن أكون شريكاً لك في أعمال كهذه».

«أخبرني إذن كيف يمكن للرّجل أن يعيش؟».

«يحرث الأرض أو يصطاد السّمك».

نظر إليّ بارتياب ثم قال: «ليس هذا بعمل يليق بالرّجال».

بمحافظة المهرة شرقي حضرموت، وينقسمون إلى ثلاث ديار: آل جبر، آل سالم، آل سمران.

«ماهو العمل الذي يليق بالرّجال إذن؟».

«البندقيّة والجَنبيّة».

«هـذا هراء»، أجبته قائلاً. «القتال أمر واجب ومحبّذ عندما يحين أوانه، وإلا فكيف تظـن بأننا نحـن الإنكليز أصبحنا أقوياء لـولا العمل؟ من أين تعتقـد بأننا نحصل على سفننا وبنادقنا؟».

«المال!» قال باقتضاب، وأدركت بأن جداله أمر عقيم. وساد الصّمت.

«اسمعني يا علي، لو عاش كل منا على بندقيته وجنبيّته، من أين سنحصل على قوت حياتنا؟ فنحن ندين بما نأكل للفلّاح والصّياد».

«ولكـن أنىّ لقبلـي مثلي أن يحني هامَه هكذا؟ صيد السّـمك! هذا مسـتحيل! الحراثة! نعم، سأطلب من سيدي تيمور (السّلطان) أن يمنحني قطعة أرض، وآتي بعبد يحرثها لي».

«آه! لا عليك، سـأوفي العبد أجره»، قال علي، مسـيئاً الفهم، ولكنه استدرك بذكاء: «وسأحيا على نتاج ما أزرع».

من أين لعلي أن يأتي بعبد، هذا ما لم يكن لدي فكرة عنه مطلقاً. حتى في ظُفار، فإن مبلغ ثلاثمئة دولار يبقى مبلغاً متواضعاً لكراء عبد، ولو كان لدى علي مثل هذا المبلغ، فسوف تستميله الصّحراء ويستثمر النّقود بشراء ناقة. لكن خيال علي وطموحاته مطلقة العنان كانت قد حملته إلى السّماء، والآن عادت به إلى الأرض.

«أعطني خمسين طلقة يا صاحِب!» ثم حلّ نطاق الطّلقات حول خصره وقدّمه إليّ ليرينـي بأنـه كان فارغـاً من أيّة طلقة. كتمتُ ابتسـامة كادت ترتسـم علـى وجهي لذاك التّناقض الصّارخ بين فقره المدقع وطموحاته مطلقة العنان.

«إنّـي والله لأفضـل الطّلقات على ناقة»، ردّ قائلاً. «النّاقـة تموت على يد صاحبها، ولكن بواسطة الطّلقات، أستطيع ردّ أعدائي عندما يأتون في طلبي، وأقتل مَهاةً وحشية عندما أكون جائعاً».

«لا، يـا علي! تعال في الغد وسـوف أعطيك ثلاثـة دولارات، ولكن انتبه! عليك أن تتصرّف بلباقة في الجبال، وإلا ستكون هذه نهاية صداقتنا».

«توسّط لي لدى سيدي تيمور لوضعي على جدول إعاناته الشّهري»، قال علي وهو يهمّ بالمغادرة - لعله كان يتخيل ثلاثة دولارات شهرياً - «وسوف أغدو أخاً للجميع».

كان من عادة نائب الحاكم أن يزورني كل صباح في مقرّ إقامتي في الحصن. كان سعيد بن سـيف Sa'id bin Saif رجلاً أصفر اللون بلحية صغيرة كثّة وبنية جسـدية مهلهلة، حتى لرجـل فـي أواخر منتصـف العمر. كانت نقاشـاته تدور عمومـاً حول فقـر الحكومة وعدم كفايـة راتبه ومتطلبات عائلته الكبيرة: وعلى النّقيض مـن ذلك، المبالغ الطّائلة التي بحوزة الإنكليز، حسـبما يظهر من الرّواتب الرّسـمية. كان سـعيد يندب حظـه البائس ويعزو ذلك إلـى اللـه. لم يكن قانعاً بالعمـل الذي يؤدّيه، واصفاً إياه بأنه عمـل أولى بالعبيد؛ كانت يداه شـاحبتين ورقيقتين، أشبه بيدي امرأة، وسـاقاه لم تكونا تقويان على حمله إلا بخطى بطيئة متهالكـة، وثلّة من الجنـود القائمين أمامه وخلفه قائمين على خدمتـه. ما كان يواظب على القيـام به، ولـو بصورة متكلفة إلى حدّ بعيد، هو الصّلاة خمس مـرات في اليوم. أمّا ما خلا ذلـك، فـكان يقبع في مجلسـه صامتاً يجتـرُّ أيامه بلا هدف، ولـم يكن يكسـر هـذا الصّمت الرّتيب سوى دعوات وابتهالات خاشعة، من مثل «الحمد لله.. الحمد لله».

تناهى إلى سـمعنا من بعيـد أصوات قصف وعربدة. هرع أحد الجنود إلى السّـطح وعاد ليقول بأنهم العبيد. وقد أكّدت الطّبول بقرعها متصاعد الوتيرة قدومهم، وخرجنا جميعاً لإلقاء نظرة على مشهد ممتع.

كانـت المناسـبة موت أحـد العبيد، ولكـن عندما يمـوت أحد الزّنوج هنـا ويدفن، عوضاً عن ملكين مسـلمين يشـاركانه قبره، تدخل عليه روحٌ شريرة لتؤرّق عليه رقاده، لذلك فهم يقرعون الطّبول ويؤدّون رقصة الشّيطان لإبعاد هذه الرّوح المعذّبة.

«سامحهم الله!» تمتم العُماني المتظاهر بالتّقوى والصّلاح الذي كان بجانبي.

«الطّبول لا تروق لكم؟» سألته قائلاً.

«ولا المزامير؛ ولكنهم عبيد، وهذا مستوى إدراكهم».

«ولكن أبناء قبيلة المْقابيل Mukabil في عُمان لديهم مزامير؟» قلت له.

«نعـم! ولكنهم من أبناء السُّـنّة. نحن إباضيّـون Ibadhis، وفي عُمان الإباضية نحن نحرّم أدوات الشّيطان هذه».

في هذه الأثناء كان الموكب يشـّق طريقه باتجاهي للتّعبير عن احترامهم وتقديرهم لي، أملاً بالحصول على مكافأة معيّنة - قفّة من التّمر، ربما، لأن الموت بالنّسـبة لهم، كما هي الحال عند الإيرلنديين، مناسبة لإقامة الولائم. تقدّم حاملُ الرّاية وقارعو الطّبول إلى الأمام ببطء يحيط بهم الحشدُ الرّئيسي من الزّنوج وهم يرفعون الصّولجانات عالياً ويرقصون ويردّدون الأناشيد، ثم جاءت مجموعة من الزّنجيات يخطرن بخفة ورشاقة فـي مؤخرة الرّكـب. عند اقتراب الموكب من بوابات القلعـة، اندفع بعض الرّجال إلى الأمام متوعّداً، في محاولة صورية لاقتحام البوابة، التي كانت مفتوحة أصلاً.

داخـل الباحـة، صرخ أحدهـم آمراً بالتّوقـف وتغيير الإيقـاع. شـكّل الرّجال حلقة منتظمـة، الرّجال والطّبول والرّايات في الوسـط، وبدأوا بالقفز، طوراً على هذه القدم، وطوراً على تلك، وهم يردّدون ويتمتمون بعبارات غير مفهومة باللغة السّواحلية، بينما تحرّكت نسـاؤهن بحيطة وحذر حول الحافة الخارجية للحلقـة بخطى إيقاعية غريبة، وهـن يرفعن عباءاتهن الخارجيـة أمامهن بطريقة إيحائية. مجموعـة أخرى من الزّنوج انفصلت عن الحشد لتأدية مشهد قتالٍ صوري، حيث قام أحدهم، الذي ربما كان يمثل الرّوح الشّـريرة، بالتّمدد علـى الأرض وتظاهر آخرون بجلده بالسّـياط بقوة، بينما قام المنتصرون المفترضون بمهاجمته من كل الجهات.

العديـد من المتفرّجيـن تدافعوا إلى داخل البوابة الخارجية ما جعل خروج العُماني الـذي كان إلى جانبي أمراً متعذّراً، حيث لـزم مكانه راغماً كمتفرّج على غير إرادة منه. وقف مشدوهاً أمام هذا الاستعراض للطّقوس الوثنية التي كان سيمنعها على ما أعتقد، لـو أمكنه ذلك، بينما تملّكني إحسـاس بأنـي كنت أنا الهدف الحقيقـي لتقريعه وتأنيبه

الدّاخلي لتصرّفي الطّائش المتمثل بالتقاط صورة فوتوغرافية لهذا الاستعراض.

عند العصر، كان عليّ مشاهدة عرض أكبر خارجاً في الحدائق، لأن السّلطان كان قد منع مثل هذه الاستعراضات داخل حدود المدينة، حائزاً بذلك على رضا واستحسان المؤمنين الحقيقيين.

«ألم تدخل هذه المواكب والاستعراضات في عيد النّيروز (عيد رأس السّنة) مع صيحات الاستهجان والسّخرية منزل المرأة المنحلّة التي تحمل هرّة صغيرة - ذرّيتها المفترضة؟ «ولكن»، قال العُماني الورع، «لعل قرار السّلطان في قمع هذه الظّاهرة كان متسرّعاً، لأن الزّنا والعلاقات غير الشّرعية مع الأسف قد تفشت بشكل كبير».

طائفة الزّنوج تشعر بالقناعة والرّضا الذّاتي، وهي أكبر مجموعة سكانية من جنس واحد في عاصمة ظُفار. عوّاد، عبد يعمل لدى المحكمة ومميّز عن أقرانه، كان بمثابة المشرع بالنّسبة لهم، يحيلون إليه نزاعاتهم عادةً لتسويتها. وكان لديه أيضاً مساعد يفاخر باسمه الطّنان «نقيب»، لكن مرتبة العبيد وتصنيفهم كان «أولاد وبنات» وهو تعبير ملطّف للحديث عن طائفة الزّنوج من المسنّين والمسنّات.

للزّنوج محرّماتهم ومحظوراتهم أيضاً، منها أنهم على سبيل المثال لا يلمسون حيواناً نافقاً ما عدا ذاك الذي ذُبح للأكل. والسّيد وليس العبد من يحق له إخراج هرّة نافقة من البيت، وأين هو ذلك العبد الذي يوافق على جرّ حصان نافق؟ لأنّ مثل هذه المخالفات وغيرها لقوانينهم الاجتماعية والسّلوكية تستوجب عقوبة يفرضها العُرف المجتمعي (النّفي أو النّبذ عادة)، حيث يذاع القرار في أنحاء البلدة بواسطة قوقعة conch، وهو ما يثير الذّعر لدى العبد. وللتّكفير عن مثل هذه الخطيئة، يُصار إلى ذبح خروف يقوم العبد المذنب بغمس قدمه في دمه، ويقام احتفال كبير لهذه المناسبة.

يتميّز العبيد الزّنوج حسب تجربتي بعقلية قنوعة، وهم يتمتعون بسجايا سلوكية لطيفة غالباً ما يفتقر إليها أسيادهم، فهم يغنّون ويرقصون غير عابئين بأوضاعهم السّياسية والاجتماعية.

من الصّعب على الأوروبي الذي لم يسبق له أن عاش في بلدان إسلامية أن يُكوِّن أيَّ رأي ذي شأن بخصوص العبودية على أرض الواقع. لا بدّ لقدر العبد أن يقارن بقدر الحرّ في نفس البيئة. من هذا المنطلق، فإنّ حياة العبد ليست كلها مدعاة للرّثاء والشّفقة. وعلى الرّغم من أن المستوى العام لحياة العبد متدنٍّ للغاية، ولا يكاد يعلو فوق مستوى الكفاف - فيتوجب على مالك العبد، فيما يخص مصالحه الخاصة، أن يتكفّل بطعام العبد وكسائه بذات المستوى تقريباً الذي يطعم ويكسو به نفسه.

الفارق الأساسي بينهما يكمن في العمل. فعلى صعيد المجالات المنطوية على مقت العمل وبذل الجهد، نجد بأن العبد هو من يضطلع بالعمل اليدوي. وعليه أن ينتج ما يكفي لكفاية كليهما، والحرّ يرى بأن هذا هو ما يقوم به العبد. ولكن الفَرَض بوجود فارق شاسع على صعيد المكافآت، على غرار ما كان قائماً في الولايات الجنوبية للولايات المتحدة الأميركية، أو المستعمرات الهندية الغربية قبل إلغاء الرّق، هو افتراض زائف. فلا وجود لمثل هذا الفارق.

يتمتّع العبيد في الواقع ببعض المزايا الاجتماعية العَرَضية. فالعبد على سبيل المثال، بمنجاة من مخاطر ثارات الدّم المحدقة بالحرّ من أبناء القبائل، وعند وقوع أحد العبيد في الأسر في أثناء إحدى الغارات، والعربي يقتل فيها العربي، لن يقتصّ منه أحد. صحيحٌ بأنه سيجد نفسه أسيراً ومباعاً إلى سيد جديد، ولكن قدره لن يكون بالضّرورة أسوأ ممّا كان عليه. أمّا فيما يخصّ النّساء، فإنّ الجارية تتمتع بحرية اجتماعية تضاهي حرية امرأة عربية «حُرّة». فهذه الأخيرة، التي زوّجت ربما في الخامسة عشرة من رجل اختاره لها والدها، دون أن يُؤخذ برأيها أو يسمح لها حتى برؤيته، يُزجّ بها لاحقاً فيما يشبه السّجن أو الإقامة الجبرية في منزلها طوال ما تبقّى من حياتها، باستثناء بعض فسحات «التّنفس» النّادرة خارج إطار البيت، تخرج فيها مُقنَّعة تماماً. ويزداد هذا التّقليد قسوة وصرامة مع سموّ مرتبة المرأة على الصّعيد الاجتماعي، في الوقت الذي تدفع فيه حياتها عند ارتكابها لأيّة هفوة أو زلّة جنسية، بعكس زوجها، المصرّح له بذلك من قِبل المجتمع[1].

---

(1) لا يمكن للمؤلف أن يجزم بأنّ المجتمع يصرّح بذلك، بل لنقل إنّ أعراف بعض المجتمعات

مـن جهـة أخرى، فإنّ الجارية تتمتّع بقدر لا بأس به من الحرّية، وعلى الرّغم من أنّ زواجها، على غرار الحُرّة، يُرتَّبُ ويُنسَّـقُ من قبل سيدها، السّاعي وراء منفعته المادية، فهي ستخرج حاسرة الرّأس طوال حياتها، وتعشق وتصادق كيفما يحلو لها.

* * *

مجموعـة مـن البدو شـدّت اهتمامهم رقصـةُ الشّـيطان عند العصـر، ورغم كونهم جميعاً من المسـلمين المجاهرين بإيمانهم، فإنّ أحداً منهم لم يؤنّبه ضميره حيال هذه المشـاهد، علـى النّقيـض من ذاك الرّجل المسـؤول ضيّـق الأفق ونصـف المتنوّر. إذا كان هـؤلاء الأعـراب الرّعويون قد وضعوا آلهتهم في السّـموات نظراً لكونهم يطيلون النّظـر إليها عـادةً ترقباً للمطر، مانح الحيـاة، فلم لا يكون للسّـلالات الزّراعية التي لا تنفكّ ترفع أنظارها عن التّربة، آلهتها الأرضية؟ ولكن مع مثل هذه الأفكار، فإنّ أيّاً من الفريقين لن يكون لديه أيّ تعاطف.

كان ذلـك قبـل قرية حافـة Hafa، الرّائعة في بيئتهـا المكوّنة من نخيـل جوز الهند، أنّ طقـوس الزّنـوج zenug هذه كانت تقام بشـكل اعتيادي بعد الوفاة بثلاثة أيام. شـدّ اهتمامي ودفعني نحو الحشـد الصّوت الجميل لقرع الطّبول. كانت هنالك في الوسط فسحة خالية بمسـاحة ميدان للتدرّب على ركوب الخيل. كان قارعو الطّبول يجلسون في إحدى نواحي السّاحة والنّار أمامهم بهدف ضبط إيقاعات طبولهم، وحملة الطّبول مـن الفتيـان يرقصون من حولهم، مجموعة من حوالي اثني عشـر زنجياً شـجاعاً قويّ البنيـة مفتـول العضلات. كانوا عـراة إلا ممّا يسـتر العورة، وحول ركبهـم خلخال من ثمـار المانغو الجافة يُحدث صليلاً وصوتاً أشـبه بالخشخشـة المتوافقـة بإيقاعاتها مع قـرع الطّبـول كلمـا ضـرب الرّاقصـون الأرض بأقدامهم أو قامـوا بحركـة دائرية. كان النّقيب جالسـاً في الجانب الآخر من الحلقة واضعاً يديه على شـفتيه وهو يردّد تمائمه التّقليديـة: «يـا اللـه يا مُنجي، يا الله يـا مُنجي»، بينما كانت جوقة من اثني عشـر مرافقاً

قد تتغاضى عن التّشدّد في تطبيق الحدّ الشّرعي، لكن ذلك لا يعني تصريحاً، والمحرّمات تبقى شرعاً محرّمات.

تقف بمواجهته في صف واحد، تستأنف التّرديد مجدّداً.

حول الحافة الدّاخلية للحلقة، كان عوّاد، عريف المناسبة، يركض هنا وهناك وهو يضرب بسوطه في الهواء عند أقدام المتفرّجين العارية، كلما اقتربوا أكثر من اللازم من داخل الحلقة.

على مسافة عشرين خطوة داخل الحلقة كان ممرّ الرّاقصين الرّئيسيين - سلسلة متتابعة من الزّنوج والزّنجيات الشّباب دخلوا مندفعين في حركات دائرية حول الحلقة في استعراض رائع - فتيات زنجيات صغيرات، فرادى أو مثانٍ، قويات البنية وناهدات الصّدر وسوداوات كالأبنوس، من اللواتي جرى اختيارهن بعناية لظرفهن ورشاقة قوامهن في أعين الرّجال. كانت كل منهن تضع على رأسها خماراً من الموسلين الأسود الشّفاف المدلّى حتى الكتفين، والذي كان يشفّ بوضوح عن كل ما تحته، حتى ذالك التّأثير الفتان لبريق العينين والشّفتين القرمزيتين والأقراط والعقود الذّهبية. أمّا ثوبها الجديد المعدّ خصّيصاً من أجل المناسبة، فكان عبارة عن غطاء فضفاض من قطعة واحدة من القماش النّيلي المُنشّى المتألق تحت أشعة الشّمس. كانت الفتاة ممسكة بقوة بأحد حواشيه الطّويلة المنسابة بين الإبهام والسّبابة مع مدّ الذّراع على مستوى الكتف وإرخاء الأخرى قريباً من الجنب واضعة الكف على مسافة شبر تقريباً من الرّدف والرّاحة مقلوبة على شكل زاوية قائمة مع الخصر. وهكذا كانت تتحرّك؛ رأسها ثابت ووجها مسمّر باتجاه الأمام، لا يمنة ولا يسرة، وجسدها ينتقل بخطوات انسيابية رشيقة إلى الأمام والخلف أشبه بالحركات المتموجة للمتزلّج. أحد الفتيان المأخوذين بالحماس والانفعال كان يقفز أمامها حاملاً بيده سيفاً يختلج ويرتعش مع رعشة الخصر؛ مرّة على هذا الجانب، ومرّة على ذاك، ومرة يستدير ليقف بمواجهتها مشدوهاً مذهولاً كفراشة أمام شمعة. بقيّة العبيد من الذّكور، كل ثلاثة أو أربعة في صف واحد، كانوا يحملون البنادق فوق رؤوسهم ويطوفون أنحاء المكان على إيقاع رقصة الحصان، ونظراتهم موجّهة إلى الأمام، غير مبالين بالجمال والفتنة المحيطة بهم. انقضى النّهار، وزاد عدد المرشحين للدّخول إلى حلقة الرّقص على إيقاع الطّبول.

بدأت لحظة الذّروة بالنّسبة لهذه الطّقوس تقترب. لا بدّ للرّوح الشّريرة التي تؤرّق الرّقدة الأبدية للمتوفى من أن تنسحب وتحلّ في جسد أحد الفتيان من قارعي الطّبول، الذي تم اختياره لقواه والذي شرع الآن بالانفصال عن رفاقه. كل العيون مُسمَّرة عليه. يزداد صوت ارتطام الأقدام بالأرض ارتفاعاً وجنوناً، وتصبّ الرّوح المأسورة كل الغضب الذي يطيق جسده احتماله. يتمعّج وجهه بوحشية وألم، تحدّق عيناه برعب، ويتدحرج بجسده على الأرض، ممرغاً رأسه بالتّراب، ويسيل لعابه كأنما هو في نوبة صرع. لقد أخذ منه التّعب والإعياء كل مأخذ، وأنا، تحت وطأة شعور بالتّقزّز لهذا الجنون الجماعي، أغادر كطلقة في الهواء، مفاقماً من وطأة هذا الاضطراب والهيجان الجامح.

ستضع عقيدة الموحّدين نهاية لهذا الاستعراض، إن لم يضع العبدُ الذي تلبسته الرّوح حدّاً له. ولكن قبل ذلك، عليه وهو غائب عن الوعي أن يمثّل عبور الرّوح، التي لولا ذلك لما تركت الجسد يرتاح. لكنها سقطت بلا حراك؛ الآن يجمع الأولاد والبنات جسده المتشنّج ويحملونه إلى البيت، وبعدها يتفرّق الجمع ببهجة ومرح.

* * *



رقصة زنجية

الفصل الرّابع

في جبال القَرَا، عين رزات

كنت قد تأخرت في ظُفار لثلاثة أسابيع دون أيّة إشارة عن قدوم قافلة الجمال المنتظرة من الصّحراء، وعن سهيل، أو عن رُسُلي الذين تم إيفادهم مؤخراً. لم يتناهَ إلى مسامعنا إلا نذرٌ يسير من أخبار الشّؤم حول الصّحراء تتعلّق بالحروب والشّائعات حول الحروب.

لا شك بأنّ وتيرة الفُضول من جانب السّوق قد بدأت تتنامى بخصوص خططي[1] ورأيتُ أن ليس ثمّة من سبيل لتهدئة غلواء هذا الفضول سوى إرسال بعثة إلى جبال القَرَا. كانت أرضاً بكراً، لم تكتحل عينا أحد برؤيتها سوى عيني ثيودور ومابيل بِنت[2] Theodore and Mabel Bent قبل أربعين عاماً. كانت الصّراعات والاضطرابات القبليّة تتنازع هذه البلاد على الدّوام، لذلك فإنّ السّلطان أو ممثله، حاكم ظُفار، لم يزورا هذه الجبال إلا مرة واحدة، بينما لم يسبق لأسلافهما زيارتها على الإطلاق. علاوة على ذلك، فقد كانت هذه الجبال تشكّل بوابة العبور إلى الصّحراء الكبرى. كان مرامي أن أجعل منها أكثر من غطاءٍ أو ستارٍ لخططي الأبعد مدى، لأني كنت أرتقب

---

(1) كتب المؤلف: رغم أنني كنت بمنصب وزير لسمو السّلطان وأدخلت عملة مسقط النّحاسية إلى الإقليم عام 1926 (كان النّاس قبل ذلك يتعاملون بالمقايضة فقط)، فلم تكن لي أيّة سُلطة في ظُفار، ولا لمجلس الدّولة في مسقط وعُمان، الذي كنت أحد أعضائه. كان السّلطان يعامل ظُفار كمنطقة نفوذ ملكيّة. حكمه من خلال الوالي كان شخصياً وغير خاضع لأيّ تأثير أجنبي؛ فالنّظام كان قبلياً، والذي هو باعتقادي أفضل أشكال الحكم لجزيرة العرب القبلية.

(2) انظر كتابهما «جنوبيّ جزيرة العرب» *Southern Arabia* الذي نشرناه في هذه السّلسلة.

بلهفة فرصة العيش وسط هؤلاء النّاس، الذين سبق لي أن أخذت مقاييس رؤوسهم. كان لدي الفضول للتعرّف إلى عاداتهم وخرافاتهم وتقاليدهم، وتسليط الضّوء على سيكولوجيتهم وأساليب حياتهم، والتي تشكّل بمجموعها مفاتيح فكّ الشّفرة الأنثروبولوجية لعالم الأجناس البشرية. هل ستسهم لغاتهم وثقافتهم في تصنيفهم على أنهم من عرب الشّمال، أو عرب الجنوب الغربي؛ أم أنهم سيستعصون على أيّ تصنيف يمكن العثور عليه داخل حدود جزيرة العرب؟

من المفاتن وعوامل الجذب الأخرى الأحبّ إلى قلبي التي حبا الله بها هذه الجبال هي وفرة الصّيد فيها. لذلك، فقد عمدت إلى إعداد بندقيتي الوِنچِستَر[1] Winchester وتحضير الطّلقات وشبكة صيد الفراشات وصناديق التّبرعات والأدوات الجراحية وعبوة الفورمالين وعدد من ألواح الصّابون الحاوية على مادة الزّرنيخ والقطن الخام. تطرحُ جزيرة العرب الواقعة على تخوم ثلاثة أقاليم حيوانية كبرى تشكل أقاليم العالم الرّئيسية مسائلَ ذات أهمية خاصة، وحيث أن متاحف العالم تفتقر تقريباً إلى أيّة نماذج أو عيّنات عن الحياة حيوانية لوسط هذه المنطقة الجنوبية بالذّات من جزيرة العرب، فإنّ متعة الصّيد ستكون مضاعفة.

تناسيتُ بندقيتي عن قصد، لأني إذا ما كرست وقتي لصيد الطّيور البرية بهدف الاحتفاظ بها كعيّنات، فسيستغرق مني هذا العمل وقتاً طويلاً. وكان مديرُ أعمالي، علي محمّد، من أبناء مسقط، الذي سبق ورافقني في رحلتي السّابقة عبر هذه الجبال في العام 1929–1930، وكان يُحَضِّر الطّيور التي أصطادها، قد وقَعَ فريسة المرض في مسقط قبل انطلاقتنا، وبقي هناك.

وبما أنّ كل عيّنة من الطّيور والحيوانات يتم صيدها تتطلب سجلاً خاصاً بالاسم والموقع والارتفاع عن سطح البحر والجنس والتّاريخ، إضافة إلى إعدادها، فإنّ

(1) الونْچِستَر *Winchester* جنس شهير من البنادق أميركية الصّنع، في نيو هيڤن بولاية كونّيتيكت. ولاَ يبيّن لنا برترام توماس إن كانت من نوع التلقيم بالعتلة Lever Action من عيار 45. (11.43 مم)، أم هي بندقيّة ذات جف أملس من عيار 12.

السّـؤال الذي كان يدور في خَلدي تمحور حول كيفية تقسـيم ساعات استيقاظي على النّحـو الأمثل بين هـذا العمل وبين وضع الخرائط وتدويـن الملاحظات. لكن الخبرة والتّجربة أسهمت في حلّ هذه المعضلة. عملية السّلخ الأوّلية لحيوان كبير من الثّدييات - حيـث أننـي أنا من كان يقوم بإجراء الشّـق الجراحي الأول الطّويل - أمكن ترك هذه المهمـة لأحد الأعـراب الرّاغبين بذلك ليقـوم بها، دون أن يُعهد إليه بتنفيذ اللمسـات الأخيرة. الجمجمة أيضاً، يمكن وضعها في الماء الحارّ وتترك لتنظيف نفسها بنفسها. أمّـا الأفاعي وغيرها مـن أنواع الزّواحف، فلم تكن تحتاج إلا إلى تفريغ أحشـائها قبل حفظها في عبوة الفورمالين؛ والفراشات والحشرات كذلك لم تكن تتطلب سوى قدر مـن الرّقـة والحنان في التّعامـل معها؛ بينما كانـت الطّيور والعصافيـر العادية الصّغيرة تستغرق الكثير من وقتي نظراً لرقّة جلودها ورهافتها.

وهكـذا، فقـد كان علـي أن أهجـر إدارة صديقـي المميّـز فـي جنـوب كينزنغتـون Kensington السّـيد إن بي كينير N. B. Kinnear، الذي جعل مني اهتمامُهُ وتشجيعُه الشّخصي جامعَ عيّناتٍ لمتحف التّاريخ الطّبيعي.

كانت انطلاقتنا عند عصر التّاسع عشر من شهر نوفمبر 1930 مع مجموعتي المؤلفة مـن اثنين مـن أبناء قبيلة كثير وعلـي الضَّبعان (ثلاثة مرافقين من رحلتي السّـابقة العام الماضي) وخمسـة من عبيد الحكومة. وكنا قد رتبنا موعداً للقاء مُضيفيَّ من أبناء القَرَا في نقطة معيّنة عند سفح الجبل.

كانت طريقنا تتجه شرقاً على طول الشّاطئ أمام الحافة Hafa عبر بساتين جوز الهند التـي تفصلهـا عن مدينة البُليـد Balid الأثرية. بعدها أقبلنا على السّـهل الذي يحتضن بعض الأوابد الأثرية[1] المسـمّاة اليوم بالحسيلة Hasaila، ومع ذلك، فهنالك حضارة

---

(1) كتب المؤلف: أهم سمات هذه الأوابد عمود بدائي بسيط بقائم ثماني الأضلع ورأس مربع ذي طنف corbelled وقاعدة شبيهة مربعة، شكل من أشكال المونوليث monolith البدائية. وهو عادة بارتفاع ستة أقدام فقط، وهو يوحي بقاعدته ورأسه ذي الطّنف بأنه كان يشكل دعامة لأقواس. وطيدة plinth مرتفعة تتصاعد متدرّجة بطول القامة تدعم عمودين أو أكثر وفق الحجم، وحولها تتناثر بقايا حجارة مربعة الشّكل سوداء بفعل الزّمن وقدم العهد.

أقدم بكثير من تلك الموجودة حالياً، بدلالة هذه الصّروح والشّواهد الأثرية، بينما تشهد الآبار القديمة وأقنية الرّي الجافة وخطوط الأرض المحروثة على وجود صناعة سابقة. والمقالع السّطحية العديدة المنتشرة في السّهل الصّخري تشير إلى أزمان غابرة كان فيها الحجر يستخدم على نطاق واسع كمادة للبناء. قد يعمد المزارعون اليوم إلى بذر بعض الحبوب فيها نظراً للرّطوبة المحبّبة تحت سطح التّربة، وفي الأماكن النّائية تشكل هذه المواقع ملاذات آمنة للنّاس عند تفشّي الجُذام والجدري في أنحاء السّهل بصورة دورية[1].

بعد ليلة قضيناها في السّهل وراء رزات Rizat حرمنا فيها البعوض من نعمة النّوم، انطلقنا نحو جبل ناشِب Nashib، الجبهة الشّامخة لجبال القَرَا.

مررنا بالحديقة البيئية لجلالة السّلطان في محمولة Mahmula ودخلنا منطقة السّفوح الجلية في الخلف؛ وهناك توقفنا عند إحدى الأيكات، قرب جدول رقراق كان يُخوِّضُ فيه قطيعٌ من الماشية في رتل أحادي وبعض أفراده يجلس بتكاسل وهو يرمش بعيونه في ظل الشّجيرات الكثيفة.

يقع هذا الجدول المائي في رزات على ارتفاع ميلين فوق ملوى العود Milwah al Aud' المكلّلة بالأشجار، ومن ثم يُحمَل في قناة مائية قديمة خضراء اللون من كثرة الطّحالب ونباتات السّرخس، بمحاذاة ضفاف جرداء حمراء اللون، إلى أن ينحرف مارّاً عبر السّهل في قناتين من صنع الإنسان، إحداهما تتجه صوب مزار حمران Hamran والأخرى عبر محمولة Mahmula باتجاه رزات، حيث تتناوب على الجود بخيرها وعطائها.

في الصّباح، أخذتُ شبكة صيد الفراشات وهبطت من مخيّمي نحو الجانب البعيد من الحوض الصّخري الجاف لتفحّص بعض الأحجار القديمة، حيث تبيّن لي بأنها كانت قبوراً لوحوش وحيوانات ضخمة – مسطحاتٌ صخرية عملاقة بيضوية الشّكل

---

(1) كتب المؤلف: قيل بأنّ القوارب الشّراعية (الدّاو) dhow هي من جاءت بالوباء من الخليج العربي.

بطول اثنتي عشرة خطوة، على غرار تلك التي شاهدتُها في خور روري Khor Ruri وخور صولي Khor Suli. والعرب ينظرون إليها كدليلٍ على الإنجازات العظيمة للإنسان الأول.

في أسفل الوادي، أقبل علينا أحد رجال الجبال، راجلاً، حيث بادرناه بالتّحية ورحّبنا به. توقف لبرهة، وبعد أن شكرنا على استدعائنا له برفع بندقيته فوق رأسه، تقدّم إلى المكان الذي كنا نقف فيه. كان رجلاً يشكل أنموذجاً لأبناء هذه الجبال، قصير القامة، أسمر اللون، ذا شعر أسود أشعث أجعد منكوش، وغير ملتحٍ تقريباً. كان ذا ملامح تميّزه على الفور عن أبناء شمال جزيرة العرب، بحاجبين عريضين وأذنين صغيرتين جداً وأنف غير أرمني، أو أرمينويدي[1] armenoid وعينين سوداوين صغيرتين مستديرتين غير أرمنيتين أرمنويديتين أيضاً، وذقن مستدقة متراجعة وفكّين ضعيفين مربّعين أسفل الأذنين؛ ويتميز أيضاً بساقين نظيفتين متناسقتين، وإنّما بُنية رقيقة وساعدين ضعيفتين. كان لباسه عبارة عن عباءة نيليّة اللون من قطعة واحدة تصل حتى الرّكبتين.

كان جسده الأسود المبقّع باللون القرمزي في بعض الأماكن بسبب لون العباءة عارياً، وكذلك ساقاه وقدماه، وكان حاسر الرّأس، إلا من محفيف mahfif ضيّق، وهو عبارة عن شريط رقيق من الجلد المجدول الملفوف تسع مرات حول الرّأس، على طريقة العقال العربي.

«هيت بي خار؟»[2] قال أحد العبيد، الذي كان يعرف التّحية باللسان الشِّحري Shahari.

لم يكثر الرّجل البرّي من الكلام، لكنه كان يرمقني بنظرات ملؤها الاستغراب "Hur! Weled en nas" (حُرّ ابن حُرّ) أو (حُرّ ولد النّاس) كناية عن أنّي لست من سلالة العبيد.

---

(1) كتب المؤلف: السّلالة الأرمنية (Armenoid) أو عنصر الأرمنويد ينتشر في مرتفعات أرمينيا وفي المرتفعات الواقعة بين إيران شرقاً وتركيا غرباً وجورجيا شمالاً والعراق وسوريا.

(2) يكتبها المؤلف هكذا: Het bi khar ولست أعرف كيفية ضبطها باللّسان الشِّحري، فأرجو ألا أكون أخطأت.

«إنّه كافر، أليس كذلك؟».

«حاشى لله! إنّه وزير سلطانك».

سألتُ ضاحكاً الرّجل، الذي قال بأنّه من قبيلة القَرَا، إن كان سيبيعني تلك الفاصوليا التي يحملها معه في حقيبته الجلدية *anit*، حيث أنّه كان في طريقه لبيعها في رزات.

«بكم؟».

«بدولار واحد».

أخذ نفساً قصيراً، كما هي عادة الجميع هنا، وتعني «نعم»، ثم أخذت منه الفاصوليا التي لم أكن راغباً بأخذها، وبذلك فقد صرفت انتباهه عن الأمور الدّينية. خلال ما تبقى من النّهار قام بإرشادي أعلى الوادي إلى منبع الجدول المائي، حيث تمكّنت من جمع غلة وافرة من اليعاسيب dragonflies والفراشات والسّحالي.

كان الجدول المائي ينبع من إحدى المغاور عند قاعدة أحد المدرّجات الشّامخة للسّفوح الحراجية متدفقاً نحو بركة واسعة تغطيها نباتات القصب بطول القامة. جلستُ عند حافة البحيرة في ظلال إحدى الأشجار العملاقة أتأمّل أسراب الأسماك الصّغيرة تسرح وتمرح عبر الماء، بينما عمد أحد عبيدي إلى التّخويض في الماء جيئة وذهاباً في محاولة عبثية لاصطيادها بشبكة صيد الفراشات خاصّتي.

شدّت انتباهي على حين غرّة حباتٌ من نبات الدّخن وغيرها من فتات الطّعام على قاع البحيرة. «نغوش» Nughush قالا لي. النّاس هنا تلقي بالخبز فوق المياه الجارية لاسترضاء الأرواح subiro التي تحوم فوقها. والكلمة على غرار مثيلتها في ثقافتنا تعني أرواح الموتى، وهي مسكونة بقوى الخير والشّر وقادرة على معاملة البشر مثلما تُعامَل. في الليل يلقي السّكان المحلّيون بلُقيمات من التّبغ والطّعام لهذه الأرواح وهم يصيحون: «نحن أبناؤك، وبناتك، فلا تؤذينا؛ وكوني يقظةً كيلا يُلحِقَ بنا الأشرارُ أو الأرواحُ الشّريرة أيَّ مكروه».

هنالك قصة شهيرة لينبوع رزات هذا مرتبطة بالسّحر أيام الوالي سليمان. بيت

زيان Bait Zaiyan، جزء من قبيلة الشّحرة، ادّعوا لأنفسهم بالحق الحصري لممارسة «النّغوش» Nughush هنا. فنازعت قبيلة القَرَا بيت زيان Bait Zaiyan وتابعيهم هذا الحق الحصري وطالبت بنصيب مكافئ في القربان وفي الرّضا والرّحمة الرّوحية النّاجمة عن ذلك. لقد قرّر الوالي، وعينُهُ على حصّة حكومته بالذّات في السّهول، أن ينال الفريقان كلاهما حصصاً متساوية، ولكن بشرط أن تقوم الحكومة بالذّات بتزويد المتخاصمين بذات الكميات بالضّبط من القرابين، ضماناً لعدم التّعرّض للغشّ والخداع، وبذلك تغدو أحد الشّركاء. ولكن جاءت أوقات كان فيها سليمان يقاتل أبناء الجبال أولئك؛ وهنا لاحت لبيت زيان فرصتهم السّانحة؛ حيث قاموا باستدعاء أرواح أسلافهم الذين جعلوا الجدول يجري أعلى التّلّة، ما تسبّب بجفاف السّهول وجعل الحكومة تخسر نصيبها؛ أو هذا ما تقوله الأسطورة.

إنّ العديد من العقائد الوثنية والعقائد الأخرى المؤمنة بوجود الأرواح لا تزال موجودة وتُمارَس عبر هذه الجبال. وجميع السّكان المحلّيين يؤمنون إيماناً راسخاً بهذه الأساطير؛ بينما في مناطق أخرى من جزيرة العرب المسلمة يجري استنساخها دون إضفاء صفة إلهية عليها على الأقل.

ومن العادات والتّقاليد المحلية الأخرى، عادة قربان الدّم التي يجري تنفيذها في جربيب Jurbaib قبيل موسم الحصاد، عندما يجري سوقُ بقرةٍ حول المحاصيل ثم يصار إلى ذبحها وسكب الدّم في قنوات الرّي ليمتزج مع الماء، ثم يجري إلقاء قطع من اللحم بين عيدان الذّرة.

كانت التّلال المشّجرة المتألقة تحت أشعة الشّمس الاستوائية تشرئب فوق بركتنا حيث كنا جالسين نستنشق الهواء العليل ونصغي لتغريد الطّيور الذي يتردّد صداه في أنحاء الوادي. كان قطيع من الأبقار يحدق بحبور في مكان ما على الضّفة المقابلة. كانت هنالك أيضاً امرأة سوداء شبه عارية تحيط بها صديقاتها اللاتي يقمن بتمشيط خصلات شعرها الأشعث، وخيالها يتراقص فوق صفحة الماء، بينما أسلمت أخرى نفسها لإغفاءة نهارية تحت شجرة مجاورة.

عندما طلبنا بعض الحليب، هبّت إحدى الإماءُ الصّغيرات ودرجت نحونا بخفة ورشاقة ومعها آنية كبيرة من الحليب، كوفئت عليها بتحية خليعة من مرافقي الجبلي. أخبرتنا بأنّ بقية النّسوة كنَّ سيداتها، زوجات أحد السّادة المحليين الذي كان يملك القطيع والذي قد يحضر بنفسه إلى هنا في أيّ وقت. علمنا منها أيضاً أن صاحبنا القرويَّ المفترض لم يكن من قبيلة القَرَا كما زعم، وإنما من قبيلة الشّحرة.

مثل هذا النّوع من الكذب هو مِلحُ أبناءِ هذه الجبال الذين يتّهمهم أبناء السّهل بحق بعجزهم عن قول الحقيقة. «إذا كان هنالك ثمّة من شيء يفعلونه خيراً من الكذب، فهو السّرقة»، أخبرني الوالي. إنهم لصوص مخضرمون محنّكون لا سبيل إلى إصلاحهم؛ فالأخ يسرق أخاه، والأب يسرق ولده، والولد الذي لا يظهر ميلاً نحو السّرقة يغدو موضع شك، ورجولته ميؤوس منها. أمّا أن تعمد الضّحية المقصودة إلى إبلاغ السّلطات عن لص قُبض عليه بالجرم المشهود، فهذا غدرٌ وخيانة. وإذا ما قبض الضّحية على السّارق بنفسه، فهذا جُرمٌ مضاعف. قد تُحال النّزاعات القضائية إلى المحكمة، ولكن ليس السّرقات الموصوفة؛ وهذا مناقض لثقافة البدو، الذين يعتبرون السّرقة الموصوفة عملاً مقيتاً. مع ذلك، لا تثريب عليهم في غارة مفتوحة يشنّونها على الإبل، فهي لا تندرج في قاموس السّرقة عندهم، وإنّما في قاموس الحرب، من قبل رجال يستسهلون أن يَقتلوا، ويُقتلوا.

وأبناء قبيلة الشِّحرة على أيّة حال، عليهم تقديم البرهان على أنهم أيضاً ذوو خصال وسجايا خاصّة بهم. على أحدهم أن يظهر شجاعة نادرة عندما يهاجم ويقتل حيّة كوبرا بطول خمسة أقدام وقطر أربعة إنشات بعصاه المشعبة. ولا يمكنك أن تقتل على هواك أيضاً. فالأفعى، أو أيّ حيوان آخر لهذا الغرض، يجب أن يبقى رأسها سالماً لكي يصار إلى الاستفادة منه في التّجارب العلمية، لذلك فإن مكافآتي قد باتت في الميزان. لكن أفعى برأسٍ سالم هي عادة أفعى على قيد الحياة، وهذا الشِّحري كان في الحقيقة يحمل هذا الزّاحف المُهلك حياً، رغم كونه بظهر مكسور، لعدة أميال على عصاه الصّغيرة التي يرفعها أمامه. كان نافقاً عندما مدّده على العشب، باستثناء رعشات

عَرَضية واهية من الذّيل، الذي قام الرّجل بدهن أجفانه به، زاعماً بأنه دواء يفيد العينين. لكني تساءلت عن إمكان نسب بعض الدّلالات السّحرية لهذا الذّيل الذي يبدو بأن الحياة كانت تنسحب منه رويداً رويداً.

الآن وصل رجل كبير الجسم من الطّراز الذي يميز أبناء السّاحل، وهو مختلف كلّياً عن رجل الجبال، معرّفاً عن نفسه بأنه السّيد حسن، صاحب النّساء والأبقار على الجانب الآخر من النّهر. هل كان لديّ ما يكفي من الحليب؟ دعه يرسل في طلب المزيد؛ وهكذا شرعنا في حديث ودّي حول عالمه، وأسعار التّمور في ظُفار وموسم حصاده هذا العام في البَصرة وعُمان، والذي سيحدّد الأسعار المستقبلية. أخبرني عن الجبال. السّرقات منتشرة بكثرة، وعلى النّاس الصّالحين، وكذلك الطّالحين، البقاء متيقظين طوال الليل. كانت بندقيته مُلقَّمة وجاهزة للاستعمال. لماذا كانت الحكومة ضعيفة هكذا؟ لماذا لا يعمد السّلطان إلى قطع يد السّارق كما في أيام زمان؟ هذا التّقليد المتّبع المتمثل بأخذ السّارق إلى مسقط، وإعادته سالماً غانماً بعد سنة، لا جدوى منه على الإطلاق.

ولكن بالتّأكيد، على ما أعتقد، فإنّ القبلي لن يقدم على السّرقة من أحد السّادة، وإلا لكانت ظُفار تواكب التّطوّر. لأنّ سادة[1] ظُفار وأشرافها هم نبلاؤها في أعين النّاس، ويَسْمُونَ مرتبةً على القبائل ذاتها، كونهم من الأحفاد المنتجبين للنّبي محمّد. فالذي يسعفه الحظ بمسك أيديهم قريباً من منخريه وأخذ بضع نشقات عميقة، كما يفعل كل قبلي محلّي، سيحظى جرّاء ذلك بالخير والبركة.

كان السّيد قد تطرّق إلى موضوع العفاريت، وهي إحدى تجلّيات الأرواح الشّريرة، ولكنّي أكّدت له بأنه ليس لدينا عفاريت في بلادنا، وبالتّالي لا علم لدي بكيفية استرضائها وتطييب خاطرها.

(1) كتب المؤلف: السّادة هم من سلالة الحسن والأشراف من سلالة الحسين. في الحقيقة، بالطّبع، هم ليسوا من السّلالة المباشرة للنّبي محمّد، وإنما من سلالة عليّ، الذي تزوّج من ابنة النّبي فاطمة. والعُمانيون، الذين ينتمون إلى الطّائفة الإباضية Ibadhism أي (الخوارج القدامى)، لديهم قول مغاير حول ذلك.

«والله لقد حَمَلتْ زوجتي سبع مرات، ولم تتمكّن من الإنجاب ولا مرّة واحدة»، أخبرني قائلاً. «لقد أخذتهم العفاريت».

هنالك العديد من الأرواح الشّريرة الأخرى، كالجنّ والجنّيات والزّار (الجنّ الأخيار) zars. من بين هؤلاء يعد الأخيار zars الأكثر تعاوناً ومساعدة، فالجن تسالم أحياناً، لكن العفاريت والعياذ بالله! من أشرّ خلق الله.

قرّرنا أنا وعلي الضَّبعان أن نسهر طوال تلك الليلة على أمل صيد أحد الضّباع، حيث أنّ الضّباع والذئاب منتشرة بكثرة في هذه السّفوح[1].

أخبرنا أحدهم الليلة الفائتة أنّه سمع أصوات ضباع قادمة من التّلال المجاورة؛ حيث يبدو بأنّ أضواء مخيّمنا لا تشكّل أيّ فرق بالنّسبة لها في مغاورها. اليوم، وأثناء غيابي لبعض الوقت، «قام عليٌ ببناء مكمنٍ للصّيد على الطّريقة التّقليدية، وهو عبارة عن نصف دائرة واطئة من الحجارة المكدّسة فوق بعضها يتسع لكلينا ويوارينا عن أعين أيّ حيوان قادم باتجاهنا.

قام بتمويه فتحات إطلاق النّار بشكل جيد، وكذلك كامل الجدار، بالأغصان الصّغيرة. في الليلة الأولى، قام بوضع بقايا الأحشاء الدّاخلية لأحد الخراف على مسافة ثماني خطوات من جدار المكمن، كطُعم يهدف إلى اجتذاب الوحش، مع إبقاء النّار مشتعلة بعيد الغروب لحمل الرّائحة. في الليلة الثّانية قام باستخدام أسماك السّردين كطعم، ومرّة أخرى لم يحدث شيء. وفي الليلة الثّالثة، انسحبت من المكمن، تاركاً المهمّة لأحد البدو من قبيلة كثير. وجاء الضّبع. عاجَله بطلقتين، وأيقظني صوت عواءٍ مألوم قبيل منتصف الليل، وهرعت إلى المكان. «لقد فرّ بعد أن أصيب»، صرخا قائلين، وهما يشيران إلى بركة من الدّم. مع تيقنهما من أنّ الإصابة كانت مميتة، فقد عمدا إلى تتبع الأثر على ضوء القمر، مقسمين بالله على العثور عليه ميتاً، لكنني عندما

---

(1) كتب المؤلف: يجدر بي أن أنوّه هنا إلى أن أسد الجبال يتواجد في أحراش الوديان الأكثر عزلة؛ والوعل العربي يعيش وراء الجبال المأهولة وفي جبل سمحان؛ والثّعالب تتواجد في كل مكان، والغزلان متواجدة بكثرة في مناطق السّهول.

استيقظت في الصّباح، سمعت بأن الحيوان قد تمكن من الفرار بجلده، ليموت ربما في إحدى المغاور.

«لو أن ذلك حدث في صحراء مكشوفة»، قال البدويان، «لأمكننا اقتفاءُ أثره بسهولة حتى جحره، لكنه بمجرد أن سلك الوادي الصّخري، فقد بات ضمن حدود محميّته».

* * *



أطلال البليد الأثرية



شاب شحري يمسك بأفعى

الفصل الخامس

في جبال القَرَا، عقب الأسلاف القدامى وقربان الدّم

«باطنهم أنّ بيوتهم إلى الأبد مساكنهم إلى دَور فدَور ينادون بأسمائهم في الأراضي». مزامير داود، 49: 11.

اللهجة الشّحرية	الاسم الإقليمي الحالي	قسم القَرَا	سلف الشّحرة
Had bi Dhomari	Had bi Dhomari	Bait Tabok	Zuferol
Had bi Dhomari	Had bi Dhomari	Bait Kashob	Gufarim
At Khuti	Al Khati	Bait Qutun	Zart
Ai Qarho	Qarha	Bait Ma'ashani	Ainarun
Ait Fat	Faiyah	Bait Ma'ashani	Hizol
Ait Fat	Faiyah	Bait Jabob	
Qubulat	Qibla	Bait Sa'id	Bil Ziyun
Adin	Diyan	bait Umar (Ainr)	Qitun

تقسيمات Zarbiq الكثيري: Ai Zuftair – Air Zurbaig – At Ghuzub

* أت at، أيت ait و أي ai، هي المفردات الشّحرية لـ بيت bait.

* إير ir، آير air، بير bir هي النّسخ الشّحرية لـ بن bin.

لا زالت جبال القَرَا تسمّى محلياً على أسماء الأصحاب الأصليين للبلاد، وإنّ أبناء

قبيلة الشّحرة، الذين يُعدّون باتفاق الجميع أقدم قبيلة في هذه الأصقاع، وهم، وفق التّقليد المحلّي، يتحدرون من نسل شدّاد بن عاد. أمّا اليوم فهم ضعفاء، متفرّقون، متّضعون، ولا أحد يقبل بتزويجهم، وهم عِرقٌ متضائل لا يزيد تعدادهم حالياً عن أربعمئة رجل، يعيشون في جماعات تحت كنف أسيادهم من آل القَرَا، يحتطبون ويستجرّون المياه لهم؛ ومع ذلك، يتحدّث الرّجال عن أوابد رباط Robat بقولهم إنّ موقع مدينتهم العظيمة إريوت Eriyot كان هنا. إذا ما كان الأمر على هذا النّحو، فإن أفول نجمهم قد غيّر وجه الجبال، لأنّ أبناء قبيلة القَرَا، وهم بلا منازع أسياد الأراضي من ضَربَة علي Dharbat Ali حتى حَضْبَرَم[1] Hadhbaram. لم يقوموا ببناء أيّة مدينة أو مسجد، لكنهم كانوا يعيشون في العراء وسط الأحراش أو في كهوف أو بيوت من القش. مصادر ثروتهم كانت محصورة في الإبل وقطعان الماشية التي لا حصر لها وبساتين البخور. مع ذلك، ومن خلال سيطرتهم على قبيلة الشّحرة[2]، فقد تشرّبوا ثقافة الشّحرة، لأنّ لغة أبناء هذه الجبال ولباسهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية يُعتقد على نطاق شعبي بأنها مكتسبة من مواليهم وتابعيهم المحرومين من حق التّملك.

لا أحد يعرف متى حدث ذلك. ابن بطوطة، الرّحالة والفقيه المرّاكشي الشّهير، في سياق كتاباته في القرن الرّابع عشر عن حقبتنا التّاريخية، بعد خمس وعشرين عاماً من التّجوال عبر مصر وجزيرة العرب وبلاد ما بين النّهرين، كتب عن ظُفار قائلاً[3]: «ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه النّاس بأهل المغرب في شؤونهم». ويذكر أنّ الشّريحة البعيدة عن المركز لم تكن عربية، وإنما من النّمط السّوداني.

في المناطق المحيطة بجبال القَرَا وما يليها من خط الطّول 51,10 إلى 56,20 تختلف القبائل من النّاحية الفيزيولوجية عن عرب الشّمال، ويتكلّمون لغاتٍ غير عربيّة[4].

---

(1) كتب المؤلف: باستثناء جيب آل كثير في الوسط الغربي بين جرزيز Gurzaz و Thifa.
(2) أنوّه إلى أنّ اسم الشّحرة قد يُلفظ أحياناً في ظُفار: الشّحارة، وهكذا يكتبها المؤلف Shahara.
(3) النّص من رحلته: «تُحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».
(4) كتب المؤلف: قمت بتشكيل مفردات من اللغات الأربع المحكية، وهي الشِّحري والمَهري والبطحري والحرسوسي، كل مجوعة منها مكوّنة من خمسمئة كلمة، واستخرجت بعض

وهـذه اللّغـات هي لغات قبائـل القَـرَا Qara والشّـحرة Shahara والمَهْرة Mahra والبرهامة[1] Barahama والبلحاف Bilhaf وبيت الشّيخ Bait ash Shaikh والبطحري Bautahara والحراسيس Harasis والعفـار Afar، المعروفـة مـن قبل أهـل عُمان بـ «أهل الحضرة» Ahl al Hadara، وهي تسـمية تتوافق ربمـا مع هَدورام[2] Hadoram المذكورة في سـفر التّكوين (بحـذف الميم الأخيرة، وهي لاحقة سـاميّة تفيد الجمع، والأداة في اللغة السّبئية القديمة) وأدراميتِه Adramitae التي يذكرها پلينيوس Pliny. هـذا وإنّ هَدورام وحَضَرْمَوِت Hazarmaveth (يوضعان عادة على قدم المسـاواة مع حضرموت Hadhramaut) ورد ذكر كليهما في سـفر التّكوين تحت مسمى الأخوين، وظُفار هي على تماس مع حضرموت.

يبـدو أنّ جبـال القَـرَا الواقعة في وسـط هذا الجيـب الأنثروپولوجي مـن جنوبي جزيرة العرب قد وفّرت ملجأً وملاذاً طبيعياً للسّـكان البدائيين الأصليين أو المسـتوطنين الأوائل المندحرين جنوباً وشرقاً أمام الشّعوب الأكثر قوة وجبروتاً، أو مُهاجَمين من جهة البحر.

مبادئ القواعد. إنها تنتمي للمجموعة السّامية من اللغات، لكنّ لها صلات تركيبية أقرب إلى الحبشيّة منها إلى العربية.

1 - الشّحري يتكلمها أبناء القَرَا والشّحرة وبيت الشّيخ.

2 - المَهْري يتكلّمها المَهْرة والبلحاف.

3 - البطحري تتكلّمها قبيلة البطحري.

4 - الحرسوسي يتكلّمها الحراسيس والعفار.

ولغة الشِّحري غير مفهومة لمستخدمي اللغات الأخرى، الذين يفهم بعضهم بعضاً بصعوبة.

لم أكن أدري بأن عالم اللغات الألماني الدّكتور ماكسيميليان بيتنر Maximilian Bittner كان قد كتب تقريراً فصلاً عن لغتي المَهْري والشِّحري من خلال عمله في مادّة جرى جمعها في حضرموت وسُقطرى Socotra من قبل بعثة الدّكتور مولر الاستكشافية لجزيرة العرب عام (1902) وكذلك من قِبل بعثة الكونت لاندبرغ الاستكشافية لجزيرة العرب عام (1898-1899).

أما لغتا الحرسوسي والبطحري، اللتان هما على ما يبدو فرعان للغة المَهْري، فلا أعتقد بأنّ أحداً سبق له توثيقهما.

(1) كذا بالأصل، وهي تعرف في ظُفار ببيت برهام.

(2) من الواضح أن المؤلف لم يفهم الفارق بين حرفي الهاء والحاء في اللّهجات العربيّة الجنوبيّة، فظنّهما واحداً في العبارات المترجمة إلى اللغة الإنكليزية.

ياله من مكان رائع! جبالٌ بارتفاع ثلاثة آلاف قدم تنعُمُ بالدّفء فوق محيط مداري، سفوحها اليانعة المواجهة للبحر تغطيها غابة حرجية متموّجة بقممها المدثّرة بالمروج الصّفراء المتدرّجة. وتنحدر السّفوح وراء هذه القمم شمالاً نحو نجدٍ من الصّخور الرّملية الحمراء. مشهدان متباينان مجافيان للحقيقة، لكن الحقيقة تتجلّى هناك في أيّة نقطة عبر الشّريط السّاحلي فوق سهل جربيب Jurbaib. وكم كانت بهجتي عظيمة عندما أقبلتُ إليها فجأة عام 1928 من الفيافي الواقعة على التّخوم الجنوبيّة. وكان المظهر الأحمر[1] هو ما بدا أوّل الأمر. وثمّة مهاد حصوي أبيض (وادي ذيكور) كان يتّجه إلى الأعلى صوب وهد رائع لجُروف حمراء، يبلغ ارتفاعها ثلاثمئة قدم وأكثر، وواجهاتها محفورة من جرّاء الطّبيعة إلى تجويفات تلقي ظلالاً داكنة مذهلة. لقد أعاد المشهد إلى ذاكرتي مدينة البتراء العتيقة. ومن هنالك، عبرنا مساقط مياه القُطن، العامرة بدغلة من شجيرات «الطّشقوت»، وهي شُجيرة وبريّة أصغر من شجر اللُّبان، وتابعنا طريقنا نزولاً عبر الوديان العامرة بالأدغال إلى دَهَق، وهي هوّة رهيبة يبلغ عمقها خمسمئة قدم، جاء منها الزّوجان بِنت وتساءلا إن كانت هي التي ذكرها بطليموس باسم أبيسّابوليس Abyssapolis. ولكنّ قبل أن نبلغها كانت الحافة الزّائغة للبحر البعيد تسمو فوق الجبال وتتدرّج نزولاً نحوها. ومن هنالك انحدرنا إلى شفا وادي دربات، ونعمنا بمرأى فريد إذ نظرنا إلى الأسفل عبر كتلة متشابكة من رؤوس الأشجار نحو الجدول، الذي يؤطّره شجر الصّفصاف المرتجف، إلى جدار من دُغل استوائي ينتصب منفرداً فوقنا على جميع الجهات. شققنا طريقنا صوب المياه الهادرة،

---

(1) كتب المؤلف: ليس من المستحيل كما أظن أن تكون كلمة ظُفار مشتقة أصلاً من «ذو عفار» Dhu Afar (ال التّعريف العربيّة لا توجد في هذه اللّغات الجنوبيّة)، وهي تعني: البلد الأحمر. واشتقاقات كلمة عفار عديدة، ومنها: عفار: إحدى كبريات بساتين اللّبان. عفار: وادٍ كبير، وكذلك اسم قبيلة. عَفور: وادٍ كبير. عُفور: غيوم، وقد يكون المعنى (البلد ذو الغيوم) أيضاً محتملاً فضلاً عن (البلد الأحمر).

قلت: ليت المؤلف لم يكلّف نفسه عناء البحث في اشتقاق اسم ظُفار، فإمكانياته الفيلولوجيّة ضعيفة للغاية، وهو هنا لا يميّز الفارق ما بين حرف العين والهمزة في العربيّة، وهما حرفان لا إبدال بينهما.

وكان صوت تقصّف الهشيم خلال مسيرنا يفزع طيور مالك الحزين (البلشون) التي تعيش في هذه الغابات.

إنّ الحياة البرّيّة في رزات، الممتعضة من تطفّلنا الطّويل، كانت تتخلّى عن وساوسها، ولذلك قرّرت أن أغادر في اليوم التالي، 5 نوفمبر، وأتوجّه صعوداً صوب الجبال. وكان الشّيخ حسن ليتابع رغباتي قد وصل مع خمس نوق، وهي دواب كبيرة ذات أسنمة سمينة أثارت إعجابي، ولكن بخصوص العمل فقد توجّب علي أن أمرّ بتحرّري المعتاد من الخيبة بخصوص الأباعر النّاشئة في الجبال. فهذه الأباعر غير المعتادة على أيّ حِمل سوى أكياس اللُّبان أو السّردين، يؤدّي أيّ حِمل أصغر حجماً على الجانب الخطأ من ظهورها إلى إصابتها بالاضطراب. وإنّ الجئير والتّذمُّر المعتادين في غضون عمليّة التّحميل قد تبعهما الآن ركلٌ للأرض ومحاولات شرسة لإلقاء أحمالها، ولذلك فبعد تأخّر لساعتين للتّجهّز للانطلاق، كنّا أيضاً نضطرّ للتوقّف من ساعة إلى أخرى لإنقاذ أو ضبط المتاع.

خلال ساعتين قمنا بالمسير حول سفوح الهضاب، متجهين غرباً صوب مدخل وادي[1] Thidot، وهو أحد الوديان الكبرى المعترضة التي تُفضي إلى الجبال[2]. غدا الوادي على الفور مليئاً بالأدغال حالما اتّجه طريقنا صعوداً عبر سِرب عسير تكتنفه أغصان الأشجار، أفضى بنا إلى غدير كبير يغذّيه جدول ضئيل يسمّى صحلنوت Sahalnaut (وهنا، كما هي الحالة المعتادة في هذه الجبال، يحمل الماء اسماً مختلفاً عن اسم الوادي). دلفنا خارج الضّفّة اليمنى لنتسلّق بشكل أكثر تحدّراً باتجاه شمالي شرقاً عموماً. وكانت الأشجار تصبح أكثر كثافة خلال تقدّمنا، ممّا أجبرنا على التّرجُّل، وحلّ اللّيل قبل أن نبلغ محطّتنا المعيّنة، ولذا تابعنا على أقدامنا عبر هذه الغابة الجبليّة المعتمة الكثيفة. كان المسير غير ممتع، وتضاعف ذلك الآن من جرّاء الخوف من

---

(1) لم يتبيّن لي اسم هذا الوادي رغم البحث المطوّل في الخرائط.

(2) كتب المؤلف: الوديان الفسيحة الممتدّة من الشّرق إلى الغرب هي: دربات، غزوت Ghazot، أجرثن Ajarthun، ريثوت، عَربوت، نحيز، جرزيز.

الثّعابيـن التي تزخر بها هذه الجبال. وكان ذلك مثـاراً للممازحة ما بين صحبي، الذين يجعل إيمانهم بـ «اليوم» و«السّـاعة» والآخرة المجيدة من الأمور غير المحتملة شـيئاً بالنّسـبة لهم محتملاً. ولقد وجدتُ لنفسـي عـزاءً في الانعكاس الـذي يقدّمه موقفهم المـرح وسـيقانهم العارية، الـذي لا يُقارن بالحمايـة المتفوقة التي أنعم بهـا، غير أنّني رحت أتعثّر بشكل مستمرّ في طريقي بكتل الحجارة الضّخمة وعباءتي العربية الطّويلة تلتف بشكل مزعج حول ساقيّ.

أخيراً أفسـحت الأشـجار في المجال لواد مرتفع معشوشب ينشر البدر فوقه ضياءه السّـاحر، حيـث حططنـا الرّحـال لنبيـت ليلتنـا. إنّ خوار قطعـان الأبقار الـذي أعقبته صيحـاتُ: رهلات.. رهلات[1] Rahalat أشـار إلى أننا كنا علـى مرمى حجر من قرية مدسـيب Midsaib. سرعان ما أتتنا نعارات زبادي الحليب اللذيذ، لكني لم أكن قادراً تحـت وطأة التّعب والإرهـاق على التّعامل مع أفعى كان أحـد المحلّيين قد اصطادها وأتاني بها حيّة، وهكذا جرى وضعها في زجاجة بانتظار بزوغ النّهار.

فـي وقت مبكر مـن الصّباح كان المخيـم كله في حالة اسـتيقاظ وحركة، ووجدت نفسـي فـي وادٍ كأنـه قطعة مـن الفردوس، تحـفّ به الجُـروف الخضراء مـن الجانبين كليهمـا، والتي تكشـف هنـا وهناك عن كهـوف تزيّـن مداخلها صواعد ونوازل أشـبه بأنيـاب الوحوش الكاسـرة. حِـزمٌ كثيفة مـن عيدان القش أو السّـيقان الشّـوكية كانت تحيط بمداخل تلك الكهوف التي يمكن الولوج إليها، والتي يلجأ إليها النّاس عادة مع دوابهم أيام الشّتاء القارصة والصّيف الرّطبة.

جاءنا حشـدٌ مـن القرويين بمزيد من الحليب، الذي يشـكّل غذاءهـم الرّئيسـي، مع العسل ولحم البقر، المادّتين الغذائيتين الفاخرتين اللتين تقدّمهما جبالهم. ثمّة شخصٌ

---

(1) كتب المؤلف: اسم يطلق على البقرة ذات القرون المتدلّية. ولكل بقرة اسمها الخاص بها، وهي أسماء متوارثة (كالأسماء التي تطلق على سلالات الإبل والخيول) من ناحية الأم. يزعم راعي القطيع معرفة كل رأس من قطيعه، بحيث أنه إذا ما سُرق أحد الرّؤوس، بإمكانه التّعرف عليه بعد سنة أو اثنتين، حتى وسط قطيع غريب.

آخر يدعى حسن، رجل متقدّم في السّن يعاني من وهن الشّيخوخة، وقد وهى بصره بفعل السّنين، وهو الأب الرّوحي للقرية، أصرّ على أن يَبرحَ مكانه في الحلقة ليأتي ويجلس بجانبي. قدّموا لي القهوة مع التّمر، وقد طفق وجهه بالبشر عندما رآني أغمس التّمر في القهوة. بدا واضحاً أنه لم يكن معتاداً على هذه الملذات، إن كان حقاً يعتبرها هكذا.

انطلقت من فم شيخنا حسن تمتمات الثّناء والإعجاب وهو يرتدي العباءة النّيلية الجديدة التي قدّمتُها له كهدية، وأخبرت الرّجل العجوز بأني سأرسل له قريباً مثيلتها كهدية أيضاً.

صاح قائلاً: «بيّض الله وجهك!» وهو مصطلح يستخدم للتعبير عن الشّكر والامتنان.

«والله أنا أحببتُك يا صاحِب»، أردف قائلاً. «أنا عجوز على حافّة قبري، ولكن إذا ما قلت «لا إله ألا الله، محمّد رسول الله»، فسأقدّم لك اثنتين من بناتي زوجاتٍ لك، وكلّ ما أملك».

ساد هرج ومرج لبرهة، ثم أومأ الشّيخ حسن بوجوب التّوقف عن الثّرثرة.

كان صندوق العقاقير والأدوية خاصتي قد أكسبني شهرةً كبيرة، وأتاني بالمرضى والمصابين من كل حدب وصوب. كان المريض هذه المرة ولداً صغيراً، وقد ذوى من الهزال والضّعف الذي بدا واضحا أنّ سببه كان السّل الرّئوي؛ فقد كان يتقيأ الدّم وتنتابه حالات من الحمّى الشّديدة.

«هل لديك أيّ علاج لهذا الولد أيها الوزير؟» سألني الوالد المتوسّل. «النّاس يقولون بأنّ الكفّار لديهم علاج لكل شيء».

حدّق مرافقيَّ بالمتكلّم وأفهموه بأن مصطلح «كافر» كان تعبيراً غير مقبول بالنّسبة لي، رغم أنه لم يكن يقصد به أيّة إساءة، فكل ما كان يريد التّعبير عنه هو الإشارة إلى غير المسلمين. «إنّه وزير السّلطان»، أوضحوا له قائلين.

لـم يكن تحميـل الأمتعة عملاً يبعث على البهجة، نظـراً لكثافة النّدى. وبعد نصف ساعة من المسير وصلنا إلى نقطة تركنا عندها الوادي قرب ممرّ سعرين Sa'arin لنتجه صعوداً مسافة خمسمئة قدم أوصلتنا إلى السّهوب الصّخرية المنحدرة. وبعدها طالعتنا المروج الصّفراء المتتالية حيث يصل طول العشـب إلى مسـتوى خصر الرّجل؛ تتخلّل هذه الرّوابي هنا وهناك أو في تجاويف الجُروف الصّخرية أشجار التين الضّخمة. كان المشهد الضّبابي الواهي للبحر الأزرق يتراءى أمامنا إلى الأسفل ومن حولنا الأحراج الخضراء المتماوجة فوق نحيز Nihaz والتي تحاذي خط الأفق أحياناً من جهة الغرب.

هنـا علـى ارتفاع 1500 قدم تقتصر الحياة البرية للطّيور المنتشـرة بكثرة في الوديان السّـفلية على عدد من البواشـق والعديد مـن اللقالق الكبيرة، والكثيـر الكثير من أنواع الفراشات والجنادب والجراد.

والآن أشـرفنا علـى وادٍ بهيـج كان يشـكل وجهتنـا المقصـودة، وادي العين، وهو عبارة عن تجمّع بشري لأبناء قبيلة الشّحرة يدعى: Had bi Dhomari، فيه ينبوع دفّاق رقراق يخرج من بطن إحدى الرّوابي الخضراء. وشكّلت شجرتا تين برّيتان عملاقتان وظليلتان كأشـجار الجوز الإنكليزية مثقلتان بثمار شـبيهة بالتّفاح، شـكلتا مقيلاً مغرياً لإناخة رحلي... وهذا ما فعلته. ثلاث سـاعات من التّسـلّق أشعرتني بالظّمأ، لكنه كان من المسـتحيل الحصول على الحليب في خلال فترة الظّهيرة، وخثائر اللبن التي جيء إلـي بهـا وصلت متأخرة عـن موعدها بعـد أن تدبّرت أمري بحليب إحـدى ثمار جوز الهند الطّازجة الممتلئة.

لاح لـي من وراء التّلة ثلةٌ من القبليين من أبناء قبيلة القَرَا من جماعة الشّـيخ حسـن بنسـق متتابع وهم يـردّدون أهزوجتهـم الجبلية الشّـعبية التّقليدية danadon. احتشـد أنسـباؤهم من أبناء قبيلة العين للقائهم، وقد شـهر أحدهم سيفه للتّرحيب بهم. توقفت الجماعة القادمة متحلّقة حول زعيمها الذي ارتجل بعض الأبيات الملحمية الحماسية لهذه المناسبة، وبعدها انتظم الرّجال من جديد في نسقهم السّابق وهـم يردّدون مقاطع شـعرية جديـدة، إلى أن باتوا وجهاً لوجه أمام مسـتقبليهم، الذين بـات عليهم بدورهم

ارتجـال ردّ شـعري ترحيبـي بطريقة مشـابهة. وهكذا اسـتمرّ تبادل الأهازيج الشّـعبية لحوالي خمس دقائق من الجانبين كليهما.

كان هـؤلاء الرّجـال مـن أبنـاء الجبـال ذوي نمط عرقـي متميّـز، ببشـرتهم الدّاكنة وشـعورهم الطّويلة الخشـنة، الملفوفة والمعقودة أحياناً فوق الـرّأس، لكنها تُترك في أغلب الأحيان مسترسلة على سجيّتها الشّعثاء الغبراء. يتميّز هؤلاء النّاس كذلك بأنهم مُـردُ الوجوه، ما خلا بضع شـعيراتٍ متناثرة فوق منطقـة الذّقن على هيئة لحية صغيرة، والعديد منهم يتميّز بوجوهٍ محدّدة الملامح والقسـمات غير عربية. لباسـهم هو العباءة النّيلية التّقليدية التي بالنّسـبة للموسـرين منهم تستر نصف البدن، قاطعة إيّاه عَرْضياً ثم تُلقى فوق الكتف.

من جملة اللّباس أيضاً حزامٌ جلديّ مزود بحلقات لوضع الطّلقات يتمنطق به الرّجل حول الخصر؛ وهم حاسـرو الرّؤوس باسـتثناء رباط جلدي لتثبيت خصال شـعورهم الكثّـة الجعداء في مكانها؛ أمّا سـواعدهم وسـيقانهم السّـوداء فهي إلى مـا دون الرّكبة عارية تماماً من أيّ لباس؛ ويضع معظمهم قرطاً أحادياً في الأذن اليمنى وسـواراً مفرداً أعلـى مرفق السّـاعد الأيمن، على غـرار أبناء قبيلة المَهْـرة Mahra والقبائل المجاورة المتفرّعة من الأصل ذاته.

لقد استدعت مراسم استقبال رجال الشّيخ حسن هؤلاء من جانبي ذبح بقرة، ورأى علـي الضَّبعـان في مكان قريـب من موقع الذّبـح بالقرب من إحدى الأشـجار الكبيرة نقطة مناسـبة لإقامة نوبة الحراسـة لتلك الليلة. كنا، علي وأنا، نراقب متيقّظين حوالي السّـاعة العاشـرة ليلاً عندما دنا وحشٌ ما من المكان، مقتفياً رائحـة بقايا الذّبيحة. كان من المسـتحيل حتى على مسـافة اثني عشـرة ياردة معرفة ماهيّة ذلك الحيوان، أو حتى التّسديد في عتمة كهذه. كل ما كان بوسعنا فعله هو انتظار اقتراب الوحش أكثر وتحديدنا لملامحه بصورة أفضل؛ عندها يغدو بوسع كل منا الاستفادة من البندقية التي يحملها. مع دنوّ الوحش منا أكثر فأكثر وهو يجوس المكان بأنفاسـه القصيرة المتلاحقة، سـدّد كلانـا نحـو النّقطة التي اعتقدنا بأنها الأفضل. لم يكن الحيوان يبعد عنا أكثر من سـبعة

ياردات عندما داس عليٌّ على قدمي، وهي الإشارة المتفق عليها. دوّى صوت طلقتين في آن معاً، وثب الوحش بعدها في الهواء مُصدراً شخيراً عالياً ثم ارتمى على الأرض بلا حراك وسط بركة من الدّم. قفز كلانا من مكانه، وعليٌّ يحمل الجَنبيّة في يده تحسّباً للطّوارئ؛ لكن الجسد المُدمّى لم يُبدِ أيّة ردة فعل عندما ركله عليٌّ بقدمه؛ وقد بينت تحرّياتنا اللاحقة أن الطّلقتين كليهما قد فعلت فعلها، واحدة عبر العنق، والأخرى عبر الجسد. كانت عيّنة مثالية رائعة لضبع بالغ مكتمل النّمو، واحدة من العيّنات الخمس التي كان علي تأمينها خلال الأسابيع القليلة التّالية.

كنت قد منيّتُ النّفسَ بصيد ذئب، فالنّهيق الصّاخب قبل ذلك ليلاً لأحد الحمير المذعورة خوفاً على صغيرها، شكّل دليلاً على وجود الذّئب. كان طعمنا كافياً، لأنه على الرّغم من أن الذئاب تهاجم عادةً صغار الحيوانات الدّاجنة والماعز والحملان والعجول، فهي، على غرار الضّباع، تقتات أيضاً على الجيف.

أسد الجبال من ناحية أخرى لا يأبه لجيفة باردة، وهو، كما البشر، يأكل ما يصطاده بنفسه فقط؛ وهو هنا يشكّل مصدر رعب لكلّ من الإنسان والجمال على حدّ سواء، على الأقل للإنسان الذي يحشره في زاوية ضيقة في هجوم غير موفق، الأمر الذي يحدو بالسّكان المحليين لهذه الجبال للتّعامل مع أسد الجبال في أثناء مروره بالمكان على مسافة تزيد عن مئة ياردة بتجاهل رزين مشوبٍ بالاحترام، ولا يبادرون إلى إطلاق النّار عليه إلا إذا صادفَ مروره على حين غرّة ضمن المدى المجدي لرصاص بنادقهم.

«أسود الجبال؟» استوضح الشّيخ حسن رداً على أسئلتي الملحة، «إنها نادرة، لكنك ستحظى بأحد الذئاب الليلة. أرسل علياً إلى دار عمي. إنهم بصدد ذبح ست بقرات اليوم كأضحية عن روح عمّتي التي توفيت منتصف الشّهر الماضي. رجالي هؤلاء بصدد الذّهاب لحضور الوليمة. لا بدّ من قدوم أحد الذئاب اليوم إلى مكان الذّبح».

هنالك تقليد لا يزال متبعاً هنا حتى اليوم - أضحية الدّم، والأضحية التي تحرق

علـى المذبـح burnt offering بعـد الوفاة. إنّـه تقليد مقدس في أنحـاء هذه الجبال لا يمكـن انتهاك أعرافه ويتمثل بالتّضحية بنصف ثـروة الرّجل من البقر بعد وفاته. نصف ثروته سيُضحَّى بها هكذا من أجل راحة روحه - أما اقتطاعُ ضريبة على عقاراته وتركاته فيُفـرض فـي حال القصاص، علماً بـأنّ التّضحية ببقرة أو نعجة واحـدة قد تكون كافية تماماً بالنّسبة للفقير المُعدم. إنّ حدّاً مقداره عشرون بقرة قد يُفرض على الموسر فقط، أي الـذي يمتلـك ما يصل إلى أربعين رأسـاً أو أكثر من البقر، وقـد يُذبحُ معها جملٌ أو بعضُ النّعاج، إلا أنّ قيمة البقرة في التّضحية لا تتناسب وقيمتها الفعلية.

في يوم الدّفن، وهو عادة يوم الوفاة، يُصارُ إلى ذبح بقرة أو اثنتين عند القبر في أثناء ترديد الكلمات التّالية:

«لتتغمّد برحمتك من خلال هذه الأضحية روح فلان بن فلان»

Dai bi Huduktos Hadhail ir Hadhail

يُسـمحُ بانقضـاء ليلتين، وفي الثّالثة يصار إلى التّضحيـة ببقرة أخرى، وهو ما يدعى بـ «الختوم». ثم تنقضي فترة إضافيـة، تختلف مدّتها تبعاً لإمكانـات أقارب المتوفى. قد تكون قصيرة بحدود أسـبوعين، أو قد تطول حتى ثلاثة أشـهر قبل تقديم الأضحية الكبـرى، المتمثلـة ربمـا بعشـر أو خمس عشـرة أو عشـرين بقـرة، تمثل نصـف ثروة المتوفّى من الماشـية. يسـمى هذا اليوم بيوم النّحيرة. هذان الطّقسـان كلاهما، الختوم والنّحيـرة، يجـري أداؤهما في المـكان الذي عاش فيه المتوفى، وليـس عند الضّريح. والمزيد من الأبقار يجري التّضحية بها من قبل أقارب المتوفى وأصدقائه الذين سـبق وبادرهم بالمثل في مناسـبات مشـابهة في خـلال حياته. تجتذب هـذه الوليمة الكبيرة مـن الذّبائح إليهـا كافة أبناء القبائل المجاورة، وذاك البطن مـن القبيلة التي ينتمي إليها المتوفّى لاقتسام اللحم فيما بينهم والمضي بما قسم لهم من هذه الأعطية السّخية. ولا يمتلك الزّائرون من قبائل أخرى مثل هذه الحقوق، إلّا أنهم يُدعَون للمشاركة في هذه الوليمة التي أعدّت لها بقرة مشوية.

بعدها يجري اقتسام بقايا التّركة العقارية بين الأقارب.

يجري تطبيق العرف، وليس القانون الإسلامي، بين قبائل الحدود الجنوبية مثل قبائل بيت كثير وقبائل جبال القَرَا. وبالنّسبة للأعرف السّائدة لدى قبيلة بيت كثير لا ينبغي أن ينال دائنوا المتوفى أكثر من ثلث تركاته العقارية. ومن أصل الثّلثين المتبقيين يذهب الرّبعُ لزوجته التي أنجبت له أولاداً، بينما يذهب الباقي للأولاد وفق القسمة المعتادة المتمثلة بحصّة مضاعفة لكل ولد. والحالات التي يخالف فيها العرفُ قانونَ الشّرع نصادفها عندما لا يوجد هنالك ولد، وتكون البناتُ أقلَّ من ثلاث. في هذه الحالة يرث شقيقُ المتوفى نصف نصيب البنت فقط؛ وفي حال وجود ثلاث بنات أو أكثر، يأخذن كامل الحصة الإرثية، ولا يحصل الأقارب الذّكور من جهة الأب على أيّ شيء.

تعدّ قوانين الميراث في جبال القَرَا قوانينَ فريدةٍ من نوعها، وهي مرتبطة بعقيدة التّضحية عند الموت. وثروتهم، كما سبق وأوضحنا، متمثلة بالبقر عموماً، وعند وفاة الرّجل، يصار إلى ذبح نصف ثروته منها كأضحية دم. للدّائنين الحق في المطالبة بعشر تركة المتوفى العقارية كحد أقصى، والباقي يُقسم بين الزّوجات والأبناء والبنات. تحصل الزّوجاتُ على العُشر من تركته العقارية الصّغيرة، إضافة لخمس بقرات عادة في حال وجود تركة عقارية كبيرة. إحدى السّمات الفريدة لهذه المجموعة من القبائل تتمثّل في أنه عندما يكون للمرأة ابنة واحدة، أو ثلاث بنات، وليس لديها أيّ ولد، لا يذهب أيّ نصيب من تركة الممتلكات لأقرب الأقربين من الذّكور من عائلة الزّوج المتوفى، الذين كانوا سيحصلون وفق الشّرع الإسلامي على النّصيب الأكبر. أما إذا كان لديها ابنتان، فتحصل. لهذا، يبدو أن هنالك مغزى ما في الأعداد 1 و 3. نقطة أخرى يخالف فيها نظامُ الجبال نظامَ أبناء قبائل جنوبي جزيرة العرب، لكنه يتوافق والشّرع الإسلامي، تتمثل في أنّ كافة الزّوجات يحصلن على نفس الحصّة الإرثية، بصرف النّظر عن إنجابهن لأولاد أم لا.

وعلى الزّوجة من أبناء هذه القبائل ألا تظهر الحزن والجزع على وفاة زوجها، وأن

تتـرك مهمة النّحيب والنّواح للأمّهات والبنات والأخوات. ومن عادة النّسـوة من أبناء قبيلة القَرَا في مثل هذه المناسـبات أن يُطلقن شعورهن ويضربن على رؤوسهن ويهلن عليهـا التّراب؛ لكن الإفصاح عـن مظاهر الحزن والجزع على فقدان الزّوج على الملأ من قبل الزّوجة يعد أمراً مستهجناً وعليها أن تتوارى عن أعين النّاس.

* * *



في جبال القَرا: إطلالة على وادي نحيز



جبال القَرَا: كهوف صخرية



جبال القَرَا: كهوف صخرية



جبال القَرَا: الدَّهق

الفصل السّادس

جبال القَرَا، الضّباع والشّفاء بالصّلوات والخِتان

«حُمرُ العين! حُمرُ العين!» هكذا كانت الصّيحات - المصطلح المعتاد الذي يُطلقُ لكيل الثّناء على البسالة الفائقة - التي أطلقت تحيّةً لعلي عندما عاد فجراً من موقع الأضحية ومعه ذئبٌ مقتول يتدلّى فوق ظهر حمار.

لم أتمالك نفسي من تقديم ما هو أكثر من الالتفات نحوه محيّياً، كونه سبق واستُدعِيتُ لقرية الدّيقف Adaiqaf، وهي قرية صغيرة لجُمعان، زعيم قبيلة الشّحرة الواقعة عبر المرج الخضر قبالة مخيمي. في إحدى أكواخها المتواضعة كان هنالك رجل يُحتضَر تحت سقف من القش أشبه بخلية نحلٍ لا يزيد ارتفاعُه أو قطرُه عن قامة رجل، فيه فجوة يتيمة بمثابة مدخل للولوج إلى داخلَه زحفاً. كانت الأرضية مفروشة بالقش، ولم يكن هنالك بالطّبع أيّ موقد نار. قطع الأثاث الوحيدة كانت عبارة عن حوض من القصب المجدول لأغراض الحلب، وبضع أوان لحفظ الماء أو السّمن أو العسل وخلافه، وكلاهما من نتاج صناعة الحريم. بالقرب من هذا الكوخ كانت هنالك بضعُ مساكن أكبر حجماً وأكثر كرامة بقليل، بجدرانها الحجرية الطّبيعية غير المكسوة وغير المطلية. كانت هذه المساكن تستخدم كزرائب للماشية في خلال الفصول قائظة الحرارة، ولكنَّ كليهما، البشر والدّواب، يلجأان في فصول الأمطار الموسمية وفصول الشّتاء القارصة إلى الكهوف والمغاور العديدة حيث الطّبقات الكلسية منبثقة من داخل التّجاويف والفجوات. لقد عملت رياح الزّمن على حتّ تجاويفَ طبيعية أشبه بالكهوف، والتي لا تحتاج إلا لسقفٍ من الأمام حتى تشكّل

ملاذاً فعالاً رحباً وآمناً لكليهما، الإنسان والحيوان.

نعود الآن للمرج الأخضر لنتعرّف إلى ما جرى لعلي وذئبه. كانت الرّياح الشّمالية تهبّ باردة عند هذا الارتفاع البالغ 1600 قدم، والنّسيم العبق المعطّر بأريج الأعشاب البرية جعلني أحسُّ بطعم الحياة وروعتها.

كان البدو قد أحضروا لي ثلاثة أفاع سامة، الأصغر بينها من نوع shalthum الجميل المخطط بالأبيض والأسود، والتي تبيّن بأنها صنف جديد من الأفاعي غير السّامة؛ والثّانية كانت في كامل حيويتها ونشاطها ولم تحظَ بالتّالي باهتمامي الفوري؛ والثّالثة كانت عبارة عن آفة شنيعة المنظر من نوع دلولات dololat بطول تسعة عشر إنشاً فقط، قصيرة ومكتنزة مثل لفَّة الشّعر السّميكة وموسومة بعلامة على شكل الحرف V على امتداد ظهرها، ولها رأسٌ ضخم مسطح - ثعبان أفريقي سام ذو فراء. كانوا يأتونني كل يوم بواحدة على هذه الشّاكلة، ما يشير إلى أنها من أكثر الأفاعي شيوعاً في هذه المناطق الجبلية والتي تتميز بحركتها البطيئة وسُمِّيتها المُهلكة؛ لذلك يجدر بأولئك الذين يسيرون وسط الأراضي العشبية أن يكونوا في منتهى الحذر واليقظة، على الرّغم من أن مطاردة فراشةٍ من نوع كاراكس charax (تلك التي تمكنت من التقاطها كانت الأنواع الوحيدة المعروفة من هذا الصّنف الأفريقي التي عثر عليها في جزيرة العرب)، تحملك على إبقاء الرّأس في الهواء، متغافلاً عن الأخطار المتربّصة تحت قدميك.

في أثناء تفريغ أحشاء هذا الثّعبان الأفريقي السّام ذي الفراء تبيّن بأن جسده كان يحتوي على سبع عشرة دودة شريطية، نجحت في خداعي لبعض الوقت - شعرت فجأة بلسعة حادّة على إصبعي وعانيت لاحقاً ألماً مبرحاً لحوالي السّاعة. إذ على الرّغم من حرصي وبراعتي في استخدام الملقط، فقد كانت بعض الأجزاء الدّاخلية للثّعبان سامة، ولم أكن متنبهاً لذلك بما فيه الكفاية. لم يتأتَّ عن ذلك أيّة آثار سلبية، وقد تبيّن لي بأنّ بقعة من الفورمالين كانت قد لامست جانباً من يدي حيث يوجد خدش طفيف.

إنّ أبناء الجبال لا يأكلون الضّبع أو الثّعلب؛ حتى البيض والفروج وكل أنواع

الطّيـور تبقـى أيضاً خاضعـة لتقنين صـارم مثلها مثل الضّفـادع والقواقع فـي إنكلترة. وإنّ ما يسـمح أو لا يسـمح بأكله في هذه الأقاليم الحدودية الجنوبية من جزيرة العرب يختلف من مكان لآخر.

باسـتثناء الحَضَر المسـتوطنين من أبناء البلد وهذه المجموعة المركزية من القبائل النّاطقة بلغات غير عربية، فالضّبع يُؤكلُ في كل مكان،.من حضرموت حتى عُمان. أمّا الثّعلب، من جهة أخرى، فيشكّل وجبة شهية لبدو عُمان فقط، ومرتحلٍ عارضٍ كعليّ، الصّيـاد البطـل؛ أمّا الذئب، فلا يأكله أحد. ليس بسـبب طبيعة اللحـم فقط، ولكن لأنّ أسلوب قتله يشكل مادةً لنقاش مثير بين جماعة المؤمنين.

علـى غرار الشّـريعة العبرانية، تجيز الشّـريعة الإسـلامية أكل السّـوائم، شـريطة أن يُصـار إلـى ذبحها عن طريق حزّ العنق بشـفرة حـادة. من العبث محاولـة إقناع البدوي أنـه فـي الأيـام التي لم تكن الأسـلحة النّاريـة قد عرفت فيهـا بعـد، كان القصد تحريم أكل الحيوانات النّافقة، بسـبب المرض ربما. فالأميُّ من العرب يفضل سـبيل الهداية الصّريحة المباشرة، على ما يسمّيه بالكفر والزّندقة. لذلك فهو قد يتحاشى أكل الطّيور ذوات المخلـب والمنقـار المعقـوف (المِنسَـر)؛ والحجّة بـأنّ المنقـار المعقوف هو خاصّ بالطّيور آكلة الجيف، لا علاقة لها بالنّسبة له بأيّة محرمات دينية. تنصّ الشّريعة بالأساس على أن «لا تأكلوا»، أو أنّ السّبب الحقيقي لا يعنيه، ولا يعنيك. وهكذا، فقد فغرَ أحدُ العسـكر العُمانيين، ممّن يسـتطيب لحم الثّعالب، فاهُ مشدوهاً عندما سألته إن كان لحم الصّقور والعقبان حلالاً.

«أبـداً!» أجـاب قائلاً. «إنّ له مِنسـراً (أي منقـاراً معقوفاً). نحن لا نـأكل حتى طائر الحجـل»، ثـم اختلس نظرة إلـى عليّ الذي أمضـى رابعة نهاره وهو يقطـع الضّبع إلى شرائح طويلة من اللحم ويعلقها على شجرة لتجفّ.

«مالذي ستفعله بهذا اللحم يا عِلي؟» سأل قائلاً.

«سـآخذه معـي كدواء لأحد الأصدقـاء المرضى في صلالة»، أجـاب قائلاً (هنالك

اعتقاد سائد على نطاق واسع بقدراته على شفاء الأوجاع؛ لآلام الظّهر عليك بلحم الظّهر؛ لآلام السّاق اليمنى عليك بلحم السّاق اليمنى، وهكذا دواليك). والكل كان يعرف بالطّبع؛ حتى العبد الطّاهي كان يتلذّذ بخبث بنشر رواية أنّ علياً الحضرموتي كان يدّخر ذلك اللحم لعائلته.

لكن تحريم أكل لحم الضّباع في أوساط هؤلاء الجبليين لم يكن بالأمر العادي. فهم لا يُحرِّمون على أنفسهم أكل لحمه وحسب، وإنما قتله أو المساعدة في قتله أيضاً. إنهم يعتقدون بأنّه حيوان سحري، فهو مطيّة الرّكوب بالنّسبة للسّاحرات، وكل من يهاجمه يستجلب على نفسه انتقام سيدته السّاحرة. ستهلك الأبقار، ويعقب ذلك صنوف أخرى من العقاب. لذلك فإنّ أبناء جبال القَرَا كانوا في غاية الاستياء عندما شاهدوا رأس ضبع في الماء المغلي (طريقتي في تنظيف الجمجمة) داخل الوعاء الذي كانوا يستخدمونه لطي الأرزّ. أمّا الشّيخ حسن، الذي كنت تحت حمايته، فقد نصح بوجوب توخّي الحذر، ربما، حسب اعتقادي، إرضاءً لتأنيب ضميره بالذّات، نظراً لأنه كان مؤمناً مخلصاً وكان قد أقسم لي يوماً بأنه شاهد ضبعاً نافقاً يضع أقراطاً في أذنيه. لا شّك بأنها العجوز الشّمطاء، سيدته، إحدى النّفاثات في العقد، مَن ثقب أذنيه ووضع فيهما الأقراط. وقد شهد على القصّة نفسها شيخُ آل كثير في ظُفار، الذي أشهد الله على أنه كان يقول الصّدق.

«هل يوجد هنالك ألذ وأطيب من لحم الضّبع؟»، قال لي علي. «هؤلاء النّاس ليسوا مثلنا نحن العرب، فنحن أبناء كرب Karab وصاعِر (صيْعَر) Sa'ar نسمّيه «كبش النّبي». «النبي بالذّات أحلَّ لنا أكله»[1]، ثم شرع يسرد لي الحكاية.

في يوم من الأيام طالب أحد الضّباعِ ببنوّة أحد صغار الغزلان (خِشف)، زاعماً أنّه من نسله بالذّات. مَثُلَ الضّبعُ والغزالُ أمام النّبي، حيث زعم كل منهما بأن «الخِشف من حقه». طلب منهما النّبي الذّهاب ثم العودة إليه في صباح اليوم التّالي.

(1) هذا يذكّرنا برحلة الزّوجين آن وولفريد بلَنت «حجّة إلى رُبوع نَجد»، عندما أكل مرافقوها ضبعاً بواحة طيبة اسم شمالي حائل.

ولكـن مهلاً! فقبل بزوغ الفجر قدِمَ الغزالُ متبختراً إلى خيمة النّبي. «كيف أمضيت الليلة أيها الغزال؟» سأله النّبي قائلاً.

«أمضيتُ الليلة ساهداً أرقاً مثل كوكبة المنبر Cassiopaeia، ولم أبرح مكاني لحظة واحدة».

وبعد شـروق الشّمس أقبل الضّبع متثاقلاً. «كيف أمضيت الليلة أيها الضّبع؟» سأله النّبي قائلاً.

«أمضيـت الليلة نائمـاً بحماية العناية الإلهية إلى أن أشـرق نجمُـهُ العظيم، ألا وهو الشّمس».

عندهـا، التفت النّبي (عليـه وعليكم صلاة الله) إلى الغزال قائـلاً: «إليك بالصّغير، فهو لك».

وثب الضّبع من مكانه غاضباً مزمجراً وهو يقول: «لعن اللهُ كذا وكذا!».

فعندهـا أمسـك النّبيُّ بمدقّـة المهباج وضرب بهـا الضّبعَ في أثنـاء محاولته الفرار، بحيـث أنّ قوائمه الخلفية تضاءلت إلى حجمها الحالي المُزري، وأصبح الضّبع منذئذ طعاماً للإنسان.

إنّه بحق كبش النّبي!

تتواجـد القـرود فـي حضرمـوت، ولكن ليس فـي جبال القَـرَا. وهنالـك أقصوصة شـعبية تقـول بأنّ القرود قد مُسـخت من كائن بشـري سـرق خُـفَّ محمّد. وجـزاءَ ما اقترفت يداه، أمره النّبي بدخول المسـجد، ومن ثم خرج إلى الحقول مثل نبوخذ نصر Nebuchadnezzar وأكل العشب وأصبح قرد رُباح rubah ape.

كانـت غلّة صيدي في العين وافرة، لكنني واجهت أشـد المصاعـب، وكنت أحياناً أفشـل في إقنـاع مرافقيَّ بذبح الطّرائد بطريقة لا تؤثر علـى الجلد، بوصفه عيّنة علمية. العقبـة الرّئيسـية تمثلت في الأمر الدّينـي الذي ينصّ على وجوب إنجـاز عملية الذّبح

عن طريق حزّ العنق بشفرة حادة؛ لكنّي وعليٌّ ابتكرنا حلاً وسطاً تمثل بأن يتولى هو إحداثُ شقٍ طولاني في الجلد أسفل الحنجرة (بما يفي بمتطلباتي العلمية)، ويقوم بطيّه ومن ثم يعمد إلى إنجاز عملية الذّبح الشّرعية من تحت الجلد.

كنت مصرّاً على رفضي إعطاء أيّة مكافأة لقاء جلدٍ تالف، وفي ضوء صيغتنا الجديدة، أفصح عليٌّ الآن عن مقدار الأسى الذي ألمّ به على ثعلب كان قد قتله على الطّريقة القديمة وأصبح غير محلّل للأكل. أعجبني هذا الورع لدى الذّابح المتنوّر لخمسة عشر رجلاً من بني آدم!

مع ذلك فقد نظر العسكريُّ العُماني إلى عليّ بازدراء قائلاً: «ذلك الذّبح ليس شرعياً – لن أمسّه!».

ولكن بالنّسبة لكليهما، هكذا هو العُرف، يمكن قتل الحيوان بإطلاق النّار عليه، وكل شيء سيكون على ما يرام بمجرد إنجاز عملية الذّبح فوراً وفق الطّريقة الشّرعية، مع التلفّظ بعبارة «بسم الله الرّحمن الرّحيم» في أثناء تفجّر الدّم. ومن دون هذا الجرح القاطع عبر العنق، لا تكون عملية الذّبح شرعيّة.

اجتذبت رائحة الطّهي، أو لعلّه الإحساس الطّاغي بالجوع مع اقتراب موعد الطّعام، أبناء المنطقة إلينا من كل حدب وصوب. أحد هؤلاء، وهو رجل عجوز من أبناء قبيلة المَهْري Mahri ممّن لم يأتوني خاليي الوفاض، وقف جانباً يرقبني وأنا أُجهز على حربائه التي أحضرها لي.

«أقسم بالله بأنّه ضرب من ضروب الغدر والخيانة!» صرخ قائلاً. وجدتُها بريئة لا ذنب لها في إحدى الشّجيرات وحضرت معي مطمئنة، لأشهد لها هذه النّهاية على يديك!».

«أيها العجوز الطّيب!»، قلت لنفسي، «سوف تنال دولاراً». أخذ مكانه بين جوقة الحاضرين المتحلقين حولي باهتمام يرقبون ما يحدث.

«هل لديك أيّ علاج لامرأة عاقر؟»، سأل قائلاً.

«رجلٌ قوي»، قاطعه أحد الشّباب قائلاً، وضجَّ المكانُ بضحكات مكبوتة.

«قد يكون هنالك دواء»، قلت له، «لكني لا أحمله معي الآن. هل هي شابة؟ عشرون عاماً مثلاً؟».

«بـل أكبـر»، أجابني قائلاً. سـبق لها الزّواج أربـع مرات، وأنا الخامـس، ولـم ترزق بمولود بعد على الإطلاق».

في هذه الحال، لا أعتقد بوجود علاج لها»، أجبته قائلاً.

«إنّها لا تزال عذراء!» ردّ قائلاً.

« أحسـن شـيء!» قال الشّـاب دون أن يتمالك نفسـه، وسـط مزيد من الضّحكات المكبوتة.

عندما انفضّ الجمع، بقي الرّجل العجوز ولم يغادر، وتبيّنتُ بأنه لم يكن قانطاً.

«أريد منك كتابة»[1]، خاطبني العجوز قائلاً.

«لمَ؟».

«لامرأة لا تُمكّن زوجها منها».

«أنـا لا أوافق على تعاويذ لهذا الغرض»، أجبته قائلاً، على سـبيل التّملص من تلبية طلب مستحيل.

«ولكن هل أدركت قصدي من السّؤال؟» ردّ قائلاً.

---

(1) كتب المؤلف: يتم استعمال تعويذة ذات كتابة بمثابة تميمة ذات تأثير سحري. والنّاس سريعو التّصديق لا يهمّهم بوجه الخصوص إن كانت هذه الكتابة من القرآن الكريم أم لا، رغم أنها تكون في الغالب من بعض آيات القرآن، على اعتبار عدم معرفة الكاتب بأيّة نصوص أخرى. والسّادة المبجّلون يجنون على هذا الصّعيد أرباحاً جيدة جداً، وبخاصّة قبل الهجرة إلى الجبال، عن طريق بيع هذه الحُجُب. والحجاب المخصّص لدرء الإصابة بالعين يكلّف دولاراً واحداً، ودولارين للبقرة المريضة، ويرتفع السّعر بحسب الموضوع المطلوب للحصانة العامّة.

«نعم، تماماً»، ثم كرّرت حكايته.

«لكنها زوجتي. أريد رسالة من السّلطان تأمرها بتسليم نفسها».

«أخشى أنّ هذا ضرب من المستحيل. أحِلْ شكواك إلى الوالي».

طقطق لسانه، وهي إشارة تنم عن الاستعداد لإصدار قرار بعدم الموافقة عند أهل الجبال، ثم نطق بالكلمات التّالية:

«لا! لا! سيكون عاراً علي؛ عِدني ألا تبوح لأحد بهذا الأمر».

«أعدك بذلك»، قلت له، ثم قفل العجوز عائداً إلى زوجتيه، البغيضتين.

كان شيخ القَرَا يهمّ بذبح بقرة في اليوم التّالي على شرفي - وليعلمنّ الرّحالة الغافل في بلاد العرب بأنّ هذه هي أكثر الطّرق كلفة لشراء واستمالة شخص ما - وقام أحد تابعيه الشّحريين بإحضارها.

نظرت إلى الشّحري وتساءلت إن كانت «نعجته» أم لا: لعلها كانت نعجته. حضر الجيران الوليمة التي أعقبها ترديد التّرانيم المعتادة، رغم أنني تبيّنت بأنّ أشعار الملاحم البطولية غالباً ما يجري غناؤها باللسان المَهْري، بعكس أغاني وترانيم الحب والغزل لأبناء الجبال، التي يجري غناؤها باللّسان الشّحري. الشّاعر عبد الله كان يقوم بغنائها ارتجالاً، وهو شخص ودودٌ كثيرُ الثّرثرة سرعان ما أخبرني عن حكاية مفزعة.

«هل لديك علاج لهذا المرض؟» سألني مشيراً إلى ساقيه المتورّمتين بشكل غير طبيعي. لم يُجْدِ نفعاً تذرُّعي أمامه بأني لست طبيباً، لأن هؤلاء المساكين كان لديهم نزوع فطري للإيمان بقدراتي الشّفائية.

«كم مضى عليك وأنت على هذه الحالة؟».

«ثلاث سنوات»، قال عبد الله. «إنها لا تزعجني عندما أكون جالساً، لكنها تؤلمني وتتورّم عندما أركض، كما أنّ قربان الدّم لم يُجدِ نفعاً».

من عادة هذه القبائل عند مرض أحد أبنائها التّضحية ببقرة أو نعجة ونثر دمائها فوق

كتفي المريض وصدره والشّمس في كبد السّماء. لا بدّ للأضحية من أن تكون أنثى، وهو تمييز جنسي لا يجري التّقيّد به عند تقديم أضاحي الوفاة.

«ما تلك العلامة؟» وأشرت إلى نُدبة فوق شبكة من الأوردة المتورّمة كان يعاني منها بشكل واضح.

«إنها من أثر الكيّ!» أجابني قائلاً (الكيّ بالحديد المحمى علاج شائع لكل الأوجاع في هذه البلاد)، لكنه لم يُجدِ نفعاً.

«هل لديك أيّ علاج يا صاحِب؟ والله ليس لدي ولد، ولكن إذا ما خُيّرتُ بين ساق معافاة أو إنجاب ولدٍ، لاخترتُ والله السّاقَ المعافاة».

نظر إليه أصدقاؤه باستغراب وتعجُّبْ.

«لا علم لي بعلاج لذلك سوى مبضع الجرّاح، وهذا يعني زيارة لعَدَن أو مسقط»، أجبتُه قائلاً.

كانت عدن ومسقط بالنّسبة لجبليّ غير متمدّن كعبد الله بعيدة بُعد السّماء عن الأرض، والرّحلة إلى هناك تستدعي غياباً غير مسبوق عن زوجاته، ناهيك عن جدوى مثل هذه الرّحلة من أساسها.

«التّوكّل على الله!» قال متراجعاً عن إصراره. «الاتّكال على الله»، فهو، هكذا كانت الدّلالة المبطنة، من يُنزل الدّاء وينزل له الدّواء.

كانت خصال عبد الله الحميدة استثنائية بين قومه. فالغالبية العظمى من هؤلاء القبليين كانت من النّوع الصّلب العنيد من البشر المتميّز بالخبث والرّيبة وتحاشي الاختلاط بالنّاس. فهم لا يسعون إلى إقامة العلاقات الشّخصية مع الآخرين، إلا أنّ الشّريحة الاستثنائية منهم قابلة للصّقل والتّهذيب. لا أحد منهم يرى أنّ من الضّرورة أو الواجب عند الوصول من السّفر مبادرة الآخر بالتّحية المعهودة على نطاق واسع بين أبناء جزيرة العرب؛ ولا أحد منهم يتفوّه بكلمة وداع أو استئذان واحدة عند مغادرة المجلس، بل ينهض من فوره بشكل مفاجئ، يتمنطق بندقيته، ثم يمضي في

سبيله بصمت. وهم ينشغلون فيما بينهم بشجارات ومشاحنات تافهة لا تنتهي؛ وفي خلال مخالطتي إياهم لطالما كنت متوجّساً من احتمال وقوعي في متاعب ما قد تؤثّر على أعمالي. لقد تبيّن لي بأن سرقة الأبقار تشكل السّبب الرّئيس لهذه الشّجارات والمشاحنات، لأنّ التّسويات وحلّ المشكلات لا تتأتى من خلال إعادة الحق إلى أصحابه، بل من خلال الثّأر والانتقام. الشّيخ حسن بالذّات، حسبما أسرَّ إليَّ، عانى من خسارة مئة رأس، بفعل غِلّ الأعادي وحقدهم، لأن الدّواب وجدت مقطّعة ومتروكة في مكانها بحيث لا يستفيد منها أحد. أخبرني آخرون بأنّ حسن نفسه كان قد سرق ونهب من جيرانه ما هو أكثر من ذلك بكثير، وأنّ قدراً كبيراً من الشّهرة التي يتمتع بها اليوم يدين بالفضل لمآثر أيام الشّباب العتيدة، البعيدة كل البعد عن الأخلاق والفضيلة.

اليوم سادت هنالك حالة من الذّعر والإنذار بالخطر!

«ياولد! يا فرعل! ياولد! يا فرعل! تردّد النّداء في أنحاء المنطقة وتطلع الجميع ناحية ذلك الشّبح القادم عن بُعد عند خط الأفق الشّمالي الذي كان يحمل معه نذير الحرب! أهُم بدو السّهل قادمون؟ لأنّ من عادة قبيلة صاعِر (صيْعَر) Sa'ar أن تغير من وقت لآخر على قبيلة قُطن Qutun.

البْخيت Labkhit، ابن الشّيخ، الذي كنت بصدد إرساله إلى ظُفار لشراء بعض المؤن وتسقط الأخبار، تناول بندقيته، مع الآخرين، وشرع بتذخيرها على عجل، تاركاً إياي واقفاً مع بضعة رجال من أبناء قبيلة الشّحرة ممّن لم يقوموا بأيّة مبادرة. المعروف عن أبناء قبيلة الشّحرة أنّهم أناس متخاذلون خائرو العزيمة، يتقبّلون بخنوع أن تغير عليهم باقي القبائل لتسلبهم وتنهبهم وتقتل أبناءهم دون أن يحرّكوا ساكناً دفاعاً عن أنفسهم وأعراضهم[1].

---

(1) نضطرّ إلى ترجمة هذه المقاطع على كره منا لذلك، ونحن لا نتبنّى على الإطلاق ما جاء فيها، ونهيب بالقارئ الكريم أنّ يدرك بأنّ هذا مجرّد رأي نقله المؤلف عن شخص واحد، ولا ندعو أحداً للأخذ بما جاء فيه.

«إنهم كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً»، قال الشّيخ حسن، وهو يصفهم لي فيما بعد. «إنهم يخشون سفك الدّماء!».

هـذه هي فـي الحقيقة النّقطة الأساسـية في الموضـوع، الحدّ الفاصـل بين الكرامة والعار، بين القبليين الأصلاء واللاقبليين، بين القَرَا والمَهْرة وكثير من جهة، والشّـحرة وبرهامة[1] Barahama وبيت الشّـيخ من جهة أخرى؛ إنها تحديداً القوة وإرادة القتال؛ وهـي أمـر ينبع من وعـي وإدراك جماعي مشـترك من جانب أبنـاء القبيلـة، ومفاده أنّ أحدهم يعتبر أن كلّ عمل يُقدمُ عليه أحدُ أفراد القبيلة أو نازلة تلمّ به، هو عمل أو نازلة تخصّه هو شخصياً، مع كل ما قد يكتنف ذلك من عواقب.

«أبنـاء قبيلة الشّـحرة! إنهم ليسـوا أفضـل من العبيد!» يقـول الرّجـل القبلي، الذي يعتبر الزّواج من عبدٍ أو أَمَةٍ أمراً مسـتحيلاً غير قابل للنّقاش. إنه تصرّف شـائن؛ ليُسَخِّرَ الأشرافُ والسّاداتُ وتجارُ السّاحل إماءهم كمحظيات أو خليلات كما يطيب لهم!

الطريقة التي يعامل بها أبناءُ قبيلة القَرَا أبناءَ قبيلة الشّـحرة تقدّم للرّحالة دليلاً قاطعاً علـى الفـرق بين هـؤلاء وأولئـك. يتميز الشِّـحري المثالي (الـذي يتمتّع بنقـاء العرق نتيجـة اقتصـار الزّواج على إطار القبيلـة بالذّات) بوجه أكثر عرضـاً بكثير من غيره من أبنـاء القبائل المجاورة أو أبناء الشّـمال من العرب. وممّا يسـاعد أيضاً على تمييزه هو السّلاح، لأنك نادراً ما تصادفه يحمل بندقية.

ليـس الـزّيُّ فقط، وإنما أسـلحة هذه الجبـال أيضاً تعـدّ فريدة من نوعهـا في أنحاء جزيـرة العـرب - سـيفٌ ذو حدّين وترسٌ صغير دائري (من النّوع الشّـائع في أوسـاط القبائل الحاميّة) وأيضاً وبشكل رئيس هراوةٌ غليظة مستقيمة aget من خشب المتين[2] mitain مدبّبـة مـن طرفيها تُقذف ببراعة فائقة، وهي السّـلاح التّقليـدي لأبناء الجبال. والميسورون من أبناء قبيلة القَرَا يحملون البندقية؛ وفي هذه الحال، لا يحملون السّيف

(1) كذا بالأصل، وهي تعرف في ظُفار ببيت برهام.

(2) كتب المؤلف: هذا الخشب ثقيل للغاية، وهو يغرق في الماء. وهو ينمو في جبال ظُفار وحدها فحسب.

ذا الحدين، وإنّما سيفاً بحدّ واحد؛ وعوضاً عن الهراوة، يحملون عصاةً عادية.

«ومن أين جاء أبناء قبيلة الشّحرة هؤلاء؟» سألت قائلاً.

«إنهم القوم الذين عقروا ناقة النّبي صالح، ولا زالوا إلى اليوم يدفعون ضريبة خطيئتهم الشّنيعة تلك، فهم لم يعودوا من أبناء القبائل، أي رجال عزّة وكرامة»، كان جوابه.

«وهل كان لصالحَ بن هود ناقة؟»، سألته مستفسراً، متظاهراً بجهلي بقصتهم هذه.

مشفقاً لجهلي بمستواه الثّقافي، استرسل مخبري في حديثه قائلاً بأن «أحداً لم يسمع بناقة لصالح، الأكثر شهرة على الإطلاق بين سائر مخلوقات الله!» ثم تابع حديثه وعصاه تتعقب مسار الشّمس في كبد السّماء. لقد ارتحلت من الشّرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشّرق، وقدّمت لسائر الخلق العسل والحليب والخمر. كان ذلك أيام عاد وثمود Ad and Thamud، لكن أحد الجهلة الحمقى من أبناء الشّحرة قام بعقر النّاقة، فسلّط الله عليهم آفة النّمل الذي زحف على أرجلهم وفوق أبدانهم والتهمهم التهاماً، ولم يبق منهم إلى يومنا هذا إلا من رحم ربي!».

في اليوم التّالي سمعت هذه القصة، أخبرني إيّاها أحد العجائز منمّقة بخاتمة. وهي أنّه تحت إغواء إحدى النّساء، عمد هذا الشّحري الآثم إلى تعقّب ولد تلك النّاقة المقتولة بهدف الإجهاز عليه أيضاً.

لكن الله أوجد مغارة في الطّريق دخلها حُوار ناقة صالح[1] ثم أُغلق بابها مثل سورٍ جبلي حال دون تعقب الرّجل لولد النّاقة بعد ذلك». وبعد أن صمت لبرهة، تابع العجوز قائلاً: «انظر! سبحان الله - ألا يعني لك ذلك شيئاً؟».

«وماذا بشأن أصولكم أنتم أبناء القَرَا؟».

«العرب ينادوننا القَرَا، ولكننا ندعو أنفسنا الحكلي Hakalai، وقد قدمنا إلى هنا من

---

(1) كتب المؤلف: ربما عليّ أن أستخدم عبارة 'colt' الواردة في سفر التّكوين، 32: 15: ثلاثين ناقة مرضعة وأولادها.

حضرموت، وكنا قد جئنا إلى حضرموت قادمين من عُرض البحر».

كنت قد سمعت هذا الكلام عدّة مرات، والشّيخ حسن كان يعتقد بأنّ القبيلة ارتحلت غرباً مع قبيلة المَهْرة وأنهم تخلّفوا معاً فوق جبل حبروت Habarut. هذا يبدو بعيد الاحتمال بالنّسبة لي لأنهم، على غرار أبناء قبيلتي الشّحرة والبرهاما، ليس لديهم وَسمٌ لإبلهم، ولا يُعقلُ لقبيلةٍ كانت رعوية يوماً ولا تزال ترعى الإبل ألّا يكون لإبلها وسمٌ مميز أو أن تكون قد فقدت هذا الوسم، فهو يمثل شعار النّبالة بالنّسبة لها. وإنّ غياب مثل هذا الوسم يعني أنهم قدموا من جهة البحر.

«حكلي كان جدّنا الأول، والقَرَا تتحدّر بنسبها من قريش Guraish. وحكلي والباليوز[1] Baliyoz يتحدّران من عِرق واحد: لكننا عبرنا البحر».

أوضح أحد السّادة البوسعيديين أنّ قريشاً هذه ليست قريش التي خرج منها النبيُّ الأكرم، فتلك قريش أخرى ورد ذكرها في الأحاديث المتواترة لأبناء القَرَا.

لقد أثار اهتمامي وجود مثل هذا التّمايز العرقي بينهم وبين النّمط العرقي للعربي الأصيل؛ كما أنّ ذلك أشار إلى احتمال أن يكون أبناء القَرَا من بقايا شعب قديم - بقايا تلك الهجرة المعاكسة لأبناء الحبشة من الغزاة المسيحيين التي اجتاحوا جنوب غرب جزيرة العرب وعملوا على تنصير أهل تلك المناطق قبل الإسلام.

لكن مُخبريَّ لم تكن لديهم أيّة معرفة بهذه الحقائق؛ بالنّسبة لهم فإن العالم مقسوم بين مؤمن وكافر، رغم أنهم لا يعلمون شيئاً عن النّص القرآني. فهم قوم في غالبيتهم لا يقرؤون ولا يكتبون، ما خلا بعض السّادة الرّحَّلْ. للكتابة بالفعل مدلولٌ سحري كما في حوادث التّاريخ لأبناء قبيلة المَهْرة، والعديد من مثل هذه الحوادث قد تكشف بالفعل، فقد كان كل من يأتيني طلباً للعلاج والدّواء يصرّ على أن أنظر له في كتابي (كان خارطة للنّجوم والكواكب) لمعرفة سبب ما حلّ بهم.

---

(1) كتب المؤلف: هذا المُصطلح يستخدم في الخليج العربي وساحل جزيرة العرب لتسمية أي وكيل سياسي بريطاني. ويقال إنّه مشتق بالانتقال من اللاتينيّة العامّية: *bailus*. وباللاتينيّة *baju-lus* والإيطاليّة Bailo لقب ممثّل جمهوريّة البُندقيّة في الباب العالي.

«سمعت مَن يقول بأنّ القَرَا تحدّرت من حِمْيَرْ Himyar»، استرسلتُ قائلاً.

«هل تقصد حَمْيَرْ Hamyar أم حِمْيَرْ Himyar؟» سأل السّيد المتنور، «لأنّ هناك اثنتين».

«الله العليم»، رد القَرَاوي Qarawi قائلاً. «أنا لست وليد ذلك العهد - لم أكن حيّاً آنذاك، فمن أين لي أن أعرف؟».

كان قد تراءى لي بأن «المَهْرة» Mahra وحِمْيَرْ Himyar قد تكونان عبارة عن مفردتين مشكلتين من أحرف متشابهة لذات الكلمة، رغم أن كلمة «مَهْرة» هنا أيضاً لا تستخدم إلا من قبل العرب، لكنهم يُدعَونَ في لغة الجبال «انهرو» Inharo (بلفظ النّون مع خروج الهواء من الأنف). هنالك في الواقع بين المَهْرة والقَرَا فوارقُ فيزيائية ولغوية، ولن يوافق أيٌّ منهما على أنهما من أصل مشترك.

كان دورهم الآن: «وماذا عنكم أنتم أيها الإنكليز!»، قالوا لي.

«ليسوا بأدنى منكم حسباً ونسباً»، أجبتُ قائلاً.

«إذن أنت من أبناء القبائل؟».

كان هذا سؤالاً محيّراً، فمن الصّعب من منطلق الصّدق والأمانة المطلقة أن تقنع السّامع بوجود نظام قبلي إنكليزي لا يحمل أبناؤه البنادق، أو لا يذودون عن شرفهم وأعراضهم بأيديهم بالذّات؛ نظامٌ نسائهُ سافرات ومتساويات مع الرّجال. لكني لا أجرؤ على فقدان مكانتي ومنزلتي في أعين الرّفاق.

«نحن النّصارى» (وهو تعبير ينطبق تماماً على الإنكليز) «قبيلة بالغة القوة»، قلتُ لهم.

«ومن هو جدّكم؟».

«آدم!» أجبته بتملّص إلى حدّ ما، «لقد كانت هنالك في البداية صلة قربى حميمة بيننا جميعاً، ولم نتفرّق شعوباً وقبائل إلا فيما بعد».

«تلك حقيقة»، قالوا لي، وهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً، ليخلصوا إلى نتيجة مفادها: «إنه يتحدّث عن حقيقة إلهيّة».

«وهل تمارسون الطّهارة؟ (أي الختان)».

«إنّها ليست إلزامية»، أجبته مُتحسِّباً.

«إذن يوجد هنالك رجال ونساء من دون ختان بينكم؟».

«نعم»، اعترفتُ له قائلاً.

«سامحكم الله»، كان جوابه.

الختان بالنّسبة لهذه القبائل طقسٌ يتّسم بأهمّية بالغة، وهو يختلف كلّياً عن ممارساته في بقية أنحاء جزيرة العرب، ناهيك عن احتمال كونه من أصل مغاير مستقل. فالذّكر يُختنُ عند بلوغه عتبة المراهقة، والبنت يوم ولادتها، وهو على نقيض نظام الختان المطبّق في باقي أنحاء جزيرة العرب، لا سيّما في عُمان، حيث يقضي العرف بختان الذّكر في سن السّادسة تقريباً والأنثى عند اقترابها من سنّ العاشرة. في الإقليمين كليهما، تجرى إزالة غمد القلفة بالكامل بالنّسبة للذكر، أما بالنّسبة للأنثى، وبينما يعمد عرب عُمان إلى بتر الجزء العلوي من البَظْر، تعمد هذه القبائل من أبناء الجنوب الأوسط إلى استئصال البظر بالكامل. تشبهُ عملية الختان الذّكوري هذه مثيلتها عند المصريين القدماء، حيث تُظهر المومياءات المكتشفة في طيبة Thebes أنّ هذه العادة كانت تمارس حتى في تلك الأيام.

ترافق مناسبات الختان الذّكوري في هذه الجبال بطقوس احتفالية واسعة النّطاق وتخضع مجموعات من الشّباب في نفس اليوم لاختبارات قاسية على الملأ لإثبات شجاعتهم وجَلَدهم. تحتشد أعداد كبيرة من الرّجال والنّساء حول فسحة رَحبةٍ مكشوفة، ثم يجلس فوق صخرة تتوسّط المكان فتى في الخامسة عشرة من عمره يحمل بيده سيفاً جرى تثليمه عن عمد خصيصاً لهذه المناسبة، ثم يُلقي بالسّيف في الهواء ليعود ويلتقطه مرة أخرى قابضاً بباطن كفه على النّصل العاري. يجلس المُطهِّرُ العجوز قبالة الفتى وتقف خلفه فتاةٌ عذراءُ من دون خمار، عادة ما تكون ابنة عم أو أخت الفتى، والسّيف بيدها أيضاً.

تقوم الفتاة بإعلاء السّيف وخفضه بشكل عمودي، وعند المستوى السّفلي للحركة تقوم بضرب حدّ السّيف براحة يدها بطريقة مرتعشة. لقد بات مسرح العرض جاهزاً الآن. يجلس الفتى ويده اليسرى ممدودة وراحتها مبسوطة نحو الأعلى بصورة متضرّعة، بانتظار عملية الختان الفعلية. وبعد إنجاز العملية، عليه أن ينهض على الفور والدّم ينزف منه ثم يركض حول الحشد ملوّحاً بسيفه إلى الأعلى والأسفل وكأنه متغافل عن الألم، حيث يجري تقييم رجولته من خلال أدائه. يترافق العرض بالأهازيج الحماسية وقرع الطّبول وإطلاق العيارات النّارية، وتفتح النّساء عباءاتهن الفوقية كإشارة إلى تعرية صدورهن. بينما لا ترافق عملية الاستئصال الكامل لبَظْر الطّفلة الرّضيعة، والتي تجري بسرّيّة تامّة، أيّة مظاهر للفرح والبهجة على الإطلاق.

يبدو بأنّ العادات والطّقوس المتعلقة بالشّعر مرتبطة بالحياة الجنسية. فالسّمة المميزة هي تلك الخصلة التي تتوسّط رأس الفتيان والمرتبطة ربما بخصلة الفرعون حورُس Horus، والتي تؤدّي الدّور الذي تؤدّيه خوذة رجل الشّرطة العصري، أو تذكّر بإحدى الطّوائف الهندوسية القديمة. ولا يجري قصّ هذه الخصلة إلا وقت الختان، حيث يُترك الشّعر بعدها ينمو على سجيّته.

لا تقلّ غرابةً عن ذلك تلك الطّقوس المتعلقة بالشّعر عند النّساء. يجري حلق رأس الفتاة على شكل شرائح أو خطوط متناوبة[1]، إلى حدّ ما على طريقة كلب الصّيد poodle، مع ترك خصلة جبهية؛ بينما تجري حلاقة مؤخرة الرّأس حلاقة ناعمة على طريقة الرّهبان tonsure، باستثناء ثلاث أو أربع ضفائر. وبعد خطوبتها، في سن الثّالثة أو الرّابعة عشرة عادة، يُترك الشّعر لينمو على سجيّته في كل المناطق. وفي غضون شهر من الزّواج، وكدلالة على أنّها لم تعد عذراء، تُنزعُ من وسط الرّأس بواسطة شفرة حادة شريحة طولانية من الجلد بعرض حوالي ثلاثة أثمان الانش وكأنها فرقٌ في وسط الرّأس، بحيث لا ينمو الشّعر في تلك البقعة بعد ذلك أبداً – وهي عملية سلخ مؤلمة جداً، وأحياناً مميتة.

---

(1) وتعرف هذه الطّريقة في تحليق الشّعر بالقزع.

في المناسبات العاديّة تطلي النّساء وجوههن بنماذج وأشكال غريبة على شكل خطوط سوداء، وفي المناسبات الاحتفالية، بالأحمر والأسود والأخضر. ونمط طلاء الوجه الأكثر شيوعاً هو ذالك النّمط الذي يعطي تأثيرات طريفة مضحكة. يُرسَمُ خط أسودُ متصل على امتداد تخوم شعر الحاجبين، نزولاً نحو الوجنتين فالفكّين ومن ثم يمتدّ بشكل مستقيم عبر الوجنة من الجانبين كليهما باتجاه فتحة الأذن. وتُرسم هنالك أيضاً خطوط مستقيمة عند نهاية الرّمشين باتجاه الصّدغ، وهنالك خطّان عموديان قصيران تحت العينين وخطوط سوداء عريضة حول العنق. وقد تُطبع هنالك بقعة باللّون الأحمر البرتقالي في وسط الجبهة، على الطّريقة الهندوسية، وتُطلى الشّفاه باللون الأحمر.

إنّ المرأة المتزوّجة تصبغ ما يسمى بفرق الشّعر بخطٍّ أسودَ مركزي. ومن التّقاليد السّائدة المتبعة بين نساء هذه القبائل وشمُ الأذقان على شكل خط قصير يتوسط نقطتين 0I0 – وهو تقليد كان متّبعاً في مصر حسب لاين Lane.

تستخدم الحليّ والمجوهرات بإفراط. تثقب شحمتا الأذن عند الطّفلة منذ ولادتها في ست أو سبع مواضع على مسافات متساوية وتزيّن من كل النّواحي بأقراط كبيرةٍ خفيفة الوزن، أو بسلسلة فضّيّة صغيرة متتالية. ومع اقترابها من سنّ البلوغ، تضع الفتاة قرطاً أنفياً على شكل حلقة متدلّية إلى الأمام من المنخر الأيسر. أمّا الخواتمُ العديدة في أصابعها فليست لها أيّة دلالةٍ تتعلّق بالحالة العائلية؛ كما أنها تضع العديدَ من العقود الرّخيصة المبهرجة، لكنها لا تضع أيّة خلاخيل على الكاحل، كما تفعل نساء السّاحل.

إحدى عجائز المَهْرة، وهي سافرة على غرار باقي قريناتها، كان وجهها يتألّق بصباغ أصفر مائل إلى الأخضر مستخرج من إحدى الأشجار المحلية، قدمت لمقابلتي. والصّباغ ذاتُه كان يغطّي ذراعيها من المرفقين فما دون، ويغطي السّاقين من الرّكبتين فما دون، والجزء الأعلى من الصّدر حتى العنق. كان رداؤها عبارة عن تلك العباءة السّوداء الفضفاضة المفردة ذات القطعة الواحدة المنسدلة من أسفل العنق حتى الأرض، وغطاء رأس من الموصلين الأسود منسدل فوق الكتفين؛ لكن ملابسها كانت خضراء وآثار الزّمن بادية عليها، ما أضفى عليها مظهراً عجيباً.

كانت قد أحضرت لي هدية، ولدى فتحها لسلة القصب التي كانت تضع فيها حليها الصّغيرة رخيصة الثّمن، فقد كشفت عن تقاليد أنثوية أخرى. كان النُّشوق من بين تلك الهدايا؛ وهو تقليد أنثوي أكثر منه ذكوري، لكننا لا نلحظه عند الرّجال. فالرّجال يدخنون، وليس النّساء، رغم أنّ الجنسين كليهما يمضغُ لُباناً قوامه مزيج من التّبغ والجير يوضع بين اللّثة والخدّ، يقال بأنّ له تأثيراً مخدّراً.

إنّ الهدية التي قدّمتها لي العجوز المَهْرية الآن لتبهج بها قلب سيدة أوروبية مفترضة كانت عبارة عن أداة من أدوات التّبرُّج: قطعة صغير من الخزف المحلّي مصنوعة بشكل جميل تماماً وتذكر بمصابيح سراج الزّيت الرّومانية القديمة – مِنشقة للغسول الأنفي شائعة الاستخدام في هذه الجبال. تُملأ بنوع من الدّهن المُصفّى ثم تقوم المرأة وهي بوضعية الاستلقاء بإدخال رأس المنشقة المدبّب في منخرها وتفرغ قليلاً من محتوياتها إلى الدّاخل. «علاج من أجل آلام الصّداع»، قالت الواهبة، «يعمل على صقل العينين وتنقية البشرة».

أحد الفتيان من أبناء البدو ممّن كان قد جاءني بغرير badger، وهو عيّنة ثمينة نظراً لصعوبة صيده، قبّل المرأة العجوز قبلة مضاعفة خمس مرات، على خدها الأيسر فالأيمن فالأيسر ثم على جانب وجهها الأيمن وعلى قمّة رأسها – ما ينم عن صلة قرابة حميمة بينهما.

«ابن أخي حليران Halairan بن مرعي»، قالت لي، «ألا تعرفه؟ كان في مسقط».

«أي والله»، ضحك الوغد المخادع قائلاً، «لقد سبق وأخذت قياس رأسي في سجن الجلالي، لكني لم أخبر أحداً، لأنهم كانوا سيلومونني على هذه الفعلة».

استوضحت عن السّبب الذي حدا به للذّهاب إلى هناك. كان قد شدَّ على يد إحدى الفتيات، ويبدو أن أهل الفتاة شكوه إلى الحاكم وتمّ نفيه وترحيله لمدة عام كامل: لكن ذلك لم يُضِرْهُ على الإطلاق، حسبما أكّد لي، فقد أوجد لنفسه سبيلاً للرّزق – نعمة من عند الله – في مسقط، وقدّم إليّ البندقية التي حصل عليها هناك لأراها.

أساليب التّحية والسّلام بين أبناء هذه القبائل فريدة من نوعها. ولمس الأيدي، الأسلوب الشّائع للسّلام بين العرب، يجري تطبيقه بتحفّظ عند السّلام على امرأة، حيث يكتفى بنقر لطيف على الأصابع، ثم تسحب السّيدة يدها بحدّة. أمّا أن يشدّ رجل على يد فتاة، أو يمسك بها بمجمع كفّه كما العادة في المصافحة الأوروبية، فهذا تصرّف غير محتشم ينطوي على رغبة ما غير شريفة، قد يُراق من جرّائها دمٌ.

يتبادل الرّجال التّحيّة عند اللقاء بتبادل القُبل على الوجنتين، مع ملامسة الكتف الأيمن لأحدهما للكتف الأيسر للآخر، لكنهم غلاظ وجلف إلى درجة أن أحدهم إذا ما كان جالساً مع مجموعة من الرّجال، لا يضيره أن ينهض من فوره ويمضي هكذا على حين غرّة من دون استئذان – وهو سلوك فظّ غير مهذب بالعُرف العربي لا يكون في حسبان أحد؛ وبالنسبة للشّيخ أو العجوز تعقب قبلة الوجنتين عادة قبلة فوق حاجبه، وإذا ما التقى الشّيوخ أو الأشخاص ذوو المكانة، فيكتفون بتبادل القبل ثم يقف كل منهما قبالة الآخر لبرهة بصمت ووقور، قبل الجلوس.

عمدت الآن إلى مكافأة هذين المَهْريين الذين استحقّا مكافأتي عن جدارة، ثم انسحبا وهما يردّدان العبارة الشّائعة «بيّض الله وجهك»، أو «الله يحفظك».

تناهى إلى سمعي أصوات غناء لفتيات قادمات من أحد ينابيع الماء في الوادي حيث كانت مجموعة من بنات القَرَا قد ذهبن لجلب الماء في جرارهن. كانت أغنية مفرحة، لكنني كنت بحاجة إلى مترجم من أهل البلد لينقل لي معاني أشعار الحب والغزل تلك باللغة العربية، لكن أحداً من هؤلاء لم يكن متواجداً. لذلك كان عليّ أن أكتفي بتدوين النّوطة الموسيقية لتلك الألحان الشّجيّة. لا يوجد مكان في جزيرة العرب تجرؤ فيه النّساء على الغناء على الملأ، ولكن هنا في هذه الجبال والوديان لطالما سمعت عن بُعد الغناء الشّجي للفتيات، والذي كان يشنّف سمعي إلى حدّ بعيد.

* * *



أول ضبع اصطدناه: الجلد للمُتحف، واللّحم لعلي الضّبعان (إلى اليمين)



تقاليد الشّعر (امرأة متزوّجة)   تقاليد الشّعر (البنات)



تقاليد الشّعر (صبي مختون)



مجموعة من رجال الجبال

الفصل السّابع

طرد العين الشّريرة والامتحان بالنّار

العيـن. الأسـبوع الثّاني من نوفمبر. بدر تمام كان يظهـر تارة ويحتجب تارة أخرى، ماخـراً عباب محيط متلاطم من السّـحب المنخفضة، ولا أزال أذكر آخر مشـهد رأيته لقمر مكتمل عند مغادرتي السّرية لميناء مسـقط، ولكن كـم كان الفرق كبيراً بين تلك الانطباعـات التـي كوّنتها عـن هذا القمـر وبين واقعهـا الحقيقي. مع ذلـك، ورغم أن الصّحـراء بدت حلماً بعيد المنال، وسـراباً رائعاً يجنح نحـوه الخيال، فقد وجدتُ في هذه الجبال مصدر عزاء وسلوان.

لقـد شـكّلت الأغصـان الملتفة لشـجرة التّيـن الكبيرة مـن فوقي لوحـة رائعة على الخلفيّـة الدّاكنـة للعتمـة؛ وصـدى الهسهسـة الحـادّة لصراصيـر الليـل كان مرتفعـاً ومتواصلاً والخَطرات العجيبة الخاطفة لخفافيش الليل السّـوداء من شـجرة لأخرى؛ دفقة من الهواء باحت بسـرّ ذاك النّسـر الذي انسـاب من فوق رأسـي؛ اللقالق البيضاء والبنّية تجمعت في مكان مبيتها المعتاد فوق قمم الأشجار، لتغادر مع بزوغ الفجر إلى وجهة أخرى، حيث يبدو أنها استاءت من وجودنا وتطفّلنا على موطنها، ولـم تعد تنشر مظاهر الحبور والسّرور فوق حقول العين المشمسة بحضورها الرّائع البهيج.

لقـد آذنت تلك الأنغـام الفضولية السّـريعة والمتتاليـة لأحد طيور الـوروار مناجياً قرينتـه ببزوغ الفجر. هل كان فجراً ممتعـاً؟ لا، فالأرنب الصّغير الذي كنّا قد اصطدناه قبـل ليلتيـن وأبقينـاه حياً بإرضاعـه حليباً بقرياً، وجدنـاه كتلة باردة صلبـة مكوّرة على نفسـها بلا حراك. لم يعد بحاجة إلينا، ولـم يتمكن سعيد، العسكري الشّاب الذي اعتاد

ملاطفته واللّعب معه، من مشاهدتنا ونحن نقوم بسلخه، ومضى بعيداً عنا مطأطئ الرّأس - مشهدٌ عاطفي رومانسي مؤثّر عزّ نظيرُه في هذه الأماكن البدائية البعيدة عن الحضارة والمدنية!

كنا بصدد المغادرة في اليوم ذاته نحو مخيّم آخر على مسافة أربعة أميال باتجاه الغرب. كنت قد تخلّيت عن جِمالي القديمة التي حملتنا إلى هنا نزولاً عند رغبة أصحابها الذين كانوا يرون بأنها ستكون أكثر أماناً في موطنها الأصلي بالذّات، ولكوني وجدت أنّ بإمكاني تربية جمال جديدة.

المشكلة التي تعترضك في أثناء نقل عيّنات ثمينة تتمثّل باحتمال وقوعها على الأرض وتلفها تحت حوافر دواب الجرّ الجامحة الحرونة؛ بالتّالي، فإن انتقاء دواب جديدة كان يتطلّب قدراً كبيراً من الحرص والتّأنّي.

كانت طريقنا تتجه صعوداً باتجاه الغرب من حوض وادي العين عبر مروج وعرة متدرّجة الانحدار. لم تكن هنالك أماكن شديدة الانحدار تتطلّب منا التّرجّل عن دوابنا، ومع ذلك، فقد كانت الطّريق تسير بنا هنا وهناك فوق هضاب ورواب مرتفعة تشرف على كامل السّلسلة الجبلية في مشهدٍ آسر أخّاذ. كانت هنالك إلى جهة الشّمال منحدراتٌ فسيحة منبسطة تعانق خط الأفق، ومن خلفنا كانت هذه المنحدرات تهوي بقوة إلى أن تتماهى مع التّخوم والوديان الحراجية على أطراف سهل جربيب Jurbaib. توقفت لتحديد الاتجاهات وفق إحداثيات معروفة على السّاحل على مسافة سبعة عشر ميلاً في الأسفل، بينما هرع أحد مرافقيَّ أسفل المنحدر العشبي نحو أجمة من الأشجار التي تميّز منطقة نبع Isam، وهي منطقة شهيرة بأشجار الليم البرية، حيث عاد منها على الفور مالئاً حجره من ثمارها الشّهية. بعدها قدمنا إلى حافّة جُرف أخضر، أحد الينابيع العليا لوادي عَرْبوت Wadi Arbot، ثم تحركنا نزولاً لنخيّم فيه على ارتفاع 1650 قدماً.

هناك، سرعان ما تآلفت أذناي مع صيحات الرّعاة: هوب - هوب - هوب ررررر، وهفيف قطعان الماشية العابرة في طريقها نحو بركة خينوت Khiyunt، عبر الدّرب

الوحيدة الضّيقة المؤدّية إلى هناك أعلى الوادي، والتّلال حول مخيّمي كانت تضيق كل صباح في خلال فترات متقطّعة تفصل بين الواحدة والأخرى حوالي نصف ساعة بقطعان الماشية في طريقها من أو إلى الماء.

تعدّ ثروة الماشية في هذه الجبال مصدر رزق عظيم بالمعايير العربية. فكل رجل وامرأة يمتلك لنفسه عدداً من رؤوس البقر. وهنالك عدد لا بأس به من أبناء القَرَا والشّحرة يمتلك كل منهم ما يزيد عن مئة رأس، رغم أنّ عتبة الثّراء تبدأ من مستوى عشرين رأساً؛ ومن يمتلك أربعين رأساً يكون قد تخطّى هذا المستوى وبات من كبار الأثرياء.

لا يربّي أهل هذه المناطق سوى الإناث من العجول - من أجل الحليب والسَّمن. ويكفي أن يكون في عداد القطيع ثور أو اثنان، حيث يصار إلى ذبح ذكورها من أجل لحومها. يوضع الجلد المحشو على هيئة عجل قبالة الأم في أثناء موسم الحليب لكي تقوم الأم بلعقه وإدرار المزيد من الحليب - وهو تقليد عربي متبع على نطاق واسع، على غرار التّقليد المتّبع في عُمان بالنّسبة للإبل[1].

تربّى الإبل في الوديان الحراجية في الأسفل على نطاق واسع جداً، إنّما من قبل جماعات محدودة، لأنّ مردودها أقلّ بالنّسبة للإنسان وتتطلّب قدراً أكبر بكثير من الرّعاية والعناية؛ حتى طقوسها التّناسلية تستدعي تدخل الإنسان ومساعدته.

والنّوق الحَلوبة لا تعرف الأقتاب أبداً، وهي بطبيعتها حيوانات غير مؤهّلة للرّكوب على الإطلاق، وهو ما استنتجته من خلال تجربةٍ كلّفتني غالياً. كذلك لا يتم استيلاد النّوق إلا من أجل ذكورها، الجنس الأقوى، لتسخيرها في نقل حاجيات الإقليم وحمل البخور من الجبال إلى السّاحل والعودة بالسّردين إلى الجبال لاستخدامه علفاً للبقر.

تربّى قطعان الماشية على نطاق محدود في إقليم قُطن Qutun، السّقف الأخضر لهذه الجبال، وكذلك في سهل جربيب، وعلى نطاق أوسع بكثير في إقليم الصّلاول[2]

(1) وهو أمر معروف أيضاً في بوادي الشّام والجزيرة، وجلد الحوار المحشو بالتِّبن يسمّى: البَوّ.
(2) يبدو أن هذه صيغة محلّية لاسم صلالة، على اعتبار أنّ هذه المدينة بمحافظة ظُفار تضمّ من الأحياء: صلالة الوسطى، صلالة الجديدة، صلالة الشّرقية، صلالة الغربيّة.

Zaulaul عند سفح جبل سمحان. وهذه القطعان قوامها الماعز، وليس الغنم، لأنّ أهل الجبال يتطيّرون من لحم الضّأن ويرون فيه فألاً سيئاً، ويرفضون تناوله في أثناء حضورهم لإحدى الولائم في ظُفار. مع ذلك، فتقديم وجبة من لحم الضّأن في مناسبة ما، لا ينطوي على أيّة إساءة شخصية، كما هي الحال بالنّسبة للبيض أو الفرّوج. ولا توجد هنالك أيّة كلاب في هذه الجبال، وعدد لا يكاد يذكر من الحمير. فالأخيرة يصار إلى استيلادها من قبل أبناء قبيلة الشّحرة ويربّونها إلى جانب أبناء قبيلة آل كثير لمآربهم الخاصة.

بالنّسبة للزّراعة، يزرع أهالي القَرَا الفاصوليا على نطاق محدود في الجبال الغربية وفي أماكن أخرى، حيث لا توجد مروج تنبت العشَب الذي تقتات عليه الماشية؛ أمّا شرقاً في جبل سمحان، وفي ظلّ ذات الظّروف المناخية، فيعمل السّكان في جني مواسم البخور، أو أنهم يسخّرون أبناء قبيلة المَهْرة للقيام بهذه المهمّة نيابة عنهم.

لكن مورد المعيشة الرّئيس لأبناء هذه الأقاليم هو تربية الأبقار؛ لأنّ هؤلاء الجبليين هم أساساً سلالة من الرُّعاة غير الرُّحّل. تقتصر مهمّة حلب القطيع على الرّجال فقط، ولا تجرؤ أيّة امرأة على مسّ ضرع البقرة أو النّاقة أو النّعجة؛ فهذه خطيئة لا تُغتفر.

في حال إصابة أحد حيواناتهم بمرض ما، كانقطاع الحليب مثلاً، فهم يعزون ذلك على الفور إلى العين الشّريرة - عين إبليس - والتي بالنّتيجة تمثّل مصدر هلع كبير بالنّسبة لهم. لردّ الحسد أو العين الشّريرة يصار إلى استخدام طقوس البخور، والتي تؤدَّى عادة مع شروق الشّمس أو عند مغيبها، وهي طقوس كنت بنفسي شاهد عيانٍ عليها في أكثر من مناسبة. الشّخص الذي يقوم بأداء هذا الطّقس، صاحب البقرة، قام بإحضار المبخرة الحاوية على بعض الجمرات المتّقدة ثم أتى بثلاث كِسراتٍ من عيدان البخور، وبعد أن تَفل عليها ثلاث مرات، ألقى بها في المبخرة. كان شخصان آخران من أبناء القبيلة ممسكين بالبقَرة، أحدهم ممسك بها من الفك السّفلي، والآخر كان حريصاً على ثباتها في مكانها وعدم إجفالها من خلال لف ذيلها ورفع قائمتها الخلفية عن الأرض.

والآن يُطوِّفُ الأول منهما بالمبخرة فوق رأس الحيوان، مردّداً تعويذة قربانية مقفّاة باللسان الشِّحري:

«انظري إلى هذا إنه قربانك؛ البخور والنّار؛ من عين إبليس الشّريرة، من عين الحاسد إذا حسد؛ من كل عين لامة؛ من عين القريب؛ ومن عين البعيد؛ شفاك الله إن كان ذلك بسببي؛ شفاك الله إن كان ذلك بسبب الآخرين؛ وأعاذك من كل روح شريرة؛ من الجِنّة والنّاس؛ أنا إنسان؛ أتقدّم بكفارتي اتقاء العين الشّريرة؛ عين الرّجل؛ وعين المرأة؛ انظري إلى قربانك هذا؛ البخور والنّار».

أرخى رفاقه الآن قبضاتهم عن الحيوان، الذي قفز إلى الأمام وهو يهزّ ذيله بمرح بعد خروجه من هذه التّجربة التي لم تكن بلا شك أسوأ من سابقاتها، لينضمّ إلى أقرانه في القطيع الذي كان قد عبر الوادي.

«ولكن ليس لديكم أنتم أيها البدو مثل هذه الممارسات؟» قلت له، موجهاً كلامي لأحد أبناء آل كثير من أهل السّهول. «التّوكل على الله»، كان الرّدّ الورع لهذا الرّجل، بعينين محدّقتين نحو الأعلى – ولكن بعد كيّ إحدى النّوق لشفائها من العرج نعمد أحياناً إلى كسر عودٍ ورميه وراءها ونحن نردّد: «انكسر العود والشّر ما يعود» – أي بعد كسر العود (عود بخور؟) فإنّ الشّر لن يعود.

في صباح اليوم التّالي ذهبت لأشهد عملية نفخ مهبلي، وهو تقليد شائع بين أبناء هذه القبائل يهدف إلى تحفيز إدرار الحليب. تقف البهيمة وقائمتاها الخلفيتان مثبتتان بقوّة، بينما يعمد أحد الصّبية إلى إغرائها ومشاغلتها بالطّعام بشكل متواصل لتهدئتها. أخذ صاحب الحيوان نفساً عميقاً ثم قام بتنحية ذيلها جانباً ووضع فمه على فَرجها وأفرغ رئتيه من الهواء – ثم تراجع عنها لبرهة مثبتاً إياها باليد الأخرى لمنع تسرّب الهواء، ثم أخذ نفساً عميقاً آخر وكرّر العملية ماسحاً بيده فوق الضّرع في نفس الوقت ليرى إن كانت تستجيب لما يقوم به. يقال بأنّ هذه العملية تُجرى أحياناً من قبل ممارس خبير وفمه مليء بالملح، لكني لم أشهد ذلك عملياً، رغم أنني شهدت العديد من عمليات النّفخ المهبلي.

بـدت القَرَا فـي خينوت في مزاج سـيء. اعتقدت لوهلة أنني السّبب فـي نزاعهم، وتسـاءلت إن كانوا سـيأخذونني أسـيراً للمطالبة بفدية - وهو أمرٌ، على حدّ علمي، لم يحصل بعد على الإطلاق في جزيرة العرب. كانت هنالك احتمالية جدّية لوقوع سفك دماء، مع ذلك، واحتمال كوني لسوء الحظ متورطاً في ذلك.

يتقاطر المتخاصمون إلى الشّجرة التي كنت مخيماً تحتها، ثلّة من الجبليين الشّعث الغبر، ثم يجثون على ركبة واحدة وأيديهم اليمنى فوق فوهات بنادقهم المنتصبة أمامهم علـى الأرض. يبدؤون حوارهم بالحسـنى، ولكن من دون ضحك أو تبسُّـم؛ ومع بدء موجـة الثّرثرة والتّمتمة المعهـودة في مجالس العرب، والتي تتخلّلها فترات طويلة من الصّمـت المطبق، تتغيّـر وتيرة الحوار على حين غرّة، وينهـض أحدهم من مكانه وهو يرغـي ويزبد بطريقـة بدائية فظّة، لينبري لـه آخرُ ويردّ عليه بنفـس الطّريقة وبحدّة تنذر بنشـوب متاعب. ينخـرط الجميع الآن في معمعة من النّقيـق والزّعيق، دون أن يصغي أحـد لما يقوله الآخر. في هذه المناسـبة، يتعلّق أحد الصّبية الصّغـار بإزار والده، أحد المتخاصمين الأكثر انفعالاً، متوسـلاً إليه بالابتعاد عن سـاحة الشّـجار. يبدأ الآخرون بالتّهكّم والسّخرية من الرّجل وهو في طريقه بعيداً عن المكان. وفجأة يستدير نحوهم ويعود أدراجه إليهم مجدداً.

«أيهـا الأوغاد السّـفلة»، يخاطبهـم مزمجراً بغضب، سـاحباً سـبّابته عبر أسـنانه، دلالة علـى تحدي أيٍّ منهم للخـروج لمقارعته، بما يفترض له أن يكـون عصا أو بندقية. ينتفض الشّخص المقصود بالتّحدّي كالملسوع، ثم ينبري للخروج إليه منفعلاً وإصبعه على الزّناد، لكن الأكثر تعقّلاً من الحاضرين يتدخلون لفضّ النّزاع، ثم يمضي الفرقاء كل في سبيله.

كمـا هـي الحال في معظـم المجتمعات القبليـة في جزيرة العرب، فإنّ حكم شـيخ القبيلة، أو حكم العُرف والعقوبات القديمة هو القانون السّائد.

قد يختلف هذا القانون من منطقة لأخرى، لكنه يستند عموماً إلى مبدأ العين بالعين والسّـن بالسّـن، بحيث تتناسـب العقوبة مع الجرم المقترف. حدثنـي حاكم ظُفار عن حادثة جرت مؤخراً تشكّل مثالاً على ذلك.

كان أحـد الرّجـال مرتحلاً في طريقه ومعه ربيع *rabia* (رفيق) من قبيلة أخرى كان متّجهاً إلى بلادها. وعند وصوله إلى هناك، جرى انتهاك قانون الحماية المقدّس ووجد الرّحالة نفسـه مصابـاً بطلقة اخترقت لحم الفخذ. وصل خبر هذه الحادثة إلى مسـامع أحد شيوخ القبيلة hauz، الذي قرّر بأنّ على ذاك الذي قدّم الرّفيق (الرّبيع)، وهو طرف بريء، لكنه فرد من أفراد القبيلة المذنبة، أن يُجازى بذات العطل والضّرر الذي أصاب الرّحالة. لهذا الغرض، تم إحضار قطعة من الخشب حيث جرى تقليمها وتشذيبها على هيئة سـيخ مدبب جرى إقحامه داخل سـاق المتهم ثم جرى إدخال رصاصة وإمرارها في مكانه، وفق القوانين المحلية، وتمّت بذلك إزالة شكوى الجهة المدعية.

قد تؤدّي الإساءة إلى الرّفيق (الرّبيع) في عُمان إلى حرب بين القبيلتين، ما لم توافق القبيلـة المتضرّرة على الحكم الذي يصدره شيخ القبيلة، عندما يتلقّى من المذنبين ما يسـمّى بـ «لوم الوجه» والمقدّرة عادة بما يسـاوي أربعمئة دولار. الجريمة، التي غالباً ما تجري تسـويتها وفق العُرف السّـائد بين قبائـل العرب بـ «ديّة الـدّم» والمقدّرة عادة بما يسـاوي من أربعمئة دولار حتى ألـف دولار أميركي (أو ما يعادلها عيناً)، تصل في جبـال القَرَا هذه إلى حـدود مرتفعة إلى حدّ غير معقول تقارب الخمسـة آلاف دولار، وقد تسـتغرق عمراً بحاله لتأديتها، لكن التّسوية عادة ما تتمخّض عن عداء مرير وهدّام بيـن القبيلتيـن. فالرّجل القتيل قد يكون فقيراً، ما يؤدي إلـى إفقار أهله، لكن التّبرّعات التـي يصـار إلى جمعها مـن كل أفراد القبيلة، التي يقع على عاتقها من منطلق الشّـهامة والمروءة أو من منطلق عادات قديمة متوارثة تحمل هذا العبء. قد ينجو قاتل العبد أو أحد أفراد قبيلة الشّحرة بفعلته، كون القتيل ليس من أبناء القبائل الأصلاء، أي لا يعدله حَسَباً ونَسَباً وليست له عشيرة وراءه تدافع عنه.

ولقبائل أقاليم الجنوب الأوسـط سـمعة رديئة فيمـا يتعلق برد السّـلام – من المتعارف عليه في مناطق أخرى من جزيرة العرب أنه عندما يلتقي رجلان بين قبيلتيهما ثأر دم، ويقول أحدها للآخر «السّلام عليكم» أن يقول الآخر «وعليكم السّلام»، يكونان قد نحّيا ما بينهما من عداوة جانباً من أجل هذه المناسـبة بالذّات. فأن يعمدَ الرّجلُ إلى انتهاز فرصة ما وقتل

غريمه في أثناء نومه مثلاً، يعدّ أبشع أنواع الخيانة والغدر، ويعاقَب بالطّرد من القبيلة وتلطّخ سمعته بالعار. لكن الأمر يختلف بالنّسبة لقبائل الجنوب الأوسط، هؤلاء الخارجين على كل القوانين، الذين يتنكّرون حتى لـ«ثمن البطن». وهو على ما يبدو اجتهادٌ على قانون ضيافة الثّلاثة أيام. فإذا ما أكل بدويٌ من عرب الجنوب «ملح» رجل ما، يصبح ذلك الرّجل وممتلكاته في أمان تام لمدة أربعة أيام وأربعة ليالٍ، وهي الفترة الزّمنية المقدّرة لهضم الطّعام وخروجه من جسم البدوي. وإذا ما صادف لقبيلة المضيف أن تحامقت وأغارت على قبيلة الضّيف خلال هذه الأيام الأربعة، فعليهم أن يعيدوا المغانم إلى أصحابها، وسوف يعيدونها. يعدّ «ثمن البطن» عُرفا مقدساً عند قبائل الطّرف الجنوبي الأخرى في أيضاً، ولكن ليس عند أبناء الجبال.

من السّمات المميزة لهذه القبائل أيضاً هو إدمانهم على القَسَم أو الحَلف بالمزارات والأضرحة (العديد منها يعود لعهود ما قبل الإسلام) أو الخضوع لاختبار النّار. وفي الحالات التي يصار فيها إلى انتهاك أعراف وقوانين القبيلة، يغدو من الضّروري أداء اليمين أو القسم وفق ما يقرّره شيخ القبيلة أو حكيمها hauz.

أمّا الحَلف بالقرآن أو باسم الله، حسبما هو سائد في أنحاء جزيرة العرب، فلا يعنيهم بشيء. فقد يقسمون بالله ثم يتكاذبون بخسّة ونذالة. أحياناً، في الحقيقة، قد يرفض صاحب الحق إلزام المتّهم بأداء مثل هذا القسم، ويصرّ عليه عوضاً عن ذلك أن يُقسم بأحد المزارات المقدسة.

إنّ القدرة على الانتقام تُعزى لهذه الأضرحة والمزارات بمراتب متفاوتة. وأهم هذه المراتب يبدو ضررها بالغ القسوة بالنّسبة للعقول المحلّية مثل حضرة العبّاس، الزّعيم حادّ الطّباع لشيعة كربلاء. وغالباً ما يلجأ صاحب الدّعوى في أحد النّزاعات إلى طلب أداء اليمين بأحد الأولياء الصّالحين من ذوي المراتب العليا، بينما يكون المتهم مستعداً للحَلف بأحد الأولياء الصّالحين من ذوي المرتبة الأدنى. عندها، يقرّر الرّأي العام في القبيلة، والذي يتم تشكيله استناداً إلى درجة الشّك بالمتهم، أيّ المزارات سيصار إلى القسم بها. أحياناً يعترف المتّهم بذنبه بدل مواجهة العواقب الوخيمة ليمين كاذبة.

علـي، رجل معروف من كثير ظُفار، سـرق في إحدى المـرات جملاً وذبحه وأكله. دارت حوله دائرة الشّـك، ثم وُجّه إليه الاتهام بالسّـرقة، ورأى بأنه سـيغامر بأداء يمين الإنكار بمزار ابن عُثمان. أقسم الرّجال بالمزار؛ وفي تلك الليلة لدغته أفعى في قدمه، التـي بدأت تضمر وتفقـد حيويتها. على الفور هرع الملدوغ إلـى الرّجل الذي كان قد سـرقه واعتـرف له بذنبه ودفع له ثمـن الجمل، كيلا يحلّ به ما أسـوأ من ذلك. لا يزال علي حيّاً إلى اليوم، وإذا سألته عما تسبّب بضمور قدمه، يقول لك: «ابن عُثمان».

لكنّ القسـم بأحد المـزارات غير كافٍ دائمـاً، فقد يُطلب من المتّهـم الخضوع لما يسـمّى بـ «اختبار النّار» - وقد كان مضيفي، الشّـيخ حسـن، قد أرسـل في أيام شـبابه إلى حضرموت لخوض غمار هذا الامتحان أمام شـيخ الطّريقة (المبشّع) mabesh'a، وتبين بأنه بريء، وقد عاش طوال حياته، كما أخبرني، مؤمناً بهذه الطّريقة.

لا يجـرؤ كل شـخص، حتـى ولـو كان لديه مثـل هذه القـدرات والمعـارف، على ممارسـة هذا الطّقس خوفاً مـن جَنبيّة القاتل، وهو ما تعرّض لـه بيحان Baihan حدّاد قبيلة[1] Yaham، وهو مبشّع ذائعُ الصّيت في وادي أرمة Wadi Irma. حدّثني مخبري قائـلاً: «ولكـن من ذا الذي يجرؤ على رفض قـرارات علي بن عبد الله بن عبد الودود، سواء أكان ذهباً أو حديداً، بريئاً أو مذنباً».

تجـري طقوس هذه الطّريقة بين صلاتي الفجر والظّهر، حيث يجتمع الفرقاء أمام النّار، ثـم يقوم المحقّق بدسّ نصل حديدي في النّار، وبعد انقضاء بعض الوقت يفتح المتهم فمه فاغـراً إيّاه عـن آخره ويمدّ لسـانه إلى الخارج. بعدهـا يتناول المحقّق طرف لسـان المتهم بمنديله بين الإبهام والسّـبابة، ويسـحب باليد الأخرى النّصل المحمّى من النّار، ويقرّبه من شـفتيه هو بالذّات بتضرّع وابتهال، ثم يقوم بنقرتين خفيفتين، الأولى على الجانب المبسط من النّصل، والثّانية على الجانب الآخر، إلى جانب اللّسان الممدود عن آخره. على المتهم أن يكون قادراً على اسـتجماع ريقه والبصاق حالاً إذا كانت الدّلائل مبشّـرة بالخير، ولكن

---

(1) التّسمية غير واضحة كما كتبها المؤلف، ولعلّه يريد قبيلة همام، من القبائل العولقية الحميرية القحطانية في شبوة رملة السّبعتين، ويوجد أكثرهم في نجران وشَرورة.

يُسمح بمرور ساعتين قبل تطبيق هذا الاختبار على اللّسان. فإذا ما بدت على اللسان علامات تورّم واحمرار غير عادي، أو ظهر لديه انتفاخ في غدّة العنق، يعلن المحقّق بأنه مُذنب وعليه أن يدفع حياته جزاء ما اقترفت يداه، أو حسبما يطلب أصحاب الحق. أمّا إذا لم يظهر أيّ من هذه الدّلائل والعلامات، فيُعلن عن براءته.

«ولكن ماذا بشأن مصداقية هذه الطّريقة؟» سألتُ قائلاً.

«إنها حقيقية والله، فالنّار غير قادرة على إيذاء البريء»، أجاب سعيد، وفكرت بنبوخذ نصر وفرنه المتّقد، وبفرن بلاء إشعيا. ظهرت حذلقة سعيد وفطنته منذ أن بدأ يقوم برحلاته إلى مصائد اللؤلؤ في عُمان، وتزايدت بقدرته على القراءة إلى حدّ ما. ألا يستحضر شيخ الطّريقة الله ليشهد تقبيله للنّصل المحمى وهو يقول:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم،

يا نار، يا نار، كوني برداً وسلاماً،

كما كانت برداً وسلاماً على إبراهيم (عليه صلاة الله وسلامه)».

«ما هذا أيها السّيد الذي تقوله بخصوص نبي الله إبراهيم؟»،

«لا بدّ أنّ لديك وصفاً له في العهد القديم؟» سأل قائلاً.

«كلا»، أجبته قائلاً.

«ألا تعلم»، سأل قائلاً، «أن النّصارى - أبناء النّاصرة - المسيحيون، أسلافكم، بدافع رغبتهم بقتل نبيّ الله إبراهيم، قاموا بإلقائه في النّار، فأرسل الله ملاكه جبريل ليأمر النّار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، ويقضي بنجاة إبراهيم من كيدهم؟».

لقد سبق لي الاطلاع مطوّلاً على عقائدهم الوثنية، ولكن الوصف لن يكون كاملاً من دون التّطرّق إلى مسألة السّحر التي يؤمن بها الكثير من النّاس. كبار السّن بشكل خاص يكونون عرضة للشّك، وقد يُقتلون أحياناً بحجّة أنهم لم يتمكنوا من صقل حياتهم بالتّجارب النّاضجة والمفيدة، إلا من خلال تبادل الأفكار والمشاعر مع القوى الغيبيّة الخارقة.

غالباً ما يُعزى الموت إلى تعاويذ ساحرةٍ ما تعرّضت للاضطهاد على الفور. أحد القبليين من آل الشّيخ الذي صدف وأطلق علينا النّار في أثناء اقترابنا من إبله في وادي عَفار Afar، سبق له في أيام شبابه أن قتل ابنة عمّه الأرملة ظناً منه أنّها ساحرة - وقد لاقت فعلته هذه الاستحسان والتّقدير من قبل عامة النّاس، رغم أن أولئك العامّة لم يُسهموا في تحريضه على القيام بهذا العمل. وقعت إحدى الحوادث في غضون شهر من وصولي، حيث جرى تنفيذ حكم الموت بساحرة مفترضة من قبل مجهولين. وقد تبيّن بأنها كانت موضع اتهام منذ زمن طويل، لكنها أعلنت براءتها من هذا الاتهام وقدّمت نفسها لاختبار النّار، وخرجت من الاختبار بريئة. ولكن حتى هذا الشّيء لم يقنع أبناء قبيلتها. لقد كانت قضيّة من قضايا حكم الغوغاء lynch law بأكثر صورهِ وحشية وبدائية.

القتل على أيّة حال مسألة شائعة الحدوث في هذه الجبال، وقيمة الحياة تبدو متدنّية جداً. وثارات الدّم تسهم في تفرقة أبناء قبيلة القَرَا الواحد عن الآخر، وهي موجودة بينهم وبين أفراد قبيلة آل كثير وآل المَهْرة. إنّ أحداً من القبائل لا يعترف بشيخ واحد له السّلطة المطلقة على أبناء القبيلة، وعلاقة أحدهم مع الآخر تختلف من وقت لآخر. يبدو بأنهم يعتبرون الحكومة إدارة قبلية ذات سلطة عُلوية.

واكب جملي في أحد الأيام أحد أبناء قبيلة القَرَا. نوعية بندقيته وحزام طلقاته الممتلئ عن آخره، ناهيك عن تلك الثّقة المتناهية بالنّفس التي كانت بادية على محيّاه، كانت تنم على أنه رجل أصيل كريم المحتد من أبناء القبائل. كان اسمه سالم.

ونظراً لأنني كنت متقدّماً في السّير على رفقائي، فقد كان يمسك بزمام جملي من وقت لآخر ليقودني عبر الممرّ داخل الغابة كيلا أتعثر ببعض الأغصان المتدلية، بحيث لا أضطر للترجل عن جملي.

«هل كل الكفرة على شاكلتك؟» سألني في الحال. «أهم رجال ضخام الأجسام، حُمر البشرة وزرق العيون؟». «نعم»، أجبته قائلاً.

«وكم بقرة لديك؟».

«ولا بقرة، للأسف!».

رمقني بنظرة ناقدة، متسائلاً عن مصدر دولاراتي.

«وهل صحيح أنكم أنتم الكفّار تجدون نقودكم في صخور الجبال؟».

«صحيح تماماً».

«سامحكم الله»، رد قائلاً، وكأنه يطلب الغفران لأصحاب هذا السِّحر الأسود هؤلاء.

«هل يوجد نقود في جبالنا هنا؟».

«لا أدري يا سالم».

« لماذا أنت هنا إذن؟».

«لأني أحبّ السّفر والتّرحال ولقاء أبناء آدم، ودراسة كافة مخلوقات الله».

«ولكن هل تحصل على المال لقاء ذلك؟».

«كلا، بل أنا من يدفع المال»، قلت له. «هذه العيّنات التي أدفع لك دولاراً عن كل واحدة منها، لا أحد في قبيلتي يدفع علي دولاراً واحداً لقاء كامل المجموعة».

نظر إلي باستغراب: «وهذه الجبال، ألا تخشى ارتيادها؟».

«لا! ولم أخافها؟».

«يا حمر العين» - قالها ممازحاً، «تيمور السّلطان أتى إلى هنا مرة واحدة فقط».

«لكني أحبّ بلدكم يا سالم، فهي تذكّرني ببلدي».

مع ذلك، فقد كان القتل الهاجس الذي يستحوذ على سائلي، كونه ما برح يعود إلى نفس الموضوع. استرسل قائلاً: «أتدري أنّ رجلاً من هذه القبيلة سبق له أن قتل عسكريّاً *askari* من الحكومة؟».

«لماذا أقدم على ذلك».

«ألا تدري أنّ الحكومة أيام الوالي سليمان قتلت أحد أبناء قبيلة القَرَا؟».

«لكنّ ذلك كان قبل خمسين عاماً»، علّق قائلاً، «وهذا العسكري الذي لقي حتفه مؤخراً لم يكن قد ولد آنذاك».

«هذا صحيح»، قال سالم، «ولكنه جاء وسخر من أحد أبناء القَرَا والذي كان ابن أخ الرّجل الذي كان سليمان قد قتله. والله! لقد لعن ذكرى عمِّ الرّجل، بحيث أعمى الغضب عيني الرّجل، فأطلق النّار على موظف الحكومة وأرداه قتيلاً».

«حسن يا سالم»، قلت له، «في بلادنا لدينا علاج واحد، وهو علاج جيد. إذا ما قتل رجل رجلاً آخر، فنحن نقتل القاتل. قبيلته لا تجرؤ على حمايته، والحكومة لا تقبل بأيّ مقابل، سوى حياة المذنب».

«صحيح»، قال سالم، «ولكن عندنا يكفي أن تقتصّ من أيّ رجل آخر من أبناء قبيلة القاتل؛ أولم ترسل الحكومة سرّاً موظفاً آخر قتل أحد رجالنا العام الماضي، بحيث أصبحنا الآن على قدم المساواة. ولكن لماذا قتلوا حمدان بن جاسم (أحد فرسان القبيلة الشّجعان)؟ والله كان رجلاً طيباً، وليتهم قتلوا ثلاثين رجلاً آخر وأبقوا على حياته؛ لكنه قدر مكتوب».

سألتُ عن سالم في اليوم التّالي، حيث أنني كنت قد بدأت أميلُ للرّجل، وفكرت بأخذه معي إلى ظُفار لأقدّم له هدية بسيطة، لكني لم أعثر له على أثر. كان قد هرب، ولسبب وجيه، فقد تبينت فيما بعد أنه كان القاتل الحقيقي لعسكري الحكومة، وعمد إلى التّخفّي نظراً لوجود ثأر دم بينه وبين حكومة السّلطان، التي كانت بالفعل عند مقتل العسكري تسعى للقصاص من سالم.

فكرت بالوقت الذي قضيناه معاً عبر الغابة المقفرة بالأمس، وتنفستُ الصّعداء.

* * *



مروج من النّوع المألوف تحت خينوت



عملية الرّقية من العين الشّرّيرة

الفصل الثّامن

جبال القَرَا، الوداع

حملتْ تباشيرُ الفجر معها موعد الصّلاة وتراءت أمام ناظريّ في عتمة الغسق أطيافُ رفاقي المضطجعين فوق العشب هنا وهناك وهي تعود إلى الحياة من جديد بعد سُبات عميق. صاحبيَّ، القَرَاوي والشِّحري، تحاملا على نفسيهما للنّهوض والصّلاة في مكانهما، متيمّمين صعيداً طيباً من التّربة الجافة حولهما، متسائلاً كيف يجيز لهما مذهبُهما الشّافعي مثل هذا التّساهل والتّراخي في أمور الدّين والعقيدة؛ بينما توجّه رفاقي العُمانيون الثّلاثة من أصحاب المذهب الإباضي Ibadhi الأكثر تشدّداً متقلّدين بنادقهم - في هذه الجبال لا يتحرّك أحد قيد أنملة من دون بندقية - إلى أعلى الوادي إلى إحدى برك المياه من أجل الوضوء، والذي من دونه تغدو صلاتهم باطلة.

لقد بدت لي هذه الصّلاة الإسلامية التي يؤدّيها هؤلاء البُداة خمس مرّات في اليوم أشبه بتلاوات وأدعية، أكثر منها طقوساً محفّزة للرّوح. حتى بالنّسبة للملتزمين المتشدّدين فهم يعلّقون أهمّية قصوى على الوضوء الصّحيح والالتزام بالمواقيت والوضعية، أكثر منه بالكلمات التي يتلونها في أثناء الصّلاة، أو أنها هكذا تبدو للنّاظر غير المهتم؛ في الوقت الذي يجهر فيه أبناء هذه الجبال بتمتمة بعض العبارات غير المفهومة بتعجّل لا ينطوي على تمعّن، وهم يتلفّتون يمنة ويسرة في أثناء تأديتهم لهذا الفرض المقدّس.

أمّا في يتعلق بالنّساء، فنصف نساء هذه الجبال يلتزمن بأداء الصّلاة كما قيل لي، ولعلّه تقدير غير دقيق، لأني لم ألحظ أياً منهن في أثناء تأديتها للصّلاة على الملأ.

وهنـا، كمـا فـي أيّ مكان آخـر من جزيرة العـرب، قد يبدو مـن غير المحتمل بالنّسـبة للرّجال والنّساء معاً تأدية الصّلاة على الملأ كما يفعلون في أثناء تناول الطّعام.

مع ذلك، وإذا ما صحّت التّقارير المعلنة، فالجميع، من رجال ونساء على حدّ سواء يلتزمون بصوم رمضان، والذي تبدو معالمه الرّوحية أقلّ من مدلولاته الطّقسية - وهو طقس قد يؤدّي التّهاون في أدائه إلى استجلاب غضب الخالق على العبد.

فـي وقـت لاحق قـدم نحونا خمسـة من البـدو من أبنـاء السّـهل، يمكـن تمييزهم بسـهولة، لأن سـمات البيئة وطريقة النّداء قد خلّفت آثارها عليهم. فعضلات السّـيقان التي لا حاجة إليها لتسلّق الجبال كانت أقل ضخامة، وكانت سيقانهم مقوّسة من كثرة الرّكوب؛ بينما شكلت الأقدام المتّجهة نحو الدّاخل دلالة لا تخطيء، عند إمعان النّظر إليها، على أنهم من أبناء البادية. ملابسهم كانت مثالية أيضاً، المئزر **musur** والدّشداشة طويلة الأكمام التي تصل إلى ما دون الرّكبتين. أما أسماؤهم فعزّزت هذا الاعتقاد لدي أكثر فأكثر، ابن عنيقيد، ابن عويجة، ابن نجيم، على شاكلة: ابن كايت **Kate**، ابن جاين **Jane** (بالإنكليزيّة)، الخ. نظراً لأنّ العُرف القبلي عندهم يقضي بأن يُنسَب الولدُ لأمّه بـدل أبيـه، وهو عُرفٌ ليس له نظيـر بين أبناء المـدن أو قبائل هذه الجبـال. كان هؤلاء الرّجـال الخمسـة من أبنـاء قبيلة المَهْـرة قد جاؤوا بحـراً إلى سـدح **Sudh**، وهو ميناء للبخور تحت راس نوس **Ras Nus** لجمع مستحقات الدّائنين (عبيدهم؟) الذين كانوا يعملـون في البخور لهذا الموسـم، والآن يعودون إلى موطنهم فـي وادي رامة (أحياناً أرمة) الكبير.

بعدهـا جـاء مَهْريٌّ آخـر، كان واضحاً أنـه من أبناء هـذه الجبال، يحمـل معه أفعى كان قد أمسـك بها من قفاها بالإبهام والسّـبابة وقد التفّت بصورة مخيّفة حول خصره. «لقـد لدغتنـي»، أخبرني قائلاً، رافعاً يده الأخرى ليرينـي موضع اللّدغة المحتقن فوق أصبع الخاتم، والتي فاقم من تورّمها ذلك الرّباط المشـدود حولها بقوّة لمنع السّم من الانتشار. قام بوضع الأفعى على الأرض حيث أظهرت لنا بأنها لا تزال بكامل نشاطها وحيويتها. عندما كنت أهمّ بالانصراف شاهدته يطلق يده بخفة ورشاقة للسّيطرة عليها

مـن جديد، لكنها كانت أسـرع منـه هذه المرة ولم يتمكن من السّيطرة إلا على الذّيل. عندها سـرعان ما اسـتدارت الأفعى نحوه وتمكنت من معاجلته بلدغة أخرى في يده؛ أشحتُ بوجهي عن هذا المشهد متقزّزاً لأنّ الحاضرين أجمعوا على أنها كانت سامّة.

كانت بطول ذراع تقريباً وهو ممسك بها من ناحية الذّيل ورأسها متجه نحو الشّرق، عندما مرّر اليد الأخرى من الذّيل إلى الوسـط، ليمسـك بها مجدّداً بحركة خاطفة من قفاهـا ويجهز عليها خنقاً. ناولتهُ الدّولار الموعود كالمعتاد، ولكن من دون أن أمازحه كمـا جرت العـادة، لأني كنت قلقـا للغاية من احتمـال موت الرّجل ووضـع مثل هذه المأسـاة حـدّاً نهائياً لمزيـد من الصّيد في هـذه الجبال، الأمر الذي قـد يؤثّر حتى على خططي المستقبلية.

مع ذلك، فقد جاءت لمقابلتي جماعة مَهْريَّة أخرى من أبناء المنطقة من بيت شيطانا Bait Shaitana– عائلة الشّيطان – وهو اسم على مسمّى، نظراً لصيتهم السّيئ، وعلى رأسـهم زعيمهم الشّـيخ البْخيـت Labkhit. أحدهم كان يريد علاجـاً لمرض اللُّهاث المتقطـع النّاجـم عـن رصاصة كانت قـد اخترقت الرّئتيـن أصيب بها فـي أثناء إحدى الغارات.

«إذن هل لديك أيّ علاج لساق معطوبة؟ الرّجل ليس هنا، فهو عاجز عن المشي».

«منذ متى؟» سألته قائلاً.

«منذ أن أصيب برصاصة في الرّأس».

«ليس هنالك أيّ علاج في العالم يمكن أن يساعده في ذلك»، أجبته قائلاً، مستنتجاً إصابته بالشّلل.

«الحمد لله ربّ العالمين» قالها أحد الرّجال، من منطلق التّسليم بقضاء الله وقدره، بينما نظر الأربعة الباقون بعضهم إلى بعض بحسـرة وأسـى؛ لكنّي شـعرت بأنني كنت موضـع تقييم واختبار. إما أنني كنت ضنيناً بمسـاعدتهم، أو أنني كنت أفتقر للبراعة أو القدرات السّحرية التي كانوا يعتقدون بامتلاكي لها. أعطيتُهم بعض التّمور، ووعدتهم

بمكافآت إن عادوا إلي بأحد حيوانات الغرير، الذي يعدّ اصطياده من أكثر المهام صعوبة.

بعد حلول الظّلام طلب الشّيخ من أبنائه الأربعة الحضور إلى تحت الشّجرة للتّرويح عني بأغانيهم الجبليّة باللسان الشّحري، في الوقت الذي كانت فيه بقايا ذلك الأرنب الجبلي الذي قمت باصطياده ذلك اليوم مركونة جانباً في مكان يؤمل أن تجتذب فيه الرّائحة أحد الذئاب أو الثّعالب، الثّعلب العربي الأحمر الضّخم - ويبدو بأنّ الثّعالب المحلّية ذات البطون السّوداء منتشرة بكثرة في هذه الجبال، وحيثما كنت أوجّه مصباحي حول سريري في المخيم، كنت متيقناً من ملاقاة زوج من العيون الحمراء المتوهّجة. كان على رفاقي العرب واجبُ التّناوب على مهمة الحراسة، أما هذه الليلة، فقد توجّهت نحو موقعهم لأكتشف بأنهم كانوا جميعاً يغطون في نوم عميق. الكثيريُّ الذي كانت نوبة حراسته هي الأولى، قام بتعليق الأرنب فوق أغصان الشّجرة بحيث لن تكون هنالك أيّة بقايا في الصّباح عليها آثار قضم تشي بغيابه عن نوبة الحراسة. لمستُه بقدمي، فانتفض واقفاً مطلقاً صيحة مذعورة، ثم امتدت يده على الفور إلى بندقيته، كما يفعل أيّ عربي في مثل هذه الظّروف، حيث أنه لا توجد قبيلة دون ثارات دم متوارثة تجعل من كل فرد من أفرادها هدفاً مشروعاً لعدو ما. حافظ سعيدٌ الآن على يقظته وكوفئ على الفور بثعلب كان يطوف خلسة في طريقه، لكن هذا بالكاد كان يعوّض خسارتنا لأسد جبالٍ أخطأته طلقاتُ الصّيادين في وادي نحيز Nihaz.

يستحوذ على قبائل هذه الجبال، كونها قبائلُ مستوطنة، هاجسٌ بالتّملك لا نجده لدى أبناء البدو الرّحل. في الوقت لا تعود فيه ملكية الشّجر والمراعي لأيّ إنسان من النّاحية النّظرية، فإن بعض القبائل تدّعي لنفسا حقوق تملك الأراضي استنادا لمبدأ وضع اليد sqatters. والكهوف والمغاور أيضاً تندرج في عداد الملكية الخاصة. وهي تنتقل من الأب إلى الابن، لكنها لا تخضع لقانون وقف الملكية لمصلحة ورثة معينيين، وهكذا فإن بوسع المالك الحالي أن يتخلّص في أيّ وقت من ملكيته ضمن حدود البطن القبلي الذي ينتمي إليه.

«ولكن ماذا بشأن كهوفكم ومغاوركم المتاخمة للسّهل؟» سألتُ أحدَ أبناء قبيلة بيت كثير.

«إنها أملاكٌ حرّة، كما الهواء والصّحراء»، أجاب قائلاً. «قد أشغلُ أحدها اليوم وأنتقل منه غداً ليشغله أحدٌ غيري. إنها لا تخضع لملكية أيّ إنسان، وهي من صنع الله».

في قرى السّهل السّاحلي، حيث يشيّد الإنسان بيتاً يقيه حرّ الصّيف وقرّ الشّتاء، أول ما يقوم به عند تحديد معالم المنزل هو دق أربعة مسامير طويلة في الأركان الأربعة لإبعاد العين الشّريرة.

وعند الانتهاء من بناء المنزل يعمد صاحب المنزل إلى ذبح خروف عند عتبة الباب كقربان لإبعاد عين الشّر والحسد عن البيت - وهو طقسٌ مقابلٌ لتقليدٍ منحلٍّ أخلاقياً نقوم به عندما ندشن الانطلاقة الأولى لإحدى السّفن بفتح زجاجة خمر تيمّناً بهذه المناسبة. في بعض مناطق عُمان، عندما يتم الانتهاء من بناء أحد البيوت، يعمد الشّاغل الأول قبل أن تطأ أقدامه عتبة المنزل إلى ذبح خروف وغمس كفه في بركة الدّم ثم تلطيخ دعائم الباب من هذا الدّم. تقليد مشابه نلحظه في سهل ظُفار، وإنما في أثناء عمليات البناء. واللحم يصار إلى تناوله من قبل البنائين أنفسهم ويجري تطبيع الجدران ببقع عشوائية من الدّم. عند الانتهاء من عملية البناء يعمد صاحب المنزل إلى كسر بيضتين فوق عتبة الباب، واثنتين فوق الدّرج، واثنتين عند المدخل المؤدي إلى الطّابق الثّاني.

إنّ الخامسة عشرة هو سن الزّواج التّقليدي بالنّسبة لكلا الجنسين، لكن الولد قد يتزوج أحياناً قبل هذه السّن بقليل للحؤول دون اكتسابه لعادات سيئة. الفتاة أيضاً قد يصار إلى تزويجها قبل الوصول إلى مرحلة البلوغ، إذا ما كان والدها على قيد الحياة وأعطى موافقته على ذلك. وإذا ما كان أحد الطّرفين في مرحلة البلوغ، وكان الطّرف الآخر لا يزال قاصراً، لا يشكّل ذلك عقبة في طريق زواجهما.

ولكن هل تعدّ مثل هذه الزّيجات أمراً شائعاً؟ ماذا بالنّسبة لأبنائكم أنتم بالذّات؟» سألت الشّيخ حسن قائلاً.

«أنا كنت بالغاً راشداً، في السّادسة عشرة ربما عندما تزوّجت. لكن بْخيت هنا، وأشار إلى ولده الأكبر، الذي بدا على أعتاب الرّجولة، «زوِّجته من ابنة عمّه قبل سنتين. والآن كبُرَ ووقع في هوى فتاة أخرى، وعندما ستسرّحونه في ظُفار وينال المكافأة التي ستتكرّمون عليه بها، سيعود ويتزوّجها».

«وماذا بالنّسبة لزوجته ابنة عمّه؟».

«إنّها والله أطيب وأحسن فتاة في هذه الجبال، ولديها أملاك أيضا، لكنه لا يحبّها، ويحبّ الأخرى».

«هل هي صغيرة؟».

«لا، كبيرة!».

«عشرون؟»، خمّنتُ قائلاً.

«لا قدّر الله»، أجاب قائلاً، «ثماني عشرة ربما». سيطلّقها وستتزوّج من رجل آخر أيضاً».

من غير المستغرب في هذه الجبال الإقدام على الزّواج من منطلق الطّيش والخفة. فالعروس تُعدّ من المتاع الشّخصي للرّجل كأيّة قطعة أثاث. وأكثر العرائس غلاءً لا تكلف أكثر من عشرين بقرة (أربعمئة دولار)، والأرخص بقرة واحدة، أو حتى عشرة دولارات - ويطلق على هذه الزّواج تسمية القيلاب *gailap*. العريس ووكيل العروس، وهو عادة أبوها أو أخوها، ينزل إلى السّهل لعقد القران عند القاضي، وعند عودته، تعمد نسوة القبيلة يتقدّمهن الرّجال من أهل الحي إلى مرافقة العروس إلى كهف عريسها، حيث لا يوجد من قطع الأثاث سوى سجادة صغيرة تم شراؤها من أجل المناسبة. ويكون الرّجل قد ذبح بقرة أو اثنتين، إذا ما كان ميسوراً، لإقامة وليمة العرس، ولكن ما خلا ترديد بعض الأهازيج من قبل الرّجال، لا يصحب مثل هذه

المناسبات أيّ رقص أو احتفالات صاخبة كالتي تصاحب طقوس الختان عند الذّكور.

والطلاق أمر بالغ اليُسر بالنّسبة للرّجل، كما هي الحال في سائر أنحاء جزيرة العرب. إذ بمجرد أن يسأمَ الرّجلُ من زوجته ويصرّح عن ذلك بصيغة الطّلاق المعهودة، عليها أن تغادر إلى بيت والدها، ومعها هدية الفراق ومقدارها نصف بقرة. والطّلاق من قبل المرأة أمرٌ يسير أيضاً، رغم كونه أكثر كلفة، حيث يتوجّب عليها أن تعيد إليه نصف المهر، الذي قد يصل إلى عشر بقرات. والطّرفان يغدو كلاهما حرّاً في الزّواج من جديد. والطّلاق لا يحتاج إلى قرار من القاضي، لذلك فإنّ الزّواج والطّلاق أمر شائع. يحقّ للرّجل بحكم الشّرع الزّواج من أربع نساء في أيّ وقت، لكن العُرف السّائد يقضي بواحدة فقط، أو اثنتين.

إذا ما أنجبت الزّوجة لزوجها أولاداً فيصرف الزّوج عادة النّظر عن فكرة تطليقها، ولكنه عندما يتزوّج مرة ثانية، من فتاة صغيرة حتماً، فمن المتعارف عليه أن يسعى إلى استرضاء زوجته القديمة وتطييب خاطرها بهدية مساوية لهدية الزّواج التي قدّمها لعروسه الجديدة. لهذا تطلب النّساء هدايا وعطايا قيمة، ويُنظر في الحقيقة للملكية المستقلة للأطيان والعقارات من قبل الزّوج والزّوجة من منظور محبّذ.

«كم ولداً لديك يا Instahail؟» سألتُ أحد مرافقي من أبناء القَرَا[1].

«ثلاثة»، أجابني قائلاً، «بنتٌ وصبيّان».

«من نفس الزّوجة؟».

«كلا، البنت هي الكبرى، وهي زوجة فضل الله هنا. لقد طلّقتُ أمها».

«لماذا؟» قلتُ له.

«لم تنجب لي أولاد (أي أولاد ذكور). لكنها هي من كان قد طلب الطّلاق».

«وهل طلبت استعادة نصف مهرك gailap؟».

---

(1) لم يتبيّن لي المقصود من اسم Instahail، هل هو تصحيف لاسم إسماعيل؟

«بـل أكثر مـن ذلك. أعطيتها سـت بقـرات، وطلبتُ اسـتعادة ثمانية لقـاء الطّلاق، وحصلتُ عليها».

«وما هو المهر gailap الذي طلبْته لزواج ابنتك؟».

«أربع بقرات. كانت تسـتحق أكثر، لكن فضل الله هو ابن عمها، ولم يكن بمقدوره تقديم أكثر من ذلك، لذلك وافقت على زواجه منها بأربع بقرات فقط».

«لقـد خرجـتَ إذن بكسـب مقداره سـت بقرات لصالحـك أنت، اثنتـان عن طريق زوجتك وأربع عن طريق ابنتك؟».

«واللـه! قال ضاحكاً، كنت مغفـلاً، لأنها تزوجت من ابن زيـدي وأنجبت له أربعة أبناء ذكور».

«وزوجتك الثّانية؟» استوضحت قائلاً.

«أنجبـت لـي ثلاثة أبناء ذكور وسـت بنات، ولكن اثنين فقط مـن أبنائي الذّكور بقيا على قيد الحياة».

«وعلـى فـرض أنـك التقيـت بزوجتـك التي هـي زوجة رجل آخـر، ما هـي طبيعة الصّلات بينكما؟».

«قـد أُعرض عـن تقبيل وجنتيها أو مصافحتهـا، وأكتفي فقط بالسّـؤال عن أحوالها (التّحية المعتادة في إقليم الجبال)».

ينبغـي للمرأة تجنّـب أمرين من المحظورات: يحظّر على المـرأة حلب الحيوانات وطهي الطّعام. فهذه من الحقوق والامتيازات الحصرية للرّجال. وتقتصر أعمال المرأة علـى الرّعـي والعناية بالقطيـع وجمع الحطب وجلـب الماء وصنع الأوانـي الفخارية وقطع الأغصان للفُرُش والأسـرة. لكن هدفهـا الرّئيس في الحياة هو إنجاب الأطفال، لا سيّما الذّكور. ومنعُ الحمـل ظاهرة غير معروفة في هذه البـلاد، وهي فكرة ممقوتة ومستهجنة. الحمل مسألة يسيرة بالنّسبة لها، وهي عادة ما تعمل حتى اليوم الذي يسبق

الولادة، وتضع مولودها تحت شجرة في العراء أو داخل أحد الكهوف وهي بوضعية الوقوف، على طريقة الثّدييات من ذوات الأربع، بمساعدة محتملة ولكن ليست حتمية من إحدى نساء القبيلة، والتي قد تكون أمّها أو شقيقتها. وهي تكون مستعدّة للعمل صباح اليوم التّالي.

أمّا النّغولة، أو الولادات غير الشّرعية فهي ظاهرة غير معروفة في أنحاء هذه الجبال، على الرّغم من الحرّية الكبيرة التي تتمتع بها النّساء هنا. قد يُعزى ذلك إلى شروط الزّواج والطّلاق الميسرة، بعيداً عن الإجراءات العقابية القاسية والمتطرّفة المعمول بها في مناطق أخرى من جزيرة العرب. في عُمان على سبيل المثال، تجازى بالقتل على يد والدها أو أخيها أو ابن عمها، ولكن ليس زوجها، كل بكر أو ثيّب، عزباء أو متزوجة، زنت عن عمد أو حملتْ سفاحاً. أما هنا، فيصار إلى نبذها من القبيلة والسّماح لها بالتّوجه إلى السّاحل لتدبّر شؤون حياتها بنفسها. أما الرّجل الذي عمل على إغوائها - بالنّسبة للعُرف في عُمان - إذا كان الفعل برضاها، فينجو من العقوبة، ولا يوضع أيّ قيد على حركته. أما في جبال القَرَا، فيلاحق من قبل أقاربها الذّكور، الذين يكون جلّ مبتغاهم إصابته بجرح من سيوفهم يبقى وصمة عار عليه إلى الأبد. ولكن إذا ما تمكّن من الفرار، فيطلبون زوجته أو أخته أو أمّه ويطبّقون عليهن مبدأ العين بالعين والسّن بالسّن.

إذا ما ارتبطت فتاة الجبال بميثاق أو عهد الزّواج وهي غير ناضجة بعد جسدياً وفكرياً، تكون آمنة من أيّة تحرّشات شاذّة. وهنالك قاعدة مقدسة بالنّسبة لوالد الفتاة تقضي بتزويج ابنته لأول مرة من دون استشارتها موافقتها.

وهذه القاعدة لدى أبناء عُمان من أصحاب المذهب الإباضي يجري الالتزام بها بشكل أكثر صرامة من قبل المتشدّدين منهم، حيث يعتبرونه أمراً مشينا أو معيباً بالنّسبة للوالد أن يستشير ابنته أو يقف على رأيها أو يطلعها مسبقاً على عزمه بزيارة القاضي لعقد قرانها، بحيث تبقى في جهل تام بأي شيء عن شريك حياتها حتى ليلة زفافها إلى منزلها الجديد.

هنا، من جهة أخرى، قد يتحدّث والد الفتى إلى الفتاة المخطوبة نفسـها، ويتحدّث بالتّأكيد إلى أمها، مشـيداً بخصال ولده وسجاياه. وبمجرد أن تُطلّق فتاة الجبال وتغدو امرأة بنظر المجتمع، يصار إلى استشـارتها والوقوف على رأيها بالنّسب للزّوج القادم، وهنالـك حالات تزوّجت فيها المطلقة من الرّجل الـذي اختارته بمجرد حصوله على موافقة والدها. وما يسمّى بـ «حق ابن العم»، وهو عرفٌ متفق عليه على نطاق واسع في بقية مناطق جزيرة العرب، لا يشـكّل عرفاً مُلزماً في هذه الجبال، إلا عند قبيلة المَهْرة، حيث يبقى الحق الحصري بالتّصرّف بيد الأب.

غادرنا خينوت Khiyunt. سلكنا طريقنا صعوداً بمحاذاة جُرف حِرجي على امتداد الـوادي مـن جهته الجنوبيـة الغربية على ارتفـاع 1850 قدماً فوق سـطح البحر، حيث تمكنـت مـن تحديـد موقعي من خـلال إحداثيات البوصلة اسـتناداً إلى نقـاط معروفة على السّـاحل. من هناك انطلقنا بقية النّهار باتجاه الجنوب الشّرقي عبر مروج متدرجة مـن نباتات الشّـوفان البـرّي. أخذت الأرض تـزداد وعورة وتعاظمت كثافة الأشـجار والنّباتـات وازداد عمـق الوديان التـي كنا نجتازها. لذلك ترجّلـت عن جملي وتابعت طريقي سـيراً على الأقدام ومعي شـبكة صيد الفراشـات وزجاجة خمر معتبرة، حيث قمت بإرسال الجمال عبر طريق فرعية أطول، لكنها أسهل وأقلّ وعورة.

كنـت قـد غدوت بذلك منفصلاً عن بقية الرّفاق عندما لحق بي راكضاً بدوي من آل كثير وهو يصرخ بذعر.

توقـف يـا صاحِب، توقف! ليـس معك رفيق (ربيـع) *rabia*، وقد احتجـز بنو كثير جمالنا».

بيـت قُطن، أحـد بطون قبيلة القَـرَا، لهم تجربة سـيئة مع الحكومة فـي ظُفار؛ كنت قد زجججتُ أحد وجهائهم في سـجن صلالة؛ وكانوا قد رفضوا دفع الضّرائب السّـنوية وكانوا يشنّون الغارات على القبائل المجاورة.

مع ذلك، لم أكن راغباً بالتّوقف.

«واللـهِ!» صـرخ بانفعال. «بيت قُطن قـادرون على إلحاق كل أنـواع الأذى بنا. ألم يقتلوا أحد عساكر الحكومة العام الماضي؟».

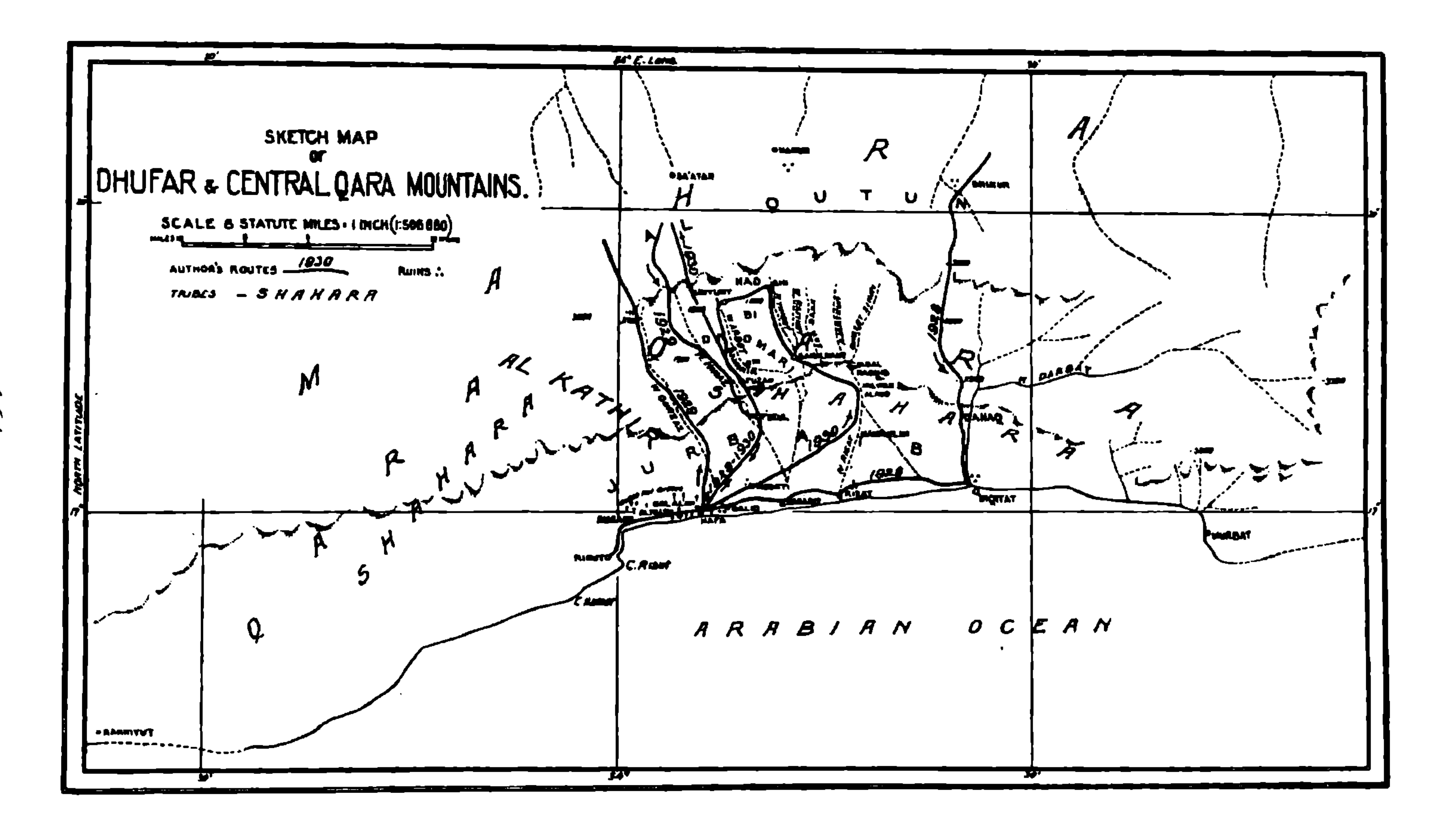
لـم يكـن هنالك أيّ قَـراوي Qarawi بالقرب مني، ولـم يكـن هنالك أيّة جدوى في الواقـع من رجوعي. لذلك فقد قرّرت المضي قُدماً بالعبد الوحيد الذي كان معي على أمـل ألا نواجـه أيّة أخطـار في طريقنا. كانـت طريق حَمريـر Hamirir تمتدّ عبر جُرف ينحدر على الجانبين كليهما نحو واديين حرجيين كثيفين: عَرْبوت Arbot على يسارنا ونحيـز Nihaz وبيـت قُطـن على يميننا. وهكـذا، وفي وقت مبكر من بعـد الظّهر، بعد ثلاث سـاعات من السّـير المُجهد مـن دون حماية، وصلنا مُنهكيـن ومتقرّحي الأقدام إلى نبع[1] Fuzah، المشـرف على عَرْبوت، حيث أشـار مقيـاس الارتفاع خاصتي إلى 1350 قدماً.

تخيّرتُ لمخيمنا عند نبع Fuzah شـجرة أعلى مرج أخضر متموّج كان يشرف على مشهد لا يوصف. كان وادي عَرْبوت المكشوف ينحدر ملتفاً أسفل منا إلى أن يتماهى مـع العـراء في سـهل جربيب، المتاخـم للبحر الـلّازوردي من جهته البعيـدة. تحاذي السّـهل من هـذا الجانب المنحـدراتُ المتجهة صـوب البحر للجبـال الممتدة بتدرج يتضـاءل شـيئاً فشـيئاً إلى أن تتماهـى مع قمم جبل ناشِـب Nashib ذي القمم شـديدة الانحدار؛ أمّا بوابات الوادي العظيم ذي النّتوءات الصّخرية الحادّة فلا يمكن تمميزها على هذا البعد إلا عن طريق الظّل الذي تعكسه كل منها على تلك التي تجاورها.

لم يكن هنالك عند نبع Fuzah أيّ عدو يتربّص بنا، ولـم نلتقِ غير راعية شابة عابرة، اشـتريتُ منها عنزة لآخذها معي إلى الوادي فـي تلك الليلة ونربطها قرب الماء كطعم قد يجتذب أسد جبال محتمل.

---

(1) لم يتبيّن لي المقصود من هذا الاسم، أهو فوزه، أم فزاح؟ وبالطبع ينبغي عدم الخلط بينه وبين فيزاح (أو الفزايح) في رخيوت بمحافظة ظفار.


SKETCH MAP
of
DHUFAR & CENTRAL QARA MOUNTAINS.
SCALE 8 STATUTE MILES = 1 INCH (1:506 880)
AUTHOR'S ROUTES 1930
RUINS ∴
TRIBES – SHAHARA
54° E. Long.
NORTH LATITUDE
AL KATHIR
SHAHARA
ARABIAN OCEAN
C. Risut
DARBAT
1930
1928

بعد ساعتين وصلت جمالي المتأخرة، وقد رفض مرافقي القراويون الحديث عن الأحداث غير المناسبة التي صادفتهم على الطّريق. كان نهارهم مرهقاً، ومع ذلك، فقد تناولوا قِرَبَهُمْ بمرح وهبطوا نحو عَرْبوت لجلب الماء من غدير عين Fuzah، التي هي عبارة عن بركة آسنة تظهر وتختفي بين الحين والآخر.

يا لهم من متسلّقي جبال بارعين هؤلاء الرّجال، بسيقان حسنة قوية العضلات؛ مهمّة نزول المنحدر البالغ عمقه ثمانمئة قدم، والتي تلاها مهمة صعود مرهقة وهم يحملون فوق ظهورهم قِرَبَ الماء الملأى عن آخرها، لم تعنِ لهم شيئاً، ولم يعبأوا حتى بجحور الأفاعي الكامنة بين الأعشاب البرّية بعد حلول الظّلام. لقد تمكنت من التقاط أربع أفاعٍ (اثنتان منها من النّوع الأفريقي السّام ذي الفراء) في خلال السّاعات الأربع والعشرين من وصولي.

انقضت ليلتان. كنت مستيقظاً عند الثّالثة والنّصف صباحاً، ليلٌ مظلم بارد رطب كان يخيّم على الكون تحت سحب منخفضة وهلالٍ باهت، عندما سمعت فجأة دوي طلقة بندقية تردّد صداها عن بُعد، أعقبها بعد قليل صوتٌ خفيضٌ لرجالٍ يهللون ويغنون. تملكتني رغبة جامحة بالغبطة والابتهاج لاعتقادي بأن جماعتي المكلفين باصطياد أسد جبال كانوا يحتفلون بصيد ما. لكنّه كان صيداً من نوع مختلف.

أحد الشّيوخ القَراويين الشّباب تعثّر بسريري في العتمة، الأمر الذي أجفلني، كوني لم أسمع أيّ وقع أقدام، ثم ذهب باتجاه أصوات الغناء لتحرّي الأمر، وفوق رابيةٍ على مسافة ميلين وجدوا جثّة رجل قَبَلي مَهْري، وكانت لا تزال ساخنة مع آخر رمق حياة غادرها قبل وقت ليس ببعيد. كانت الجثّة مضرّجة بالدّماء نتيجة طلقة اخترقت القلب.

في وقت مبكر من الصّباح جاءني والشّيخ حسن مقترحين بأنّ بقاءنا في هذا المكان لم يعد آمناً. يجب أن نغادر على الفور، ووافقني على ذلك هذان القبليّان الكسولان من آل كثير. لقد أثارت فيهما ذكرى ثأر الدّم بينهم وبين قبيلة المَهْرة حالة قلق غير عادية. كانوا يخشون من أن تكون هذه الحادثة من فعل أحد المتعصّبين من أبناء قبيلتهم، وأنّ حياتهم هم بالذّات ستكون بالتّالي عرضة لخطر محقق.

«ومن تخاله فعلها أيها الشّيخ حسن؟»، سألته قائلاً.

«الله أعلم. بيت جعبوب Bait Jabob، أحد بطون قبيلة القَرَا، أخشى أنهم فعلوها. الم تسمع وابلاً من الطّلقات أعقبت الغناء؟ جاء ذلك من جهتهم وبدا لي بأنّه احتفاء قبليٌّ بالجريمة»، وهذا ما ثبت فعلاً. «قبيلة المَهْرة قتلت رجلاً من قبيلة جعبوب العام الماضي في أثناء إحدى الغارات. لكن بيت جعبوب أخذوا بثأرهم الآن».

«ولكن المَهْريَّ كان يجب أن يعرف ذلك. لماذا غامر بالمرور في أراضي قبيلة القَرَا؟ ألم يكن بينهم هدنة؟» سألتُ قائلاً.

«نعم، السّلطان أقرّ هدنة لعام واحد. وهذه الهدنة انقضت قبل شهرين، اتفقت بعدها القبيلتان فيما بينهما على هدنة ذاتية لعام لآخر».

«إذن هذه كانت خيانة؟».

«إنها هدنة مكتوبة». قال الشّيخ.

كانت هنالك حقاً هدنة موقّعة. والموقّع على تلك الهدنة لم يكن سوى القاتل نفسه. كان قد أقسم بأنّ قبيلته برمتها ستتحاشى سفك الدّماء المَهْريّة لعام كامل. وبعد شهرين قام بنفسه بتعقّب خطى الرّجل المَهْري وقتله في أثناء نومه.

«كنت أعرف القتيل، سهيل. كان أحد الرّجال الأربعة من بيت شيطانا الذين حضروا للقائي في خينوت قبل ثلاثة أيام فقط، وسرد لي حكاية شعبية. كان شاباً رائعاً فريداً من نوعه. هذه هي عواقب ثارات الدّم. ليس القاتل فقط من يتم تعقبه عادة؛ بل أحد الوجوه البارزة في القبيلة، لا سيّما إذا كان ابن عم القاتل، يصار عادة إلى تحديده والتّربّص به وقتله، مثلما حصل اليوم.

«ولكن لماذا أيها الشّيخ حسن وقعت الجريمة هنا، قرب مخيمي؟ أرض من هذه؟ أهي لبيت جعبوب؟».

«كلا، إنها أرضي بالذّات!» أجاب الشّيخ حسن، «ولكن في عُرفنا أنا لست ملوماً،

لأنـه لم يصطحب معـه أيّ رفيق (ربيع) *rabia* من قبلي. لو كان معه رفيق لوَصَمَ العارُ وجوهَنا بمثل هذه الجريمة النّكراء.

لو كان بُخيت Bakhit (مشـيراً إلى ولده) ربيعاً لأيّ شخص يقتل على يد القَرَا، لما هدأ لنا بالٌ حتى نأخذ له بثأره. كنت أتمنّى لو كان بُخيت هو القتيل بدل أن يموت ذلك الرّجل الذي هو تحت حمايتي ويحيا ولدي».

كان الحديـثُ مبنياً على الاستشـهاد بالنّصوص، ولكنّي فكـرت إلى مدى مثل هذا الحدث سيكون أكثر ملائمة لو أنه جاء من قبيلة عربية نبيلة.

بات الشّيخ حسن وقتلة الليلة الماضية أعداءً مُعلنين، لأنّ أبناء القَرَا منقسمون على أنفسـهم شرّ انقسـام، مع ذلك، فإنّ المرء يستشفّ في لعناته الخافتة رضىً ضمنياً على الثّأر من أحد أبناء القَرَا.

التفـتُّ إلـى الكثيريُّ قائلاً: «لا بدّ أنك مرتاح البال كون الجريمة لم تُرتكب على يد أحد أبناء آل كثير».

«سـامحهم اللـه، نحـن البـدو نحتـرم الهدنة، ولكـن في هـذه الجبـال هنالك غدر وخيانـة. أبناءُ القَرَا والمَهْرة لا يفكرون أبداً بانتهاك شـروطٍ أشـهدوا اللـه عليها. والله حتى الرّفيق (الرّبيع) ليس آمناً معهم. هل تعلم – ولكنك لن تصدّق – سهيل الذي قُتل الليلة الماضية كان قد شرب من حليب قاتله الليلة التي سبقت مقتله. سامحهم الله!».

قـرّرت النّزول إلـى ظُفار صباح اليـوم التّالي ووضع حدّ لإقامتي فـي هذه الجبال. الضّبـاع، على الأقل، لن تأسـف لرحيلي. ولكن على الرّغم من الأحداث المشـؤومة التـي وقعـت مؤخراً، لم تكن فكـرة المغادرة فكرة سـارّة، لأني أغـادر أرضاً هي بحق أرضٌ فريـدة مـن نوعها في كل أنحاء جزيـرة العرب، أرض المتع والمسـرّات الدّائمة للفنّـان، والمفاجـآت اللانهائيـة لعالم الأجنـاس البشـرية، وفردوس اللـه على أرضه لعالـم الطّبيعة، وبالنسـبة لـي، أنا عابر السّـبيل، مصدر لا ينضب للمتعـة والبهجة. في هذه الرّحلة الأخيرة، لم يخلد أصحابي إلى النّوم مع غياب الشّـمس كعادتهم، وبقيت

حركة المخيم قائمة حتى وقت متأخر من الليل وسط صخب حاد رافق عملية تحزيم غنائم الصّيد الخاصّة بي[1]، وتجهيز الأحمال للشّروع في انطلاقة مبكرة.

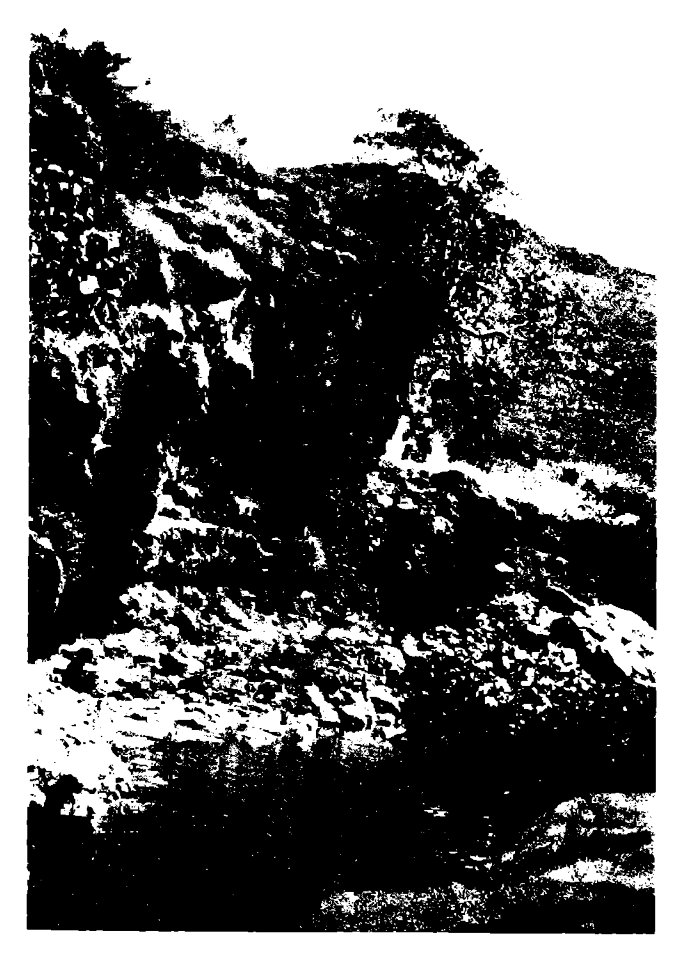
نمتُ بشكل جيد، وصحوت لأنظر إلى الأسفل مودّعاً وادي عربوت، الذي بدأت فتنته تتزايد بعدما عاد إليه الحياة بعد هجوعه السّاكن. يبدو أنّ الجنادب قد أسكتها الفجر الكاذب. من أعلى التلّة حيث كان رفاقي العرب يؤدّون صلاتهم، صدر صوت همهمة مُبهمة، وكأنّها صلاة مكبوتة تُسمع عن بُعد في كاتدرائيّة فسيحة. كانت النّجوم تبدو خافتة في سماء ذات لون أردوازي كانت تحوّلت إلى لون عنبري فوق البحر حيث بدأ قرص ذهبيّ هائل بالاتقاد نحو الأعلى.

كان العُشب الطّويل يصدر حفيفاً عندما تحرّكه نسائم الصّباح، وفي الأشجار كانت الطّيور تغرّد لفرحها بدفء جديد. أمّا قمم الهضبة فكان يضيئها الوادي النّاعم الذي يقع ما بينها وهو ما زال يقبع خامداً تحت دثار بنفسجيّ.

أمّا الآن فقد أشرقت الشّمس، وراحت تشعّ وتتخلّل كلّ شيء. وحده جبل ناشب الهائل وظهرها له كان يجرؤ على المقاومة، وكانت كتلته المعتمة تبدو هزيلة تجاه البحر المتلألئ. راحت الدّقائق المارّة تصبغ المشهد بألوان أكثر بريقاً: فكانت الغيوم ككتلة من الشّوك قد تغيّرت من الأخضر إلى لون السّلمون الوردي، وأضحت السّماء أكثر زرقة، وأخيراً أفاق الوادي العميق، واعتباراً منه بدأت السّفوح عارية الجذع تتلوّن بلُطف بالوردي والخُبّازي، وما فوقها كانت المروج تحفّ أديم السّماء بلون ذهبيّ.

* * *

(1) كتب المؤلف: تألّفت مجموعتي التي جمعتُها في هذه الجبال ممّا يلي: 5 ضباع، 3 ثعالب، ذئب واحد، 2 أرنبا صخور، غُرير واحد، 2 جرذا شجر، 2 خُفّاشا شجر، 16 عقرباً، 4 حريشات، 112 حشرة متنوّعة (سراعيف، عناكب، زنابير، إلخ)، 28 سحليّة، 21 ثعباناً، 96 فراشة، 61 يعسوباً، 50 جرادة، ضفدع واحدة. وتعريفاتها موجودة في الملحق الثّاني.



نبع خبنوت



إطلالة على وادي عربوت من Fuzah



في نهاية وادي عربوت

الفصل التّاسع

ظُفار - السّاعة الحادية عشرة

حصن ظُفار. كان يومِ 6 ديسمبر. وكنت أتعافى من هجمة ديزنطاريا قد أبقتني في الفراش ثلاثة أيّام منذ أن عُدتُ من الجبال.

مرّ شهران منذ انطلقت من مسقط، وستة أسابيع وزيادة منذ اختفى موفداي في رمال الصّحراء. غير أنّ هذه الرّمال بدت لي أقلّ شفقة من سُمعتها السّيّئة، ويئستُ من تلقّي أيّة أخبار. لعلّ موفدَي يكون اعترضهما أعداءٌ لهما وقتلوهما، لتضيع مني جميع سنوات التأهّب والتّحضير والإنفاق السّخيّ الذي كنتُ رتّبتُ له بعناية وأنفقته بحذق.

غداً المفترض وصول المركب الحربي «السّعيدي» العائد لحكومة مسقط. وعليّ العودة على متنه. ومن المؤكّد أنّه ستكون هناك تعليمات رسميّة قد أتت على يد قائد المركب لفعل ذلك. لعلّ بعض المجريات قد حدثت في عُمان، ربما حرب أو ثورة، أو حتى ضرر أقلّ من ذلك يستدعي حضوري. وكائناً ما كان الأمر، فعليّ أن أعود.

ركض رسولٌ عبر الأزقّة تحت تصوينات الحصن. كان الحشد يعرقل طريقة للاستماع إلى الأخبار، لأنه كان قد عدا براحلته من مرباط بعد سماع تحيّة المركب، وبعد أن رأى راية مسقط الحمراء ترفرف على أعلاه، هذا لكون أوّل من يصل إلى السّوق بهذه الأخبار ينال دوماً جائزة البشارة. ومن أعلى أسطح المنازل راحت تجلجل أصوات إطلاق النّار لنشر الخبر السّار، بينما جلستُ أنا في الحصن أتأمّل في فشل ترتيباتي. في العام الفائت أخذتني قافلة حوالي مئتي ميل شمالاً إلى حافّة رمال الصّحراء، ولم أجد يومها بدّاً من النّكوص والعودة على أدراجي، هذا ما جرى..

ولكنني في هذا العام لم يُتح لي أن أشاهد ما وراء سلسلة جبال القَرَا.

مضى ما يقرب من نصف ساعة في هذه الأجواء والتّداعيات الكئيبة وكانت الشّمس على وشك الغروب عندما جاءني خادمي محمّد متسلقاً السّلّم بقفزات رشيقة.

«لقد جئتك بأخبار يا سيدي! لقد وصل للتوّ بدويان إلى ساحة السّوق قادمين من الصّحراء، وقالا بأنّهما يتقدّمان قافلة من أربعين رجلاً مع جمالهم، ومعهم معيوف وخويتم، اللذين سبق لك أن أرسلتهما. سينزلون الليلة عند عين فورم Forum وغداً إن شاء الله سيتوجّهون نحو جربيب».

أنباء سارّة حقاً، إن صدقت. لكن البارجة الحربية ستصل أيضاً من أجلي غداً. لو كانت جماعتي من أبناء الصّحراء إن صحّت تسميتها هكذا - وصلت متأخرة يوماً؟ هل كنت سأتعرّض لعملية غش وخداع في اللحظة الأخيرة؟

نظرت إلى الأسفل باتجاه باحة الحصن إلى أربعين رجلاً أنيقاً وسيماً على ظهور الجمال والعديد من البدو الشُّعث الغبر الخارجين من صحراء الرّبع الخالي بعد أن قد قطعوا مسافة مئتي ميل بناء على أوامري السّرّية. نظرتُ صوب البحر حيث كان مركب «السّعيدي» مربوطاً في المرسى وهو يتأرجح على صفحة المياه. والآن قدم قبطانه الشّجاع صالح المندري إلى الشّاطئ فرحاً مستبشراً كعادته، منتظراً أن يقلّني معه إلى مسقط. سرعان ما انهمكت بشوق وشغف في قراءة مجموعة الرّسائل التي حملها معه. كانت الأولى تحمل شعار السّلطان. كانت مؤرّخة من الهند وكانت بخطّ اليد الحنونة الودودة التي كنت أعرفها جيداً. قرأتها مرة ثانية وثالثة، وبروح الثّقة التي طبعت علاقاتنا على مدى ست سنوات، اتّخذتُ قراري. سأعيد البارجة من حيث أتت إلى مسقط، من دوني. سأحاول العودة بطريقة أخرى. سأشارك أولئك القساة العتاة في الأسفل قدرهم، جميعهم غرباء، وأخوض معه غمار تلك الفيافي المجهولة.

أحضر خويتمُ ومعيوفُ الشّيخَ صالحَ لرؤيتي، والجميع تحمّل مشقة كبيرة في تخطّي المصاعب التي كانت قد واجهتهم في سبيل لمِّ شمل المجموعة وإقناعها

بالمجيء، ومن ضمنها أخطار مواجهة الأعداء، ومخاطر الجوع على الطّريق (وهو ما شـهدت عليه حالة جمالهم المزرية)، وأخيراً وممّا لا شـك فيه، المكافأة السّخيّة التي كانوا يتوقعون الحصول عليها مني.

سـرعان مـا ارتاحـت نفسـي للشّـيخ صالـح[1]. كان يحمل الاسـم السّـحري «ابن كلّوت» - كلّوت، أشـهر سـيدة في كل الصّحراء، ابنة أحـد المحاربين ذائعي الصّيت، ووالدة ثلاثة محاربين أشـداء؛ فأن يكون لهم نَسَـبٌ وعشـيرة تدمّـر أعداءهم (وتكون مخلصة لأصدقائهم) لهو جوهر الشّهامة والنّبل في هذه البلاد. كان صالح رجلاً قصير القامة غليظ العظام ذا رأس كبير أصلع، وهي صفات غير اعتيادية بالنّسبة لبدوي؛ حتى سـنوات صالح السّـتين وفكه العريـض. كان جبينه عالياً، بسـبب الصّلـع ربما، وعيناه كبيرتين وقسماته منبسطة وواضحة، وصوته دافئاً وموزوناً؛ لقد كان يوحي بالثّقة.

أقسـمت عليـه أن يحفظ السّـر، ثم بُحت لـه بمخططاتي. هدفي الوحيـد كان عبور الصّحراء من البحر إلى البحر.

«ولكن من أيّ مكان تريد الانطلاق؟».

«من أيّة نقطة ممكنة»، قلت له. «الرّياض، البحرين، أبوظبي».

«هذا مستحيل يا صاحِب!» قال جازماً.

«ما هو الممكن إذن؟».

«بوسـعنا أن نأخذك إلى بلدنا، ديرة الرّاشـدي Rashidi dira، جنوبي الصّحراء ومن ثم نعيدك، والله ينجينا من قبيلة صيْعَر؛ ولكننا لا نستطيع أخذك إلى مراعي قبيلة أخرى».

---

(1) هو شيخ الرّواشد الشّيخ صالح بن كلّوت الرّاشدي الكثيري، خلف أخاه الشيخ سهيل بن علي آل كلّوت في مشيخة القبيلة، وحاز على شهرة كبيرة في عصره. توفي في دبي عام 1953. كما اشتهر ابنه الشّيخ محمّد لاحقاً بمرافقته للرّحّالة البريطاني ولفريد ثِسيجَر (مبارك بن لندن)، الذي كان ثالث روّاد الرّبع الخالي من بعد برترام توماس وهاري سنت جون فيلبي. وتوفي الشّيخ محمّد في الرّياض عام 2009. رحمهم الله أجمعين.

كنت مصمّماً. إمّا أن أعبر الصّحراء، أو أقلع عن الفكرة من أساسها. لن يفيدني في شيء الإذعان لاقتراحه.

«ولكن»، ردّ صالح قائلاً، «شهر الصّوم يصادف بعد شهر من الآن. فمن ذا الذي يسافر في وقت كهذا، يكون فيه ملتزماً بالصّيام في كنف عائلته؟».

من الطّبيعي ألّا يكون صالح راغباً بالسّفر في رمضان، أو أن يتجشّم عناء رحلة طويلة أكثر من المعتاد. لكنك لا تستطيع إرغام البدوي على القيام بما هو ضدّ إرادته. لكونه شخصاً سريع الانفعال، فهو لا يتقبّل أن يُعامَلَ بطريقة مستبدّة، لكنه يفهم معنى التّصميم، وعليك أن تمنحه يوماً أو يومين للتكيّف مع أيّة فكرة لا تكون مقبولة أو مُستساغة بالنّسبة له في البداية.

في اليوم التّالي حضر صالح ثانية لمقابلتي، وفاتحتُه مرّة أخرى بطلباتي غير القابلة للمساومة، والتي كنت مستعداً لأن أدفع بسخاء في سبيل تحقيقها. ألحفتُ عليه بالطّلب، قبل أن أغيّر رأيي وأستقلّ البارجة المتجهة إلى أبوظبي وأطلب مساعدة العوامر Awamir لتنفيذ ما كنت أنوي القيام به في حال أصرّ على رفضه. كنت آمل أن يأتي معي في تلك الحالة؛ هذا دون أن أكون جادّاً فيما قلت. تأثّر صالح لهذا التّلميح بأني قادر على تنفيذ مآربي من دون مساعدة الرّواشد (رغم أنني لم أكن قادراً على ذلك، رغم كون العوامر من أصدقائي الحميمين، وبات أسلس قياداً).

«ولكن يا صاحِب، هنالك أمر لا تفهمه. ما تطلبه ليس بمقدوري القيام به. أنا قادر على تنفيذ طلباتك كما تشاء ضمن أراضي الرّاشدي، اللهم نجّنا من الأعداء، ولكن المناطق التي تنوي المرور بها هي أراضي بني مُرّة[1]، ولا أجرؤ على انتهاك حِماهم بنفسي من دون موافقتهم وحمايتهم. لا أدري إن كانوا سيوافقون على وجودك في مناطقهم. لا أستطيع أن أمنحك العهد الذي تريد».

---

(1) بنو مُرّة قبيلة يامية همدانية قحطانية معروفة تمتدّ من نجران جنوباً إلى الكدن شمالاً، ومن الدّكاكة شرقاً إلى يَبرين غرباً، ويعدّون من أوسع قبائل الرّبع الخالي نفوذاً.

لقد كانت مصادفة سعيدة وجود مركب «السّعيدي» *Al Sa'idi* لدينا. إذا كان البدو جادّين بشأن المصاعب، فلا جدوى إذن من الشّروع في رحلة معهم؛ لأنّ ممانعتهم ستزداد كلما أمعنّا في التّقدّم، وهي تجربة عانيتُ منها العام الماضي عندما بدأت رحلتي من دون تفهّم كامل. أن تبدأ وتفشل كان يعني العودة إلى ظُفار بعد شهر من الانطلاق دون أن أحقّق أهم أهدافي، ومتابعة طريقي من هناك إلى مسقط على متن أحد قوارب الدّاو، أملٌ كريهٌ منفّر. وهكذا كان علي في تلك المرحلة استبقاء مركب «السّعيدي» على أُهبة الاستعداد.

مرّ يوم ثالث ونمي إليَّ أنّ صبرَ جماعة البدو الذين قدموا من أعماق الصّحراء قد بدأ ينفد، لأنهم كانوا يتوقّعون مني نقوداً، وأنا لم أقدّم لهم سوى الطّعام وعلف الجمال.

جاءني صالح من جديد متذرّعاً بأنّه بات في وضع مُحرج، لأنني وجماعتي على حدّ سواء لم نعد نُحتمَل. سرى هنالك بعض الغَمز واللّمز حول أهدافي، والحافز الأقلّ احتمالاً للانطلاق في مثل هذه الرّحلة كان سيلقى قبولاً من جانب أولئك البسطاء السّذج. كان من الضّروري كسب ثقتهم واستمالة عقولهم نحو حوافز وأهداف خفيّة مضلّلة، كتحرّي عدد جمالهم على سبيل المثال لإيصال ذلك إلى مسامع السّلطان تيمور أو جُباة ضرائب مفترضين، حيث أني رأيت من الأفضل أن أنأى بنفسي عن أيّة سلطة خارجية، وأقسم لهم على ما هو الحقيقة المتمثلة بقيامي برحلاتي حباً بالسّفر والتّجوال، أولاً، ولخدمة قضية (العلم) ثانياً، وهو هدف تعتبره قبيلتي سامياً ومشرفاً.

«حسنٌ، أيها الشّيخ صالح، ما هو الموقف الآن؟».

«كما أخبرتك يا صاحِب، أريد مساعدتك، لكني لا أستطيع أن أعدك بما تريد».

كنت في الحقيقة مدركاً للعبقرية الكامنة في نقاش صالح، ولكن لم يكن مجدياً على الإطلاق القبول بالموقف الذي كان ينطوي عليه ذلك النّقاش. من الواضح أنّ صالحاً لم يكن في وضع يؤهله من ضمان حماية قبيلة أخرى، لا سيّما بالنّسبة لشخص أجنبي وغير مسلمٍ مُجاهَرٍ به.

«ولكن أنت تعلم تماماً أيها الشّيخ صالح أنّ بني مُرَّةَ أصدقاؤك؛ وإذا ما دفعتُ لهم جيداً وعرفوا بأنّي موضع ثقتك، فسيسمحون لنا بالمرور».

«أعتقد بأنهم سيفعلون يا صاحِب، إذا كان هنالك كلأ وماء، ولكنهم لا يعرفون سوى الطّريق إلا أراضيهم».

كان ذالك هدفي الحقيقي؛ أن أحصل على تعهّد أكيد من صالح بأنه سيرافقني هو نفسه طوال الرّحلة ويسعى لضمان تعاون بني مُرَّة وسيرهم معي في خلال شهر رمضان.

إذا ما قام بهذه الأشياء فسوف يحصل منّي على جمل وبندقية ومئزر. في أثناء مساوماتنا سعيت إلى استمالة وإقناع السّيد سعود الوالي، الذي كان قد رجع لتوه، للتّحكيم بيننا، لأنه كان رجلاً ذا مكانة مرموقة وموضع احترام كبير، وكنت في غاية الامتنان للطّفه وكرم أخلاقه. بوصفه مسلماً ملتزماً أيضاً، فقد شهد على قَسَم صالح لي بأنّي سأكون تحت حمايته، وأنّني لن أكون ضحيّة أيّ غدر أو خيانة ناجمة عن عاملين اثنين، كانا خارج نطاق قدراته: القوم، أي غارات العداء على المجموعة - والقضاء والقدر.

شعرت، وأنا مُدرك لمعايير صالح القدَريِّة، أنّ العامل الأخير سيُبطل مفعولَ القسم، لكنـي كنت حريصاً على عدم الإلحاف عليه للحصول منه على تعريف دقيق لعامل القضاء والقدر، كيلا يفضي ذلك إلى إثارة قضية دينية بالغة الحساسية، الأمر الذي سيكون في غير محلّه مطلقاً. كنت أثمِّنُ الرّوحَ، أكثرَ منها الكلمة.

وهكذا أخذت عهداً صالح بالتّعاون معي لتحقيق أهدافي على محمل الصّدق والنّية الحسنة: «ولكن أحداً من هؤلاء البدو الذين معي لا ينبغي له أن يعرف»، أضاف قائلاً. «لقد جاءوا وهم ينتظرون منك أن تزور الدّكاكة Dakaka، مخيمنا الحالي، حسبما كنت قد رتبت مع سهيل الرّاشدي العام الماضي. سمعوا بعطيّتك السّخية له، وهذا ما جاء بهم إليك - الطّمع! الجشع. ولكن لا بأس. عندما نصل إلى مياه الضّحية سيكون

التّعب والإعياء قد تمكّن من جِمالهم. ستقوم بصرفهم، ريثما أكون قد انطلقت قبلك ورتّبت الأمر مع الآخرين للمجيء لحملنا معهم».

ولكن ماذا بشأن الطّريق، أيها الشّيخ صالح؟».

«الحرب يا صاحِب، الحرب، الغفاري من المعرب[1] Ma'arab هنالك دم بينهم وبيننا؛ إنهم أقوياء.

لن نصادفهم بإذن الله على الطّريق. ولكنك ستلتقي بني مُرّة، وإلا فلن يكون بوسعك متابعة الطّريق».

كان علينا أن نحصي عددنا وعُدّتنا بدقّة متناهية. كان واضحاً أنه بمجموعة واحدة، أو حتى مجموعتين من الجمال، لن يكون بوسعي ربما نقل أحمالي عبر هذه القفار الجرداء القاحلة بالسّرعة التي كنت أرجوها؛ الدّواب ستغدو في حالة غير طبيعية. «أربع محطات»، قال الشّيخ صالح، «لا تعوِّل على أقل من أربع محطات». كان يعتقد بأن أعدادهم يمكن تقليصها مع تقدّمنا في المسير، ولكن في الشّوط الأول من الرّحلة عبر الأرض السّهلية، المكشوفة لأبناء قبيلة صيْعَر، لن يكون التّحرّك آمناً بأقل من

(1) كتب المؤلف: هنالك فئتان سياسيتان متضادّتان، الهناوي Hinawi والغفاري، والتي يدين لإحداها أو الأخرى كل قبيلة في جنوب شرق جزيرة العرب بالولاء. ظاهرياً، فإن مصطلح هناوي وغفاري يعود لخلاف فئوي على الخلافة في عُمان أوائل القرن الثّامن عشر، ولكن وفق ما لاحظته في مناطق أخرى، فإن لهاتين الفئتين أهمية أكبر بكثير. على العموم، فإنّ تسمية «هناوي» تعود بأصولها إلى النّسب القحطاني وتسمية «غفاري» تعود بأصولها إلى النّسب المعدي أو النّزاري، وكل الأنساب غير اليَمَنية. لذلك، وضمن حدود معيّنة، يعدّ الفارق بينهما عرقياً في أصله. وهذه التّسميات تنطبق على قبائل مثل قبيلة صيْعَر، الذين يُنظر إليهم على أنهم غفاريون، بينما يُنظر إلى آل كثير، الذين ينتمي إليهم آل راشد، على أنهم من فئة الهناوي. كذلك أيضاً الحلف الأوسط المسمى غفاري، رغم أنه في جنوبي جزيرة العرب، تمييزاً لها عن عُمان، لا توجد هنالك أيّة تحالفات فئوية، وليس لهذه المسميات أيّة دلالة سياسية
أمّا المعرَب Ma'arab والمشقاص Mishgas فهي تسميات إقليمية في جنوبي جزيرة العرب لشرق وغرب ظُفار على التوالي. وهكذا فإن الصّيْعَر وكافة القبائل الغربية الأخرى هم من أهل المعرَب.

أربعين رجلاً. كنت أفضّل، لأسباب ماليّة، مجموعة أصغر، لكن مستشاري كان على حق. في الحقيقة فإنّ أربعين قد يكون غير ملائم، مستذكراً أن غاراتٍ قوامُها مئتا رجل وثلاثمئة رجل أمرٌ مألوف في هذه الفيافي الجنوبية الحدودية، حيث يعدّ سفك الدّماء ونهب الجمال والبنادق من نشاطات الحياة العادية.

«وإذا ما التقينا بجماعةٍ تفوقنا عدداً يا صالح؟».

«لا حول ولا قوة إلّا بالله العزيز القدير».

كانت الحصص الغذائية مكوّنة من الأرزّ والتّمر والطّحين. الكميات كانت تحدّد عدد حيوانات الجرّ المطلوبة لحملها في كل مرحلة تالية من الرّحلة. الكثير من الطّعام كان يعني الكثير من النّفقات والتّكاليف، ليس فقط على صعيد القيمة، وإنّما بخصوص أُجرة الجمال، لأنّ جمال الصّحراء هذه هي من النّوع صغير الحجم ورشيق الحركة، ولا تقوى على حمل الأثقال الكبيرة؛ فكثير من الحصص الغذائية كان يعني فعلياً إفساد كافة مخطّطاتي. علي أن أخصّص ميزانية تكفي لأربعة مراحل منفصلة من الرّجال: أربعون، ثلاثون، عشرون، خمسة عشر. تتلقى المجموعة الأولى من الرّجال مخصّصاتها الغذائية بشكل فردي قبل بداية الرّحلة؛ والدّواب ستحمل مخصّصات المجموعات الثّلاث التّالية. تتكرّر العملية عند كل مرحلة. بهذا التّخفيض المرحلي قدّرتُ أنني سأكون بحاجة إلى خمسة عشر جمل حمولة في البداية.

كان التّنظيم الدّقيق والمتأنّي عاملاً أساسياً من عوامل النّجاح، لكنه ليس الضّامن الوحيد لمثل هذا النّجاح. فقد نصادف مجموعة من أبناء قبيلة صيْعَر تفوقنا عددا على الطّريق (الأنباء بأنّي أحمل معي ثلاثة آلاف دولار من الفضّة كانت كافية لأن تدفع نحوي بألف غازٍ)، وقد نصل الصّحراء لنفاجأ بثلاثة عوامل أخرى لم تكن في الحسبان. أوّل هذه العوامل سيكون موقف قبيلة مُرّة حيال مروري أنا بالذّات عبر أراضيهم، والثّاني يتمثّل بحالة الماء والكلأ في الصّحراء هذا العام، والثّالث إمكانية العثور على أعراب مستعدّين للمجازفة بجمالهم وأنفسهم والسّفر في أثناء شهر رمضان. كان من المتعذّر في الوقت الحالي تحديد موقف قبيلة مُرّة، إذ لم يسبق لغريب قط أن وطأت

قدماهُ هذه الأرض، غريبٌ أبيضَ، ومسـيحي! هل سـيتعاونون؟ الشّيخ صالح رأى بأن فرص النّجاح أو الفشل كانت متساوية. بهذه الحالة الملتبسة غير المؤكدة، وبعد تأخير دام شهرين، انطلقتُ من ظُفار يوم العاشر من ديسمبر 1930.

* * *



الشّيخ صالح بن كلّوت



شجرة لُبان

الفصل العاشر

فوق التّلال والمتابعة بعيداً

طابور من الجمال انساب عبر بوابة حيّ الحصن في المدينة حيث كان هنالك حشدٌ من الزّنوج الشّعث الغبر الفضوليين قد تجمّعوا لمشاهدة رحيلنا وتوديعنا بعبارة «في أمان الله».

يتّسم ارتحالُ البدوي دائماً بالتّلكّؤ والتّراخي؛ حيث أنّ هواجسه تكون معلّقة بناقته التي تنوء تحت حمل غريب ثقيل؛ كذلك هو نفسه قد نسي شيئاً ما كان يريده من السّوق لا تكتحل عيناه برؤيته إلا مرّة في العمر، ثم يَعهدُ بجمله إلى أحد جيرانه ويعود ليتلكأ هناك لساعة أو أكثر.

جاءني خويتمُ وفي يده ثلاثة مساميرَ فولاذيةٍ كبيرة. «أتذكر هذه؟»، قال وهو يناولها لخادمي. «سوف تحتاجها لصنع موقد في الصّحراء، حيث لن تجد أيّة أحجار لإيقاد النّار». وهكذا توقفنا في صلالة حيث كلّفتُ أحد الحدّادين بصنع موقد بقيمة دولار واحد نستكمل به نواقص الرّحلة.

«اشرب يا صاحِب»، وناولني اثنان من البدو كأساً من الماء المستجرّ من مياه البئر الخاصة بالجامع، وبعد أن شربت حتى الارتواء، وشربوا هم كذلك، بوضعية القرفصاء، لأن من المعيب لابن الصّحراء أن يعبَّ الماء واقفاً؛ لقد شربوا بعد أن شربت - دلالة مرضية بالنّسبة لي على التّسامح والإيثار - إنّ الإقامة في العراق والتّواصل الوثيق مع رجال دين الأماكن المقدّسة لأتباع المذهب الشّيعي قد ترك تأثيره على التّقاليد والأعراف القبلية في مثل هذه الأمور.

لـم نكـد نقطع خمسـة أميـال وجماعتي تضـرب في عرض السّـهل خبط عشـواء، ومـا كدنا نقترب مـن بعض النّباتات الشّـوكية التي تقتات عليها الجمال، حتى سـمعنا صرخـاتٍ مـن الخلف، «دعو الجمال تـأكل»، «دعو الجمال تـأكل»، ولدى تجاوزهم إيّانا، أشار علينا الأعراب بوجوب التّرجّل عن ظهور الجمال، بذريعة أنّ الشّيخ صالح كان لا يزال في المؤخرة.

لـم أكد أترجل عن جملي حتى ترجلوا جميعاً وجـرت إناخة الجمال على قائمتيها الخلفيتين ثم أُطلقت تقتات على الأعشـاب والشُّـجيرات بالقرب من المكان. أمضينا ليلتنـا هناك. وجـرى تجميع المخصّصات الغذائية في كومة واحدة، خشـية اللصوص وقطاع الطّرق في هذه الأماكن، الذين سيسـيل لعابهم لمرأى كل هذه الأرزاق. الشّـيخ صالـح كان علـى دراية بطبيعتهم أيضـاً، حيث أنه عمد بُعيد وصولـه إلى التّموضع في وسط الأمتعة، وهو يوزّع نصائحه وإرشاداته على المجموعة بصوت جهوري.

«يا جماعة! يا قوم!».

« زاد الوزير»،

«في أمانة الله»،

«وفي أمانتكم».

سـرت كلمـات الموافقة والإذعان «تَـم.. تَم» بين أفراد جماعتي مـن البدو، الذين انصـرف كلٌّ منهم لأداء مهمّة معيّنة. البعض انشـغل بقطع عصـيّ القصب من الغيطان المجـاورة للهـشّ بها على الـدّواب؛ والبعض الآخر انصرف لتزييت قِـرَبِ الماء لمنع ارتشـاحها فـي أثناء السّـير الطّويل؛ أمّا أصحـاب دواب التّحميل فعكفـوا على خياطة أكياس التّبن لاسـتخدامها كسـروج مبتكرة، لأن الأشـياء الجاهزة غيـر متوفرة في هذا الصّقـع النّائي مـن أصقاع جزيرة العرب، وكان على أن أبتـاع مؤونتي من الأكياس في ظُفار؛ في الوقت الذي انصرف فيه الآخرون إلى ابتياع حاجياتهم الخاصة، ومن ضمنها إبريق شاي كبير الحجم من الألومونيوم، بينما أخذ أحد الشّباب المتأنقين الرّومانسيين

يداعب مرآة ذهبية ملوّنة، مصمّمة لتخطف ببريقها الأخّاذ ربما أنظار بعض الغواني الحسان في هذه الصّحراء القاحلة. «تعالوا لتروا عملية إحفاد النّاقة» *ahfat an naga*، صرخ الشّيخ صالح، الذي جلس على الأرض يحمل بيده مسلّة كبيرة وانحنى فوق أحد النّوق المثبّتة أرضاً على جنبها من قِبل عدد من الأعراب وفق الطّريقة المعتادة؛ أحدهم أمسك بالرّأس وهو مشدود إلى الخلف على امتداد الجسم؛ والآخر وضع حبلاً معقوداً فوق شفتها العلوية، والثّالث أمسك بإحدى ساقيها المشدودة للخلف.

كانت العملية تتمثل بخياطة رقعة جلدية صغيرة على ذلك الجانب من القدم فوق خدش ناجم عن السّير فوق الدّروب الجبلية الصّخرية الوعرة غير الاعتيادية؛ لقد شكّلت لها العملية نوعاً من الحماية لرحلة الصّباح.

لم يكد البدو ينتهون من إنجاز مهامهم، حتى شرعوا في هرجهم ومرجهم المعتاد حول عدم تساوي الأحمال، وكل منهم يطمح بالحصول على الحِمل الأخف وزناً لناقته. نتيجة لهذا الجدال، فقد جرت إعادة تحميل الجِمال وألفيت نفسي الأكثر تضرّراً بنتيجة ذلك، لأنّ المطيّة التي كنت أعتليها سُحبت مني بذريعة عدم أهليّتها بما فيه الكفاية، ووجدتُ نفسي في الصّباح أمتطي حيواناً لا يرقى إلى مستوى طموحي ورغبتي على الإطلاق. لم يكن يمضي يوم دون مثل هذه الشّجارات والمشاحنات بشأن الأحمال، لأنّ النّاقة أثيرة إلى قلب صاحبها أكثر من أيّ شيء آخر، ويقاتل في سبيلها حتى الرّمق الخير.

اصطفّت جماعتان لأداء صلاة المغرب، الأولى يؤمّها الشّيخ صالح، والثّانية رجل كَربي Karabi، ضمن حمايتي. بالنّسبة لخدمي، فقد كانت تأدّيتهم للصّلاة نقيضاً إيجابياً لأداء جماعة آل كثير العام الماضي، حيث كان كل منهم يؤدّي الصّلاة منفرداً من غير اصطفاف. ورغم أنهم كانوا يتلون بحرارة وانفعال، فقد كانوا جاهلين إلى حدّ مريع بالكلام الذين يقولونه، والذي كان وقعه على أذن السّامع بمثابة جعجعة غير مفهومة.

تهيأنا للانطلاق عند السّابعة من صباح اليوم التّالي؛ وبعد ساعتين من السّير عبر

السّـهل باتجـاه وادي نحيـز، وصلنا إلى غور فَضْل Gaur Fazl، وهـو بئر قديم يقع في السّـفوح العشـبية لذلك الوادي. لقد تحقّقت من خلال اسـتقصاءاتي المحلية أن هذا هـو المكان الوحيد الذي ينطبق على وصف بِنت Bent لظاهرة طبيعية قارنها مع نبوءة ديانـا التي يذكرها بطليمـوس Ptolemy's Diana Oraculum. استسـلمت لحالة من الإحباط. لقد كانت كبيرة إلى حدّ غير عادي، بطول حوالي عشرين قدماً، وحول قمتها حاجزٌ دائري لعله يخفي سـوراً حسـب وصف بِنت Bent، لكنه بدا وكأنه يحتوي على مادة مستخرجة من باطن الأرض أيضاً.

كانت جوانب البئر من الآجر الأحمر الوهّاج، وتحمل دلالات على أنها قد رُصِفتْ يوماً ما على يد بَشَـر. اسـتغرقت الحصاة التي ألقيتُها داخل البئر ثانيتين تقريباً للوصول إلـى أرضيـة القاع الجافة. لذلك فإن عمق البئر يقدر بحوالـي مئة قدم تقريباً. أبناء القَرَا ينسـبونه إلى المنجويين Minguwi المشـهورين بحكّامهم الذين يعودون إلى القرون الوسـطى، كما تشـهد كل باقية من بقاياهم، وبالنّسـبة لي أيضاً، فقد كان غور فَضْل من صنع الإنسان. كانت تنتشر حول البئر، في أرجاء هذه السّفوح، أكوامٌ من الحجارة، كل منها على شـكل قفير نحل بارتفاع جمل تقريباً. إنها ليست بقايا أثرية، كما يقترح بِنت، وإنّما مساكن نمل [1] - بلغة الجبال، إزدريت *izdirit*.

علـى مسـافة ميل مـن المكان، ضمـن بوابـة العبور إلـى وادي نحيز، وعلـى جانبه الغربي، كان يقع كهف صحور الشّـهير، الذي هو عبارة عن فوهة مكشوفة سوداء على ارتفاع مئتين وخمسين قدماً، وسط أجمة كثيفة من الشّجر. إلى هناك كنت قد صعدت أنا وسهيل، أحد أبناء بيت قُطن، وحفيد سهيل المذكور، الذي كان صحب بِنت Bent وجماعته لمشـاهدة هذا الكهف، رغم عدم تمكّنهم مـن الدّخول. كان مدخل الكهف عبارة عن فجوة مخيفة بعرض مئة قدم وارتفاع حوالي أربعين قدماً حتى السّقف المكون من نوازل كلسـية متبلورة قصيرة، بالية بفعل العوامل الطّبيعية، نفرت منها لدى اقترابنا

(1) كتب المؤلف: آكام النّمل تسمّى في اللهجة الشّحريّة: سِدر *sidr*، أمّا النّمل نفسه فيسمّى: إزدريت *izdirit*.

أعداد من الحمام البرّي. تقول الأسطورة بأن الجان والعفاريت تسكن هذه المغارة إلى جانب الأفاعي والعقارب، ولكن عندما أشرت إلـى فوهة صغيرة واطئة على الجانب الأيسر مـن فتحة الكهف المجوّفة، والتي كانت تشـكّل المدخـل الوحيد إلى الدّاخل وطلبت متطوّعين، قال أفراد جماعتي المكونة من خمسـة رجال، من المؤمنين بوجود الجـان، بأنهـم جاهـزون للمهمّة. وهكـذا قلنا بسـرور: «توكلنا على الله»، ثم انسـللنا الواحد تلو الآخر داخل الفوهة المعتمة. كانت الفوهة من الصّغر بحيث أننا لم نتمكن من دخولها إلا ونحن مستلقين على ظهورنا؛ لكن انحناءة متعرّجة بطول عشـرة أقدام أوصلتنا إلى حجرة داخلية رحبة ذات شـكل غير منتظم بمسـافة رأسية مريحة؛ وكانت معتمة بشكل كامل.

أظهـر مصباح الجيب الذي كان معي صخوراً بلّوريـة صافية ناصعة البياض. كانت قطراتٌ متقطعـة وإنمـا متواصلـة من المـاء تتسـاقط من عـدد لا يُحصى مـن النّوازل الكلسـية، بدرجات لونية أغمق قليلاً، وكانت هنالك بعض الصّواعد الصّغيرة المنبثقة هنـا وهنـاك مـن أرضية الكهف. عمـود ضخم كان لـه جزء ملحق على شـكل حوض بقطـر حوالـي ثلاثـة أقدام فـوق نصف كرة مجوفـة متقنة الصّنعـة من التّشـكيلة ذاتها. كانـت هذه الحجـرة تؤدّي إلى حجـراتٍ أخرى بمداخـل ضيقة جـداً. كانت الحجرة التـي استكشـفناها الوحيدة التي يمكن الدّخـول إليها حبواً. يقول أبنـاء المنطقة (رغم أنّ أحداً منهم لم يجرؤ على سـبر أغواره) بأنّ هذا الكهف يسـتمرّ في كونه سلسـلة من الحجـرات المتصلـة الواحدة بالأخرى على مدى أميال، حتـى يصل إلى الجبال، وأنه مـن الرّحابة في إحدى النّقاط إلى درجة أنك إذا ما رميت بحجر إلى الأعلى فلن تصل إلى السّـقف. كان الجو في الدّاخل خانقاً من شـدة الحرارة إلى حدّ أنني لم أتمكن من المكوث لأكثر من نصف سـاعة جمعت فـي خلالها بعض العيّنات الجيولوجية وأحد الخفافيـش (تبين بأن إحدى الحجرات كانت عبارة عن مسـتعمرة حقيقية للخفافيش) قبل أن أسـلك طريقي إلى الخارج بمسـاعدة مصباح الجيب. وشـيئا فشيئا خرجنا إلى الهواء الطّلق وضوء النّهار.

علونـا الآن ما يسـمى بعَقَبـة الحمـرا Aqabet al Hamra على الجانـب الآخر من الوادي، عبر منحدرات حرجيّة كثيفة لنصل إلى القمة بعد سـاعة ونصف. كنا من جهة مخيمنـا القديـم فقط عنـد عين Fuzah على ارتفـاع 1300 قدم، وفـق مقياس الارتفاع خاصتـي، ومـن هناك تابعنا طريقنا عبر سـهول عشـبية متماوجة عبر مسـار يتجه ناحية الشّـمال لنتوقف في الثّانية والنّصف عند Lehez على ارتفاع 2370 قدماً، أسـفل قُطن تماماً.

أقبـل خويتم نحـوي قائـلاً: «إنّ آبار Aduwiz باتت على مسـافة ميـل إلى الغرب، ومياهها حلوة كالعسـل. سـنقوم نحن البدو صباح الغد بسـقاية جمالنا وملء قِرَبنا عند عين هانون Hanun، لكن مياه هانون ليست كمياه Aduwiz. من الفضل أن نتوقف هنا كي تملأ قربتك من هذا الماء الفرات».

«لماذا المواربة يا خويتم»، وفكّرت بالسّـبب الحقيقي، وهو سبب وجيه جداً أيضاً، وهـو وجـود مجموعة من أشـجار الأكاسـيا (السـنط) acacia، وهي شـجرة لا يتوقع وجودها مطلقاً على هذه الارتفاعات، وهي تعدّ طعاماً لا يضاهى لجمالنا.

أمـرت القافلـة بالتّوقف على الفور، لأنّ أفضل طريقة لكسـب التّقدير أن تتحاشـى إظهار اللامبالاة، وإنما الاهتمام بأمر الجِمال والقلق لراحتها.

جهدتِ المجموعةُ في ارتقاء التّلة نحو المخيم، ثم بادرت إلى اسـتبدال حشـوات التّبن القديمة للسّـروج بعيدان القش الجديدة المنتصبة. على غرار الشّـيخ حسـن، في رحلتـي الجبليـة، فقد كان الشّـيخ صالح من أكثـر المرافقين نشـاطاً وحيوية في جمع الحطـب، لأنّ من عادة الشّـيوخ القبليـين قيادة أتباعهم في الحـرب والعمل، على حدّ سواء.

لـم نتمكـن مـن الحـؤول دون تحلّق أبنـاء المنطقـة حول نيـران مخيمنـا، وأعرب جماعتي من البدو عن قلقهم السّابق حيال مخصّصاتنا الغذائية ومعداتنا، وعمدوا إلى تكديسها في كومة واحدة حيث عمد أحدهم إلى الاستلقاء فوقها، بينما استلقت البقية

حولهـا من كل جانب، لأنهم ينسـبون إلى أهالي هذه الجبـال قدرات خارقة غير عادية على النّهب.

«ليـس هنالك سـوى عـلاج واحد. أتـودّ رؤية هـذا «العلاج؟» يا صاحِـب؛ هنالك مريـض قديـم في المخيّم»، ثم جاؤوا بأحد أبناء القَرَا. وبعد أخذ وردّ، سـمح برفع كُمّ عباءته النّيلية والكشـف عـن ذراع ضامرة. الذّراع المذنبة جـرى قطعها تنفيذاً لحدّ من حدود الله - شرع الله - بأمر من السّلطان في أول زيارة له إلى ظُفار.

كان الرّجل قد ضُبط بالجرم المشهود وهو يسرق، وقد أبلى العبد الذي جري تعيينه فـي القلعـة لهذه المهمّة بلاءً حسـناً بضربة واحـدة من بلطته. لقـد رأى الصّالحون في ذلك عملاً دينياً، لكن تأثيره كعقاب رادع كان قصير الأمد.

* * *

تحوّلـت الرّياح الجنوبية إلى جنوبيّة غربيّة، وكانت تهـبّ باردة على هذا الارتفاع. كانت السّـماء ملبّدة بسحب منخفضة داكنة، وقد أزعجني النّدى أيما إزعاج، كوني لم أكـن أحمل معي أيّة خيمة في رحلتي عبر الصّحراء. كانت الرحلات السّـابقة حملتني علـى القلق حيال اسـتياء أبنـاء قبيلة مُرّة أو غيرهـم من البدو من تحميـل الجمال فوق طاقتها والتّسـبب بإلحـاق الضّرر بها في خلال الرّحلة. لذلـك آثرت عدم جلبها معي، وهو ما ندمت عليه خلال هاتين الليلتين من ديسمبر في الجبال. ميزانا الحرارة كلاهما، الجـاف والرّطب، سـجّلا القراءة ذاتها، كان دثاري العلوي يقطر بللاً والوسـادة كانت رطبـة جـداً إلى درجة أنه كان علي طوال الليـل أن أقلبها من وجه إلى وجه. كنت أضع علـى كتفيَّ الكوفية العربية التّقليدية، أردّها على عينيَّ في أثناء النّوم، لكني اسـتيقظتُ بعينين مُغمَّشتين بسبب الرّطوبة الخارجية.

ظلّـت الجمـال المتمدّدة حول النّـار متيقظة طوال الليل، وهي تجتـرّ طعامها برضا وقناعـة. كانت مسـتيقظة عندمـا كان أصحابها يؤدّون صلاة الفجر، ثـم انتصبت واقفة مثـل العديد من الحرّاس ذوي المهابة والوقار، بانتظار انجلاء سـتار العتمة وانحسـار

برودة السَّحر مع اقتراب بزوغ الفجر، كي تتحرّك قابليتها لتناول الطّعام. ثم حضر أصحابها لاقتيادها إلى الأجمات القريبة، ريثما نغدو متهيئين لبدء الرّحلة.

مسيرنا باتجاه الشّمال الغربي كان يفضي إلى قُطن، سقف جبال القَرَا، واستدرتُ فوق سرجي لإلقاء نظرة أخيرة على المحيط الهندي من على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم. هنا انتهت المروج الخضراء لتحلّ محلّها مساحات شاسعة من الشّجيرات الصّمغية gudelat. تراكضَ الصّبية من حولي طمعاً بالبقشيش، وهم يعرضون عليّ نباتات يأملون أن تنال إعجابي، منها الحلقوم halgum، وهي ثمار شبيهة بالبطاطا تستخدم لتنظيف الجلود، ومنها الصّبر subur، الذي يستخدم نسْغهُ المرّ كعلاج لأوجاع البطن وكبلسم للعينين، بينما يستخدم السّائل الأخضر المائل إلى الصّفرة الذي يستخرج من القشر كمستحضر تجميل للسّيدات. أمّا التّلال الكئيبة الجرداء من حولنا بمسالكها الموحشة الوعرة فقد حملت أفرد المجموعة على التّجمع والسّير في رتل أحادي. وبعد اجتيازنا للفالق الجبلي، اتجهنا نزولاً عبر المنحدر الواقع على الجانب الآخر من جبال القَرَا بمحاذاة مجاري قبليّة Qabliya النّهرية (2500 قدم). كان طريقنا يقع أسفل ممرّها الضّيق الموحش، المغطى على الجانبين كليهما بتجاويف عميقة - أحدها ويدعى ردّيت Reddit، يستخدم كمأوى لقطعان الماشية - بينما كانت الجُروف الصّخرية أسفل الوادي مرقطة برواسب بلّورية بيضاء.

«يا رحمن يا رحيم»، تمتم الشّيخ صالح قائلاً وهو يسير خلفي تماماً في أثناء مرورنا ببعض القبور.

«نحن ننزع قبعاتنا إجلالا للميت»، قلت له.

«وكيف تدفنون موتاكم؟ هل صحيح أنّ الكفار يحرقون جثامين موتاهم؟».

أن تحرق جثماناً مقدّراً له أن يُبعَث من جديد لعملٌ ينطوي بالفعل على تدنيس لحرمة الموت، وأعتقد أن من الحكمة التّخلّي عن هذا النّوع من الطّقوس.

«نحن نأخذ موتانا إلى بيت الله»، قلت له، «ونصلّي عليهم لله تعالى، ثم نلفّهم

بكفن أبيضَ (وهو طقسٌ في غاية الأهمية!) وبعدها نواريهم الثّرى».

«والله مسلمين!» قال أحد الرّاشديّين معرباً عن تأييده لذلك.

ولكـن في وقت لاحـق من النّهار وجدت أن وجهة نظري عـن الدّين لم تلقَ التّأييد على نطاق واسـع. اندفع أحد شـباب بنـي كثير بمحاذاة ناقتي، وبـدا لطيفاً وودوداً إلى أبعد الحدود. وشيئاً فشيئاً تخلّف عني قليلاً لأجد نفسي وقد أُقحمت في غمرة النّقاش التّالي:

«إنهم قوم صادقون»، قال الشّيخ صالح.

«أنتم لا تقولون هكذا»، قال الشّاب.

«والنّجاح حليفهم في هذه الحياة!».

«ربي يحاسبهم (في الآخرة)». كان جواب الشّاب.

«أستغفر الله». قال الشّيخ، وكأنه يعتذر عن تصرّفه كوصيٍّ علي.

تراجع مقياس الارتفاع تدريجياً مع هبوطنا أسفل المنحدر الضّيق، وبعد أربعة أميال وصلنا إلى الرّمال النّاعمة لمجرى سـعتن Sa'atan. كان أمامنا مشـهد پانورامي لجبال الصّخـور الرّملية الشّـاحبة، المتميزة بأشـكالها الهرمية المخروطيـة. كان من بين تلك الجبال التي يحمل كل منها اسـماً خاصاً بهـا، جبل قرن الفهد Horn of Fahad الأكثر وضوحـاً وتميـزاً الواقع ناحية الغرب، وأمامنا مباشـرة، قرن الشّـيبة Horn of Shaiba ناحية الشّـمال الغربي، والذي ارتأينا إقامة مخيمنا عند سفحه لقضاء الليل. ووراء هذه الجبال الأكثر قرباً أمكننا رؤية مسـاحة شاسعة من السّـهول الحمراء المتدرّجة، والتي تتباين بألوانها مع لون الجبال ومروجها الخضراء في الخلف.

تزدهر في هذه المجاري النّهرية الموحشة، والتي تجفّ شمالاً، أشجار المغر البري mughr، شـجر البخـور. وهي تبـدو في مظهرها شـجيرة فتيّة دون أيّ جـذع مركزي، ولكـن بالقرب مـن الأرض تنبثق منهـا مجموعة من الأغصان تنمو حتـى ارتفاع النّاقة

وأكثـر، بلحاء رمادي وأوراق دقيقـة متغضّنة. وثب أحد رجالي عن جمله ليأتيني بعيّنة من هذه الشّجيرة على نصل جَنبيّته في مرحلة ما قبل النّضوج؛ كانت ذات قوام شحمي شـفاف أخضـر وكانت ذات أريج نفّاذ. تبدأ الشّـجرة بطـرح الثّمار في السّـنة الثّالثة أو الرّابعة. يأتي جامعو الثّمار، من رجال ونساء، لإحداث حزوز دقيقة بسكين خاصة في أماكن مختلفة من الأغصان القصيرة الممتلئة. ينبثق الصّمغ من هذه النّقاط المحزّزة ثم يتصلّب على شـكل قطرات أشبه بأصابع كبيرة من اللّوزِنج ذي القوام الرّاتنجي يعرف بالبخـور (اللُّبان). بعد عشـرة أيام تغدو هـذه القطرات كبيرة بما فيـه الكفاية لجمعها، وتسـتمرّ الشّـجرة في طرح النّسـغ من هذه الحـزوز القديمة التي يجـري تعميقها وفق مـا تدعـو إليه الضّرورة، علـى فترات تفصل بيـن الواحدة والأخرى عشـرة أيام وعلى مدى خمسـة أشـهر قادمة. بعدها تجفّ الشّـجرة وتُترك لتستعيد نشـاطها وحيوتها من جديد، في خلال فترة تتراوح من سـتة أشـهر حتى سنتين، تبعاً لحالتها. يصادفُ موسم جني اللُّبان في خلال أشـهر الصّيف بشـكل أساسـي، ثم يصار إلى تخزينه في كهوف الجبـال حتى فصل الشّـتاء، حيث يُرسـل إلى المرافـئ للتّصدير. ولا تنـزل أيّة مراكب فـي هـذه البلاد إلى البحر خـلال فصل الرّيـاح الجنوبية - الغربية الموسـمية العاصفة صيفاً. ويُفسـح هذا التّأخير في المجال أمام المنتَج ليجفّ جيداً، رغم أنه يكون جاهزاً للتّصدير بعد عشرة أيام أو عشرين يوماً من جمعه.

من بومباي يشق المُنتجُ طريقه إلى معابد الشّرق، ويُستبقى قليلٌ منه في ظُفار حيث تضع الزّوجة الصّالحة المبخرة تحت السّرير عند الغروب لطرد الأرواح الشّريرة.

يُعدّ البخور منذ أقدم العصور من التّوابل الثّمينة ومن أكثر التّقدمات والعطايا تقبّلاً. استـخدمه المصريـون القدماء لتحنيط الأجسـاد التي كانت بنظرهم مقدّسـة كأجسـاد الفراعنـة وغيرهـم من أبناء الطّبقة الملكية، وكذلك التّماسـيح؛ حيـث كان يحرق أمام الهيـكل المتنقل لبني إسـرائيل tabernacle أيام موسـى؛ وقد ورد ذكـر تلّة البخور في نشيد الأناشيد في العهد القديم Song of Solomon، وكان يؤتى به كهدية، إلى جانب الذّهب والصّمغ العطري myrrh للمسيح الرّضيع Infant Lord.

تقتصر زراعة البخور كمحصول تجاري على وسـط جزيرة العرب، في مناطق تقع على ارتفاع من ألفين إلى ألفين وخمسمئة قدم في منطقة[1] متماثلة في ظروفها المناخية مـع الحـدود الإقليمية لقبائل جبـال القَرَا من خط طول 53° شـرقاً إلى خط طول 55° 21′. كمـا أنّ وقوعهـا على حافـة حزام ظُفار المطري الصّيفـي الفريد من نوعه، يوفّر الظّـروف المناخيّـة الملائمة لنمـوّه والتي لا تتوافر في أيّ إقليم آخـر من أقاليم جزيرة العرب. لذلك، لا غرابة في أنّ هذه المنطقة هي أشـهر منطقة لإنتاج البخور في جزيرة العرب التّاريخية. على أيّة حال، فإنّ حقول البخور الشّهيرة لأقاليم اليَمَن وحضرموت قد غدت عديمة الأهمية، إلى درجة أنها سقطت من ذاكرة قبائل ظُفار.

مررنـا طوال سـاعة مـن الزّمن عبر أحـد حقول البخـور الفتيّة وقد بـدت عليها آثارُ ندوبٍ حديثةٍ لعمليات الاسـتحلاب النّسـغي. أصحابها من أبنـاء القَرَا، الرّعاة، وليس جامعي الثّمار، قانعون بتأجيرها لأبناء كثير والمشايخ لقاء نصف المحصول.

هـذه النّقطـة التي لا تبعد أكثر من عشـرين ميلاً عـن البحر، تشـكّل المعلم الرّئيس للحدود الشّـمالية للقبائل المستوطنة - القَرَا والشّـحرة، وقبائل كثير والمَهْرة الجبلية، وتقتـرب من كونها فاصلاً جيولوجياً. من خلفنا، كانت هنالك سلسـلة جبال الصّخور الكلسـية، الصّخور الرّسـوبية للعصر الطّباشـيري الأعلـى Upper Cretaceous حتى عصر الإيوسـين Eocene. أما قبالتنا، فكانت هنالك سـهوب الحجر الرّملي الشّاسـعة

(1) كتب المؤلف: البساتين مقسّمة وفق المناطق إلى (1) منزلة *manzila*: وأشهرها عافور Afaur، أسوج Asug، عفار Afar، جزيلوت Gizilaut، زوا Zuwa، عتا Ata، تنشيت Tanshit، قايم Qaim، وعموت Amaut؛ (2) حويل *hawil*: ذات حجم يكفي لعمل خمسة جامعي ثمار أو اقل. (قلت: وتعريب الأسماء غير مؤكد).

وهنالك ثلاثة أصناف من البخور: النّجدي، الشّصري، والشّعبي، حيث تتراجع جودتها نزولاً وفق التّرتيب ذاته. فالنّجدي، الصّنف الفضّي، هو نتاج أراضي المرتفعات الدّاخلية لجبال سمحان والقَرَا. أمّا الشّصري، فهو نتاج المنطقة الجلية التي تحمل نفس الاسم عند نقطة تلاقي سلسلتي قمر Qamar والقرَا. وأمّا الشّعبي، فهو من النّوعية الرّديئة من نتاج السّهول المحيطة بريسوت Risut. أمّا مرافئ البخور فهي من الغرب إلى الشّرق: جادب، رخيوت، ريسوت، عوقد، صلالة، حافة، طاقة، مرباط، سدح، وحَضْبَرَم.

التـي تتحدّر على مدى مسـيرة سـتة أيـام، إلى أن تتماهـى مع تخوم الصّحـراء، موطن الحياة الرّعوية العَرَضية المتفرّقة لقبائل آل كثير والمَهْرة وبيت الشّيخ.

سـرَّنا كثيراً العودة إلى الرّكوب من جديـد، مخلّفين وراءنا هرج الحياة ومرجها في ظُفار، ميمّمين شـطر هذه المساحات الفسـيحة النّقية من الأرض. لزم الرّفاق الصّمت حتـى الآن فـي أثناء المسـير، على غـرار أصحابي من أبنـاء جنوبي جزيـرة العرب في الرّحلة السّابقة، وقد تُقتُ إلى أهازيج الحِداء التي كان يجري التّرنّم بها في أثناء المسير لحفـز الجمال على السّير في عُمان. سـهيل[1] فقط، كان من وقـت لآخر يترنّم ببعض الأغنيـات. ومـع ذلك، فقـد كانوا متحدّثيـن مرحين بما فيـه الكفاية، حتـى وإن كانت مواضيعهـم مقتصرة على الجِمال والبنادق والنّسـاء. تقليـد مؤامرة الصّمت الأوروبي كان غائباً كلياً، ومعه عنصر قلّة الاحتشـام المتعمد. كانوا أشـبه بتلامذة يسـخرون من أحد لاعبي البولنغ الفاشـلين، أو يهزؤون من أحد أفراد شـلّتهم ممّن لازمه الفشـل في تسـجيل نقطـة، ولا يتحرجون مـن التّندّر على العجز الجنسـي لكل منهم مع النّسـاء، وسـهيل، الأكثر إلحاحاً بينهم، تسـاءل إن كنت أحمل في صندوق عقاقيري السّـحري أيّ وصفة مثيرة للرّغبة الجنسـية. ولكن الأهم من كل ذلك، هل بوسـعي تحديد موقع المياه باستخدام قدراتي السّحرية؟!

قرن الشّـيبة، الـذي توقفنا تحتـه لقضاء الليل، هـو عبارة عن جُـرف مخروطي إلى الشّمال من حوض وادي سعتن[2] Sa'atan الضّحل.

كوننا راكبيَن، فقد آثرنا، سـهيل وأنا، إلى جانب بعض الأصحاب المقربين، دخولَ غابة سَمْرْ samr لأشجار السّنط حيث أقمنا مخيمنا، بينما واصل بقية أفراد المجموعة من خلفنا سـيرهم ببطء شديد سيراً على الأقدام وهم يسوقون جمالهم أسفل المنحدر الضّيـق الوعـر؛ ومـا هي إلا دقائـق معدودة حتـى كانت نيرانُ اثني عشـر مخيماً تنشـر

---

(1) كتب المؤلف: سهيل: يعني نجم سهيل Canopus، وهو اسم شائع عند البدو.
(2) هكذا تبيّن لي الاسم كما يكتبه المؤلف، وينبغي عدم الخلط بينه وبين وادي السّحتن، فذاك يوجد في ولاية الرّستاق.

ضياءها على امتداد الوادي. كانت شصر Shizur، محطتنا القادمة، على مسيرة أربعة أيام، ولم تكن هنالك أيّة مياه، باستثناء عين هانون Hanun القريبة، ريثما نصل إليها؛ لذلك علينا أن نسقي الجمال هنا غداً ونغادر بقِرَبٍ طافحةٍ عن آخرها لتجنّبنا مخاطر الظّمأ على الطّريق.

بعد الانتهاء من صلاة الفجر، انتشر البدو في كل الاتجاهات لتجميع إبلهم، وسرعنا ما أتوا راكبين من غير سروج، وظلّوا هكذا إلى هانون. بعد ساعتين من السّير شرقاً عبر تلال موحشة مقفرة تعلوها هنا وهناك حجارة بازلتية سوداء، وصلنا إلى جبل قرن هانون Qarn Hanun الشّاهق مخروطي الشّكل من جهة، وتشكيلة جيولوجية ثلاثية القرون تدعى أرداف Ardaf، من جهة أخرى.

بعد هذه النّقطة بالضّبط انكشفت الأرض على صدع جيولوجي على شكل V مكون من صخور بلّورية، يتدرّج نزولاً على شكل مصاطب ناصعة البياض وصولاً إلى قاع وادٍ اخضر بعمق مئة وخمسين قدماً. كانت الطّبقة العليا بمعظمها بارزة إلى الأمام، بينما كانت السّفلى متآكلة هنا وهناك بفعل الحتّ، مشكّلة كهوفاً ومغاور طولانية الشّكل قليلة العمق. إنّه وادي غبرتن Ghabartan الذي هو عبارة عن وادٍ صغير متعرّج يتصل ضمن مدى النّظر مع وادي ركبيت Rakibit، مشكلاً بذلك بداية لوادي قتبيت Katibit، الذي هو عبارة عن وادٍ اسطواني الشّكل يمتد شمالاً حتى الصّحراء. هنا عند بدايته المستدقّة أشرفنا على بحيرة هانون الخضراء في قعر الوادي. ترافق مشهد البحيرة مع التّحرّر الطّبيعي من أوهام الخيال عندما استحضرت حكايا البدو في مديحها - وهو مديحٌ له ما يبرّره لمورد مياهٍ وحيد في أرض يقتلها الظّمأ.

يسمّيها بدو الصّحراء المياه العذبة، لكني وجدتها ملحيّة إلى حدّ كبير، وتساءلت عن ماهيّة المياه الملحية الحقيقية، إن كانت هذه عذبة بنظرهم، حيث أنهم لا يعرفون مياهاً أكثر عذوبة من هانون. لكن كل هذه المسمّيات نسبية، وبالنّسبة للعقل القانع، فإنّ أيّة مياه متوفرة هي مياه عذبة بما فيه الكفاية.

لقد كانت هانون عذبة بلا شك بالنّسبة للأعراب الذين أطلقوا عليها هذه التّسمية،

وتداعـت إلـى ذاكرتـي بقعة قاحلـة باهتة قائظة الحـرارة في غدون Ghudun سـبق أن وُصفت لي بأنها لؤلؤة الصّحراء، وجهة نظر مضحكة، لكنها، بالنّسبة لمحدّثي، صادقة وحقيقية. حضرني المثل العربي القائل: «حماري ولا حصانُ غيري».

الـوادي الصّغيـر المـؤدي إلـى غبرتـن يدعـى بامُسـقيّف Ba Musgaiyif «وادي الشّـواهد» tombstones، وكنت متلهفاً لاستكشـافه، حيث أنّ اسـمه كان يعد بالمزيد مـن البقايا الأثرية من النّوع الذي كنت قد اكتشـفته في أنحاء وادي البخور هذا، وعلى بعـد أميال قليلة شـرق هذا المكان. كان هذا الاكتشـاف عبارة عن شـاهدةٍ أثرية بدائية تحمل نقوشـاً غير عربية، ربما حبشيّة قديمة، تشير إلى أنّ قبائل الجنوب الأوسط التي تتكلـم لهجات ذات أصول حبشـيّة، تتسـم بتاريـخ محلّي موغل في القـدم. لقد كانت بامُسـقيّف خيبة أمل بالنّسـبة لي من حيث أنه لـم تكن هنالك أيّة نقوش أو كتابات فوق بقيـة الشّـواهد، والتي كانت بمعظمها عبـارة عن أثار بالية إلى حدّ كبيـر بفعل العوامل الجوية.

النـوع الأكثـر أهمّيـة الـذي كنت قد صادفتـه في مكان آخـر كان عبارة عن أشـكال مكونـة مـن كتل ثلاثيـة طولانية من الحجـر الأجـرد (أو أحياناً جلاميد دائرية بسـطح أملـس بطبيعتـه) بارتفاع حوالي ثمانية عشـر إنشـاً، منتصبـة على نهاياتهـا ومائلة نحو الدّاخل، مع تلامس رؤوسها ضماناً للثّبات والاستقرار. ثلاثة من هذه الأشكال كانت متوضّعـة الواحد تلو الآخر في صف واحد، يفصل بيـن الكتلة وجارتها حوالي خطوة ونصف. بعض هذه الأشـكال الثّلاثية كانـت متوّجة بحجر رابع أصغر حجماً، وأحيانا تكون سلسـلة هذه التّشكيلات الثّلاثية محاطة بطوق إهليجي من الحُصيّات الصّغيرة. كانت السّلاسـل مختلفة في العدد. خمسة، تسعة، أربع عشرة وخمس عشرة مجموعة ثلاثيـة. كانـت هنالك سلاسـل أصغر من أكوام كبيـرة من الحجارة مخروطية الشّـكل موازية للسّلاسل الأكبر على مسافة ثلاث خطوات منها، كتلك التي شاهدتها في مكان آخر، وتسـتخدم لأغراض الطّهي بالشّواء *mashuwa* cooking، وهي طريقة من طرق شَـيّ اللّحم على الحجارة المحمّاة. وأظنّ أنّ هذه الحجارة كانت لها بعض المدلولات

النّـذريّ بتقديـم الضّحايـا. وبعض الأنسـاق الصّغـرى مـن الرّكائز الحجريّـة الثّلاثية trilith، مثـلاً النّسـق المخمّـس، كان من دونها، بينما الأنسـاق الأطـول كان لها أكوام حجريّة تتألف من ثلاثة أو أربعة ركائز ثلاثيّة. وما بين الرّكائز الثّلاثيّة والأكوام النّذريّة كانت هناك أحياناً جلاميد صغيرة مربّعة ربما كانت تستخدم كمقاعد.

ليسـت لهـذه الآثـار اتّجاهات مشـتركة، فحيثمـا كنت أجدهـا كانت تقـع في مهاد الوديان وتتّسـق مـع مجاريها. وأكثرها كان مُغفلاً من الكتابـات، وهو ممّا يمكن عزوه جزئيـاً إلى عوامـل الحتّ التي يتعرّض لها الحجر الكلسـي المحلّـي. أوّل ما صادفناه من الجلاميد التي تحمل نقوشاً كان يقع قرب الأطلال الأثرية في وادي أنظور، ولكن في وادي ذيكور وجدتُها على شـكل حَنت (حجر أفقي) لأحد الرّكائز الثّلاثيّة trilith. والنّقوش الكتابيّة كانت عموماً حروفاً منفصلة يبلغ ارتفاعها إنشـاً ونصف، ومنقوشـة بشكل غشيم، ولها طابع سطحي نقطي ممّا يدلّ على أن الأداة المستخدمة كانت حجر صـوّان مدبّـب. وعلى اعتبار عوامـل الجوّ البادية على الحجر فـإنّ العديد من النّقوش تبـدو زائغـة وكأنها لا يمكن تمييزها، باسـتثناء حرف هنا وحرف هناك. وللسّـبب ذاته فإنّ الطّبعات والصّور الفوتوغرافيّة التي أخذتها كانت غير مرضية، ولكنّني قمت بنسخ النّقش الأفضل حالةً بشكل كامل. وإنّ محدودية إمكانيّات النّقل منعتني من حمل أكثر مـن نمـوذج واحد معي من هذا العمل. وهو يبدو كأنّـه يمثّل جملاً، وقد قمتُ بتقديمه إلى المتحف البريطاني.

ألفيتُ الآثار في مهاد الوديان التّالية: سراب، عينين، بنات الرّغايف، حَرضة، أنظور (بأسـفل ممـرّ الخنجري)، ذغـوب، ذيكـور، بامُسـقيِّف، وبالقرب من غديـر العيون. والغالبيّـة (وأكثر الكتابات) توجد في وادي ذغـوب ووادي ذيكور، حيث كانت هناك أنسـاق طويلـة منها في مجموعات متوازيـة. ومن المحتمل كما أظـنّ أن تكون قبوراً. وهذا الشّـيء يُستدلّ عليه لا بما يوحي مظهرها فحسب، بل وبكثرة انتشارها في وادي ذيكور Wadi Dhaikur، الذي يحتفظ بتقليد متواصل لطقوس الدّفن، بامتلاكه لمقبرة إسلامية كبيرة حديثة، إضافة لمقبرتين من عهود ما قبل الإسلام، أو على الأقل قبور لا

تحمل أيّة دلالات مشرقية، وتحديداً، مدافن صخرية وقبور عملاقة، فقد يحمل اسمها دلالة ضمنية لاسم «وادي ذيكور» Vale of Remembrance.

لم يكن أبناء المنطقة على دراية بأنّ الوثائق كانت «كتابة» ولم تكن لديهم أيّة معرفة دقيقة بأصل الضّريح، رغم أنهم ينسبونه بشكل غامض إلى ابنة النّبي (صالح بن هود - ناقة صالح؟).

إلى الغرب من أرض بيت كثير يسمون الضّريح «بيت آبا غسان» Bit Aba Ghassan نسبة إلى غساسنة بطليموس Ghassanitae of Ptolemy. كان هنالك بالطّبع ما يسمى بـ «غساسنة ظُفار» لعهد ما بعد الإسلام، لكن توزّع هذه الأوابد الحجرية الثّلاثية كان خارج حدود إقليم ظُفار، والقبور ذاتها، استناداً إلى ما عليها من نقوش وكتابات تعود إلى مرحلة ما قبل العربية pre-Arabic، وطبيعتها غير الإسلامية والتّقاليد المحلّية تعود إلى «عصور الجاهلية» The Days of Ignorance. كانت عقيدة جنوب - غرب جزيرة العرب القديمة هي عبادة النّجوم والكواكب star worship لما يسمّى بالصّابئة Sabaeans، وليس بالأمر المستبعد أن تكون تلك الأوابد الحجرية الثّلاثية في الأصل رمزاً للآلهة القديمة لجنوبي جزيرة العرب، والمتمثلة بإله الشّمس وإله القمر وإله الزُّهرة.

كانت الشّمس في كبد السّماء، وكنت متلهّفاً لبدء التّحرّك، وهكذا عندما مررت أمام هانون حيث كان رجالي يملؤون قِرَبَهم، ناديت عليهم مستعجلاً تحرّكهم، وردوا علي بـ «نعم» مستبشرة؛ لكنني كنت في قرارة نفسي أدرك جيداً وأنا ماضٍ في طريقي بأنّ ندائي لهم لن يحملهم على الإسراع. استناداً إلى تجاربي الطّويلة، فإنّ ولعهم باللهو وقضاء الوقت عند بركة مياه، لا سيّما إذا كانت البركة التّالية بعيدة، هو بمثابة هوى مستفحل، لم أكن أملك إلا أن أشاركهم إيّاه بنفسي. الشّيخ صالح كان يورد إبله في مكان آخر، وقد تركني هو وشخصٌ آخر اليوم متجهين نحو محطة جمالٍ أخرى، وأيضاً بهدف استكشاف الأرض.

كانوا يأملون أيضا بدليلٍ من قبيلة بني مُرّة من الدّكاكة Dakaka ليلاقيني لحظة الوصول عند بئر ضحيّة Dhahiya حيث كنت عازماً على قضاء عشيّة الميلاد. كان اليوم الثّالث عشر

من ديسمبر، لكن صالحاً لم يكن ليأتي من نفس طريقنا عبر شصر، وإنما من ناحية الشّمال الغربي عبر السّهل القاحل من خلال طريق مهيأةٍ للجمال السّريعة فقط من دون أحمال. كانوا يستسقون عند أُم الشّديد Um as Shadid، وهي بئر عميقة بشكل غير عادي في غدون. كان المنحدر يتدرّج نزولاً على مراحل حتى ست وثلاثين قامة. أم الشّديد كانت عبارة عن حفرة أحدثها سقوط أحد النّيازك، وليست من صنع الإنسان على الإطلاق، ليبارككم الله. لا علم لي إن كان هذا المَوْرُوث عبارة عن أثر قديم لبعض عبادات النّجوم القديمة أم لا، لكنّي صادفته في مكان آخر في هذه التّخوم الجنوبية. وهكذا، هنالك في صحراء غنيم Ghanim وجدّة الحراسيس Jaddat Harasis آبار تحمل اسم خسفا[1] Khasfa المتواتر، وحوض لهيت في صحراء البطحري Bautahara، والتي تنسب ربما بقدر أكبر من المنطقية إلى قضية مشابهة.

وهكذا فقد تركنا صالح مع مؤونة من الطّحين والتّمر لزوّادة الطّريق، وحبل بمثابة هديّة لشيخ بني مُرّة، الذي بدا بأنّ له قَدْراً ومكانة لا يستهان بهما. مع الانتهاء من صلاة الظّهر، عادت جمالنا من السّقاية، وعند السّاعة الثّانية بدأنا تحرّكنا. خرجنا من سعتن على الفور تقريباً وسلكنا مساراً باتجاه الشّمال الغربي أوصلنا بشكل تقاطعي إلى المنطقة الواقعة بين وادي غدون ودوكة Dauka أسطواني الشّكل، في البداية عبر بعض التّلال المنخفضة، والتي كانت، مثل غيرها من التّضاريس الجيولوجية البسيطة في الشّرق والغرب، ذات حواف علوية مسطحة شبيهة بأهرامات الحجر الرّملي. صادفنا في طريقنا نهر اصطاح Istah، أحد روافد دوكة، حيث كانت أحراش السّنط والغداف النّخيلي palmy ghadaf قد أعاقت تقدّم رجالي.

عبرنا بعدها جُرفاً مستعرضاً صغيراً آخر يحمل اسم Haghugit، وهو رافد توأم، حيث أنزلنا رحلنا لقضاء الليل. قدمت الجمال وهي تسير متثاقلة وسُعُفُ النّخيل الطّويلة تتدلّى من على جانبي سروجها. لقد أتى البدو بهذه السّعف لحملها معهم إلى الصّحراء كي تصنع منها نساؤهم أحواضاً للحليب؛ والبعض منها يستخدمونه هم

(1) كتب المؤلف: يطلق هذا الاسم عادة على آبار المياه المشكلة بهذه الطّريقة.

أنفسـهم لصناعـة الحبال وأكياس الخيش - وهو عمل يناسـب الرّجـال، وفي الحقيقة فقد نسـب أحد رجالي المكلفين بنوبة الحراسـة الليلية لنفسه المقدرة على صنع طوق لناقتي hobble بحيث تنطلق صباحاً وحول رقبتها طوقٌ ليفيٌّ جديدٌ أخضر.

إنّ الريـاح الجنوبية العاتية التي هبّت الليلة الماضيـة لم تكن مواتية لأعمال الرّصد الفلكـي التـي كنـت أعتزم القيـام بها، لأنها أثـارت أمواجاً فـي حوضـي الزّئبقي (أفق صناعي) وأحالت مهمّة الرّصد الدّقيق المطلوب لأحد النّجوم المنعكسـة إلى وميض سـديمي غيـر واضـح المعالـم. ليس مـن السّـهل على الإطـلاق تثبيـت الوضعية لآلة السُّـدُسْ sextant المخصّصـة لقياس الارتفـاع الزّاوي للأجرام السّـماوية فوق الأفق عنـد هـذه الارتفاعـات المنخفضة، حيـث يكون نجم القطـب Polaris قريبـاً جداً من خـط الأفق الشّـمالي، إلى درجة يتطلّـب منـك فيها إذا مـا أردت الحصول على صورة انعكاسية الجلوس على مسافة بعيدة للغاية من أفقك الصّناعي. الرّمال كذلك لم تكن تنفكّ عن التّسـرّب إلـى أدواتي وأجهزتي البصرية في العتمـة. لذلك فقد أخذت معي طاولة مخيّم نصبت فوقها معداتي طوال الليل. لم أقصد آلة السُّـدُسْ والأفق الصّناعي بالطّبـع، لأنّ أعمـال الرّصـد الفلكي التي كنـت أعتزم القيام بها كانت تتّسـم بالسّـرية المطلقة، كيلا أُتّهم بالسِّـحر والشّـعوذة، أو ما هو أخطر من ذلك. لذلك فقد احتفظت بهذه الأشـياء داخل صندوق مبطّن باللباد، وكنت أخرجها لمدة ساعة واحدة كل ليلة. عرفـت من خلال رصدي لنجم القطـب وارتفاعات الدّائرة السّـمتية meridian لنجم سهيل Canopus ونجم نهاية النّهر Achernar مقدار الارتفاع الذي كنت عليه من يوم لآخر. لتعزيز أغراض السّـرية والكتمان، فقد آثرتُ منذ البداية، وخلافاً لمشيئة رجالي الذيـن مـا برحوا يلوّحـون ببُعبُع الأخطار ولفـت أنظار العدو، أخـذ موقعي عند طرف المخيم، على مسافة ثلاثين أو أربعين ياردة، بعيداً عن أيّ عربي. هناك، ولدى وصولي إلـى المخيم، كان خادمي يعمد إلـى إخراج ملابس نومي وصناديقي، في الوقت الذي أنضمّ فيه إلى حلقة الأصحاب الجالسـين القرفصاء لمشاركتهم الحديث والطّعام إلى ما بعد حلول الظّلام.

كنت بعدها آوي إلى مخدعي، حيث بات معلوماً لدى الجميع عدم استعدادي لاستقبال أحد بعد هذا الوقت. ثلاثة أجهزة كرونومتر لقياس الزّمن، وجهازان لقياس الارتفاع، ومقياس حرارة زئبقي رطب وجاف، كان يجري وضعها على الطّاولة كإجراء روتيني يومي لدى الوصول إلى المخيم، ويصار إلى إعادتها إلى صناديقها من جديد عند الصّباح قبيل المغادرة مباشرة. كان من الضّروري بعد مسيرة كل يوم مطابقة ومعايرة الوقت لكافة أجهزة القياس، وكان يجري القيام بهذه المهمة ثانية في الصّباح قبل أيّ شيء آخر، وذلك للتحقّق من أداء كل جهاز واستنتاج المعطيات المتعلقة بكل يوم وتوقيت غرينتش GMT. المعطيات الخاصة بالارتفاع ودرجات الحرارة كما سجلتها باقي الأجهزة، كان يجري تدوينها على فترات، حسبما يسمح الوقت، عند الغروب وعند الشّروق، وربما لثلاث أو أربع مرات في خلال الليل أيضاً. بعضُ مرافقيَّ لم يسبق لهم أن شاهدوا ساعة يدٍ قط. لقد علت الدّهشة وجوه الجميع بعد أن سمحتُ لهم بالإنصات لدقّات أكبر أجهزة الكرونومتر. وفي كل مرة كانوا يستمعون فيها لهذه الأعجوبة، كانت وجوههم تشعّ بابتسامة عريضة وينظر كل منهم إلى الآخر بدهشة، قبل أن يُطلق على حين غرّة عبارة «لا إله إلا الله».

لقد باتت كلمة «ساعة» تطلق على كل أنواع الأجهزة؛ وقد انطبق ذلك على بوصلتي الموشورية التي كان عليّ أن ألقي نظرة عليها كل عشر دقائق من رحلة المسير، لتحديد اتجاهنا ومقارنته مع الوقت (ساعة اليد) وإسقاط هذه الإحداثيات على النّقاط الطّبوغرافية – وهي بيانات ضرورية لقطع مسافة الرّحلة. لكن التّك تاك كان يعني ساعة بلا شك. عندما توقفنا في إحدى المرّات لتغيير الجمال، وجدت بأنّ أحد الأعراب الذي سبق له أن سافر معي كان يحمل مقياس حرارة ويضعه فوق أذن أحد أصدقائه، الذي كان قد جاء به كمتطوّع جديد، متباهياً به أمام أصحابه؛ لكن صديقه لم يأبه له كثيراً. وهكذا قام بوضع المقياس في أذنه هو بالذّات وهو مغموم مكدّر؛ فقد أحسّ بأنّ هنالك نوعاً من الغش والخداع.

* * *

استمرّ مسيرنا في اليوم التّالي لثلاثة أيام فقط. تحدّث البدو الذين وصلوا مُجهدين مـن المجموعة الأولى عن رفاق لهم في المؤخّـرة لم يتمكنوا من اللحاق بنا بالأمس. السّبب كان واضحاً. كنا هناك في اصطاح Istah حيث المراعي الخصبة، بينما الطّريق أمامنـا إلـى شـصر Shisur – وقد أفـردت أمامـي راحة يد مفتوحـة للدّلالـة على أنها قاحلـة – كانـت طريقاً عقيمة مجدبـة. متلهّفاً للوصول إلى الصّحـراء، كنت آمل بقطع أكبـر مسـافة ممكنة في خـلال ذلك اليوم، لكـن اقتراحي لم يلقَ آذاناً صاغية. سـرعان ما يكتشـف العابـر للصّحارى الكبرى بأن راحة البعير وسـلامته هـي أكثر الاعتبارات أهمية، وما يحدّد نقاط المسـير والتّوقف بشـكل طبيعي هو وفرة ونوعية الكلأ. والكلأ يفوق الماء بأهميته تقريباً، لأن بمقدور الجمل السّـير بأحماله لمدة أسـبوع أو أكثر من دون ماء، حيث يشكّل العلف حاجته اليومية. الأوروبيون معتادون على برنامج يشتمل على موعد للانطلاق، موعد للتّوقف، وموعد لتناول الطّعام؛ لذلك فإنّ تحديد مسـافة طريق تقريبية يصار إلى الالتزام بقطعها يومياً، شكّل بالنّسبة لهم صدمة قاسية. فالرّجل المعتـاد علـى الارتحال عبر مثل هـذه القفار القاحلـة يُخضع كل الأمـور لكفاءة نظام النّقـل الـذي يُعوِّل عليـه – أهلية ناقته ولياقتهـا. بمجرد أن يُنيخ رحله فـي أرض يتوفر فيها الكلأ والماء، فهو لن يغادرها؛ وعندما يقع على بعض الشّجيرات الخضراء في عزّ الظّهيـرة، ورغم أن الشّـمس تكون حارقة، فلا بدّ من أن يتلكأ لسـاعة من الزّمن؛ يصل بعدها مع المغيب بعد يوم مرهق فوق ظهر النّاقة. وإذا لم يعجبه المرعى، فسوف يصرّ على مواصلة طريقه، غير عابئ بالتّعب والإرهاق.

وهكذا، اليوم، توجّب عليّ مرغماً أن أريح ناقتي على مسـافة سـبعة أو ثمانية أميال من مخيم الليلة الماضية. توجهت على الفور ومعي بندقيتي نحو حِرج الوادي. وقعت هنالـك على آثار لذئب وثعلب وأرنب وغـزال، لكن فترة بعد الظّهر كانت عقيمة على صعيد الصّيد.

في وادي غدون، على مسافة أميال قليلة نحو الغرب على ارتفاع 1200 قدم، حيث أفسحت أشجار السّنط في المجال أمام أشجار الأثل الصّفصافي لنشر ردائها الأخضر

فـوق أكناف الشّـعاب الجبلية، تمكّنت مـن اقتناص أول ظبي لي مـن فصيلة أوريكس لوكوريكـس Oryx leucoryx؛ أنثـى مكتملـة النّمو. توخيت أقصـى درجات الحيطة والحذر للحفاظ على جلدها سـالماً كعيّنة علمية، لأن البدوي عادةً ما يحتفظ بالرّأس كتـذكار ويكنّ له تقديراً كبيـراً، كالتّقدير الذي يكنّه صيـاد الثّعالب للذيل، الذي يصنع منه غمداً لعقب بندقيته. في الحقيقة، لا يوجد هنالك رجل واحد في مجموعتي تقريباً دون أن يكـون عقـب بندقيته مزداناً بجلد الوجـه لأحد الظّباء أو الغزلان: وهم ليسـوا بأقـل اهتمامـاً منه بالأحشـاء والعصائر المعوية التـي يقومون بتصفيتها بعناية وشـربها بتلـذّذ، قبل أن يلقوا بالأجزاء الصّلبة لجمالهـم الثّائرة المحتجّة. يقال بأنّ المنفعة التي تقدّمهـا الأحشـاء والعصائر المعوية للإنسـان والحيوان كليهمـا لا تضاهيها منفعة في الصّحراء. وهذه المنفعة ما هي إلا واحدة من سبع منافع يتميّز بها الظّبي[1].

يُصنـع من قـرن الوعل مزمار تعزف عليـه فتيات جنوبي جزيرة العـرب. ولا توجد هنالـك أيّـة طبـول أو آلات وتريـة أو غيرها في هذه القفـار النّائية، ما عـدا قرن الظّبي، وإذا لـم تشـنّف الرّاعيـة آذان قطيعها ببعـض الأغاني والأهازيج، فهـي تفعل ذلك عن طريق النّاي، الذي تجد في أنغامه الشّـجية عزاءً وسـلوى لنفسـها أيضاً. لعلّنا نصادف هنا قدراً ضئيلاً من التّرابط مع أسطورتنا التي تعود إلى العصور الوسطى حول العذراء والحصـان وحيد القـرن unicorn، لأنّ من المفتـرض عموماً أن يمثّل الظّبي النّسـخة الأخرى لذاك الحيوان الأسطوري[2].

---

(1) كتب المؤلف: بقيّة المنافع التي يتميّز بها الظّبي تشمل جلده لصناعة الجلود؛ دمه لعلاج لدغة الأفعى؛ لحمه لطرد الأرواح الشّريرة؛ حساؤه لآلام المفاصل؛ ولحمه للأكل. وهم يفضلون لحمه على أيّة لحوم أخرى، وهي وجهة نظر لم أتمكن من تأييدها. لعل هذا التّقدير الذي يكنّونه للحم الوعل يعود لتناولهم إياه بنهم شديد عادة على معدة خاوية، لأنهم وعلى الرّغم من اعتدالهم في تناول وجباتهم الغذائية في الأحوال العادية، فهم نادراً ما يلجأون لمثل هذا الاعتدال في منسبة كهذه، وهم غالباً ما يقصدونني طلباً للعقاقير الهضمية في أعقاب وليمة صيد دسمة كهذه.

(2) ارتباط تلك الأسطورة في جزيرة العرب كان ببقر الوحش (المها أو الوضيحي). انظر حول ذلك كتاب: «مغامرة في جزيرة العرب بحثاً عن الوضيحي»، للرّحّالة البريطاني دوغلاس كاروثرز، سلسلة روّاد المشرق العربي.

مـن المؤكّـد أنه يجـري مطأطئ الـرّأس بحيث تبـدو قرونـه المائلة للنّاظـر وكأنها عموديـة تقريبـاً وتبـدو جانبياً كأنّها قرن واحد؛ ومن هنا جاءت أسـطورة مَهاة أرسـطو Oryx of Aristotle وحيـدة القـرن، وكذلـك كمـا ورد في النّص العبري لسـفر التّثنية Deuteronomy فـي العهـد القديـم 33: 17: «وقرنـاه قرنـا رئـم»[1]. كان وحيد القرن الأسـطوري يشـكّل رمـزاً للقوّة وحاميـاً للبتولة والعفّـة ومصدر رعـب للرّجال الذين يهلكهم بمجرد النّظر إليهم، ولكن بالنّسـبة لأسـطورة القرون الوسطى فقد كان ضحيّة آنيّة لإحـدى العذراوات الصّغيرات. لدى رؤيتها خَبَت ضراوته وعنفوانه وأتاها وديعاً طائعاً حيث ألقى برأسـه بين أحضانها واستسلم لعناقها وقبلاتها التي جعلت منه أسيراً لها بملء إرادته.

* * *

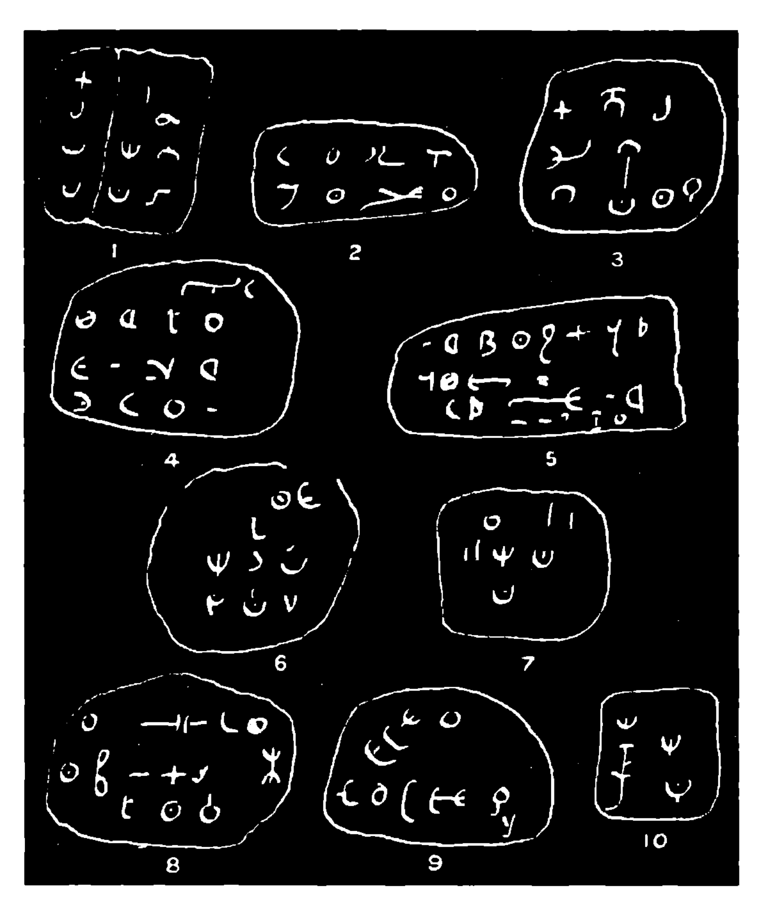
كانـت انطلاقتنـا مبكرة، حيـث خلّفنا وراءنا آخـر الجُروف الخفيفة ميمّمين شـطر السّهول الرّتيبة المنبسطة، حيث بتنا نضرب الآن في أرضٍ رملية مُجهدة. كنّا من وقت لآخر نقع على مجموعات من الأصداف المتحجّرة ملقاة فوق الصّحراء كما لو كانت فـوقَ صفحـةِ محيطٍ تغطّيه طبقة من الرّمال النّاعمة، كذلك كنا نقع من حين لآخر على مسـاحات من أحجـار الصّوان أو الصّخور الرُّكامية وبقع متناثرة هي عبارة تشـكيلات مسـطّحة مـن الحجر الرّملي الأحمـر. لم يكن هنالـك أيّ أثر لحيـاة حيوانية، وكل ما تمكّنـت مـن التقاطه كان خنفسـاء وأفعى colubrid)) من النّوع غير السّـام وسـحلية. وهـذه الأخيرة كانت ذات أهمية بالغة بالنّسـبة لمتحف التّاريـخ الطّبيعي، كونها كانت جديدة بالنّسـبة للعلم - أبو قرش - كما كان يدعونها البدو نسـبة لذيلها الدّائري. كان قد مضى علينا سبعُ ساعاتٍ ونحن نضرب في هذا التّيه المقفر مِن الرّمال عندما قدّرت بأننا قطعنا حوالي إحدى وعشرين ميلاً ونصف الميل. اليومان التّاليان اللذان أوصلانا إلى شـصر لم يختلفا عن سـابقيهما، تيهٌ رتيبٌ لا مُتناهٍ من الرّمال. الحركة الوحيدة في هـذا السّـكون القاتل كانت تصـدر عن زوابع الرّمـال sand devils التـي كانت ترتقي

---

(1) كتب المؤلف: التّسمية العبرية هي: ريم.

بأعمدتها الدّوّامة التي تطال عنان السّماء، جالبة معها هبّات نسيم منعشة. لا أثر لأيّ عرق أخضر، وبدا أنّ جمالنا كانت تعلم بأن عليها في هذا المكان بالذّات أن تسير بخفّة ورشاقة. غذذنا السّير باتجاه مساحة بيضاء من السّراب الوهّاج طمست خط الأفق، لنتبيّن أنها مارست علينا خداعها المعتاد، عندما تلاشت أمام أعين قافلتنا الظّمأى.

* * *



نقوش كتابيّة على متن أحجار كبيرة مدوّرة تؤلّف آثار ركائز ثلاثيّة

رقم 1–3 في وادي أنظور. رقم 4 في وادي ذغوب. رقم 5–10 في وادي ذيكور

(رقم 5 مكسور بطرفيه، وربما كان جزءاً من كتابة أطول)



ركائز ثلاثيّة أثريّة

الفصل الحادي عشر

نجد - الحياة في السّهوب الجنوبية

شـصر غداً. لا غرابة في أنها تحتلّ تلك المكانة المتميّزة في المخيّلة العربية، لأنها أول مورد ماء تصادفه في خلال خمسـة أيام؛ وبعد مغادرتها، لن تصادفَ أيّ مورد ماء أخرى إلا بعد مسـيرة سـبعة أو ثمانية أيام. كانت مسيرة اليوم طويلة ومرهقة عبر سهل قاحل حارق يعلوه السّـراب، أفضى بنا قبيل حلول الظّلام إلى آيكة صغيرة إلى الشّـرق منا مباشـرة. عملية الاقتراب من المـاء كانت تجري بمنتهى الحذر والتّوجّس، لإعطاء أنفسـنا الفرصة، إمّا للانسـحاب والتّقهقر الفوري، متحمّلين وطأة الظّمأ والخوف من المطـاردة، أو خوض قتال للاسـتحواذ على المـاء، في حال كانت البئر تحت سـيطرة عدوّ ما. وصلنا كالعادة بقِرَبِ مياهٍ خاوية. ولم يكد رجالنا يترجّلون عن إبلهم وينيخون جمالهـم حتى جابوا كافة أنحاء المكان وأنظارهم تمسـح الأرض مسـحاً بحثاً عن أيّ أثـر لعدوّ محتمل أو آثار حديثة لعصابة غزو، بينما انطلق ثلاثة من رجالنا الأشـداء في دائـرة بحث أوسـع نطاقاً حول مورد المـاء لمزيد من الأمان، بحيث يصار إلى كشـف المورد وتحضيرها لسقاية الغد. إنّ وَحشة شصر وعُزلتها قد جعلت منها محطّة حتمية لاسـتقطاب الغزاة وقطـاع الطّرق، ومن الإجـراءات المألوفة أن تعمـد إلى طمر فوهة المـورد عنـد المغادرة لإعاقة وتأخير تقدّم عدوّ محتمل في أثناء تعقّبه أو مطاردته لك. هنـا الطّبيعة تتكفل بالمهمة، حيث تملأ الرّمـال فوهة هذا المورد المائي تماماً بعد يوم أو اثنين.

شـرعنا في اليوم التّالي بمغادرة المكان بمجموعات من سـتة أو ثمانية جمال، لأنّ

الحيوانـات الظّمـأى تحتاج لسـاعات حتى تروى من تلـك الدّلاء الجلديـة الصّغيرة، والوِردُ عبارة عن مجرّد قطيرات من الماء تنسـاب بشـكل متقطـع. كانت الطّريق دوننا تمرّ عبر سـهل فسـيح أملس (مدرّج ممتاز لهبوط الطّائرات) يُفضي إلى أرض صخرية وعـرة تلوح على ظاهرها أطلالٌ جليّة لقلعة بدائية قديمة العهد. كان يقطع أسـفل التّلة كهـفٌ بعمق حوالي خمسـين قدمـاً، عند قاعـدة أرضيّته المنحدرة صدعٌ بالكاد يتسـع لدخول ذراع إنسان للوصول إلى الماء من تحته.

حسب الأسطورة، فإنّ شخصاً يدعى بدر بن تويجر هو من بنى قلعة شصر في وقت مـن أوقـات الزّمن الغابر، وقد سـمعت بـأن أثلاماً باهتـة لمحراث قديم لا تـزال بادية للعيان في البادية المحيطة؛ وهو أمرٌ مدهش إن ثبتت صحته، لأنّ مياه شـصر محدودة للغاية وأرضها قاحلة جداً إلى درجة أنّ أيّة عصابة قطاع طرق متوسطة الحجم يستحيل عليها المكوث في هذا المكان لأكثر من أسـبوع. «لقد كان سيف الله مسلطاً على هذه الدّيرة»، قال لي أحد البدو، إشارة إلى قحط السّنوات الأخيرة[1].

فـي المناطق الواقعة باتجاه الشّـرق، فيما هو على غير المفترض سـهل قاحل، تقع حيلة الشّـصر Hailat ash Shisur، أيكة صغيرة أخرى، كان المشهد قبل ثلاثة سنوات فقـط من عراك دمـوي بين مجموعتين من متنافسـتين من قطاع الطّـرق، كان من بينهم رجال من مُرافقيَّ العرب. أثارتْ بي قصتهُمْ اهتماماً خاصاً لأنّي نفسي نجوت بأعجوبة من الوقوع بين براثن إحدى هذه العصابات على مسـافة مئة ميل باتجاه الشّـرق. كانوا مجموعةً من خمسـة وعشـرين رجـلاً من قبيلتي صيْعَر والكَرب سـلكوا هـذه الطّريق للإطبـاق على أحد المخيمات الصّغيرة لقبيلة المَهْـرة عند بئر أنظور Andhaur. قتلوا سبعة رجالٍ لقاء خسارة رجل واحد، لكنه كان شيخاً، وقد خسروه لقاء غنيمة مقدارها

---

(1) كتب المؤلف: في كل رحلة قمت بها في خلال السّنوات السّت لماضية في عُمان، وفي جنوب شرق وجنوب وسط جزيرة العرب، كنت أسمع ذات القصة. لقد أقسم لي أهل المنطقة بأنه كان هنالك انقطاع تام لهطول الأمطار، وأنها، رغم قلتها، لم تنقطع أبداً طوال حياتهم. ومحصول التّمور لعُمان الدّاخلية هو نصف ما كان عليه أيام الجيل السّابق، والعديد من أنواع النّباتات قضى عليها القحط تماماً.

أربعـون ناقـة. بعد أربعة أو خمسـة أيام وصلت مجموعتـي الصّغيـرة المنهكة إلى بئر أنظور Andhaur من جهة الشّـرق بعد مسيرة ستمئة ميل ليسـمعوا بأنباء المجزرة من أحد أبناء عشـيرة آل الشّـيخ الذي تملّكـه الذّعر من هول مـا رأى، ولا أزال أذكر جيداً مشـاركتي إياهم النّقاش حول عدم صواب إبقاء نيران الخيام مشـتعلة ليلاً؛ حيث قمنا بإطفائها على الفور رغم البرد القارس.

سـمعت الآن بـأنّ هـذه المجموعة الغازيـة والتي كانـت بمثابة كابوس بالنّسـبة لي فـي خلال شـتاء 1927–1928 قـد اعترضتها مجموعة إغـارةٍ عابرة مـن أربعين رجلاً مـن قبيلتـي المَهْرة وكثيـر، كان من بينهم اثنـان من مرافقـيَّ الحاليين. سـاعدني نخيِّر Nukhaiyir بالتّرجّـل عن النّاقة وأعاد تنظيم الهجوم. «هذا هو المكان الذي التقيناهم فيـه، وهنا كنتُ مسـتلقياً. اقتفينا آثارهم طوال النّهار، وقدَّرنا بأنهم سـيعودون ليتوقفوا هنـا عند شـصر، ونظراً لعـدم وجود أيّة مياه غربـاً حتى سَـناو Sanau. هناك، عند خط الأفـق، توقفنا وانتظرنا إلى ما بعد صلاة المغـرب. واصلنا زحفنا باتجاه نيران خيامهم تحـت جنح الظّلام بعـد أن تركنا الجمال في عُهدة بعض الرّجـال. كان الوقت حوالي منتصف الليل، وكانوا قد أخلدوا للنّوم تقريباً. لقد تمكنا على ضوء النّيران الخافتة من تمييـز أطيافهـم الممدّدة هنا وهناك. زحفنا حتى مسـافة خمسـين يـاردة منهم ثم فتحنا عليهـم وابـلاً من النّـار على حين غـرّة. انتفضوا مذعوريـن في العتمة وهـم يصيحون ويستغيثون، لكن وسط ارتباك شديد وفوضى عارمة، ثم أطبقنا عليهم بخناجرنا وكتب الله لنا النّصر. الحمد لله الذي لا تحصى نعمه. سقط منهم أربعة قتلى، وتمّت استعادة كافـة الغنائم التي كانوا قد حصلوا عليها في أنظور، وأخذنا خمسـة من جمالهم أيضاً، بحيث أنّ من تمكّن منهم من الفرار لا بدّ أنهم فروا كل اثنين على ناقة».

أقحـم أحد البدو الواقفين إلى جانب نخيِّر نفسـه بالحديث قائـلاً: «في اليوم التّالي بينمـا كنت أرعى إبلي في وادي غدون تخاطر أمامي فجأة أحد أفراد عصابة آل صيْعَر، والـذي كان متخفيـاً طوال الهجوم، ثم دنـا مني طالبا الحماية، وإني أُشـهدُ اللهَ بأنه لم يكن يحمل أيّ سلاح وأنيّ آمَنتُهُ على حياته».

«على فرض بأنهم لم يتشاجروا بشأن ذلك»، سألتُ قائلاً، «والجميع ألقوا بسلاحهم أرضاً، هل كنت ستراأف بهم؟» «كلا»، قال نخير، «في أوقات الحرب المعلنة بين القبائل، إنّه لأمرٌ مشين في عُرف العرب».

كانت شصر على مسافة تسعين ميلاً من السّاحل الجنوبي، على ارتفاع 935 قدماً فوق سطح البحر، قرب سفح السّهل العشبي، حيث يكاد يتماهى مع رمال الصّحراء - كنا في الحقيقة على مسيرة يوم واحد فقط منه.

كنا قد اجتزنا النّجد Nejd، هذه الأرض الحدودية من السّهوب العشبية الشّاسعة steppe الواقعة بين جُروف المحيط الحادة والصّحراء، والتي تمتدّ إلى ناحية الجنوب الغربي والغرب حتى حدود نجران Najran، ومن ناحية الشّمال الشّرقي والشّرق إلى أن تتماهى مع جدّة الحراسيس Jaddat Harasis. كنت قد اكتشفت في العام الماضي الحدّ الصّحراوي في اتجاه الأخيرة على امتداد مئة ميل باتجاه واحة مُقْشِن Mugshin الشّهيرة[1]. وهذا العام كنت أتجه غرباً لأكتشف حافّتها الجنوبية. ولكن قبل الاسترسال في وصفي للرّحلة، لعلّ من الأجدى أن أتطرّق بإيجاز للحديث عن جغرافية النّجد الجنوبي الممتدّ من خلفي.

بإلقاء نظرة على خريطتي ستظهر لنا بين خطي الطّول 51° 40′ و 54° 40′ سلسلة جبلية ساحلية متّصلة، يُعرف ذلك الجزء منها الممتد من الغرب إلى الشّرق باسم فتك شغوات Fatk-Shaghuwat، جبل قمر Jabal Qamr، جبل القَرَا Jabal Qara وجبل سمحان Jabal Samhan. من جهتها الجبلية الدّاخلية تتفرع سلسلة من المجاري

---

(1) كتب المؤلف: وادي موشغين هو بلا شك سيد الوديان في كل جنوب شرق جزيرة العرب حيث أنني لم التق بمثله قط في أيّ مكان آخر. يتألف الوادي من حزام من غابات أشجار السّنط (الغاف) بطول ثلاثين ميلاً (محور شرق - غرب) على الحافة الجنوبية الشّرقية للرّمال. عند طرفه الشّرقي (على ارتفاع 400 قدم) تتواجد مياه الشّرب الجوفية على مستوى سطح الأرض عند العين أو العينين Ain or Ainain. هنالك بستان نخيل كبير ينمو برياً ودون عناية متاخم لضفاف حوض سبخي، وإلى الشّرق توجد بحيرة أشبه بالمعلف بطول بضع مئات من الياردات وعرض حوالي خمس عشرة ياردة.

النّهريـة القديمـة الجافّـة التي تشـكّل وادياً أحاديـاً كبيـراً، لا بدّ أنه شـكّل منذ أحقاب سحيقة المصرف المائي للنّجد العظيم.

يتألف هذا الوادي من سـبعة روافد متوازية تقريبا في مسـارها شـمالاً، من السّلسلة السّـاحلية حتى تخوم الصّحراء، حيث تتحد مع وادٍ نهري رئيس، والنّهر الرّئيس يساير الصّحراء في اتجاه عام شـمالي شـرقي حتى يصل إلى نقطة يغيّر فيها اتجاهه ويتلاشى في الرّمال عند خط عرض 19° 35′ وخط طول 45° 50′، عند واحة مُقْشِـن الغناء. تقع وديان الأنهار السّبعة جميعاً بمحاذاة الفالق، على ارتفاع وسطي مقداره ثلاثة آلاف قدم، على مسيرة يومين من السّاحل، وهكذا فإنّ منابع هذه المنظومة النّهرية هي منطقة حقول البخور. ويطلق على هذه المجاري المائية من الشّرق إلى الغرب أسماء قتبيت، دوكة، غدون، عيدم، Hagulun، شِـحن Shihin، وحات[1] Hat. أما النّهر الرّئيس فله سـتة أسـماء إقليمية على امتداد مجراه من الجنوب الغربي إلى الشّـمال الشّـرقي هي: حات، شِـحن، الطّينة، أمّ الحيّات، العَراد Al ʿAradh، ومُقْشِن؛ لكن المنظومة النّهرية بكاملهـا يطلق عليها اسـم جامع هـو أمّ الحيّـات Umm al Hait (أم الحيـاة)[2]، وهو الاسم الذي تشير إليه الدّلالة الإقليمية.

---

(1) كتب المؤلف: الرّوافد المائية هي أنهار حقيقية بحد ذاتها. وهكذا فإن لنهر قتبيت روافد هي: أنظور، ذهيبون، انجدان، غزال وركبيت، التي تستجرّ مياهها من الجزء الشّرقي من جبال القَرَا والجزء الغربي من جبل سمحان. والحدّ الشّرقي لهذه المنظومة النّهرية يقع في أنظور، الذي يتدفق إلى الشّمال من قمّة مرباط تقريباً (التي تظهر على الخارطة باسمها البديل «جبل دوعن»، وهو اسم غير معروف بالنّسبة لأبناء المنطقة الذين يعرفونها باسم زيرتون). يقع نهر دوكة على خط طول صلالة ويلتقي الحوف وضعرفيت واصطاح. أما نهر غدون فيتدفق إلى الغرب قليلاً من دوكة ويلتقي حيلة وظهير وحلوف على ضفته اليمنى وغارة على ضفته اليسرى. يجري نهر عندام على خط طول رخيوت ومع رافديه الكبيرين دفين وحبروت، اللذين يتدفقان على التوالي شمال جادب ودمقوت، لتسيح كامل مياه سلسلة قمر الجبلية. وشِحن وحات هما نهران أقصر من البقية يتدفقان عند النّهايتين الشّرقية والغربية لفتك شغوات.

(2) يفسّر المؤلف الاسم بالغلط بأنّه: أمّ الحياة mother of life وهذا طبعاً غلط، فالتّسمية تُنسب إلى الحَيّات جمع الحيّة، الزّاحف المعروف. واسمها المتعارف عليه: رَملة أمّ الحَيّات.

إلى شـمال وغرب الـوادي النّهري الرّئيس تمتد الصّحراء الكبـرى اللامتناهية غرباً حتى تخوم الدّواسر ونَجران.

فـي الحقيقة فـإنّ الحافة الجنوبية للصّحراء تتماهى مع النّهر الرّئيس في مُقْشِـن والعَراد Al ʻAradh، وتحتضنه في أمّ الحيّات، ثم تضمحل شيئاً فشيئاً عبر مسيرة يوم شمال شِحن ومسـيرة يوميـن شـمال حات. من هنـاك يتخذ مسـارها اتجاه غرب - شـرق - غرب نحو حضرموت، حيث تفصلها مسـيرة يوم فقط عن الجبال. سـهول الجبال الدّاخلية للأراضي الحدودية الجنوبية يظهر بالتّالي على شـكل إسـفين يسـتدقّ شـيئاً فشـيئاً كلمـا اتجه غرباً، ويتحدر برفق شديد نحو الدّاخل حتى خط الطّول 51° 30′ وربما أبعد.

إلـى الغرب من منظومـة أمّ الحيّات النّهرية يخترقُ النّجدَ أنهـارٌ[1] فردية موازية تنبع من جبال حضرموت وتتدفّق شـمالاً إلى أن تتلاشـى عند حافة الصّحراء. وأسـماء هذه الأنهار من الشّـرق إلـى الغرب بدءاً مـن حات: ميتَن، خوات، شـعيت، الرّخـوت، عربة، ثمرات، ضحيّة، توف، أرمة، عِيْوَة المناهيل، قناب، خضرة، حزر، عِيْوَة الصّيعَر، حذي Hudhi.

هنالك عدد لا يذكر من الآبار والعيون تشـمل من ضمن ما تشـمل: سـناو في وادي ضحيّـة، ثمـود في وادي أرمة، شـغم في وادي حـزر، ومِنْوَخ في وادي عِيْـوَة الصّيعَر؛ وهكذا فإنّ طريق الغزاة وقطاع الطّرق شرق وغرب مِنْوَخ هو طريق محفوف بالمخاطر. عنـد منابع الأنهـار الجبلية هنالك بعض الجداول الجارية مثـل أنظور وحبروت، لكن مجاريها السّفلية جافة تماماً. إنها تتبع تشكيلاً موحداً على نمط واحد. ممرّات منحدرة ضيقة بأحواض حصوية تشـكّل مجاريها العلوية؛ ومن هناك تتسـع شـيئاً فشـيئاً وتقلّ أعماقهـا وتغـدو قيعانهـا ذات طبيعة رملية كلّما اتجهت شـمالاً، إلى أن تتضاءل شـيئاً فشـيئاً كلمـا اقتربت من السّـهل الصّحراوي لتغدو مجاريها أشـبه بشـريط من الأرض الجافة. إنها شـرايين الحياة بالنّسبة للنّجد، وطريق القبائل البدوية وموطن الحيوانات، بفضل الغطاء النّباتي الذي تشـكّل بسـببها - رغم ضآلته - والذي يزدهر على ضفافها

---

(1) هكذا بعبارة المؤلف، والأصحّ أنها سيول موسميّة وليست أنهاراً دائمة الجريان، والعرب تسمّيها: وديان.

فقط (انظر الملحق الرّابع).

أمّا المناطق الأخرى من النَّجد فهي مناطق جرداء موحشة ولا تصلح إلا لحياة قبائل البدو الرّحل. ويدفع قحط الصّيف بأولئك البدو الرّحل إلى الشّعاب الجبلية حول آبار وعيون المياه الدّائمة: أنظور، هانون، شويريمة، أيون Aiyun، وحبروت Habarut (وهي على خط طول أمّ الحيّات). ولكن بعد موسم الأمطار مباشرة يهبطون من شعابهم من جديد، وفي خلال فصل الشّتاء قد يمكثون لشهر أو اثنين في مناطق مفضّلة بالنّسبة لهم، يحدو تحركاتِهم اتجاهُ البرق. إنها حياة يتحكم بإيقاعها الجوعُ والظّمأ، وأولئك الذين اتخذوا من الأراضي الدّاخلية لظُفار موطناً لهم قد اعتادوا على حياة الاستقرار لحقول البخور، لا سيّما في خلال موسم الصّيف، حيث تشكل مواردُه المُجزية نسبياً أسباباً موجبة لاقتناء بندقية وذخيرة وشراء الملابس والبنّ، وأحيانا الأرزّ. لكن البدوي الأصيل لا يُؤثر شيئاً على حياة التّقشّف الصّارمة التي يحياها. فهم يعيشون بشكل رئيسي على حليب النّوق وهم يستهينون بالحياة ولا يقيمون لها وزناً. والغزو والإغارة بالنّسبة لهم هو ملح الحياة، ولم يسبق لأيّ رجل ممن رافقوني في أسفاري ورحلاتي قط إلا وكانت له سابقةُ غزوٍ أو إغارة في حضرموت، أو تعرّض لغزو أو إغارة داخل حماهم ومراعيهم؛ والبعض منهم يفاخر بوجود أثر لطلقة بندقية أو طعنة جَنبيّة على موضع ما من جسده نتيجة تلك الغزوات والغارات. إنّ السّلاح والذّخيرة والنّاقة السّليمة المعافاة هي مقوّمات الحياة الأساسية بالنّسبة لهم؛ وحيثما فرّقت ثارات الدّم المتوارثة بين القبائل، فالقوّة هي الحق، والرّجل لا يزال يعيش ويتحرّك بتوجّس وقلق خوفاً على حياته وممتلكاته.

القبائل ذات الشّأن التي تقطن هذه التّخوم الجنوبية هي من الشّرق إلى الغرب: بيت كثير، المَهْرة، المناهيل، العوامر، صيْعَر، نَهد، الكَرب[1].

---

(1) كتب المؤلف: التوزيع القبلي هو كما يلي: منظومة أمّ الحيّات هي الموطن الرّئيس لقبيلتين اثنتين هما المَهْرة وبيت كثير؛ اللتان تمتدان أيضا ناحية الغرب. على صعيد التّسمية، فإنّ الأطراف السّفلية للوادي والتي تشمل دوكة، غدون، عيدم وحات تعود لبيت كثير، رغم أن أبناء قبيلة المَهْرة يستخدمونها بحرّية؛ أما المنابع العلوية للوادي (باستثناء غدون) فهي بأيدي

قبيلـة المَهْرة هي الأكبر، ويبلغ تعداد أبنائها بـالآلاف؛ أما نَهْد والكَرب فهما أصغر القبائل ويقتصر تعداد كل منهما على بضع مئات فقط.

حيـاة النّجـد هي حيـاة بدائية بكل ما تعنـي الكلمة. لقد لاحظت مسـبقاً بأن القحط والخـوف مـن الإغارة يدفع بهـذه القبائل للعودة إلى منابع مياههـم في الجبال. لكنهم فـي أعماقهم مرتبطون بحياتهم الرّعوية، وكلّما جادت السّـماء عليهـم بغيثها يهبطون مع مواشيهم وقطعانهم من دون تلكؤ نحو الصّحراء، حيث لكل نقرةٍ أو جرن صخري قـادر علـى حفظ ماء المطر اسـمٌ وذِكر. يمكثون هنـا لفترة من الزّمن إلـى أن يتهدّدهم القحـط والجـوع من جديد، وهكذا دواليك. لا يوجد هنالك من الماء ما يكفي لإطفاء ظمـأ الحصان أو الكلب. والخيـام أو المنازل لا ووجود لها، ومأواهم الوحيد في هذه الفيافي المقفرة هو فيء إحدى أشـجار السّـنط (الأكاسـيا)، أو فـي الجبال داخل أحد

أبناء قبيلة المَهْرة بشكل رئيس، لا سيّما حبروت، غزال، انجدان وذهيبون، إضافة إلى الأنهار الفردية إلى ناحية الغرب مباشرة. هنالك مجموعة من قبائل الحضرة Hadara الصّغيرة موزعة هنا وهناك بين قبيلتي المَهْرة وبيت كثير، بقية باقية من قبائل غير عربية. وهكذا إلى الغرب من حات Hat في شعابه السّفلى هنالك قبيلة بلحاف، وهي قبيلة غير مصنّفة لا تدين بالولاء لأحد، لكنها تتحدث باللسان المهري. السّمة المميزة لزيّهم هي حملهم لشبريّة، وليس جنبيّة، في وسْطِهِمْ. وهم لا يغيرون على أحد ولا يغير أحد عليهم، وهم على غرار صلُبَة نجد Salub of Nejd موضع تقبّل كربيع *rabia* (رفيق سفر) للجميع. وهم أيضاً خُدامٌ لمزار الجوهري Jau-hari (أم الطّبّاخ) الّذي يشكل محجةً لأبناء قبيلة المَهْرة حيث يقدّمون نذورهم وقرابينهم. عند النّهاية الشّرقية لمنظومة أمّ الحيّات يعدّ نهر أنظور ملكاً اسمياً لقبيلة البطحري (Bit Bohor) رغم أن أبناء قبيلة المَهْرة لهم وجودهم الواضح للعيان هناك بشكل اعتيادي. قبيلة البطحري، وهم الآن قبيلة متضائلة ذات منزلة اجتماعية وضيعة، يعمل معظم أبنائها في صيد السّمك، ولهم لغتهم الخاصّة بهم، كانوا يوماً أسياد النّجد الشّرقي بكامله من دون منازع من وادي غدون (لأبناء كثير) حتى وادي قادون (؟) (لقبيلة الحراسيس)، بينما يشاع عن النّجد الغربي انتماؤه لقبيلة بن ضربوت Bin Dhurbut الشّهيرة. وثمّة أفراد قبيلة صغيرة أخرى، عفار، تعيش في حبروت إلى جانب المَهْرة وبيت الشّيخ، التي تماثلها غموضاً (بيت استيت Bit Istait وأحياناً انسخت Insakht)، ويعتقد بأنها متحدّرة من الشّحرة، تقطن وادي انجدان قرب نبع هانون. إلى الغرب من منظومة أمّ الحيّات النّهرية تمتد قبيلة المَهْرة حتى وادي رامة، ومن هناك إلى المناهيل حتى وادي الجوف. والعوامر يتواجدون حتى وادي خضرة، حيث تبدأ أراضي قبيلة صيْعَر.

الكهـوف. والنّـاس بأجمعهم أمّيون لا يعرفـون القراءة أو الكتابـة. القليل منهم يعرف شـيئاً عن القرآن، رغم أنهم يؤدون الصّلاة بحماس وجدية. إنهم يقدّسـون المزارات، وهم على المذهب الشّـافعي. والمشـروبات الكحوليّة غير معروفة بالنّسـبة لهم، لكن للتّبغ مكانة متميّزة لديهم.

التّقاليد العربية الاعتيادية المتمثلة بتعدّد الزّوجات وسـهولة الحصول على الطّلاق قائمـة، لكن من النّادر للبدوي أن يقتـرن بأكثر من زوجة واحدة، أو اثنتين على الأكثر، فـي كل مـرة، رغم أنّ جعبة ملأى بالأولاد الذّكور هي نعمـة يتمنّاها كلٌّ منهم. والمرأة تعنى بشؤون الماشية[1]، ويُسمح لها هنا بالحلب.

تجري تسـوية الخلافات بين أبناء القبيلة الواحدة، وفق ما هو سـائد في عرف قبائل جزيـرة العرب، عن طريق حكم الشّـيخ، أو حكم قانون القبيلـة hukm al hauz، وهو عبـارة عن مجموعة من القوانين المحلية لا علاقة لها بالشّـرع أو القانون. والسّـرقاتُ العَرَضيـة أمـرٌ نـادر الحـدوث، وينظر إليهـا على أنها عمـل لا أخلاقـي، ولكن أعمال السّـلب والنّهـب المقترنة بالعنـف والقوة تعدّ عمـلاً رجولياً، والغـارة المقترنة بالقتل والسّلب تُعدّ بلا شك مأثرة ومفخرة مُشرِّفة تضاهي مآثر البسالة العسكرية في أوروپا.

يجري علاج العلل والأوجاع البدنية بواسـطة أعشاب معيّنة (انظر الملحق الرّابع)، بالكـيّ، وبطرد العين الشّـريرة، وبعصائر أمعـاء الطّرائد البرّية، وبواسـطة بول الفصيل

---

(1) كتب المؤلف: بالنّسبة لقبيلتي الحراسيس والمَهْرة هنالك تقليد غريب من نوعه، ومفاده أنهم لا يحلبون نعاجهم في إناء بارد. لا بدّ في البداية من وضع حجر ساخن، محمّى في النّار، داخل الإناء. المغزى أو المبرّر الذي يقترحه هذا التّقليد بأن السّخونة عندما تقرب من الضّرع تسهل عملية الإدرار، هو مبرّر غير مقنع إجمالاً، لأنّ هذا الإجراء يقتصر على النّعاج ولا يشمل النّوق. إحدى الرّاعيات من قبيلة بيت الشّيخ كنت قد ابتعت منها خروفاً في وادي ذيكور، لم توافق على أن يُذبح في ضوء الشّمس خشية أن يستجلب ذلك الشّؤم على أسرتها، وكان هذا اعتقاداً شائعاً أيضاً. أحد مرافقي من قبيلة الحراسيس أخبرني أن أبناء قبيلة الحراسيس كانوا حتى وقت ليس ببعيد لا يلتزمون فقط بعدم الذّبح في ضوء الشّمس، وإنما يمتنعون عن الحلب في ضوء الشّمس أيضاً، وهنالك حتى يومنا هذا صنفان من الأغنام، بنات المرطال وبنات المقطوف، لا يجرؤ ابن أيّة قبيلة كانت على ذبح إحداها إلا بعد حلول الظّلام.

(ابن النّاقة). والكيّ يأتي في المقام الأول، ولا تكاد تصادف أحداً من أبناء هذه النّجود لا يحمل ندوباً ناجمة عن عملية الكيّ.

إحدى العمليات التي صادفتُها بدا لي وكأنّ لها بعض الدّلالات السّحرية. فقد أدّى مرض احد المرافقين إلى عرقلة تحرّك المجموعة بكاملها. وكان يعاني على مدى عدّة أيام من كسل في حركة الأمعاء، ولم تنفع معه كافّة علاجاتي التّفجيرية. عندها لجأ رفاقه إلى إجراء يسمونه الغويرة ghuwaira. وقد قاموا بوضع سيخ تلقيم الطّلقات في البندقية في النّار حتى غدا متوهّجاً ثم جرى وضعه فوق سبعة أماكن محدّدة من جسد الرّجل: الكعب اليسر، الكعب الأيمن، خلف الأذن اليمنى، خلف الأذن اليسرى، منتصف الجبهة، مكان التقاء الجبين بالشّعر، قمة الرّأس، وفوق السُّرّة مباشرة. كانت النّتيجة فورية، وتابعنا تحركنا صباح اليوم التّالي.

بالنّسبة للعين الشّريرة، لطالما حضرتُ طقساً من الطّقوس المتّبعة لطرد الرّوح الشّريرة يسمى حمرة الرّعبة[1] hamra ra'aba، وهو يفيد أيضاً في معالجة حمّى الثّلاثة أيام المتكرّرة التي يعانون منها، وكذلك لعلاج لدغة الأفعى. يوضع المريض وسط حلقة من أصدقائه مع تعرية الجزء المصاب من جسده. بعدها يعمدون إلى الانحناء فوق مكان الإصابة وهم يردّدون واحدة من ترنيمتين اثنتين؛ بوتيرة بطيئة في البداية، ثم يبدأ الإيقاع بالتّسارع شيئاً فشيئاً ويبدأ الجسد بالإذعان والاستجابة بحيوية أكبر مع المضيّ قُدماً في أداء متطلّبات هذا الطّقس. يقوم الزّعيم بترديد مقاطع معيّنة بصوت جهوري ويقوم باقي أفراد المجموعة بحماسة وانفعال بتكرار ما قاله بصوت مرتفع، وهي على الأغلب «حمرة الرّعبة». من وقت لآخر يتوقف أحد المشاركين عن مهمّة التّرداد وينحني فوق المريض واضعاً شفتيه فوق بطنه في موقع الكبد ليشفط ملء فيه من اللحم ثم يُفلته ليرتدّ إلى مكانه لحظة رفع رأسه عن بطن المريض، والبقيّة يعمدون من وقت لآخر إلى نحنحة تشبه النّباح ومن ثم إلى التفّ فوق الجسد. وهكذا يصل

---

(1) كتب المؤلف: أبناء قبيلة كثير يستخدمون ترنيمة باللهجة الشّحرية لأبناء الجبال. لقد دوّنت ذلك لكنّي لم أعمد إلى ترجمته بعد.

الطّقس إلى ذروته. يصار أحياناً إلى إطلاق النّار إيذانا بانتهاء إجراءات المعالجة، لكن تلك الشّجاعة تستخدم فقط من أجل العين الشّريرة.

شاهدت في إحدى المرات طقساً علاجياً مغايراً بعد أن فشلت حمرة الرّعبة في تحقيق أيّة نتائج. إنه نوع من الكهانة والاسترضاء divination and propitiation يسمى الحبل habil، وربما قد لا يكون منفصلاً عمّا أشار إليه القرآن حول «النفّاثات في العقد». جلس المعالج الرّوحاني والحبل في يده على مسافة ثلاث خطوات من مريضه، وجرى استدعاء طرف ثالث للإمساك بنهاية الحبل. أمسك بالحبل عند نقطة لا على التّعيين بين الإبهام والسّبابة ثم قاس المسافة المتبقّية من الحبل بالياردة والشّبر وعرض الإصبع، مستخدماً يده الحرّة. وكرّر العملية ثلاث مرات تسبق كل منها لحظةُ توقّف ينحني في أثنائها برأسه فوق الحبل ويهزّ رأسه مُحدثاً صوت بربرة غير مفهومة بواسطة شفتيه، ثم يتناول حفنة من الرّمل ينثرها على طول الحبل. في الختام، يتفرّس في وجه مريضه ثم يبادره بالوصفة التّالية: «عند المغيب خُذ العديد من حبات التّمر والكثير من السّمن، ثم اذهب وألقِ بها فوق الرّمال».

هذا كل شيء يمكن الحديث عنه بالنّسبة للإنسان وأساليبه.

هذا والحياة البرّية للنّجد الجنوبي حياة فقيرة نوعاً ما؛ والطّريف في الأمر هنا أن حيوانات هذه البيئة نادرة المطر متأقلمة على العيش من دون ماء، وتكتفي بالرّطوبة المختزنة في النّباتات العشبية أو القطرات المتجمّعة في التّجاويف الصّخرية بفعل النّدى. بيولوجياً، تنتمي حيوانات هذه البيئة إلى فصيلة حيوانات المنطقة الجغرافية الحيويّة التي تضم أوروبا وساحل شمال غرب أفريقيا وجبال الهيمالايا في آسيا Palearctic.

من بين الثّدييات التي تمكنت من اصطيادها المَها البيضاء Oryx Leucoryx - من النّوع النّادر نسبياً - وغزال وثعلب. شاهدت آثاراً لذئبٍ وهرٍّ برّي وغُرير، لكنّي لم أتمكن من اصطيادها. يقال بأنّ الرّيم، أو الغزال فائق البياض، قد أوشك على الانقراض تقريباً، رغم عثوري على زوج من قرونه على شكل القيثارة وخصلة متميزة من الشّعر الأبيض لا تزال عالقة بها؛ في الواقع فإنّ هذا الحيوان، بخلاف الغزال الأحمر، ينتمي

إلى الصّحراء أكثر منه إلى السّهل العشبي.

اثنـان من القنافذ التي اصطدتُها كانت بلون الصّحراء وصغيرة الحجم قياسـاً بقنافذ عُمان السّوداء. يقال بأنّها هنا تهاجم الأفاعي وتقتلها، لكنها جبانة رعديدة أمام الصّقور والنّسور، والتي ما إن تظهر لها حتى تستلقي على ظهورها وتسترخي بهوان واستسلام، وتغدو فرائس سهلة بعد أن تخلّت عن عامل حمايتها الطّبيعية.

بالنّسبة للطّيور، لم ألمح أيّ نسر أو عُقاب في النّجد، رغم أنّني كنت أتوقّع لقاء أحدها، لكنّني وقعت على جيفة نافقة لنسر كبير أسود. إنّ وجود عُقاب أو نسر في السّماء يشكّل دلالة على وجود مكان تخييم قريب. ومن الطّيور الشّائعة كان الغراب الأسود، وقد تمكنت من اصطياد عيّنة مهمة منه بعنق مطوّق بريش أبيض. أحد البدو طلب مني قلب غراب آخر أسود، آثرَ أن يتناوله نيئاً نظراً لخاصّيةٍ ما ينطوي عليها: يقال بأنّ صفراء مرارته تستخدم أيضاً من قبل أبناء الحَضر لعلاج أمراض العين، على غرار الكُحل. ومن الطّيور التي لم أشاهدها وسمعت عنها الكثير في مُقْشِن طائر البوم. سبق للنّعام أن تمّ اصطياده في هذا النَّجد من قبل أفراد من مجموعة مرافقيَّ في السّنوات الماضية، لكنّه الآن بات من الطّيور المنقرضة (باستثناء أعداد قليلة في بادية صيْعَر ناحية الغرب)، رغم وقوعي على العديد من بقايا بيوضه المتحجّرة. يعود سبب انقراض النّعام في النّجد الجنوبي لاستخدام البنادق الحديثة من قبل البدو في أثناء مطاردته. ومن الطّيور الأصغر حجماً التي تمكنت من اصطيادها القُبَّرة ذات الشّرشور finch lark وهي من أندر العيّنات العلمية التي حصلت عليها وأكثرها أهمية. وهنالك أيضاً البلبل والقطا السّنغالي والهزار البنّي brown babbler وهي من أصناف الطّيور المحلّية التي من المتوقع مصادفتها، والحميراء الكشميرية والذّعرة البيضاء وطائر الأبلق التّبتي الصّحراوي كانت جميعها من الطّيور المهاجرة، إمّا لقضاء فصل الشّتاء في أفريقيا، أو ربما كزائرة للمناخ البارد في حضرموت. قمت كذلك بجمع أعداد من الفراشات واليعاسيب والنّمل والعناكب، وقد أفردت لها قائمة خاصة في الملحق الثّاني.

أحد أصدقائي من البدو كان يلهو بعقرب كبير وهو مُمسك بها بيده العارية من ناحية

الذّنب، أسفل الإبرة مباشرة، دون أن تؤذيه. كان هنالك من الزّواحف ثلاثة أفاع مختلفة – من بينها الأفعى الخبيثة السّامة ذات القرون – والأفاعي قليلة للغاية قياساً للسّحالي، التي صادفت منها عشرة أنواع مختلفة. من هذه الأنواع ثلاثة أنواع جديدة، ومنها أنواع كبيرة صالحة للأكل تُعدّ بالنّسبة للعرب طبقاً شهياً لا يضاهيه طبق آخر في مذاقه وقيمه الغذائية، حتى لدى أكبر طرائد الصّحراء. إحدى هذه أنواع الكبيرة الصّالحة للأكل شكلت بالنّسبة لنا مناورة صيد ممتعة. فقد لمحتها تختفي داخل جحرها، وسرعان ما جدّ ثلاثة من البدو في إثرها وهم ينقبون داخل الجحر بعصيهم. وفجأة ظهرت نهاية الذّيل وسرعان ما تمكّن أحد المكلّفين بعملية الحفر منها، ممسكاً بها بين الإبهام والسّبابة. ورغم تحذير أصحابه له بتوخّي الحذر خشية أن تكون أفعى، فقد واظب على التّشبّث بها، بينما واصل البقية عملية الحفر. وبعد أن تمكّن من إحكام قبضته على ذيلها، جثا على ركبتيه فوق الجُحْر وقام بسحبها بجهد بالغ ثم رفعها في الهواء ورأسها إلى الأسفل وعيناها تدوران داخل محجريهما بذعر فاغرة فكّيها بشكل مرعب. عندها عمد البدوي إلى تمرير يده الأخرى فوق ظهرها ممسكاً بها بقوة من قفاها وقام بقلبها إلى الأعلى. ولكن بمجرد أن شعرت بذيلها حراً، عمدت إلى توجيه ضربة خلفية أدمت ركبة بدوي آخر. وقد قصدني هذا الرّجل لاحقاً طلباً للعلاج، حيث تمكّنت على الفور من تشخيص ما يشكو منه وأعطيته دولاراً أسهم في شفائه على الفور.

زاحف مثير آخر، سحلية غير صالحة للأكل تدعى شويرة الشّمس shuwaira ash shams، بسبب ميلها الشديد للجلوس تحت أشعة الشّمس المدارية السّاطعة التي تتجه نحوها برأسها – وهي مخلوق كبير الحجم بذيل أحمر أملس أشبه بذيل الجرذ وجراب ثقيل بلون أزرق ملكي تحت الذّقن، يتحوّل عند الموت إلى اللّون الفضي. وهذا المخلوق كان الوحيد من بين كل المخلوقات التي صادفتُها في كل أنحاء النّجد الذي يمقت الابتعاد عن الشّمس.

* * *



مجموعة من رجال الجبال



أحد أبناء البادية، من قبيلة بيت يَماني

الفصل الثّاني عشر

المسير عبر الحافّة الجنوبية للرّمال

ألقينـا تحية الوداع علـى غيضة مطقطيق Mutugtaig في حـوض غدون، حيث كنا قد أمضينا يومين في إراحة الجمال ورعيها وسقايتها في شصر المجاورة. تحت سماء شـرقيّة موشـاة باللون القرمزي والذّهبي ولّيناها ظهورَنا في صباح هذا اليوم البارد من أيام ديسمبر ميمّمين شطر السّهل - فلاة أعادت إلى مخيلتي ذكرى بلاد النّهرين Land of the Two Rivers. لـم تكـد تمضي سـاعة علـى تحرّكنا حتى بـدأ رفاقي يصرخون بانفعال: «الرّمل! الرّمل!» وهم يلوّحون بعصيّهم، حيث لاح لنا عن بُعد شـريط أصفر يتألق تحت أشعة الشّمس بمحاذاة الأفق؛ فحدّقتُ بلهفة نحو هذا الحاجز الجنوبي من الرّمال التي كنت متلهّفاً لرؤيتها.

كان يفصل بيننا وبين الرّمل سـهلٌ مقفر موحش لا يشـوب رتابته سـوى تشكيلات من الصّخور السّـطحية صهباء اللون التي كانت تشكّل حوافاً صخرية واطئة: ذم حِملا Dhim Himla، ثويـرب Thuwairib، لَحقـة Lahaga وقرون كلبـا Qarun Kelba - وهي أماكن معروفة تماما بالنّسبة للعرب، كأجران طبيعية يتجمّع فيها الماء بعد هطول المطر.

كان أمامنا مئات الأميال من المسير المحفوف بالمخاطر. فحالة الحرب المفتوحة بيـن القبيلـة التي ارتحلتُ معها وجيرانها الأقوياء جعلت مـن هذه المرحلة من الرّحلة أمراً في غاية الخطورة. لقد شهدت هذه الطّريق (وستشهد) على امتداد التّخوم الجنوبية العديـد مـن النّزاعات الدّموية، فهـي على الرّغم من كونها أراضيَ حُرّة قاحلة، تشـكّل

صلة الوصل بين منابع المياه المستخدمة حصرياً وبصورة حتميّة من قبل الغُزاة وقطاع الطّرق في حالات القتل والسّلب. وكلّ من سنلتقيه على الطّريق هو عدو محتمل. الجانب الأقوى والأكثر تمرّساً بالحرب والقتال سيعلن عن نفسه بوابل من طلقات بندقيته، وهي تمهيد للقتال، أو، عوضا عن ذلك، للفرار.

كانت ألسنة جماعتي تنمّ عما تكنّه صدورهم، فقد كانوا ينظرون ويتصرّفون وكأنهم في حالة من القلق والتّوتّر، وكلّما كانت ناقتي تنطلق بي إلى الأمام متجاوزة إياهم، أو متخلّفة عنهم، كان أحدهم يسرع إلي ليذكّرني بأننا في أراض خطرة؛ ومع ذلك، فعند إناخة رحلنا في مكان ما لم أكن ألحظ أيّة استعدادات تشير إلى احتمال التّعرض لهجوم أو الهروب من وجه هجوم. الصّحراء تنطوي على فلسفة الأحداث التي لا مناص من مواجهتها. «الاعتماد على الله وحده»، «المكتوب على الجبين لا بدّ أن تراه العين»، «الحمد لله ربّ العالمين» - هذه هي العبارات التي كانت تجري عادة على ألسنة العرب عند الاستعداد لمواجهة الموت أو الشّدائد، أو توقُّع حدوثها. هناك راحة يحسّون بها من خلال تسليمهم بالقضاء والقدر؛ وعقيدة الإرادة الحرة Free Will هي هرطقة لا معنى لها بالنّسبة لهم. ما لم تصبح الدّابة ملكاً له بمشيئة الله، فالرّجل لا يستمتع بذبحها أو ركوبها. قد تغدو الحرب شرّاً وثارات الدّم إثماً، وممارسة الدّين أمراً مستحيلاً.

كثيب بن جولي Bin Juli الكبير الرّائع أمامنا شكّل نقطة العلام التي يتحوّل عندها اسم أمّ الحيّات Um al Hait، منظومة التّصريف المائي العظيمة للنّجد، إلى الطّينة Atina. من جهة الشّمال، تراءت لنا الصّحراء من جديد عن بُعد كسورٍ باهت من ورائه حواشٍ وردية اللون انبسط أمامها سهل أمّ الحيّات الأخضر. ولدى اقترابنا وجدنا بأنّ رمال الوادي كانت متجمّعة على هيئة أكوام أشبه بقباب المساجد. شجيرات الأثل tamarisk الكثيفة بدت طعاماً مغريا لجمالنا الصّائمة عن الطّعام، وهذه الحيوانات المسكينة التي اجتازت السّهل بجهد جهيد اندفعت بلهفة نحو هذه الوجبة المتواضعة من الطّعام أمامها.

تعدّ أم الحيت اسماً أثيراً لقلب قاطن النّجد، رغم أن انقطاع هطول الغيث لعامين أو ثلاثة، كما يحصل أحياناً، يدفع بأهل المنطقة إلى هجر الوادي الذي يغدو موحشاً مقفراً. لكنّ أدنى هطول مطري سرعان ما يعيد للوادي الخصب والحياة - رغم أن هذا الخصب الذي تراءى أمامنا كان ناجماً عن هطولات مطرية غير عاديّة سبق وشاهدت مثيلاً لها في خلال رحلاتي في المناطق الشّرقية العام الماضي.

لا أزال أذكر جيداً أفراد جماعتي وهم يشيرون وسط دهشتي إلى دلائل على هطول زخّات من المطر تركت آثارها فوق الأرض الرّملية على شكل مقدّمة رأس الفيل[1] حول جذوع الأشجار هنا، وإلى ممرّ جرفه مسيلٌ رقيق من المياه! كم كانوا يتحدثون بغبطة وحبور عن المطر! تلبدت السّماء في تلك الليلة بالغيوم الدّاكنة المنخفضة المتجهة شمالاً وأضاء البرق السّماء المعتمة، ما حملنا على الإسراع بدوابنا نحو ملاذ يقينا العاصفة الرّملية القادمة خلف آكام من الرّمال المتجمعة حول شجيرات السّلم. لكن الفرحة غمرت الجميع، فالمطر كان على وشك الهطول، وهو بالنّسبة للبدوي كالذّهب بالنّسبة للمنقّب. استقبلنا الصّباح بالأغاني والأهازيج التي رافقت بداية تحركنا كان قصف الرّعد الهادر أعذب من وقع الموسيقى على مسامعنا ووابلٌ من المطر كان بمثابة النّعيم بالنّسبة لنا. وكلّما تقدّمنا في سيرنا كانت السّماء تزداد تلبّداً بالغيوم ووميضُ البرق يقترب منا أكثر وقصفُ الرّعد يزداد عنفاً.

لقد شاركتنا جمالنا هذه الإثارة وهي تتنشق عَبَق الهواء الرّطب بخياشيمها الواسعة وسط حبور أصحابها وغبطتهم. انقسمنا إلى ثلاث مجموعات وانتشرنا على شكل نصف دائرة لاستطلاع السّهل بحثاً عن مجمّعات مطرية، على عكس تقديري، لأنّني شعرت أنّ مثل هذه المجمّعات لن تكون كافية، وكنت أُفضّل لو أننا واصلنا سيرنا نحو مورد مائي أكثر ضماناً. بعد حوالي عشرين دقيقة تناهى إلى سمعنا صوت طلق ناري، وهو ما يُفسَّرُ عادة على أنه إنذار بالخطر، أو بصيد ما، كغزال مثلاً يؤمّن للقوم وجبة العشاء.

(1) كتب المؤلف: شكل التراكمات الرّملية يشبه مقدمة رأس الفيل.

«المـــــاء!» هتف نخيِّر بانفعال «العرب» (هكذا يشـير البدو إلى أنفسـهم دائماً في سياق حديثهم عن شخص ثالث) «لقد وجدوا الماء».

«حقاً» قال أخر بفرح؛ استدرنا وانطلقنا في ذلك الاتجاه.

تملّكني لبعض الوقت شـعورٌ بأنّ ناقتي تنزع للسّـير في ذاك الاتجاه، دون أن يخطر ببالي مطلقاً أنها اشتمّت رائحة الماء، مفترضاً أنها كانت تسعى وراء رفيق لها في إحدى المجموعات الأخرى، لأنّ الإبل التي تربّت معاً، سـواء أكانت من نفس الجنس أم لا، يعزّ عليها أن تفترق.

«هل أنت واثق أنه الماء؟» سـألت بشيء من التّحقّق، لأنه مضى علينا ست ساعات على ظهور الجمال وما زالت محطة توقفنا التّالية على مسير ثلاث ساعات.

«اسـكت»، أجاب نخيِّر، والتي في أجزاء أخرى مـن جزيرة العرب تعني أمراً ملزماً بالتزام الصّمت، لكنها هنا ذات دلالة تتضمّن معنى «من دون شك». سرعان ما اتّجهنا نحو مرتفع في السّـهل لنرى جماعتنا في الأسـفل عند أحد الأجـران المطرية الطّبيعية وأعنـاق الجمال ممدودة باتجـاه الماء، بينما عمد أفراد الجماعة أنفسـهم إلى اغتراف المـاء بمجامع أيديهم وسـكبه في قربهم. حملني الظّمأ إلـى التّرجّل عن ناقتي والجثوّ بجانبهـم مرتشـفاً بشـفتَي المتشـقّقتين قُطيـرات الماء العـذب من قعر هذا المِرشـف الصّخـري؛ ويـا لها من قُطيرات أحلى من الشّـهد بعد تلك المياه الملحية الآسـنة التي كنا نتجرّعها في خلال مسيرنا، والتي كانت بلون الرّمل وملأى بالطّحالب وغيرها من الشّوائب والإشنيات، وكان مذاقها أشبه بمذاق اللحم المتعفّن نتيجة انخضاضها يوماً بعد يوم داخل القِرَب المصنوعة من جلد الماعز والمحبوكة بطريقة بدوية بدائية.

كانـت هنالك أوقات كنت أفضّل فيها أن أبقى ظمآناً على أن أتجرّع من ذلك الماء، رغم سـلامته مـن النّاحية الصّحية، حيث أننـي لم أعانِ أبداً من أيّة أعراض ذات شـأن جـرّاء شُـربي، علمـاً أنني لم ألجأ أبـداً لأيّة إجـراءات لتعقيم مثل هـذا الماء في خلال أسفاري الصّحراوية؛ حيث أنه لم يكن لدي أيّ متّسع أو فرصة لمثل هذه الإجراءات.

والآن شرع ثعيلب، من قبيلة بيت كثير بإطرابنا ببعض الأهازيج بصوته الشّجيّ مع بدء انطلاقتنا الصّباحية، في الوقت الذي أعرب فيه أصحابه عن إعجابهم ومعرفتهم بما يقول من خلال انضمامهم إليه إما فُرادى أو بشكل ثنائي أو معاً، مردّدين الشّطر الأخير من كل مقطوعة على شكل كورس.

وقد قمت بترجمتها على النّحو التّالي:

انظر البرق في مدى الآفاق

علَّ خيرَهُ الوفيرَ يهطل فوق أمّ الحيّات،

غيثاً سحّاً غدقاً مجللاً طبقاً

يتدفّق بين الصّحراء ومجرى النّهر

حتى يمرّ من بو وريد وما وراءها،

لتحيا إحدى الحسناوات وتستمتع بحياتها،

تلك الحسناء الواقفة هناك من دون خمار

وحبيبها جاثٍ عند قدميها

بعد أن برأتْ شغافُ قلبهِ من جروحها.

اختصرنا مسيرنا في ذلك اليوم بدافع الرّغبة الملحّة بالفرح والابتهاج. هذه البقع القليلة المتشكّلة من قُطيرات المطر الهاطل كانت سبباً كافياً للتوقف والإفساح في المجال أمام الجمال لترعى.

سهيل، الرّاشدي، أفصح لنا عن رغبته بالتّدخين، وسرعان ما تحلّقت حوله مجموعة الرّجال المهتمّين، لأنّ الغليون في الصّحراء يستهوي الجميع للمشاركة. غاصت يده في غياهب عُبّه (ليس لملابس البدو جيوب) لتعود قابضة على عدة الشّغل المكوّنة من كيس تبغ مصنوع من جلد البقر، له غطاء، ومحبوك بطريقة بدائية، وله شريطة جلدية مزوّدة بوَصْلة مفصلية. كان إحدى مقتنيات سهيل القليلة، لكن له قيمة

معنوية بحدّ ذاته. قام بفرده كالعادة وكل العيون مسمّرة عليه. كان له جيبان، واحد للتبغ وآخر للغليون، وحجر الصّوان والقدّاحة، لأن أعواد الثّقاب في الصّحراء، إن لم تكن معروفة، فهي من أنواع التّرف النّادر، والنّيران على أنواعها يجري إشعالها بواسطة الصّوان. الغليون، الذي كان نموذجياً بحدّ ذاته، كان عبارة عن مظروف فارغ لطلقة من عيار[1] 303، شكّلت قاعدتها المبسّطة المؤطّرة فتحة الغليون بعد إزالة الكبسولة. مضى سهيل في حشو غليونه بأوراق التّبغ الظُّفارية أو العُمانية المحلّية الخضراء، ممسكاً بنهاية الغليون بإحكام لتجنّب انسكاب الحشوة الثّمينة.

عمد بعدها إلى إشعال مزقةٍ من قميصه بواسطة شرارة من قدّاحة الصّوان، ثم وضعها على الأرض ونثر فوقها قليلاً من روث الإبل الجاف لمساعدتها على الاشتعال؛ وقد تم إضافةُ غصن شجرة إلى النّار حتى تجمّرت. بعدها جرى وضع إحدى الجمرات فوق فوهة الغليون، كما هي الحال بالنّسبة للنّرجيلة. ما ساعد على تمضية الوقت باستمتاع هو عملية حشو الغليون، لأنّ التّدخين بحدّ ذاته لا يستغرق أكثر من بضع ثوان. أخذ سهيل ستّ أو ثماني نشقات عميقة سريعة من دخان غليونه، وقد أبقى على النّشقة الأخير حتى جحظت عيناه وبدأ يترنّح؛ وفي هذه الأثناء كان قد مرّر الغليون إلى جاره، الذي استمتع به بنفس الطّريقة، وهكذا دواليك إلى أن أكمل الغليون دورته على كلّ مَن في الحلقة. كان تدخين هذا الغليون يجري على طريقة الكلارينيت، بينما شاهدت غلايين أخرى من نفس الطّراز يجري تدخينها على طريقة النّاي. لم تستهوِني التّجربة، لذلك فقد أحجمت عن الاستيضاح من جماعتي الصّامتة تقريباً أيّ الطّريقتين أفضل، كذلك لم أشعر برغبة بالاستهزاء من سهيل، الذي كان الغليون بالنّسبة له إحدى مسرّات الحياة المُترفة.

أقمنا مخيمنا في أمّ الحيّات عند نقطة ينطلق منها نهر نَخْدة وريقة Nukhdat Waraiga في مسار شمالي شرقي. هنالك توأم آخر لهذا النّهر يدعى نخدة[2] هشمان

(1) هو عيار البنادق الإنكليزيّة من نوع لي إنفيلد Lee-Enfield وهو طبعاً من أجزاء الإنش، ويعادل على المقياس العشري 7.5 مم.

(2) النّخدة في اللهجة الكثيريّة وادٍ صغير يتفرّع من الوادي الكبير، وتكون في الرّمال أو الصّحراء.

Nukhdat Hishman إلـى ناحية الشّـمال الغربي له مسـار أكثر انعطافاً نحو الشّـمال، والنّهـران كلاهمـا يخترقان هذه الصّحراء الجنوبية لمسـيرة يـوم ونصف ليصلا منطقة تدعى المعترضة[1] Umm Dharta.

هبطـت الحرارة فـي تلك الليلة إلى 47 فهرنهايت (8.3 C˚))، وشـعرنا بوطأة البرد نظراً لأنّنا كنا مسـتلقين فـي العراء بعد نهار لاهب فوق ظهور الجمال، وقد أحسسـتُ بيديَّ في أثناء السّـير مخدّرتين بفعل البرودة، ما أعاقني إلى حدّ ما عن الكتابة وتدوين الملاحظات. واظبت الحرارة المحافظة على هذا المسـتوى على مدى الليالي السّـت التّالية، لكن الدّثارين اللذين كانا بحوزتي وارتدائي لكافة ملابسـي، مكنّاني من تحمل وطأة هذا البرد، الذي كان بمثابة وَبال على بقية أصحابي المساكين.

ينام البدو فوق الرّمال الحارقة نهاراً وشـديدة البرودة ليلاً، وليس لديهم أيّة ملابس أخرى عدا تلك الأسـمال القطنيـة التي يرتدونها نهاراً؛ ليس لديهـم أيّة ملابس خاصة بالنّـوم، فهـم يعتبرونها مزعجة، وينظر إليهـا على أنها أنثوية أو لا تليـق بالرّجال. إنّهم يقومـون بجمـع كفايةِ ليلـةٍ من الحطب لزوم الموقـد، حيث يتكـوّرون أمامه عراة، إلا ممّا يسـتر العورة، بالنّسبة لبقية لباسهم، قميص، يُخلعُ ويستخدمُ كملاءةٍ للنّوم. كذلك الأمر أيضا بالنّسـبة لمعشر النّساء، رغم امتلاكهن لبيوت من الشّعر في الصّحراء تعمل عمل الحرم، وكذلك بساط للنّوم، فهن يرتدين سراويلهن ليلاً، وعباءة فوقية، تستخدم في الغالب كملاءة للنّوم، إلا بالنّسـبة للموسـرات منهن. كافة النّسـاء البدويات يتنقلن نهـاراً حافيـات الأقدام، ولكن في الأيـام قائظة الحرارة، الجنسـان كلاهما قد ينتعلان صنادل بدائية الصّنع. والتّرف الزّائد أمرٌ مستهجن عموماً.

لازمنـا بالطّبـع على مدى الأيام الخمسـة التّالية هذه الحافـة الجنوبية من الصّحراء الكبرى، باتجاه غرب – شـمال – غرب في البداية، ثم انحرفنا غرباً بالتّدريج. مسـتوى الارتفاع ظل ثابتاً عند مستوى 950 قدماً، رغم أن تحَدُّرَ المجاري النّهرية جعلني أعتقد بأنّ الأرضَ الأكثر ارتفاعاً كانت تقع ناحية الغرب. لم يكن مسـيرنا في خلال فترة بعد

(1) أشكل اسم رمال المعترضة، أو عروق المعترضة، على المؤلف، فظنّها: أمّ ضرطة.

الظّهر مريحاً، حيث أننا كنا نسير بمواجهة الشّمس. سبق لي معاناة مثل هذه التّجربة في رحلاتي السّابقة، عندما كان السّير بمواجهة أشعة الشّمس الحارقة يؤدّي إلى اصطباغ وجهي بلون قرمزي في البداية، ما يلبث أن يتحوّل إلى بثور وتقرّحات مؤلمة. لكنني الآن تعلّمت سر تغطية رأسي بالكامل بالكوفية العربية، ما خلا الأنف والشّفتين. ومن المساوئ الدّائمة الأخرى للمسار الغربي صعوبة رسم خارطة جغرافية للمنطقة، حيث أنني لم أكن أحمل سوى كرونومتر لقياس مواقيت غرينتش. كان بوسعي قياس مستويات الارتفاع بدقّة متناهية وأتحقق بشكل يومي من تقديراتي الاستنتاجية الشّخصية عن طريق البوصلة أو ساعة اليد عندما يكون خطّ سيرنا من الجنوب إلى الشّمال (ولحسن الحظ أنّ مجمل رحلتي تقريباً كان في هذا الاتجاه)؛ لكن خطوط الطّول التي تحدّد المسارات شرقاً وغرباً هي خطوط غير موثوقة عندما نحصل على إحداثياتها بواسطة أجهزة الكرونومتر المحمولة على ظهور الجمال، حتى بثلاث أجهزة منها، بعد مقارنة واحد بالآخر وتدوين معطياتها قبل وبعد كل مسير.

كان يمكن لجهاز اللاسلكي أن يعطي نتائج بالغة الدّقة، لكنّي كنت أخشى أن أثير شكوك أصحابي بمثل هذا الجهاز، الذي سيكون حجمه ووزنه بأية حال أكبر من قدراتنا وإمكانياتنا اللوجستية المحدودة.

بعد ثلاث ساعات ونصف من السّير عبر الآكام الرّملية وبعد مغادرتنا هشمان وصلنا إلى السّهل المحاذي الذي اجتزناه بخطى حثيثة كان يعيق وتيرتها أحياناً انجرافات رملية صغيرة بيضاء كنا نصادفها كل ميل ونصف الميل تقريباً. بعد تجاوزنا لأم الرّؤوس Umm al Ru'us كانت هذه الانجرافات الرّملية تتحول إلى كثبان أو جُروف مستعرضة تعيق تقدّمنا، حيث خسرنا نصف ساعة في عبور الجُرف الأول، ثم ولجنا منه إلى دهليز رملي يحف به عن يسارنا جُرف رملي أحادي على مسافة ميل تقريباً، وعن يميننا بالصّحراء الكبرى. خرايم Kharaiyim، وهو الاسم الذي يطلقونه على الدّهليز المحاذي، بات سمة مميزة لمسيرات الأيام القليلة التّالية. كانت مسيراتٍ عانينا فيها من الجوع الشّيء الكثير، لأن الخضرة الوحيدة كانت عبارة عن مجموعات

متناثرة هنا وهناك من نباتات العَبل abala أو المَرخ markh الشّبيهة بالصّفصاف، على جوانـب الكثبان التي شـكلت جـزءاً من نظام يعتـرض طريقنا من جانـب لآخر وتمتدّ جنوبـاً إلى داخل السّـهل عنـد خاصرة أحد الوديان، حيث يتقلّص شـيئاً فشـيئاً إلى أن يختفي، حسبما يقال، بعد مسافة ليست بالبعيدة.

هكذا كانت محطّات اسـتراحتنا. المخيم عند نَخْدة فَسَـد Nukhdat Fasad - أحد فـروع نهـر الطّينة Atina الذي يعطي اسـمه للباديـة المحلية - كان يقع أسـفل الكثبان الثّلاثـة الهائلة: أم الجـو Umm al Jau، أم اللّيسـة Umm al Laisa وأم الضّلوع. كان المرعى بائسـاً إلى درجة أننا اضطررنا لأن ننقسم إلى ثلاث مجموعات ونوزّع بهائمنا على مسـاحة ميل مربع أو أكثر. المجموعة التي وجدتُ نفسـي معها كانت مكوّنة من أحد أبناء قبيلة الكَرب وهو عويمر، والرّفقاء ضامني الحماية من قبيلة آل كثير، والذين سـرعان ما صعدوا نحو شـجيرات المَرخ الشّـوكية لاقتطاع أشـهى الأعلاف وأكثرها طـراوة لدوابهـم المتميـزة، حيـث أنّ ناقتـي وحيوانـات التّحميل خاصتـي جاءت في المرتبة الثّانية من حيث الأفضلية.

لقد أثارت هذه الأنانية حيال جمالهم اهتمامي، نظراً لتناقضها مع سخائهم وكرمهم فـي علاقاتهم الشّـخصية. حيثما شـحّ الماء أو الطّعـام فإنّ أحداً منهم لـن يتردّد مطلقاً في مشـاركة الآخرين طعامه وشـرابه بالتّسـاوي، وإذا ما غاب أحدهم، لرعاية شـؤون إبله ربما، فالجميع سـينتظر عودته لتناول الطّعام معاً. ولكن فيما يتعلّق بعلف الجمال أو حمولاتها فكل بدوي سـيقتنص أيّة فرصة سـانحة مجرّدة مـن أيّ مبدأ ليتفوّق على أصحابه ويبزّهم لصالح ناقته؛ فراحتها يبدو بأنّ لها الأولوية على أيّ اعتبار آخر.

لم يُطلبْ إلينا في خلال المسير التّوقف لأداء صلاة الظّهر؛ فقد جرى اختصارُ الصّلوات الخمـس اليوميـة إلى ثلاث في أثناء المسـير، حيث يصـار إلى أداء فرضـي الظّهر والعصر على مبدأ الجمع والقَصر، وكذلك فرضي المغرب والعشـاء، وهو ترخيص معروف أباحه الشّـرع وليس له أيّ مدلول إيماني خاص بأبنـاء الصّحراء. والجزم الذي يزعمه بعض أبناء البلـد المتحاملـيـن بـأنّ البدو لا يصلّـون ولا يصومون لم تثبت صوابيته مـن خلال تجاربي

الشّخصية. فقد كان أصحابي يصلّون دائماً بخشوع والتزام؛ رغم إدراكهم الأكيد للمخاطر المحدقة بهم، فهم يلبّون نداء الله لصلوات الفجر والظّهر والعشاء. وكان شبحا الجوع والظّمأ ماثلين على الدّوام، ومضيفو مدين Midian hosts لا ينفكّون يطوفون المكان خلسة؛ المعرفة بمثل هذه الأخطار الحاضرة قد غرست فيهم، كما في بحّارتنا وجنودنا من أبناء الجيل الماضي، شعوراً بالتّسليم والثّقة بالقدرات الغيبية، الطّفولية ببساطتها. وليست البساطة هي سمتها الوحيدة المميزة؛ فهي قاعدة حياتية تبرّرها عملياً حقيقة أنها تشكل أساساً عملياً للحياة اليومية في بيئة قاسية متوحشة. إنها موقف للعقل يتوازى بصورة وثيقة في جوهره مع القناعات المتقبّلة من قبل أبناء الغرب.

«بسم الله الرّحمن الرّحيم» كانت تنطلق من حناجر الرّجال كعبارة يستفتحون بها نهارهم كلّما هممنا بالانطلاق كل صباح. بعد فترات طويلة من الصّمت المطبق، كان أحد الأعراب بجانبي يبادر على حين غرّة إلى التّمتمة بعبارات مثل «اللّهم نجّني من أعدائي»، «جنّبني اللّهم كل شرّ». المقطع الأخير من أذان الفجر كان يتضمّن دعوات وابتهالات مطوّلة ترافق نهوض هؤلاء التّعساء من مضاجعهم عند السّحر وهم يرتجفون من شدة البرد لأداء أول فروض يومهم. حتى المسيحي الملتزم الذي يرافقهم في أسفارهم وعقله منشغل بالشّؤون الدّنيوية لا بدّ أن يتعلم منهم شيئاً عن القبول والتسليم المطلق بالإله كليِّ الوجود الذي لا تدركه الأبصار. عندما نجلس في حلقة دائرية يصار دائماً إلى كسر جدار الصّمت بعبارة «لا إله إلا الله»، بينما ينبري أحدهم بصورة محتدمة يهتف مرتين بعبارة: «لا تكتموا الشّهادة أيها المسلمون!» مع ذلك فإنّ مثل هذه الدّعوات والابتهالات لم تكن وفق ما لمستُه وخَبِرتُه لتؤثر على علاقاتهم معي على الإطلاق، وكنت أستشعر وسط هؤلاء الرّعاع طيبة وتسامحاً عزّ نظيرهما بين أبناء الحضر، الذين تمنحهم معرفتهم السّطحية بالقرآن غروراً وعُجباً ينطوي على قدر لا يطاق من التّعصب والأنانية، كونهم يعتقدون بامتلاكهم الحصري دون سواهم للحقيقة الإلهية.

بالمقابل، اسمحوا لي أن أستحضر تلك الحادثة التي جرت مع الشّيخ صالح في مستهلّ هذه الرّحلة.

«اتلُ الشّـهادة!» كان أحد رجاله قد استهلّ حديثه قائلاً، وهو يدعوني لتكرار شهادة عقيدة الإسـلام، تأكيـداً لإيماني المعلـن بالله، والصّـلاة، والصّيام. وهكذا أمسـكتُ بلحيتـي - التـي أطلقتُها على سـجيتها، كمـا يتوجب علـى أيّ أوروبي يأتـي إلى هذه المناطق؛ لأن قسَم الرّجل يجب أن يكون بلحيته. ردّدتُ وراءه بالعربية: «الله أكبر».

«لا إله إلا الله»، قال الرّجل، وكرّرتُها وراءه.

«محمّد رسول الله»، كانت ثالث وآخر جزءٍ من الشّهادة.

«دعني أشـرح لك»، قلت له. «إنه نبيّك، رجلٌ عظيم ونبيل من العِرق العربي؛ لكننا من عِرق آخر، وأيضاً من خلق الله، ونقول ونؤمن بأنّ المسيح هو نبيّنا».

«المسـيح ابن من؟» سـألوني قائلين، لأنهم أمّيُّون بالمطلـق ولا اطّلاع لديهم على القرآن الذي ينصّ على أنّ المسيح هو روح الله وكلمته.

«هذا صحيح»، تدخّل الشّيخ صالح لإصلاح الخلل، «لكل أمّة نبيّها. ولكن والحمد لله هذا الرّجل ليس بكافر، وهو يعترف بالله الواحد الأحد الذي لا تدركه الأبصار».

كان أصحابـي متلهّفيـن لمعرفـة إن كنـا نحرق جثاميـن موتانـا، وأن زيجاتنا كانت زيجات شرعية (منزّهة عن المساكنة أو المعاشرة من غير عقد شرعي) أو إن كنا نصوم ونصلّـي. لقد أكّـدتُ لهم إجاباتـي وصحّحَتْ مفهومـاً آخر من مفاهيمهـم المغلوطة التي صادفتُها في أثناء أسـفاري السّـابقة، وهو مفهوم سـائد على نطاق واسع في أنحاء الشّـرق الإسـلامي، فهم يشـيرون إلى السّـماء زاعمين بـأنّ الكفار يُخبّئـون وجوههم مـن الله، وهذا نابع حسـب اعتقادي من الطّاقيّة العصرية الواقية من أشـعة الشّـمس[1] والتي ولأسباب موجبة تنزل إلى ما دون مستوى العينين. ومن المهم التّنويه أيضاً بهذا الخصوص إلى أنّ الصّلاة وفقاً للشّريعة الإسلامية تحتّم أن يُلامسَ الحاجبُ الأرضَ،

(1) كتب المؤلف: لابد أن الفكرة حديثة العهد، لأن الخوذة الشّمسية لم تكن تستخدم من قبل أوروبيي الشّرق على مدى أكثر من قرن؛ إنها غير معروفة في الأمريكيتين، ولا يعتمرها النّاس، حسب اعتقادي، في أستراليا أو جنوب أفريقيا.

ومـن الواضح أنّ خوذةً بحاجبٍ لن تسـمح بذلك، ومن هنـا جاءت صيحة الاحتجاج من جانب السّـلفيين من أتباع الدّين في فارس والعراق وأفغانستان وغيرها من البلدان الإسلامية ضد اعتماد لباس الرّأس من قبل جيوشهم وفق الأنماط الأوروبية.

كنت في خلال أسـفاري أتّشح بالكوفية العربية مخفياً تحتها خوذة طيار خفيفة بعد إزالة الحاجب عنها، وهي تحفة قديمة مكتوب عليها «ساوثي Southey، القوى الجوية الملكية». وإنّ لباسي ولحيتي وطعامي وحديثي يجب أن تكون قدر الإمكان على غرار لباس ولحى وطعام وحديث أصحابي ذوي الأفق الضّيق والتّجربة المحدودة لتلطيف الفوارق فيما بيننا.

لنفس السّبب لم أرتدِ نظاراتٍ شمسية أو غيرها من وسائل الوقاية من أشعة الشّمس ذات البـروزات النّاتئة، حيث أنّ شـكوك أصدقائي البدو ووساوسـهم حيال الخوذات الشّمسـية أظهرت بأنّ هذه الأشـياء قد تُعيق الإنجاز النّاجـح لمخططاتي، غير أنني لم أتخلَّ يوماً عن اعتقادي بأنها ضرورية.

فيما وراء فَسَـد Fasad أصبح السّـهل المحاذي الذي كان بالأمس أملسَ خاليا من الحجـارة، أرضا وعـرة متعرّجة. كان السّـهل مغطى بتفطّرات حصويـة (حَزْم hazm) بارتفـاع حوالـي عشـرين قدماً تلتها أخـرى بلون رمادي فاتح، مُشـربة بعـروق حمراء وملسـاء للغاية. بـدت قواعد الكثبان الرّملية عن بُعد من خلال تلسـكوبي أشـبه بكتل صلبة من الصّخر. وعثرتُ فوق سـطح السّـهل على مَحار وغيره من المسـتحاثات من فئـة أوسـتريا Ostrea ولوسـينا Lucina وروسـتاليريا Rostallaria، وجميعهـا أبلتهـا عوامل التّعرية ولكن ما زالت تحمل من الدّلالات ما ينبئ عن تاريخها الجيولوجي.

كان ميتَن Mitan مخيّماً مُجدباً آخر، ونوقنا المسكينة الواقفة بصمت وتكاسل مقيدة بشـكالاتها shackles، كانت أكثر من مسـتعدة للتحرّك التّالـي. رغم كونها مخلوقات تفتقـر إلى الوسـامة، فيا لها من حيوانات صبـورة وقت الشّـدة. كلّ همها محصور في الطّعـام، وإذا ما وجدته كافياً، بوسـعك أن تضع عليها حِمـلاً يومياً مضاعفاً، مكّنها من الشّرب مرّة في الأسبوع فقط، واعقلها عند كل توقف، كيلا تشرد.

كان انطلاقتنا الصّباحية من ميتَن متباطئة بعض الشّيء بسبب البرد والجوع وكثرة الانجرافات الرّماية المعترضة، وإبلٌ تسير مُجهَدةً يعني قافلة بطيئة. وصلنا بعد مسيرة ساعة من الزّمن إلى غور واسع من الأرض شكّلت خاصرته الغربية وتدعى «توف ميتَن» Tof Mitan النّهاية البائسة للنّهر الذي يحمل الاسم ذاته، رغم قوته وغزارته عند المنبع في شغوات Shaghuwat، على مسيرة ستة أيام جنوباً. أعقب هذا الغورَ السّهلُ ذو الأرض الصّلبة ثانية، الأمر الذي سهّل عبور القافلة. وفجأة، أشار الأعراب، الذي اعتادوا على الإشارة بطريقة طفولية إلى أيّ شيء يعتقدون بأنه يشدّ اهتمامي، ناحية الأرض. «انظر يا صاحب»، صرخوا قائلين.. «إنّها الطّريق إلى وَبار[1] Ubar».

«وَبار؟» قلت مستغرباً.

«كانت مدينة عظيمة، حسبما أخبرنا أسلافنا، وجدت منذ أقدم العصور؛ مدينة غنيّة بكنوزها وحدائق نخيلها وقلعتها المبنية من الفضّة الحمراء. (الذّهب؟) إنها الآن مدفونة تحت الرّمال في رملة شعيت، على مسيرة بضعة أيام إلى الشّمال».

أعرابٌ آخرون سبق أن حدثوني في أسفاري السّابقة عن وَبار[2]، أتلانتس الصّحراء

---

(1) المقصود بها مدينة وَبار الأثريّة، وكان الأوروبيّون يسمّونها هكذا Wabar نقلاً عن معجم البلدان لياقوت الحموي (معجم البلدان، 5: 356-359)، لكنّ بعض المدوّنات العربيّة على شبكة الإنترنت صارت تترجم الاسم بالخطأ: عُبار.

(2) كتب المؤلف: أنا مدين لمستر فيلبي Philby للفت انتباهي إلى تشابه اسم Ubar مع وَبار Wabar. لا أحد من الجغرافيين العرب المُعتبرين يذكر المكان، ولكن ياقوتاً يقدّم مختارات مستفيضة من الأقوال المأثورة المحلّيّة، وجميعها ذات مؤدّى واحد. والمكان يوصف عموماً بأنّه يوجد ما بين الشِّحر وصنعاء. ولقد كانت مدينة كبيرة ذات واحة خصبة تعود لقوم عاد، ولقد عوقب سكّانها على ذنوبهم بأن مُسخوا إلى نسانيس، وهو نوع من القردة، بنصف جسد فقط: عين واحدة وذراع واحدة وساق واحدة. ومنذ ذلك الحين سكنها الجنّ. وفي بعض الرّوايات أنّ أهل الشِّحر يذكر بأنّهم يصيدون النّسانيس وحتى يأكلونها. والمؤرّخ العربي الجنوبي نشوان بن سعيد الحِميَري (توفي 573 هـ / 117 م) يكتفي بقوله: «وَبار اسم أرض كانت لعاد في مشارق اليمن، وهي اليوم مفازة لا يسلكها أحد لانقطاع الماء، يوجد بها قصور قد كستها الرّيح بالرّمل، ويقال إنها كانت لأهل الرَّس وهم أمّة من ولد قحطان».
هذا ومن المحتمل فعلاً أن تكون عريشة Arisha (أرض الملك الزّناتي في أسطورة الصّحراء)

Atlantis of the sands، لكـنّ أحـداً منهم لـم يكن قادراً على تحديـد موقعها[1]. كل مـا كان في ذهني عنها تلاشـى على الفور عندمـا زفّ إليّ أصحابي أخبارهم السّـعيدة وهم يشـيرون إلى تلك الدّروب والمسـالك على مسـافة مئة ياردة تقريباً والتي فعلت بها عوامل الزّمن فعلها المنقوشة فوق صفحة السّهل بصورة عرضية كالوشم في ظاهر اليـد. كانـت هـذه المعالم واقعـة على إحداثيـات 325°، خط عرض18°45′ شـمال وخط طول 52° 30′ شرق عند طرف الصّحراء.

بعـد بضعـة أيام أفضى إلـيّ معيـوف، أذكى بني راشـد في مجموعتـي، بمعلومات مفادهـا أنـه عندما كان صغيـراً يرعى قطعان والـده بعد هطول المطر، بين ميتَن وفَسَـد (كان قـد نسـي منذ زمن بعيـد الموقع بالضّبـط، لكنه يعتقد بأنه على مسـيرة يومين من حـدود الصّحـراء) وقع علـى آنيةٍ فخاريـةٍ مكتملة مع شـظايا خزفيـةٍ باللونين الأحمر والأصفـر وجزءٍ من حجر رحى ومدقّتـي مهباج (؟) من حجر البازلت المصقول، إلى جانـب كتلتيـن مُكوَّرتين كبيرتين من الحجـر الأبيض متماثلتين في الشّـكل ومثلّمتين عند طرفيهما؛ كانت كل منهما من الكبر بحيث أنها تحتاج لرجلين لرفعها عن الأرض (تاجا عمود أثري ربما؟). كان قد قلب التّربة للبحث عن المزيد، فلم يعثر سـوى على رمـاد أسـود. لكن لـم يخطر بباله قط أن ينسـب هذه الأشـياء البسـيطة المتواضعة إلى مدينة عظيمة غابرة؛ رغم أنه دُهش للعثور على آنية فخّارية وسـط الصّحراء، لأنّ أحداً

هي المقابل اللفظي الشّحري لعبارة (الرّس (بالعربيّة).
قلت: صحيح أنّ برترام توماس رحّالة مُجيد، لكنه عندما يدسّ أنفه في علم الفيلولوجيا يبدو مهلهلاً للغاية، وكلامه بعيد جداً عن الصّواب.

(1) هذا لأنها كانت مجهولة ومطمورة تحت الرّمال منذ عصور، وكثيراً ما أُشير إليها بأنّها هي «إرَم ذات العِماد» المذكورة في القرآن الكريم. ولقد قام باكتشاف موقعها أخيراً في عام 1992 البريطاني رانولف فاينز ثم الكاتب ومخرج الأفلام الأميركي نيكولاس كلاپ، من خلال استناده إلى صور وكالة ناسا NASA الفضائيّة المأخوذة من الأقمار الصّنعيّة. وتمّ البحث عنها والتّنقيب فيها، غير أنّ العمل الأثري امتزج بأساطير تروّج للعثور على هياكل عظميّة لبشر يبلغ طول قاماتهم 11 متراً. وقد حصلتُ على كتاب كلاپ: «الطريق إلى وَبار» *The Road to Ubar* ولربّما نخصّ السّلسلة ببحث عنها.

مـن قبائـل الصّحراء لم يعتد على حمل مثل هذه الجرار الفخارية على ظهور جمالهم، وإنما قِرَب من القصب المجدول، وفي حالات نادرة، من المعدن.

فكّـرت بالقيـام بمهمة انتحاريـة (حتى ولو تمكنـت من إقناع جماعتـي - وهو أمر مسـتبعد وهم على هذه الحالة من التّوتر والعصبية) تتمثّل بتغيير مسـارنا والتّوجه نحو تلك الأرض اليباب: علاوة عن أنّ ما بحوزتنا من ماء كان بالكاد يكفي لإيصالنا بسلام إلـى مـورد الماء التّالـي. وفقاً لتقارير البـدو، الآثار والدّلائل مفقودة في السّـهل ناحية الجنـوب، وهـذا يُعزى ربما مـن ناحية لعوامـل الحـتّ الرّيحي فـوق الأرض الرّملية النّاعمـة هنـاك، ومن ناحية أخرى لحقيقة أن الطّريق القديمـة لا بدّ أنها كانت تتبع أحد مجـاري الأنهار الحصوية، وهي الطّريق الطّبيعيـة المؤدّية إلى الجبال، حيث لا وجود البتـة لأية آثار أو دلائـل. حقيقة أن الرّمال تزحف جنوباً هي حقيقـة تتوافق والرّوايات العربيـة المتواتـرة، ويؤازرهـا الهبـوب المتواصـل للرّياح الشّـمالية على امتـداد هذه التّخوم الجنوبية، الأمر الذي يفسّر وجود تلك المنحدرات الرّملية الحادّة منها وخفيفة الانحـدار. إنّ وجود مثل هذه الأخاديد العميقة في النّجد يغدو قابلاً للتّفسـير في حال أنّ الظّروف والأحوال المناخية قد تغيرت عبر الأحقاب والعصور التّاريخية المختلفة.

إلى الجنوب تماماً كانت تقع بسـاتين البخور القديمة الشّـهيرة، والتي كانت متصلة ربما بطريق برية بالجَرهاء[1] Gerrha، الميناء القديم للخليج العربي، أو ببتراء الأنباط، ولعل مدينة وبار العظيمة كانت تقع على ذات الطّريق. هل يحتمل أن يكون هنالك ثمّة مـن رابط بين كلمة أوفير Ophir ووَبـار Ubar، وفق التّبادل اللغوي اللفظي بين حرفي الفاء والباء.

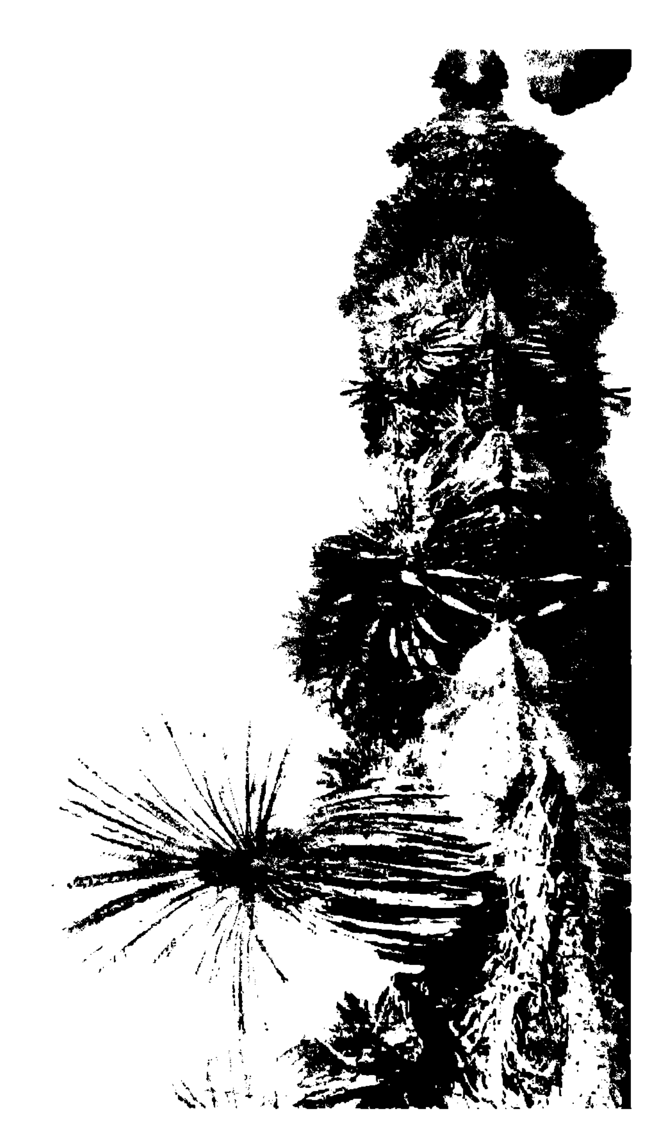
---

(1) يذكر سترابو هذا الموقع باسم Giranhensis وبأنها كانت مدينة تقع على خليج عميق، يسكنها الكلدانيون الذين تعود أصولهم إلى بابل، وأنهم يتّجرون بالطّيب والمُرّ والبُخور تحمله قوافلهم عبر الطرق البرّيّة والبحريّة. ويذكر أنها كانت أكثر البلاد ثروة، ولأهلها الأدوات المذهبة والمفضّضة، كالأسرّة وكؤوس الشّرب، وبيوت ذات جدران وسقوف مزيّنة بالعاج المُطعّم بالذّهب والفضّة والأحجار الكريمة. ويخمّن الباحثون أن موقعها اليوم في المنطقة الشرقيّة عند رأس القرية أو في ثاج أو ميناء الفاو.

هذا الحديث المتواتر عن وجود طرق قديمة للتّجارة عبر ما يُعتبر اليوم حاجزاً مانعاً من الرّمال لا ينبغي استبعاده من المعادلة على أنّه ضربٌ من المستحيل. يُنظر إلى جزيرة العرب على أنّها لم تشهد قطّ أيّ عصر جليدي، بحيث أنها وفي الوقت الذي كانت فيه بقية أقاليم نصف الكرة الشّمالي الواقعة على خطوط عرض أكثر ارتفاعاً ترزح تحت قلنسوة من الجليد، كانت تنعم بحقبة مطيرة تؤرّخ لبداية تلك المجاري المائية العظيمة الضّيّقة التي كانت تستنزف مياه الجبال السّاحلية، ومستحاثات الحجر الكلسي تلك التي جرفتها السّيول نحو حافة الصّحراء. لعلّ هذا المناخ المختلف كلّياً استمرّ لفترة طويلة بصورة معتدلة، ممّا أفسح المجال أمام ظهور حضارة موغلة في القِدَم في هذا الجزء من العالم.

حلقة مهمة أخرى في سلسلة الدّلائل والبراهين أنشأها علماء الحيوان استناداً إلى توزّع الحياة البرّية في جنوبي جزيرة العرب. العيّنات الحيوانية التي تمكّنتُ من جمعها في جبال القَرَا ثبت بأنها أفريقية أو إثيوبية بشكل رئيس على صعيد قرابة النّسب، فهي تشكل ما يشبه المَحُوطة الأجنبية هناك، حيث أنّ العيّنات التي جمعتُها إلى الشّمال والشّرق والغرب تبيّن بأنها تنتمي بصورة حصرية إلى المنطقة الجغرافية الحيوية التي تضم أوروبا وساحل شمال غرب أفريقيا وشمال جبال الهيمالايا في آسيا Palaearctic. قد تشكّل هذه المَحُوطة بقيّة باقية للطّائفة الحيوانية السّابقة لكامل الإقليم الجنوبي من جزيرة العرب، في الوقت الذي كان فيه للهند وجنوبي جزيرة العرب وأفريقيا ذات المناخ وذات الحياة البرّية. قد يكون القحط والجفاف أدّى في مرحلة لاحقة إلى حصر هذه الفصائل الحيوانية في إقليم ظُفار، الذي استمرّ دون سواه من أقاليم جزيرة العرب في تمتّعه بأمطار وحياة نباتية مدارية بفضل الرّياح الموسمية الجنوبية الغربية التي شكّلت السّمة المميزة لهذا المناخ، بينما أصبحت المناطق المحيطة المكشوفة عامرة من جديد بمجموعة أخرى من الحيوانات القادمة من الشّمال.

* * *



روضة النّخيل البرّي في مقشن



مجرى وادٍ عُلوي



مجرى وادٍ أوسط

الفصل الثّالث عشر

عبر جبال عروق الضّحيّة الرّملية

انحرفت تخوم شعيت الصّحراوية الآن باتجاه الجنوب الغربي وبات طريقنا بمواجهتها، وبدا بأننا قد بدأنا هنا وهناك بإلقاء تحيّة الوداع على النّجد السّهلي، لنعود ونلتقي به مجدداً، وقد بات الآن مغموراً تماما بجُرف أحادي مرتفع، يقال بأنه قد تراجع الآن إلى مسيرة يوم ونصف جنوباً. المسحة اللونية الخفيفة التي كانت تميّز الجهة الجنوبية من الشّريط الحدودي أفسحت المجال أمام حواف وسلاسل داخلية حمراء اللون كانت كلما أوغلنا فيها تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى رواب وهضاب فسيحة رحبة قليلة الارتفاع تتراصف في كتل متماوجة. كانت الأودية والمنخفضات الخفيفة تشكّل السّمة المميّزة لطريقنا، باستثناء بعض المساحات العشبية الخفيفة المتناثرة هنا وهناك فوق بعض المنحدرات التي قمنا بتسلّقها لأخذ قسط من الرّاحة وإفساح المجال أمام الجمال لسدّ رمقها ببعض الكلأ.

شدّت انتباهي على حين غرّة ظاهرة تلك المساحات الفضّيّة الطّولانية الواقعة بين سلاسل الرّوابي والهضاب، والتي كانت تبدو للنّاظر عن بُعد أشبه بصفائح الجليد أو المخلّفات الملحية المتبقية بعد جفاف البحيرات. مثل هذه الغدائر المفترضة التي تبيّن بأنها طبقات من الجبس، كانت منتشرة بكثرة لافتة بين هذه الكثبان الرّملية لإقليم جبيلة[1] Yibaila وجديلة (يديلة) Yadila وبعد يومين في جبال عروق الضّحية الرّملية

(1) كتب المؤلف: في اللهجة الرّاشدية للصّحراء الجنوبية، كتمييز لها عن لهجة الشّمال لقبيلة مُرّة، فإن الجيم تلفظ ياءً، وبذلك فإنّ «جوب» تلفظ «يوب» و«جيبان» تلفظ «ييبان». من المحتمل أنّ

.Uruq-adh-Dhahiya

لقد ترك المسيرُ بمعدل من تسع إلى عشر ساعات يومياً بصماته على جمالنا بدرجات متفاوتة، بحيث أننا كنا مجبرين على إعادة توزيع الحمولات. سلال التّمور التي كانت تزن الواحدة منها مئتين وستين رطلاً، والتي كانت تشكّل حمولة جمل عادية، باتت الآن حمولة زائدة، وقد تم تقسيم كل سلّة إلى اثنتين وتوزيعها على الجمال الأكثر تحمّلاً للطّريق الوعرة أمامنا.

تذمّر أصحاب الجمال، حيث أنه كان يتوجب علي تلبية احتياجات الجمال الخاصة بأولئك البدو في رحلتنا ممّن لا علاقة مباشرة لهم بالقافلة، ممّا يرتب عليّ أعباء مادية إضافية. اتفقنا أخيراً على تحميل جمال الرّكوب في مجموعتي بحمولات خفيفة في اليوم الثّاني أو الثّالث، رغم ما سيثيره ذلك من جدل لا ينتهي والوعد بمكافأة، وكانت هنالك لحظات كنا نصل فيها إلى طريق مسدود، افتقدتُ في أثنائها بمرارة غياب الشّيخ صالح.

المسير الشّاق والجمال المُتعبة جعلت من رتل قافلتنا خطاً طويلاً متقطعاً، أحيانا كانت أجزاء منه تغيب عن ناظري تماماً بين ثنايا وحنايا هذه الكثبان الرّملية، الأمر الذي جعلنا عرضةً لكمائن محتملة، لأنّ تعبنا وإرهاقنا ومحدودية حركتنا كانت تزداد يوماً بعد يوم، بحيث أصبحنا هدفاً سهلاً لجماعة غزو تفوقنا عدداً، تشنّ هجماتها على مبدأ الكرّ والفرّ انطلاقاً من إحدى موارد الماء الثّلاث القريبة الواقعة ضمن دائرة نصف قطرها يعادل مسيرة يومين تقريباً. كلّما وصلنا إلى ربوة مرتفعة كان أحد رجالنا ممّن كان دوره أن يكون متحرّراً من الأحمال يتقدّم علينا في المسير ويرتقي ذاك المرتفع كي يستطلع الأراضي التّالية بحثاً عن أيّ أثر لجماعة غزو، مبقياً رأسه دون حافة التّلّة كيلا يُكتشف أمره. كان يستلقي هناك من دون حراك، ونظره لا يغفل لحظة عن الرّصد والمراقبة، بينما كنا نخبُّ في سيرنا للمرور عند أسفل التّلة. كان رجالي يتناوبون على أداء هذه المهمة كل ساعة بحيث أنّ مهمة الرّصد والمراقبة كانت تتواصل على مدار

الياء في «منيور» Miniyor و«يبيلة» Yibaila هي جيم.

السّاعة، بينما كنا في الأسفل نقوم بمسح آفاق التّلال البعيدة بحثا عن أيّة إشارة تدلّ على وجود نشاط معادي.

التّلكّؤ في المسير كان يعني وصولاً متأخراً، وجعل من خيار التّوقف لأخذ قسط من الرّاحة أمراً متعذراً أكثر فأكثر. والتّوقف كان رهناً بالعثور على مراعٍ مقبولة في هذه البقاع الجرداء القاحلة، مع الأخذ بعين الاعتبار الوقت الذي ستستغرقه إناخة الجمال في أثناء النّهار بالنّسبة للحيوانات المتخلّفة في آخر الرَّكب. المهمّة كانت تقتضي أن يقوم رجلان أو ثلاثة بمهمّة استطلاع الطّريق قبل حوالي ساعتين من موعد المغيب، وكانت تقتضي منا أن نقتفي أثر أيّة مراع متوفرة تصلنا تقارير عنها. وصلتنا في إحدى المرات إشارة مشجّعة غير متوقعة من بعيد من قبل أحد رجال استطلاعنا وهو يلوّح بكوفيته ويصرخ بشكل جنوني من فوق أعلى التّلال وهو مأخوذ بمشهد أحد المراعي الخصبة، متغافلاً عن احتمال وجود أعداء.

ارتدّت الجمال إلى الخلف كي يصار إلى إناختها، وتنزيل حمولتها، وعقلها، ثم سوقها نحو أقرب شجيرة. ولكن في مخيّم مُجدب قد يعمد البدو إلى مسح التّلال المجاورة بحثاً عن بعض حفنات من العلف لإطعام جمالهم الجاثية على الأرض باليد، كما تطعم الأم وليدها. وبعد الانتهاء من إطعام الجمال، سوّت الجماعة صفوفها لأداء صلاة العشاء قبل أن يتناولوا إفطارهم بالذّات. أكداس من الحطب تراكمت بجانب نيران الأربع أو الخمس خيام اتقاءً لبرد الليل. تحلّقت كل جماعة حول واحدة من النّيران المُوقدة وفق التّرتيب المعتاد، وبات من عاداتي اليومية الجلوس مع واحدة من هذه الجماعات بالتّناوب.

شدّت اهتمامي هذه الليلة الطّريقة التي كانوا يصنعون بها الخبز من دون خميرة. معيوف، الذي كان طاهي مجموعتنا المختارة، جلس القرفصاء وسط مجموعة من النّظّارة الجوعى المتلهّفين لتلقف ما يجري إعداده من طعام، بينما ملأ وعاء الطّهي بالطّحين ثم صبّ فوقه الماء وشرع بضربه وعجنه وتحويله إلى كتلة رخوة دبقة للغاية. بعدها قام بتقطيعه إلى كتل بحجم قبضة اليد، بمعدل كتلة واحدة لكل فرد من أفراد

الجماعة المتحلّقين حوله، ثم قام بتكوير الكتل على شكل كرات للتحقّق من حجمها. قـام بموازنة الكـرات في راحتيه على طريقة الميزان، مركـزاً إحدى عينيه على العجين والأخرى على جيرانه. ثم قام بالمساواة بين الكرات من خلال إنصاف المظلومة على حسـاب الظّالمة في أثناء عملية التّقطيع، إلى أن باتت جميع الكرات متساوية تماماً في الحجـم حيث جرى رصفها عنـد قدميه. بعدها تناول الكرة الأولـى ونثر عليها المزيد من الماء ثم قام بترقيقها براحة كفه على هيئة فطيرة بقطر بضعة إنشـات وسـماكة أنش واحـد، وتركها لترتاح قرب الجمـرات المتوقدة. رائحة الخبيز شـكلت دلالة على أن الرّغيـف يجب أن يُقلـب على وجهه الآخر، بحيث يصار إلى نضوج الوجهين كليهما. بعد ذلك، قام بصنع حفرة في الرّمل السّاخن تحت النّار وقام بقلبه داخل الحفرة ثم قام بتغطيتها ثانية، وهكذا دواليك حتى آخر رغيف.

وبعد فترة من الطّمر بدت مناسـبة، جرى إخراج الأرغفة الواحد تلو الآخر، وجرى نفـض الرّمـل عنها جزئياً باليـد، وبالنفخ العميق، لكن معظمه بقـي عالقاً فوق الرّغيف لإعطائه نكهته المعتادة. كان أصحابي يفضّلون تناول هذه الأرغفة الشّهية وهي تفرقع ساخنة؛ قليل من هذا الخبز أشعرني بالشّبع - كان ثقيلاً جداً، أثقل من الخبز الإنكليزي بمرتيـن أو ثلاث ربّما، ورغم إنضاجه على الفحم مـن الخارج، فقد كان قوامه عجينياً من الدّاخل. قد يكون ذلك من إحدى محاسنه، لكنه يبقى سبباً رئيسياً لمشاكل المعدة التي كان الجميع يشكو منها. كانوا غير معتادين على الأطعمة الصّلبة لذلك فقد كانت المخصّصات التي أزوّدهم بها من التّمور يومياً ومن الخبز والأرزّ بين يوم وآخر بمثابة تـرف زائد بالنّسـبة لهـم اعتادوا علـى تناولها مرة في العام، بمناسـبة عيـد الفطر ربما. معيوف، مع ذلك، أعدّ طبقاً إضافياً لوجبة العشاء: فقد انسلّ أرنب بري من الحفرة التي كانـت بين قدميه بعمـق قدمين، ولم نكد ندنو منه لنتبيّن الأمـر حتى كان الأرنب يغلي داخل القدر. لكن طاهينا البدوي الهاوي كان غريباً عن اسـتخدام السّـمن، نظراً لكون حليب النّوق فقيراً بالدّسـم ولا يصلح لصنع السّـمن أو الجبن (رغم أن سـنام الجمل اليافع يكون مكدّسـاً بالدُّهن ذي النّوعية الممتازة عندما يصار إلى ذبحه في مناسـبات

نادرة)، لذلك فقد وجدت الأرنب المسلوق في ماء ملحي طعاماً غير مستساغ، وبقدر من التّعفف، تركت نصيبي لأصحابي.

هل كنت أفضّل لحم الغزال؟ قاد السّؤال إلى حكاية الغزال والأرنب - إحدى حكايا الحيوانات التي يحبّها البدو، والتي تعتبر حكاية جذّابة إذا ما جرى سردها بالوتيرة البسيطة للهجتهم القوية، لأنّ طريقة السّرد البدوية تنحو لتكون على وزن الشّعر المُرسَل أو غير المقفى.

قدم أحد الغزلان ليقتات على إحدى شجيرات الثّمامة thamama الرّيانة، دون أن يتنبه لوجود أرنب[1] غافٍ تحتها. أجفل الأرنب لمرأى الغزال ثم قفز وفر هارباً، في الوقت الذي أجفل فيه الغزال أيضاً وتراجع إلى الخلف أكثر ذعراً حتى من الأرنب، إلى درجة أنه نسي نفسه. ولكن الآن، وبعد أن ثاب إلى رشده، وفي غمرة شعوره بالانزعاج، انطلق في إثر الأرنب وهو يردّد بصوت مرتفع هذه الأبيات السّاخرة من الشّعر الملحمي:

«أيها الأرنب شحيح اللّحم،

الذي لا يبعث جلده على الشّعور بالمتعة،

أنت الذي لا تبعث الحبور والبهجة إلا في قلوب الأطفال،

يا مصدر الإزعاج للجيران!».

(أي أنك لا تحمل من اللحم سوى النّذر اليسير الذي لا يكفي لإشباع الضّيف).

فردّ الأرنب على الغزال بعد أن استدار نحوه وهو واقف على قائمتيه الخلفيتين قائلاً بصوت مرتفع:

«أنت يا أبا الغفلة والإهمال،

---

(1) الأرنب في العربية مؤنّثة (كالضّبع)، وهكذا هي أيضاً في لهجة البادية. وإن كانت لغة الجرائد اليوم تعدّ الأرنب مذكّراً. والذّكر في الفصحى: الخُزَز. لكنّنا نضطر إلى تفضيل الخطأ المشهور على الصّواب المهجور.

يا صاحب القرون المستدقّة،

لو شاهدت الوادي الخضر، لشاطرت الجان إياه!».

(أي لطار صوابك لمرأى المراعي الخضراء)

ثم مضى كلّ منهما في سبيله.

كان سيصار إلى مدّ النّار بالوقود من جديد لو كان الحطب متوفراً، لأنّ البدو المساكين كانوا مخدّري الحس من شدّة البرد والليل كان قاسياً. عندما بدأت النّار تترنّح دونهم، استلقوا أرضاً الواحد تلو الآخر مع بنادقهم، ما عدا الشّخص المكلّف بالحراسة ظل متيقظاً تحسّباً للمفاجآت غير السّارة من جانب الأعداء، في الوقت الذي انصرفت فيه لتنفيذ «مهامي الفلكية».

الثاني والعشرون من ديسمبر كان يوماً طويلاً مملّاً، قضيناه في السّير عبر رمال جديلة (يديلة)، وكلما كان علينا أن نستدير جنوباً لتجنّب العوائق، كان وهج الشّمس السّاطعة يحرق وجهي.

كنا نتخبّط في سيرنا عبر الكثبان الرّملية الكثيفة عندما كسرت جدار الصّمت فجأة دندنة رتيبة مرتفعة كأنها نغمة صادرة عن آلة موسيقية. صعقتني الدّهشة للحظة، دون أن أعرف السّبب.

«حناينا! حناينا!»[1] صرخ أصحابي قائلين. «أصغِ إلى عزيف ذاك الكثيب يا صاحِب!» وأشار رجل بجانبي إلى كثيب رملي بارتفاع مئة قدم أو أكثر، على مسافة مئة ياردة تقريباً إلى يميننا. كنت مأخوذاً بهذا الحدث إلى درجة أنني لم أجبْ على سؤاله. كانت السّاعة الرّابعة والرّبع عصراً وكانت نسيمات شمالية لطيفة تهب من وراء الكثيب.

---

(1) كتب المؤلف: حناينا = عزيف أو خوار. القبيلتان الصّحراويتان تستخدمان تسميات مختلفة للرّمال المغردة. يطلق الرّواشد عليها اسم «الدّمّام» Al Damam وآل مُرّة يطلقون عليها اسم «الحيال» Al Hiyal.

مررنا قبل ذلك في أثناء هبوب رياح مشابهة بالعديد من مثل هذه الكثبان الرّملية، لكنها لم تكن تصدر أيّ صوت، ما عدا صوت انجراف حُبيبات الرّمال السّطحية باتجاه الرّيح من أسفل إلى أعلى الكثيب لتنسكب كالدّخان فوق قمته. ذلك الجانب من الكثيب المُدابر للرّيح كان عبارة عن جدار مائل منحدر وبحثتُ بلا جدوى عن المزيد من المسارب الرّملية الضّيقة القمعية الشّكل التي بفعل الرّيح المندفعة قد تفسّر سبب كل هذا الصّوت الصّاخب. المصطلح المألوف «الرّمال المغرّدة» singing sands لا يبدو لي مناسباً إلى هذا الحدّ لوصف صوت لا يمكن تمييزه عن صفير[1] سفينة بخارية متوسّطة الحجم. استمرّ الصّوت لحوالي دقيقتين، ثم انتهى كما بدأ بسرعة وكأنه إشارة سفينة وسط الضّباب.

اقترحتُ تفسيراً للظّاهرة مفاده أنّ الرّمال كانت قد تعرّضت للتّسخين طوال النّهار وقد أدّى هبوط الحرارة قبيل الغروب إلى انزلاق وجه الكثيب المنحدر بالكامل، ولكني تنبّهت متأخراً، دون أن أتمكن من التّحقّق من ملاحظتي، إلى أنّ طبيعة وحجم الصّوت لم تكن توحي بذلك، ولم يخطر لي أيضا أن أسأل أصحابي عن الأوقات الأخرى من النّهار التي يتكرّر فيها حدوث مثل هذه الظّاهرة، رغم أنه تبيّن لي من خلال إحدى الملاحظات التي أبداها أحدهم فيما بعد المتعلقة بالتّنبيه الليلي أنهم لا ينظرون إلى «الرّمال المغرّدة» على أنها ظاهرة غير طبيعية.

هنالك أنواع أخرى من أصوات الرّمال - رمال أم ضرطة - «أم الرّيح» - (الاسم قد يكون جامعاً) إلى الشّمال من أمّ الحيّات، حسبما قيل لي، فيها بقعة تصدر أزيزاً عندما تدوس فوقها الجمال. وأنا نفسي تملّكتني الدّهشة بعد شهر فوق رمال السّواحِب لدى سماعي لفرقعة حادة تحت خفّي ناقتي أشبه بسقوط رصاصة مستهلكة. كان صوتاً آنياً لم أسمعه مرة أخرى. أحد أبناء قبيلة بني مُرّة كان يسير بجانبي ممّن كان على دراية بهذه الظّاهرة، رغم ندرة وقوعها، لم يتمكن إلا من إعطاء تفسير واحد وهو أنها نتيجة

---

(1) كتب المؤلف: الاستخدام المعاصر لهذه الكلمة لا يتناسب مطلقاً مع الأصوات الشّجية لحوريات الأوديسة Odyssey.

عمل شـرير دُبّر في العالم العلوي من العوالم السّـبع السّـفلية. لكن لا علاقة مباشـرة لذلك بالعزيف المرتفع والمتواصل الذي سـمعناه، والذي وفق ما يقوله البدو يحدث فقط في المناطق ذات الكثبان الرّملية الكثيفة.

* * *

والآن وبعد يومين طويلين من السّير البطيء المجهد في شعيت Shu’ait كان علينا أن نلقي تحية الوداع على منازل خيامنا الجميلة الوادعة، رغم كونها قاحلة، المرتعشة مع الرّيح بين النّجد والصّحراء. في يوم الرّابع عشـر من ديسمبر استدرنا ناحية الشّمال الغربـي باتجاه أراضي الكثبـان الكبرى التي كانت أطرافها القريبـة ممتدة أمامنا باتجاه جنوب - غرب - جنوب، وكانت تشمخ أمامنا مجموعة الجبال الرّملية الحمراء.

غـدا الطريـق للتّوّ أكثـر صعوبة، واسـتدعى إلى ذاكرتـي تلك المعانـاة قبل عام في صحـراء مُقْشِـن على مسـافة مئتي ميـل تقريباً باتجاه شـرق - شـمال - شـرق، والتي جهـدتُ لاجتيازها بجمـال جبلية، وبعد يومين من المحاولات العبثيّة وجدت نفسـي مرغماً على التّقهقر.

تكشّـف سـحر وروعة أرض الكثبـان الرّملية هذه منذ الوهلـة الأولى عن محيط لا مُتناهٍ من الرّمال المتماوجة، التي تحوّلت على نحو مفاجئ إلى هضاب رمليّة متجهّمة تبزّ سـابقاتها ارتفاعاً هنا، ووديان رقيقة رؤوفـة بالجمال هناك، رغم افتقارها إلى عرق أخضـر واحـد على مدى البصر. كثبان من كل الأحجام يعوزها التّناسـق والانسـجام، ولكـن بالتّكـوّر السّـاحر لنهـد الفتاة العـذراء، كانت تتسـامى طبقة فوق أخرى، أشـبه بسلسلة جبلية عملاقة.

لم تفسـح أشـعة الشّـمس العمودية تقريباً المجال أمام تشـكل أيّة ظلال متباينة عند خط العرض المداري هذا، والانطباعات النّاتجة كانت سـهولاً ملساء وصفاءً آسراً في اللون. على نعومتها وصفائها، كما بدت عن بُعد، كانت هذه الرّمال في الحقيقة موشّاة بخطوط واهية براقة أشبه بتموّجات رقيقة فوق الشّاطئ، وما بدا عن بُعد أنه مساحة رائعة

مـن اللون الأحمر الصّافـي، تألّق عند دنوّنا منه بومضاتٍ خاطفـة من اللونين الأخضر والذّهبي. كان النّسـيم القادم من الشّـمال يمسـح في طريقه وجنة المنحدرات الخفيفة ليسـكب فوق حافتها العليا ذيلاً واهياً من الرّمال، مشكلا هناك مساحاتٍ منبسطة على امتـداد التّخـوم العُلويـة المُدابرة للرّيح. الانطباع الذي تشـكل لدينا عـن قرب هو أنها كانت تشـبه الخوذة الإغريقية لأبطال فلاكسـمان Flaxman Heroes، ولكن الحواف المتعرّجة للكثبان ظهرت عن بُعد وكأنها أسوار مدينة مشيّدة فوق تلة.

كانـت عشـيّة الميـلاد أمسـية ملؤها الفـرح والسّـرور. كنا قـد وصلنا إلـى المخيّم متأخرين بعض الشّـيء، حيث جرى عقل الجمال كالمعتاد وسـوقها نحو الشّـجيرات المتناثرة هنا وهناك، والتي تصاعدت من وراء بعضها الجلبة النّشيطة للرّجال الفرحين المتحلّقين حول نيران الخيام. وفجأة تناهت إلى سـمعنا صرخة قوية، بدت بالنّسبة لي أشـبه بنعيق بومـةٍ أو صرخة حيوان مألوم؛ لكنها ولّدت حالـة من الذّعر الفوري عمت أنحاء المخيم، الذي بات للتو في حالة من الاضطراب والتّحفّز.

وثـب البدو المنفعليـن من أماكنهم وبنادقهـم في أيديهم وهم يصرخـون: «الغزو! الغزو!»، وأقبل خادمي نحوي راكضاً يحمل إلى بندقيتي الوِنچِسـتَر وحزام الطّلقات. رفقاؤنـا ضامنـو حمايتنا من قبيلتي العوامـر والكَرب اندفعوا خارجـاً وهم يصرخون: «نحـن متيقظـون! نحن متيقظـون! أنا أبو فلان[1] مـن قبيلة كذا. هـؤلاء جماعتي وهم تحت حمايتي».

الهـدف من ذلك كان إنقاذنـا من الغزاة الذين كانوا من أبنـاء قبيلتهم بالذّات، إذا ما كانوا كذلك. يقال بأنّ مثل هذه الصّرخة لا ترَدُّ أبداً.

انتشـر باقـي الرّجال علـى عجل في كافـة الاتجاهات، رغم عـدم قدرتهم في عتمة

(1) كتب المؤلف: «أبو فلان». في جزيرة العرب يدعو الرّجل نفسه ويسمّيه الآخرون نسبة إلى أبوّته لاسم ابنه، وهو نوع من تشريف يرتبط بالأبوّة للذّكور. وفي الواقع، كان السّلطان تيمور بن فيصل سلطان مسقط يوقّع اسمه على وجه الإطلاق تقريباً: «أبو سعيد»، وكان ابنه «سيدي سعيد» ولي عهده المطلق.

الليل البهيم على التّواصل فيما بينهم، وبدا لي أنّ من السّهولة بمكان أن يبطش الرّجل بصديقه على أنه عدو.

انقضت ساعة من الزّمن من دون أن يتكرّر ذلك الصّوت، أو أيّ صوت على الإطلاق، رغم أنّ جماعتي كانوا بأية حال متيقّنين من حقيقة هذا الخطر الدّاهم، ورجالنا الشّجعان الذي هبّوا لمقارعة الدّخيل ظلوا منتشرين في الخارج للقيام بمهمّة الحراسة الليلية.

كنت في حالة يرثى لها من التّعب والإرهاق، وبالتّالي على تمام الاستعداد للاعتقاد بأن ذلك الإنذار الكاذب كان صادراً عن أحد الحيوانات المتوحشة وليس عن عدوّ، لذلك فقد تراجعتْ حالة الاستنفار لديَّ عما كانت عليه لدى بقيّة رفاقي. كان افتراضي صحيحاً. فقد أظهرت الآثار التي تم اكتشافها صباح اليوم التّالي مرور ذئب بالقرب من المكان، وقد تناهى عواؤه إلى أسماعنا وكأنه صرخة الإنذار التّقليدية التي يطلقها جماعة الغزو في أثناء استعدادهم للهجوم.

ينبغي لكافة الرّحالة والمسافرين عبر الصّحراء أن يكونوا على دراية تامة بتكتيكات الإغارة وأساليبها؛ الجماعة القادمة قد تكون صديقة، ولكن يجب دائماً الافتراض بأنها عدوّة. لو أن عواء ذلك الذئب شكّل إنذاراً حقيقياً لما كنا نتوجس منه خيفة، لتعامل رجالنا مع الحدث بإطلاق وابل من النّيران في الهواء في ذلك الاتجاه - وهو إجراء يقدّر له بأية حال من الأحوال أن يخفّف من حميّة أولئك الدّخلاء المفترضين ويطفئ جذوة حماسهم، ولبادر رفقاؤنا على الفور إلى التّعريف بأسمائهم وأسماء قبائلهم، مثلما فعل أصحابي من قبيلة الكَرب. كان بالإمكان التّعرّف إلى الصّيحة، لأنّ لكل قبيلة تقريباً صيحتها الخاصّة المميّزة. أحد الأصدقاء كان سيبادر إلى التّعريف بنفسه، وإذا ما اطمئن إلى حقيقة الوضع، كان ورفيقنا (ربيعنا) سيتقدّمان من بعضهما البعض من جهتين متقابلتين للتّعارف والسّماح بدخول الوافدين الجدد إلى داخل المخيم.

إذا ما تصادف والتقت جماعتان في أثناء النّهار، سيتقدّم الرّبيعان (الرّفيقان) من الجانبين كليهما لبضع مئات من الياردات للتّعريف والتّعرُّف، بينما يتوقّف الجمعان

كلاهما عن التّقدّم بشيء من القلق والتّوجس.

فـي حـال تبيّن للرّبيـع (الرّفيق) أنّ الجَمْـعَ القادم هم جمـعٌ مُعادٍ، يهـرع عائداً إلى أصحابـه، الذيـن سـيبادرون إلـى إطـلاق النّار من مسـافة بعيـدة. أو في حـال الظّهور المفاجـئ للعـدو المفترض، يعمـد الرّجال إلى إناخـة جمالهم والتّموضـع أمامها في أنسـاق منتظمـة، ثم المبـادرة إلى فتح النّـار على المهاجميـن. والهدف فـي الحالتين كلتيهما هو دبّ الذّعر في صفوف الجماعة المهاجمة وردّها على أعقابها.

الغلبـة فـي النّهاية سـتكون للجماعة الأقوى والأكثـر عدداً وعدّة، ونـادراً ما يكون الفِرار مجدياً بالنّسـبة للفريق الأضعف. إذا لم تتمكن الجماعة الغازية من تحقيق نصر مبين، يصار عندها إلى الدّخول فيما يشـبه حرب الاسـتنزاف، إلى أن تنفد ذخيرة أحد الفريقيـن، لأنّ قوانين الصّحراء تقضي بعدم الاستسـلام طالما بقـي في جعبة المقاوم رصاصة واحدة. ولكن في حال كانت أرجحية القوة للفريق المهاجم، فلن يكون هناك أيّ مجـال للّهـو أو المهادنة، وسـوف يعمدون إلـى الإجهاز علـى ضحاياهم من دون تأخير.

الاستسـلام لأول قـادم باتجاهـه هو الأمـُل الوحيد للمـرء بالنّجاة. «سـلّمني!» هو المُكافـئ العربـي لصرخـة «سـلام» Pax التي يطلقها تلميذ المدرسـة في أثنـاء اللّعب مـع رفاقه، كناية عن الاستسـلام والبندقية مرفوعة فوق الـرّأس أو ملقى بها جانباً. «في وجهي»، هو ردُّ المنتصر، إذا ما رغب في إبداء الرّأفة.

إذا مـا كان لـدى الأسـير المفترض سـببٌ وجيهٌ للقبول بشـروط جيدة للاستسـلام، قد يقول: «سلّمني!» مع بندقيتي[1] أو جَنبيّتي أو ناقتي؛ ولكن هذه مخاطرة نادراً ما يتم اللجوء إليها؛ لعلّ خصمه يقوم بتغطيته لقاء بندقية، وأفضل ما بوسعه توقعه هو إنقاذ حياته والعودة لأهله وذويه بأيدٍ خاوية. ولكن في حال تعرّض أحد المهاجمين للقتل، فلا بدّ لقانون الثّأر

---

(1) كتب المؤلف: وجدت كلمة «بندق» وجمعها «بنادق» كلمة شائعة بين أبناء الصّحراء، وهو ما يؤكد على ملاحظة يول Yule في كتابه هوبسون - جوبسون Hobson-Jobson بأنّ اللغة الهندوستانية تستمدّ العديد من مفرداتها من خلال اللغة العربية.

البـدوي أن يكـون هو الفيصـل، على مبدأ العين بالعين والسّـن بالسّـن. كذلك في حال لم يـادر المهاجم إلى الرّدّ على المستسـلم بعبارة «في وجهـي»، فليس له أن يتوقّع أيّة رحمة. وهكـذا، هنالك نوعان من جماعات الإغارة، جماعة ليس بينها وبين قبيلتك أيّة ثارات دم، وأخرى يوجد بينها وبين قبيلتك ثارات دم. كلاهما يريد إبلك وأسلحتك، والثّانية زوجتك أيضاً. «سـنري «وجهنا» لواحدٍ من بطني قبيلة صيْعَر، وليس للبطن الآخر - الله هو العليم بكل شيء» - قال لي خويتم ونحن سائرين في طريقنا.

كان الوقـت صبـاح عيـد الميـلاد عندمـا خلفنـا وراءنـا مخيّـم «الإنذار الـكاذب» (الواقع شـمال وادي أرمة[1] Wadi Urba) ويمّمنا شـطر ما تبين لي بأنه أعلى السّهول الصّحراويـة التـي عرفتهـا فـي أسـفاري وأكثرها اتسـاعاً، وهو سـهل عـروق الضَّحيّة Uruq-adh-Dhahiya.

فـي خلال السّـاعات الأربع الأولـى مررنا بسلسـلة متتابعة من الجبـال والجُروف والمسـالك الرّملية الضّيقـة، حيث كانت جمالنا - هذه الحيوانات المسـكينة - تجهد لتسـلّق ذرى هـذه الجبـال حتـى قممها المدبّبـة كرأس السّـكين، ومن ثـم تنحدر عبر مسالك ضيقة متعرّجة شديدة الانحدار ذات عمق يصل حتى مستوى الرّكبتين. كنّا من وقت لآخر نتلفّت وراءنا من شدّة الخوف ونحاول سلوك طريق أكثر أماناً، وقد ترجّل الجميع عن دوابهم لكشط الرّمال النّاعمة عن المسالك الجبلية الزّلقة براحات أيديهم العارية لتسـهيل صعود الجمال نحو القمم. كانت الرّمال كلما تقدّمنا في السّـير ترتفع حتـى مسـتوى الكعبين عند كل منحدر؛ وانتعـال الأحذية كان أمرا غيـر قابلٍ للنّقاش، وكذلـك كان ركوب الجمال في هذه المنحدرات الشّـديدة أمراً مزعجـاً ومتعباً للغاية ويتطلب منك الانحناء الدّائم فوق ظهر الدّابة، تارة فوق عجز النّاقة، وتارة فوق عنقها، فـي زوايا حـادّة. الأمر المزعـج والمقلق أيضاً هو النّظر أسـفل منحدر يمتـدّ لمئة قدم وأكثر حيث يتوجّب علينا العبور، ومع ذلك فقد اتخذت دوابنا المتثاقلة رابطة الجأش

(1) كتب المؤلف الاسم: وادي أربة، وهو غلط وصوابه وادي أرمة، الذي يقع إلى الجنوب من رملة ضحيّة، وإلى الغرب من خشم كوب.

وثابتة القدم مساراً عرضياً عبر وجوهها حيث كانت أقدامها تغوص في الرّمال مع كل خطوة حتى مستوى الرّكبة، ناشرة خلفها سحائب كثيفة من الغبار.

لا يمكن لأيّ جواد ربما أن يتعامل مع هذه المسالك الرّملية للصّحراء الجنوبية، حتى ولو جرى استقدامُهُ من هكذا أصقاع بعيدة عبر القفار والفيافي القاحلة للتّخوم الحدودية، والتي بالنّسبة للآليات، يعدّ اجتيازها ضرباً من المستحيل.

لكنّ عناءنا ونَصَبنا لم يذهب هكذا من دون مقابل. كانت هنالك أوقات كنا نمرّ فيها فجأةً على مشاهد في غاية البهاء والرّوعة، صرح تشكيلي عظيم ونبيل؛ صفاء لوني فريد؛ سماء وردية صافية؛ أوضوء متألق شفاف. يمكن مقارنة الإحساس الجميل بالأرض التي تسير فوقها والهواء العليل المنعش الذي تستنشقه بيوم شتويّ في سويسرا.

بعد تخطينا لمنظومة الكثبان الرّملية المسمّاة ترب بن يماني Thurub bin Imani والتي يقال بأنها تشكّل منتصف الطّريق بين مياه خور ضحية Khor Dhahiya العذبة وآبار بن حمودة Bin Hamuda الملحيّة ناحية الشّمال الشّرقي، بات الطّريق أكثر سهولة، كوننا غيّرنا مسارنا واتجهنا شمالاً عبر مساحات لا متناهية من الوديان الرّملية ذات الاتجاه الشّمالي الشّرقي هنا بين الكثبان العلاقة.

نوديَ على الرّكب للتوقّف والاستراحة قبيل المغيب.

«خور ضحيّة!» صاح أفراد جماعتي عندما أنخنا جمالنا. أسرعت نحو حافة التّلة المقابلة ونظرت متخفّياً إلى الأسفل نحو ذلك الوادي الرّملي العملاق الممتد شمال - شرق وجنوب - غرب، والذي كان هنا بعرض ميل تقريباً. في حوض الوادي، وعلى عمق حوالي ثلاثمئة قدم، حدّدنا هدفنا بواسطة رقعة خضراء، إنه مورد الماء الشّهير، حيث كان يفترض بالشّيخ صالح أن يلتقيني بفرقة جمال جديدة في رابع أيام القمر. اليوم كان الخامس، وهكذا كنت متأخراً ليوم واحد، ولكن لم ألحظ هنالك أيّ أثر لصالح ورجاله - لا شيء سوى المساحات الخالية الصّامتة.

لأغراض الحيطة والحذر توقفنا قبيل حلول الظّلام وسط أرض رعوية فقيرة بأعشابها، بينما توجّه اثنان من جماعتنا بِقِرَبهمْ ثم سلكا بشقّ الأنفس منعطفاً عريضاً ينحدر صوب الوادي لاستطلاع الأرض. راقبتُ من خلال منظاري أشكالهما المصغّرة عند ورد الماء، وتساءلت إن هنا هنالك أيّ عدو يتربّص بهما هناك. ولكن بعد تفحّص دقيق لكامل المنطقة عادا من دون أن يتعرّضا لأيّة منغّصات، في الوقت الذي وقفت فيه أترقب رجوعهما بالأخبار السّارة وأتأمل طيفيهما من خلال المنظار وهما يكبُران شيئاً فشيئاً كلما اقتربا أكثر أعلى المنحدر الرّملي، إلى أن غابت الشّمس وخيّم الظّلام فوق المكان. كانت الأخبارُ سارة وسيئة في آن معاً.

لم يسبق لصديق ولا عدوّ أن قدم للسّقاية من هذا المكان، والآثار التي خلفوها هم أنفسهم قبل شهرين، لا زالت على حالها؛ مبارك، رفيق الشّيخ صالح، سبق له زيارة المكان، ولكن بالأمس، والله أعلم! وكانوا بصدد إطلاعي على آثار أقدامه في الصّباح.

عشاء الميلاد خاصتي كان يتألف من حساءٍ مجفّف معدّ بمياه خور ضحيّة، الذي لم يكن بحاجة لأيّ ملح أو فلفل، وإحدى علب الفاصولياء المطبوخة التي كنت أحملها معي للمناسبات الخاصة – طعامٌ احتفاليٌّ بعد تسع ساعات مُجهدة من المسير من دون طعام حقيقي يسد الرّمق. وجبة منتصف النّهار كانت نوعاً من التّرف لم أسمح لنفسي باقترافه قط. كان من غير الوارد على الإطلاق الدّعوة إلى التّوقف لأخذ قسط طويل من الرّاحة وقت الظّهيرة، لأنّ العُرف المتبع للحياة في عمق الصّحراء القاحلة يقتضي التّنقل السّريع من مرعى لآخر. عوضاً عن ذلك، كنت أحمل معي قارورة من حليب النّوق وحصّة يومية من أقراص الحليب المجفّف، ومحطّات التّوقف القصيرة لرعي الجمال أو لتمكين الأصحاب من أداء الصّلاة، كانت تمنحني الفرصة لإرواء ظمأي.

معظم محطات التّوقف في الصّحراء تتم عادة وبشكل محقّ لصالح الجمال. هذه البهائم المسكينة، التي يستفتح المسافر انطلاقته بزجرها وازدرائها، ثم يتعلّم كيفية

الإعجاب الشّديد بها، هي وسيلة النّقل التي تقلّه نحو الفوز أو توصله إلى برّ السّلامة. فـي الفيافي والقفـار النّائية إذا ما نفق الجمل، فإنّ صاحبه يلحـق به. الاحترام والتّقدير الكبيـر الـذي كان أصحابي من دون استثناء يكنّونـه لجمالهم كان جديـراً بالاهتمام. غالباً ما كنت أجد بأنّي الوحيد من بين الأصحاب الذي لا يزال معتلياً ظهر ناقته، بينما الجميع يمشـي لسـاعات طوال لإراحة مطاياهم، ويركضون يمنة ويسـرة لجمع بعض النّباتات الشّوكية الرّيانة لإطعامها لجمالهم في أثناء المسير.

كانت جمالنا منهوكة القوى. وكانت لأسـنامها الكبيرة والممتلئة في البداية، حكاية ترويهـا. فالسّـنام هـو المقياس الذي ينبـئ بحالة الجمل، وأسـنام جمالنـا قد ضمرت وهزلت بصورة مزرية. كان هذا شيئاً متوقعاً بعد ثمانية أيام من السّير المضني والأحمال المُجهدة عبر صحارى التّخوم الجنوبية القاحلة وعديمة المياه.

استيقظنا مبكرين في صباح اليوم التّالي وساق البدو جمالهم أسفل المنحدر بأكبر قدر ممكن من الحذر والتّأنّي وهم يردّدون بفرح الأهازيج التّقليدية التي تبشّـر بالعثور علـى الماء الذي كانت البهائـم الظّمأى بأمسّ الحاجة إليـه، وبإيقاعات وأوزان كانت الحيوانـات تفهمهـا بـكل تأكيد. ذهبتُ سـيراً علـى الأقـدام، متجنّباً مسـالك الجمال الخطرة أسـفل المنحدرات الزّلقة، ومتجنباً أيضاً مشهد تلك الجمال وهي تدفع للقيام بحركات بهلوانية في أثناء سيرها وهي تحمل أجهزة الكرونومتر الثّمينة فوق ظهورها. عندما وصلت أسـفل الوادي، كانت عملية السّـقاية قد بدأت وسط صخب وصيحات الفـرح والسّـرور التي يندر سـماعها في أوقات أخـرى. كانت فوهة البئـر التي لا يزيد قطرهـا عـن ياردة واحدة محاطة بإطريف من الطّين الأصفـر حديث العهد، وقد جرى رمـي المخلفـات من قبل أحد البدو الذي عمد كالعادة في مسـتهلّ العملية إلى النّزول إلـى داخل البئر لتنظيفها من الشّـوائب والنّفايات. عندما نظرت أسـفل البئر شـاهدت بدويـاً آخـر يقف هنـاك والماء يصـل حتى ركبتيه وهو يقـوم بملء دلاء المـاء الجلدية التـي يصار إلـى إنزالها إليـه. كان أحد الكَربيين (مـن أبناء قبيلة الكَـرب) بالقرب مني يمسك بالدِّلاء الواحـد تلو الآخر ويدنيها من شـفتي ناقته الظّمأى، مُهامسـاً إياها بين

الفينة والأخرى، إلى أن يشير رأسُها المرتفع وبطنها الممتلئ إلى اكتفائها، حيث تبدأ برشق الماء المتبقي بمرح على عنقها أو تلقي بالدّلو في الهواء لتعود وتلتقطه بعد أن يسقط على الأرض[1].

ولكن أين كان الشّيخ صالح وجمالي المنتظرة؟ قضيت يوماً قلقاً وأنا أتساءل عن هذا الأمر، رغم أنّ كلفوت ابن الشّيخ صالح[2]، كان جاهزاً لتقديم تفسيراته ومبرّراته. قال لنا بأنّ خور ضحية منطقة خطرة رديئة السّمعة، تؤمّها وتستخدمها على الدّوام عصابات قبيلة صيْعَر وغيرهم من جماعات الغزو وقطّاع الطّرق من حضرموت، ولم تكن فيها أيّة مراعٍ، كما تبينت بنفسي.

كان الوقت بعيد العصر عندما غادرنا مورد الماء. أدركتنا الشّمس فوق نجد رملي مرتفع غني بالأزهار والرّياحين، مراعٍ دسمة بكل ما تعني الكلمة، وقيل بأنّ أمامنا ما هو حتى أفضل منها. لا بدّ أنّ الشّيخ صالح سيكون هناك. وهكذا كانت انطلاقتنا صباحية مبكرة. قامت المجموعة بمسح المنطقة بحثاً عن أيّة آثار تدلّ عليه، وسرعان ما شرعت الحناجر الآن تلهج بالشّكر لله. شاركتُهم هذا الشّكرَ النّابعَ من أعماق قلوبهم، لأنّ من بين الآثار التي كان قد تم اقتفاؤها والتّعرف إليها آثار أقدام حَمَد بن هادي[3]، ابن قبيلة مُرّة الذي كان صالح قد أتى على ذكره كرجل كفؤ للاضطلاع بمهامي، لو أمكن إقناعُه بالعمل كدليل ورفيق (ربيع). كانت هنالك آثار للعديد من الجمال الأخرى، عشرون جملاً آخر - ما يشجع على الاكتشاف - لأنّ جمالنا المرهقة من جراء إرغامها على القيام برحلة ذهاب وعودة إلى ظُفار، لم تكن لتقوى على المضيّ في رحلتها لثلاثة أيام أخرى تحت هذه الأحمال الثّقيلة من دون راحة.

---

(1) كتب المؤلف: لقد سمعت بأن الجبس المحلي يستخدم لبناء أحواض لشرب الحيوانات صيفاً حول هذه الموارد المائية.

(2) هو ابن دليله الشّيخ صالح بن كلّوت الرّاشدي الكثيري، شيخ الرّواشد. وعلى امتداد هذا الكتاب يذكر برترام توماس ابن الشّيخ بصورة مغلوطة: كلثوت Kilthut والصّواب كلفوت. وقد خلف أباه في مشيخة القبيلة، وتوفي إلى رحمة الله عام 1963.

(3) هو العقيد الأمير حَمَد بن هادي آل جلاب العويري الغُفراني المرّي.

«انظر يا صاحِب! هـاك كذا وكذا»، قال رجالي وهم يشـيرون إلى أثـرٍ لقدم، بدت لـي كأيّ قدم أخرى. هذه ناقته؛ كان يقودها. مرّت من هنا ومعها فصيلها. أنظر كم هي عميقة آثار أقدامها». دهشت لدقة وصف جماعتي لأولئك الذين هم أمامنا، والسّهولة المذهلـة التـي فكوا بها شـيفرة آثار الأقـدام التي اقتفيناهـا، والتي تبـدو تقنية بصمات الأصابع المعتمدة في الغرب بالمقارنة معها عملية تقنية بطيئة مُجهدة.

الرّمـال هـي عبـارة عن سـجلّ عام، بوسـع مـن يديـره أن يجيـد قراءتـه، لأن كافّة المخلوقات تسـير عارية الأقدام. كل واحد من أصحابي لـم يكن يتعرّف بنظرة خاطفة إلـى آثـار كل جمل وكل رجل في قافلتي وحسـب، وإنّما إلى أولئـك الغائبين من أبناء قبيلته أيضاً، وعدد غير قليل من أعدائه. لا يمكن لطائر أن يحطّ أو وحش أو حشـرة أن تمرّ دون أن تخلّف وراءها سـجلاً عنها في الرّمال، ويبقى هذا السّـجل قائماً ما دامت الرّيح ساكنة. و

إنّ الأفاعي والأرانب وثعالب الرّمال والعديد من السّـحالي تُعزى أسـباب هلاكها لذاك الأثر الذي تخلّفه وراءها؛ لقد كانت جحورها بلا طائل.

والآن أصبحـت الرّمال التي تحمل الآثـار الواهية للأصدقاء المُعَرَّفين دليلنا إليهم، وقادتنا بمعطيات صحيحة إلى مسـارنا القديم وفق إحداثية شـمالية شـرقية عبر أرض رملية وعرة، حيث بدأ مقياس الارتفاع بالانخفاض بشـكل مطّرد. وعندما أشرفنا على قمـم الهضـاب الرّملية بدأتُ أستكشـفُ بلهفة كل أفـق جديد بحثاً عن مخيم سـهيل. وفجأة تناهى إلى سمعي أصوات لغو وثرثرة مرحة غير مفهومة مع اكتشافنا لبقع سوداء أمامنا تبيّن لنا أنها ضالّتنا المنشودة. إنه مشهدٌ أكثرُ من مرحَّبٍ به! لأنّ قوّتنا المتضافرة الآن سـتزيل توتّر المراحل الأخيرة القلقة من المسـير، وآمل أن الوسـائل باتت متوفرة لدينا للمضيّ قُدماً في مسيرنا إلى قلب الصّحراء.

* * *



تُخم في الرّمال الجنوبيّة



وقفة للرّعي في الأراضي الحدوديّة الجنوبيّة المجدبة



ابن الرّمال

الفصل الرّابع عشر

لمحة جغرافية حول الرّبع الخالي

لعلّ من المناسب هنا على حساب التّوغُّل لبضع صفحات في سردنا التّوثيقي، حيث يغادرُ مساري الحدودَ الخارجية للصّحراء، أن أحيل القارئ لخارطتي لتكوين فكرة موجزة عن هذه الصّحارى والشّكل المفترض للرّبع الخالي.

إنّ مجمل منطقة جنوب شرق جزيرة العرب الواقعة بين خط الطّول 48° 00 شمال خط العرض الخيالي العشرين الموازي لخط الاستواء، وخط الطّول 46° 00 إلى الجنوب منه، يشكّل، باستثناء حزام ساحليّ ضيق، ما يسمّى على خارطتنا بـ«الرّبع الخالي»، الكلمات العربية التي تعني بالإنكليزية the Empty Quater. وهو بالضّبط اسم على مسمّى، وهي تسمية مألوفة بالنّسبة لبقية المثقفين العرب الذي تلقّوا معارفهم الجغرافية من الكتب المدرسية. لكن القبائل التي تعيش في الرّبع الخالي لا تستخدم هذه التّسمية ولا تفقه معناها في سياق مدلولها الجغرافي.

يتألف الرّبع الخالي من صحراء، الأجزاء الشّرقية والجنوبية منها والتي تشكّل ما يصل حتى ثلث المساحة الإجمالية تقريباً، هي عبارة عن سهول عشبية؛ أمّا المساحة الباقية فهي عبارة عن محيط من الرّمال الممتدة ناحية الشّمال والغرب. السّهل الجنوبي يعرف بـ النّجد Nejd، والسّهل الشّرقي يعرف بـ السّيح Sih في الشّمال وجدّة الحراسيس Jaddat Harasis في الجنوب؛ المنطقة الرّملية تعرف بـ الرّمل أو الرّمال. والقبائل بمعظمها محلّية وبالنّسبة لها هنالك مناطق معيّنة في الأرض الصّحراوية والسّهول العشبية لها أسماء خاصة بكل منها. ومنطقة السّهل العشبي تشتق اسمها أحيانا من اسم القبيلة التي تقطنها، ولكن

الغالب أن تكون التّسمية مشتقة من اسم الوادي[1].

سبق وبيّنت أنّ الطّرف أو الحافة الجنوبيّة للصّحراء التي سرتُ بحذائها في خلال رحلتيَّ الأخيرتين لمسافة مئتي ميل تقريباً، تمتدّ باتجاه موازٍ للسّاحل الجنوبي لجزيرة العرب، من مُقْشِن حتى شمال حضرموت، وتتحدّر من الجنوب إلى الشّمال ومن الغرب إلى الشّرق.

الحافة الشّرقية للصّحراء تمتدّ باتجاه الشّمال والشّمال الشّرقي من مُقْشِن، على مسيرة أربعة أيام لقرن السَّحمَة Qarn as Sahama، ثم تنعطف شمالاً لتتبع تقريباً خط الطّول 55° ′40 مارّة بذلك ضمن مسيرة يوم إلى غرب عبري Ibri لتحاذي الجانب الغربي من جبل حفيت Jabal Hafit وتمتدّ من هناك على شكل مهماز لتقطع شبه الجزيرة العُمانية.

ضمن حدود الصّحراء يقال بأنّ سلسلة جبال عروق الضّحية الكلسيّة تشكل سلسلة عملاقة على شكل حدوة حصان، قاعدتها مرتكزة إلى التّخوم الوسطى الجنوبية في منطقة أم غريب، خرخير، عروق الضّحية، منيور، ورقعات. ذراعها الغربي يتبع تقريباً خط الطّول 49° حتى خط العرض 20° شمالاً، متماهية مع مناطق القماعيّات، الحوايا، والشّويكلة، وذراعها الشّرقي يتبع خط الطّول 53° حتى تقريباً خط العرض 22° ′30 شمالاً، متماهية مع عروق مجورة Uruq Mijura، طمَيْشَا Tamaisha، شيبة Shaiba، ومريخة Maraikha.

ضمن حدوة الحصان هذه لن تجد سوى قبائل هي أساساً من سكان الصّحراء الكبرى، أي (i) قبيلة بني مرة القادمة من ناحية الشّمال الغربي؛ (ii) قبيلتا الرّاشدي وبيت يَماني، من بطون قبيلة كثير، القادمة ناحية الجنوب الأوسط؛ (iii) قبيلتا العوامر والمناصير[2] (بدرجة أكثر محدودية) القادمة من ناحية الشّمال الشّرقي.

---

(1) كتب المؤلف: كلمة وادي، أي الوادي المتعارف عليه، أو هنا مجرى النّهر الجاف، لا تستخدم من قبل هؤلاء البدو كثيراً بمدلولها الطّبوغرافي، وإنما للدّلالة على أرض المراعي. الوادي الكبير (هنالك أثر بربري قديم في نهر الوادي الكبير Guadalquivir الإسباني)، تعني باللسان المحلي أرض المراعي الخصبة، وليس بالضّرورة وادي كبير الحجم، أو نهر.

(2) المناصير من القبائل التي تسكن الإمارات وخاصّة مدينة العين وما جاورها وترعى في مناطق

خـارج إطـار حـدوة الحصان هـذه، وبينها وبين السّـهل العشـبي، هنالـك الحدود الصّحراوية التي تستخدم بشكل موسمي من قبل بعض بطون قبائل السّهل العشبي.

وهـذه القبائـل هي في الشّـرق: قبائـل البوشـامِس[1]، الـدّروع[2]، الجراسـيس[3]، وعفـار[4]. وفي الجنوب: قبائل بيت كثير[5]، المناهيل[6]، العوامر[7] (عناصر جنوبية)، وصيْعَر[8] والكَرب[9]، لكنها بمجموعها تبقى ضمن مسافة أمان عن موارد مياهها[10].

إنّ قراءات مستوى الارتفاع التي جرى تدوينها في خلال مسيراتي الأربعة التي تغطّي

الربع الخالي، مثل رمال الرّبض والغربانيات وغنيم، ويتعمقون أحياناً في الرّبع الخالي علي أطراف الحباك والدّكاكة.

(1) البوشامِس من القبائل التي تعيش في الإمارات وأصولها ترجع للقبائل الأزدية القحطانية، وهي تسكن في الغالب ما بين منطقه ليوا إلى الظّفرة إلى رمال الرّبض.

(2) الدّروع من القبائل الأزديّة القحطانية، تسكن منطقة أودية العميري والأسود ويقربون من صحراء أم السّميم بين عُمان والإمارات ولهم إبل اشتهرت بالدّرعيّة نسبة لهم.

(3) الحراسيس قبيلة أزديّة قحطانية تسكن الزّاوية الجنوبية الشّرقية من اطراف الرّبع الخالي، ويرعون بها أحياناً ولهم المنطقه المعروفة بجدّة الحراسيس.

(4) العفار من القبائل الحميريّة القحطانية التي تسكن أطراف الرّبع الخالي بين المَهرة وحضرموت وأودية أم السّميم ورملة الغافة بجهة الإمارات، ويرعون في مناطق شاسعة في الرّبع الخالي.

(5) قبيلة بيت كثير أحد فروع قبيلة آل كثير الهمدانية القحطانية، وهم يسكنون جبال ظفار والقَرا ويرعون في مناطق الرّبع الخالي مثل غنيم.

(6) المناهيل قبيلة من بني ضنة القحطانية من جهه الغرب، تتجوّل ما بين السّعودية واليمن وعُمان، ويرعون في رمال الرّبع الخالي.

(7) العوامر قبيله كثيرية همدانية قحطانية، وهم يسكنون المناطق الشّمالية الغربية من الرّبع الخالي من عُمان على أطراف الرّمال من جهة عروق الشّيبة وما جاورها، ويعتبرون أحلافاً لقبيلة الرّواشد.

(8) الصّيعَر قبيلة من كندة القحطانية المعروفة بأطراف الرّبع الخالي الجنوبية ما بين حضرموت وشَرورة، ويملكون إبلاً طيبة حمراء تسمّى الصّيعرية، ويرعون في أماكن واسعة من الرّبع الخالي الجنوبي.

(9) الكَرب قبيله فرع من بلعبيد الحميرية القحطانية في أطراف الرّبع الخالي الجنوبية شبوة رملة السّبعتين، ويوجدون في منطقه الوديعة وشَرورة حالياً.

(10) كتب المؤلف: هناك جزيرة معزولة من الرّمال إلى الشّرق في مثلّث جعلان، وهي موطن قبيلة آل وهيبة Yal Wahiba.

بمجموعها حوالي ألفي ميل في الشّمال والجنوب الشّرقي والجنوب الأوسط ووسط الرّبع الخالي، إلى جانب الاتجاه المدوّن لمجاري الأنهار (إما الموثقة بالمشاهدة أو المستقاة من تقارير العرب) تقدّم المعطيات لإنشاء المنحدر التّضاريسي لهذا الجزء من قارة جزيرة العرب.

إنّ التّكوين الطّبوغرافي (التّضاريس) العام لجزيرة العرب الذي ينهض بشكل مفاجئ على الجانب الغربي من منطقة البحر الأحمر والبحر الميت، ويشكّل منحدرات تتدرّج في تحدّرها شرقاً حتى سهول العراق ومياه الخليج العربي، لا يمتدّ عبر منطقة الرّبع الخالي. هنا تنهض كتلة الأرض بحدّة من ثلاث جهات: جهة الشّمال الشّرقي، سلسلة جبال الحاجر Hajar العُمانية؛ في الجنوب الأوسط، سلسلة ظُفار؛ وفي الجنوب الغربي، جبال حضرموت ونَجران. والمستويات المنخفضة من هذه الكتلة الأرضية تشكّل الخليج العربي وسواحل بحر العرب على الجهة الجنوبية الشّرقية من الصّحراء. وهكذا يبدو واضحاً تحدّر الصّحراء نحو الخليج العربي من ثلاث جهات، كذلك لا بدّ من وجود منخفض في وسط الجنوب الشّرقي.

ارتفاعات الحافة الشّرقية من الصّحراء التي جرى تحديدها آنفاً هي كما يلي: عند أنف الجبل الشّمالي الذي اجتزتُه عام 1926 كانت القراءة 1200 قدم. إلى الغرب من جبل حفيت كانت حوالي 1000 قدم. السّير پرسي كوكس Percy Cox حدّد ارتفاع عبري Ibri بـ 1600 قدم، وبذلك لا بدّ لحافة الصّحراء عند خط العرض ذاك، مع أخذ تحدّرها الجنوبي الغربي المسمّى وادي العين بعين الاعتبار، أن تكون أكثر انخفاضاً بكثير. وارتفاع الصّحراء عند مُقْشِن كان بحدود 400 قدم. من هنا يمكن الاستنتاج بأنّ الحافة الشّرقية للصّحراء تتدرج في انحدارها من الشّمال إلى الجنوب.

إلى الشّرق من هذه الحافة الشّرقية الطّويلة من الصّحراء هنالك سهل عشبي ينهض ببطيء باتجاه الشّمال الشّرقي حتى سلسلة جبال الحاجر العُمانية العظمى التي تخرج منها أنهار العين، الأسود، الأميري، والمسلّم في مجارٍ تمتد متوازية تقريباً نحو الجنوب الغربي، إلى أن تتلاشى عند التّخوم الشّرقية للصّحراء. وإلى الجنوب الشّرقي

من مُقْشِـن هنالك سـهل عشـبي آخر ليسـت له أيّة تحدّرات واضحة، ولكن يقال بأنه مُحَـدود من جهته الشّـمالية الشّـرقية بحافة جبل حقـاف Jabal Hugf المعزولة، ومن جهته الجنوبية الشّـرقية تتحدر أنهار قـادان Qadan (غدون؟) وورنب وهيتم (اجتزت المنابع عند مسـتوى سـطح البحر عام 1928) باتجاه جنوب شـرق نحو خليج صوقرة Sauqira Bay.

من جهتها الجنوبية الغربية تتلقّى جدّة الحراسـيس Jaddat Harasis منظومة وادي عـارة Wadi ʿAra النّهريـة التي تشـكل منظومـة التّصريـف المائي الدّاخليـة للامتداد الشّـمالي لجبل سـمحان. عند النّقطة التي اجتزته بها عند منابعه في رحلة سابقة كانت مجـاري الأنهـار تجـري من الشّـمال إلى الشّـرق وقـراءات مقياس الارتفاع سـجّلت بين 1100 قدم شـرقاً و 1400 قدم غرباً. إلى الشّـرق من جبل حقاف الأنهار الرّئيسـية المعروفـة، حلفين وعندام، تبتعد عن سلسـلة جبال الحاجـر العُمانية وتتجه جنوباً إلى أن تصبّ في خليج مصيرة Gulf of Masira.

بهـذا يكون هنالك مسـاحة منخفضة من الأرض عند الطّرف الجنوبي الشّـرقي من الصّحراء الكبرى تشـكّل دهليزاً جغرافياً باتجاه جنوب شـرق ويمتدّ من ساحل خليج صوقرة عبر جدّة الحراسيس ومنها نحو الصّحراء، على خط طول 54° شرقاً حتى 55° شـرقاً ومـن خط عرض 20° شـمالاً حتى 22° شـمالاً. ضمن هـذا المنخفض يرتفع الماء حتى مستوى سطح الأرض عند مُقْشِن وحميدان Hamaidan. وإلى الشّمال من هذا الدّهليز يتجه التّحدّر العام صعوداً نحو الشّـمال والشّرق، وينهض جنوب الدّهليز نحو الجنوب والغرب.

والعنصـر المتميّـز جداً علـى الصّعيد الجغرافي هـو وجود الرّمـال المتحركة على الجانب الشّمالي من هذا الدّهليز، حيث يلتقي بالرّمال Ar Rimal.

تقع أم السّـميم Umm as Samim، كما تسـمى المنطقة، على مسيرة يومين في كل الاتجاهات. في ظاهرها هي عبارة عن سـهل ملحي منبسـط قد يغفل الرّحالة الجاهل بمعالـم المنطقة عن سـبخاته ومسـتنقعاته الغـدّارة. العديد من النّـاس هلكوا هنا، ولا

أحد سوى عشائر الدّروع Daru البدوية التي تأتي لجمع الملح عند تخومه يجرؤ على التّوغُّل في مسالكه السّرية، وقطّاع الطّرق، كما هو متوقع، يجدون في هذه الأماكن مجالاً رحباً لإقامتهم وتحركاتهم.

فون ڤريدِه Von Wrede، العسكري الباڤاري الشّهير، الذي توغّل عام 1843 داخل قفار وفيافي حضرموت متنكراً بزي إسلامي، يسجل ظاهرة مشابهة في مكان يدعى «بحر السّافي»، حيث توجه نحو إحدى البقع البيضاء مسلحاً بخيط شاقولي -plumb line لقياس الأعماق بطول ستة قامات. «بأقصى درجات الحرص والتّأنّي دنوت من الحافة لتفحّص الرّمال التي وجدتُها أشبه بذرور البودرة، ثم ألقيت بالخيط الشّاقولي إلى أقصى ما أستطيع؛ غاص الخيط الشّاقولي على الفور بسرعة متناقصة، وفي غضون خمس دقائق كان طرف الخيط قد غاب نهائياً في غياهب قبرَ رملي يبتلع كل شيء».

في الوقت الذي لا أريد فيه أن أدحض مصداقية فون ڤريدِه، ينبغي لي أن أنوّه بأنّ معظم رفاق رحلاتي سبق لهم أن توغلوا داخل الرّمال إلى الشّمال من حضرموت، في الحقيقة، فإنّ الرّفقاء ضامني الحماية من قبيلة الكَرب هم من هناك، لكن أحداً منهم لم يسمع بـ «بحر السّافي»، وجميعهم أكّدوا بأنّ الرّمال المتحركة التي سبق وصفها لا وجود لها اليوم إلا في أم السّميم، بين الصّحراء والسّهل العشبي إلى الشّمال والشّرق من مُقْشِن وجنوب غرب عبري. والعديد من البدو العُمانيين وغيرهم حدّثوني عن رمال أم السّميم المتحركة.





في سلاسل الكثبان



بقعة جيريّة (طعوس) في الرّمال الجنوبيّة



استقاء الماء في خور ضحيّة

الفصل الخامس عشر

عبر صحراء الدّكاكة

المحطة الثّانية للجمال

«حيّا بوصولكم صاحِب!

مرحبا وحيّا بكم!»

تلك كانت تحيّة الصّحراء من الشّيخ صالح، إذ عدوتُ متلهّفاً باتجاه المضارب الجديدة، متجاوزاً رفاق رحلتي إليه، ثم أنختُ النّاقة (القرينية) وقفزت لأشدّ على يد الشّيخ صالح. لم يكن الشّيخ صالح بمفرده، بل كان بصحبة رجل أعرفه، وهو محمّد، ذلك العجوز البدين الذي رافقني في رحلتي العام المنصرم. أما باقي البدو الغرباء، بوجوههم التي لفحتها شمس الصّحراء، وكوتها رمالها، فاكتفوا بالنّظر إليّ من بعيد بفتور لا يبعث على الارتياح، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء التّرحيب بي، فسألت نفسي: «ترى هل هذه نهاية رحلتي؟»، «ألن يُسمح لي بمواصلة أسفاري؟».

لكن ما إن أخذ رفاقي في السّفر يترجّلون ويتوافدون للمصافحة والتّحيّة، حتى انفرجت أساريرهم وهبّوا للتّرحيب بعودة أبناء جلدتهم بقبلة الأنف، وفق عادة البدو. إنّ قبلة الأنف[1] هي صورة مخفّفة عن قبلة المتحابّين، وتتكوّن من ثلاث لمسات

(1) كتب المؤلف: تعدّ قبلة الأنف بديلاً عن المصافحة بالنّسبة لبدو الصّحراء. تجب المصافحة عند قبيلة بن كثير الذين يعيشون عند سفوح الجبال، عقب افتراق لا يقلّ عن خمسة إلى ستة أيام إلا فيما ندر. أمّا هنا في صحراء البدو، فالتحية واجبة، بالأسلوب الذي ذكرتها أنفا وإن دام الافتراق ليوم واحد فقط. أما عن المَهْرة، قاطني السّهل الواسع، فعلى الرّغم من أنها قبيلة بدوية، فإنها تتفرد بالقبلة الثّلاثية على الوجنة اليمنى فاليسرى فاليمنى.

للأنـوف: تارة من اليسـار لليمين، من اليمين لليسـار، ثم ضغطـة خفيفة على منتصف الأنف، في حين يضع كل طرف يده اليمنى على الكتف الأيمن للآخر.

مـا إن جلـس العرب القرفصاء في شـبه دائرة حتى أمرتُ بتقديـم ثلاثة قصعات من التّمر وأقداح القهوة. استرسل البدو الغرباء في التّحديق بي بصمت، ثم انبروا يتهامسون مع رفاقي في السّـفر الجالسـين على يمينهم ويسـارهم وهم يتأمّلونني من رأسي حتى أخمص قدمَي. لقد أدهشـني اكتشـافُ أنّ العُرف الأزلي الذي يقضي بامتناع المضيف عـن تنـاول الطّعام مع الضّيوف يطبّـق في صحراء الرّبع الخالي أيضـاً، فقد امتنع رفاقُ سـفري عن تنـاول القهوة والتّمر، في أول الأمر، على الرّغـم من إصرارهم على تناول الفوالة[1] (القهوة) طوال رحلتنا. وتماشـياً مع هذا العُرف، فقد تناول رفاقي في السّـفر النّـذر القليل من الطّعام، بينما اسـتأثر الغرباء بحصّة الأسـد منـه، إذ غاصوا بأصابعهم فـي طبق واحد، في حين صاح رفاقي في السّـفر قائليـن: «مرحبا وأهلاً يا حيّكم». حلَّ الشّـيخ سـيف حزامَ ذخيرته وألقى به في منتصف الدّائرة التي تحلّق البدو حولها. كان ذلك الرّجل الشّـيخ الشّـرعي للقبيلة نسـباً[2]، ولكنه كان أبترَ؛ لذلك فقد حلّ آل كليت محـل قبيلته في السّـيادة. وعلى الرّغم من عدم انحدار هذه العائلة من نسـب الشّـيوخ الذّكـور، فإنهـا كانت تتّسـم بالجسـارة والحزم والنّفـوذ. لقد كان إلقاء سـيف العجوز بحزام الذّخيرة داخل دائرة البدو الجالسين القرفصاء بمثابة إشارة البدء لرفاق سفري،

---

(1) علينا أن نوضح أنّ الفوالة لا تعني القهوة تحديداً كما كتب المؤلف، بل هي في لهجة عُمان والإمارات تعني وجبة طعام خفيفة تقدّم للضيف، فإذا حضر ضيف بصورة مفاجئة قدّم له صاحب المنزل ما تيسّر وجوده من الطعام في المنزل في تلك الساعة، ويقال له معتذراً: (هذا الفال وقافية العقال)، ومعنى ذلك: أن هذه (الفواله) وما يعقبها هو الكرامة لك. أي هذا قليل بحقك، لان كرامتك ومنزلتك تستوجب تهيئة ذبيحة ومائدة عامرة لك. بينما في أيام رمضان المقصود بالفواله وجبة الافطار الرئيسية، حيث يسدّ الصّائم رمقه بالقليل من الطعام كالتّمر واللّبن مثلاً، وذلك عند سماعه صوت المؤذن، فإذا صلى وانتهى قام إلى مائدة (الفوالة) التي تعجّ بما لذّ وطاب من الطعام.

(2) كتب المؤلف: لو نظرنا إلى بيت يَماني بمعزل عن آل الرّاشد، خاصة وأنهم قد استقلوا عنهم الآن، فإنّ القبيلة تتكون من بطن المقاربة والسّعادنة التي يترأسها الشّيخ سيف.

فقام واحد تلو الأخر بإلقاء حزام ذخيرته إكراماً لمقام الشّيخ الفخري. وقد كان الدّافع لهـذا التّصرّف السّـخي هو أنهم قد تلقوا بضعة أحزمة ذخيـرة لقاء قيامهم بالصّيد على السّاحل وطوال طريق السّفر. وهكذا أصبح لدي الشّيخ سيف عشرة أحزمة ذخيرة. لم يخيّب الشّيخ صالح ظنوني، فقد تقدّم نحوي ويده بيد رجل يبدو أنّه ذو مكانة مرموقة، ثم خاطبني قائلا: «هذا هو الشّيخ يا صاحِب! شيخ المَهْرة». لطالما كان رفع المرء من شأن أصحابه ومقامهم جزءاً لا يتجزأ من البيئة الصّحراوية، ولو جاوز ذلك الحقيقة.

ثم أردف الشّيخ صالح قائلاً: «لن تجد دليلاً (مرشداً) ولا مقاتلا أكثر شجاعة، ولا صيّـاداً أكثر حنكة ومهارة وإخلاصاً من حَمَد بن هادي في كل الصّحراء[1]، والله على مـا أقول شـهيد؛ ولو لـم يكن أخـي متزوجاً من ابنته لما وافق علـى أن يكون دليلك في رحلتـك؛ فلا يوجد أحد يعرف خبايا المراعي وعيون الماء مثله». لقد كان حَمَد رجلاً متوسط الحجم، ذا بشرة داكنة وعينين سوداوين ماكرتين ووجه قوقازي الملامح ولحية كثّة؛ كما أنه كان يتحدّث بسـرعة لافتة تنمّ عن نشـاط وحيوية يفتقر إليها صالح. بيد أن هذا الأخير كان يبدو لأول وهلة أهلاً للثقة، على العكس من حَمَد. إنّ ساكن الصّحراء كالطّفـل أو الكائـن الذي يتطلّب المعاملة بأناةٍ وحرص شـديدين. إنّ حَمَد الذي لم يرَ في حياته رجلاً أبيض ذا لسان أعجمي، لا بدّ أن تساوره الشّكوك والمخاوف تجاهي. لذلك فقد رأيت أن أفضل السّبل للوصول لغايتي هي التّروّي. ومن هذا المنطلق، فقد كرّست لقاءنا الأول لتناول أقداح القهوة وتجاذب أطراف الحديث الودّي عن الصّيد، وسـرت على نفس النّهج في لقائنا الثّاني الذي سـار لصالحي، خاصّة وأنني قد توّجته بإهداء ابنه غطاءً للرّأس.

وفي اليوم التّالي، سألني الشّيخ صالح: «ما رأيك في حَمَد؟» فأجبته قائلا: «إنه نِعمَ الرّجل». فانبرى قائلا: «ألم أقل لك ذلك، ولكنه يطلب الكثير من المال يا صاحِب!».

---

(1) كتب المؤلف: حَمَد هو زعيم الحثالين Hathalain وهي بطن من بطون قبيلة آل غفران التي هي بدورها بطن من بطون قبيلة مُرّة. قلت: وفي قبيلته يسمّى: العقيد الأمير حَمَد بن هادي آل جلاب العويري الغُفراني المرّي.

إنّ جشـع القـوم مضـرب الأمثال، ولكنني قمت مسـبقا بأخذ موثق مـن صالح قبل مغادرة السّـاحل يقوم بموجبه بإقناع حَمَد بالرّضوخ لكافة الشّـروط التي التزمَ بها. إنّ رفاق السّفر الجدد وإن انخفض عددهم، كانوا أكثر مودّة وولاءً من سابقيهم.

إنّ ما ظننت أنّه نفورٌ وكراهية أبداها البدو تجاهي في اللقاء الأول كان نابعاً من طبيعة البدو الفطرية الجلفة الجافة. أمّا في حقيقة الأمر فقد كان البدو قد حضروا خصّيصاً مع الشّـيخ صالح لتلبية احتياجاتي. كانت الخطة المتفق عليها تقضي بأن يأخذوني باتجاه الغـرب عبر صحراء الدّكاكة وصولا لعين الماء في شَـنَّة. وهناك كان علي أن اسـتبدل رفاقـي الجدد في السّـفر بمجموعة ثالثـة أقل عدداً من الرّجال والـدّواب. كانت مهمّة الشّـيخ صالح هي أن يسبقنا إلى هناك ويختار هذه المجموعة ثم يقودها لنقطة الالتقاء بعد عشرة أيام إن شاء الله، ولـم يصادفنا عدو. كانت صحراء الدّكاكة الجنوبية المركزية بحـق مفتاح رحلتي برمّتها حيث تشـبّعت رمالها بأمطار العـام المنصرم وازّينت بمراعٍ اسـتثنائية تركّزت القطعان فيها. لقد سمح ذلك لمجموعة كبيرة من الرّجال المحمّلين بقِرَب الماء الممتلئة عن آخرها بالقدوم للسّـاحل برفقتي ويتسـنّى لي هنا أن أجد دليلاً يقودني في الطّريق، وعقب ذلك مجموعة كبيرة من رفاق السّفر على استعداد للوصول لأبعد نقطة ممكنة في أعماق الصّحراء والانطلاق نحو المجهول، أمّا لو كانت صحراء الدّكاكة تعاني من القحط والجفاف ولو أن تلك الأمطار سـقطت في الشّـمال الشّرقي العـام الفائـت عوضـاً عن هنـا، لكانت تجمّعـات الإبل بعيـدة كل البُعـد عن محطات الاسـتراحة التي أعتمـد عليها اعتماداً كاملاً في عبور الصّحـراء على مراحل مصطحباً معـي الأدوات العلميـة. إنّ يـوم دفع الأجور هـو يوم ينبـض بالحياة والإثارة بالنّسـبة للأجير البدوي الذي يُعرف عنه أنّه صعب الإرضاء بامتياز عند صرفه عن الخدمة.

كان العقـد بينـي وبيـن البدو ينـصّ على دفـع خمسـين دولاراً لكل بـدوي وناقته، وأربعيـن دولاراً نظيـر تأجيـر دواب حمولـة. وقد كان كل منهم قد قام بسـحب نصف المبلـغ المتفـق عليـه مقدّماً في ظُفـار، أمّا النّصف الآخـر فقد كان سيتسـلّمه في ذلك اليـوم. غطّـت دولارات ماريّا تيريـزا البرّاقة التي يسـاوي كل منها ثمانية عشـر دولاراً

منضدة المعسكر. إنها العملة الوحيدة التي تعرفها الصّحراء، وذلك فيما ندر.

تردّد رنين العملات الفضّيّة الذي قلّما يسمع في صحراء الدّكاكة، وأنا أقوم بترتيبها بمفردي في أكوام من فئة العشرين والخمس والعشرين، لتسهيل دفع الرّواتب؛ عندئذ كان كل ما علي فعله هو وضع عدّة أكوام من العملات في يد كل رجل على حدة. وما إن قام كل بدوي بحساب أجره عدة مرّات بعناء وجهد واضحين، حتى اكفهرّ وجهه هلعاً ورعباً وضجّ بالاعتراض على نقص دولار أو دولارين من أجره؛ ولم تظهر علامات الارتياح على وجهه إلا عندما أخذ رفيقه العُمُلات من يده وقام بعدّها منتهيا بالرّقم خمسة. يبدو أن طريقتي في العدّ حتى رقم 6 و7 و8 إلى آخره، أو عدم العدّ على الإطلاق، قد أصابتهم بالارتباك، فقد كانت الأعداد بالنّسبة لهم لا تتعدى رقم خمسة ليبدأ من جديد برقم واحد، وهلم جرا!

يبدو أنّ استيعاب النّظام الحسابي العُشري يفوق القدرات الذّهنية لبعض البشر. وما إن مضت ساعة من الزّمن حتى كانت المنضدة خالية من العملات وكل اسم على جدول الأجور قد تم شطبه.

وما إن بدأت أتنفّس الصّعداء واستمتع بالشّعور بالرّاحة لما آلت إليه الأمور في يوم دفع الأجور، حتى تناهى إلى مسامعي صوت صياح حاد. لقد اندلع شجار مرير بين أفراد مجموعتي القديمة، التي كانت علاقتي بهم في أحسن أحوالها، ولكنهم آثروا إلا أن يُفسدوا جوّ الألفة والمحبة بإثارة شجار محموم في يوم افتراقنا. يبدو أنهم قاموا بالاستدانة بعضهم من بعض في ظُفار وتسوية هذه الدّيون بحاجة لقدرات عقلية وحسابيّة وصبر لا قِبل لهم به، وهكذا اندلعت المعارك الكلامية الحامية ووصل الأمر للتّلويح بتحكيم الجَنبيّة. ولم يسُد السّلام إلا عندما تقدّم الشّيخ صالح وجمع كل العملات من كل بدوي ووضعها جميعاً في كومة داخل غطاء رأسه الذي وضعه على الرّمال، ثم قام شخصياً بإعادة توزيع العملات عليهم. إذن فقد ذهب كل جهد الصّباح أدراج الرّياح!

وأخيراً ساد هدوءٌ مشوبٌ بالتّذمّر فقد أعرب الرّجال عن احتياجهم لحصص من

المـؤن لكي يتمكّنوا من العـودة لديارهم، خاصّة وأنّ حيواناتهم منهكة وليسـت مدرّة للحليـب، وبدون هذه المؤن سـيهلكون لا محالة. لقد كانـت مطالبهم مغالى فيها إلى حـدّ بعيـد حيـث كانت ثلاثة أضعاف مـا يحتاجون إليـه بالفعل، وما دفعهـم لذلك إلا اقتراب شهر رمضان الذي يصومون به في النّهار ويعوّضون ذلك بازدراد الطّعام طوال الليـل. تجمّـع بعض البدو حولي ووجوههـم تكاد تنطق بحمق مسـعاي وعبثيّته. ففي أفضـل الأحـوال وعند التّمحيص والتّدقيق في الحسـابات، كانت أمامي مسـيرة سـتة أسـابيع ومؤن بالكاد تكفي لسـتة أسابيع، لذا فقد أضحت هذه المؤن أغلى من الذّهب بالنّسبة لنا. كنت على يقين أنّ تبديد تلك المؤن يعني الفشل الذّريع لكل خططي.

لقـد أنفقـت تلـك المؤن بحـرص وحذر شـديدين طـوال الطّريق ومـا كنت لأفقد أعصابي على أيّ شـيء سـوى تبديد هـذه المؤن تبديـداً متعمّداً لمعرفتـي الجازمة أنّ نهايـة أسـفاري مرتبطة بنفاد هذه المـؤن. يصطحب البدو عادة الإبـل المدرّة للحليب وترتبط سـرعتهم في السّير بحاجتها للتوقّف في محطات للرّعي والرّاحة، ويحجمون عـن اصطحابهـا عند القيام بشـنّ غارات على القبائـل الأخرى أو في الأسـفار البعيدة الاضطرارية خوفاً من أن يجفّ حليبها أو تُنهك قواها، فلا تسـتطيع مواصلة السّير. لن يفيـد اصطحـاب النّوق غير المدرّة للحليـب لعبور الصّحراء المتراميـة على مدّ البصر سوى أن تستغلّ هي ذاتها كمصدر للمؤن بذبحها وتناول لحومها. ولكن ذلك سيكون بمثابة التّخلّص من طوق النّجاة الوحيد الباقي للمسافرين. كان علينا أن نقوّض الخيام ونستأنف السّير بأقصى سرعة فكلّما بقينا مدة أطول في المعسكر، طالت مدّة استغلال رفاقي القدامى وعابري السّبيل وضيوف الصّحراء من كل حدب وصوب لمؤني وكرم ضيافتـي. لذا قمـت بإرضاء رفاق السّـفر القدامـى بإعطاء ثـلاث دولارات لكل منهم عوضـا عن المـؤن. وتلقّى جمّال القرينيّة، تلك النّاقة الصّبـورة التي حملتني من جبال القَرَا وستعود الآن أدراجها لديارها في السّهل الواسع جنوباً، نفس المبلغ.

كانت صاحبة هذه النّاقة تشتهر بالجمال الأخاذ والفتنة الطّاغية من أقصى الصّحراء لأقصاهـا، وقد قضّت مضاجع الكثير من رفاق سـفري من البدو. لقد كانت لقد كانت

بالفعل طرفاً في قصة رومانسية سآتي على ذكرها بعد أن يتحدّد مصيرُها.

لقد كانت عزباء في التّاسعة عشرة من العمر وهو وضع نادر الحدوث في مجتمع جزيرة العرب المعروف بتعدّد الزّوجات. وقعَ أبوها، بن أقسط[1] Bin Aksit، فريسة للوم وسخرية رفاقي البدو طوال سفرنا متّهمين إياه بالأنانية، وكانوا يسخرون منه قائلين: «ألا تزوّجها للصّاحِب؟ إنّه رجل قوي البنية كما أنّ لديه من المال ما يكفي لشراء كلّ إبل الرّبع الخالي» أمّا من وراء ظهره، فقد كانوا يرمونه بالبخل والشّح، على الرّغم من امتلاكه لخمسة عشر ناقة تضعه في مصاف الأثرياء. ولكون ابنته وحيدة، ولعدم وجود أقرباء ذكور من الدّرجة الأولى له، فقد كانت الوريثة الوحيدة لكافة ممتلكاته، الأمر الذي زاد من فتنتها في أعينهم. وفي يوم من الأيام سألتُ أباها بنبرة لا مبالية متعمّدة يتقبّلها البدوي من أمثالي من الغرباء: «كم تطلب مهراً لابنتك؟» فانبرى قائلاً: «ثلاثة جمال»[2] ثم استطرد: «إنّ ابنة علي التي لا يمكن مقارنتها بابنتي جلبت لأبيها مهراً قدره ثلاثة جمال! إن الجميع يعلم علم اليقين أنّ ابنتي تستحق الثّلاثة جمال ولكن لم يعرض عليّ أحد أكثر من جملين، لذا رفضت تزويجها وهي راضية بالبقاء في كنفي».

لقد دار هذا الحديث بيننا منذ أسبوعين. ولاحقاً اعتدت أن أرى بن أقسط ومعيوف

---

(1) هكذا تبيّنت لي قراءة الاسم كما يكتبه برترام توماس، والله أعلم.

(2) كتب المؤلف: يؤول المهر برمّته للأب، أمّا بالنّسبة لآل كثير في الجبال فيتراوح مهر الفتاة البكر بين عشرين وثلاثمئة دولار تحدّد حسب نسبها وجمالها وثروتها. ويؤول نصف المهر للأب، أما الباقي فيقسم بين الأقرباء الآخرين من الدّرجة الأولى. لقد سمعت عن عروس حصلت على مئتي دولار مهراً لها ممّا يضعها في مكانة اجتماعية مرموقة. وقد قسم مهرها كالآتي: يحصل الأب على النّصف والأخ على مئة دولار والأم على ثلاثين دولاراً والأخت على عشرين والعم لا شيء والخال عشرين والعمة عشرة والخالة أربعة والجدّ من ناحية الأب أربعين والجدّ من ناحية الأم أربعة، والأقرباء من الدّرجة الثّانية ثلاثة وأربعة دولارات لم يتم تحديد وجهة صرفها. أمّا عندما تكون المرأة أرملة أو مطلقة فهي تستأثر بمهرها عند زواجها مرة أخرى. يدفع العريس في سلطنة عُمان نصف المهر مقدماً لوالد العروس، ويدفع النّصف الباقي على أقساط ميسّرة عقب الزّواج. وينفق المبلغ المتبقي، نظرياً، في شراء مجوهرات وفرش وحلي للعروس.

يجلسان من آن لآخر حول نار المخيم يتجاذبان أطراف الحديث ثم ينزويان بعيداً عن الأعين ويستغرقان في الحديث. لذا ما إن غادر معيوف المعسكر ممتطيا القرينيّة حتى سَرَت شائعات مفادها أنّ معيوف هو العريس المنتظر لابنه أقسط.

إنّ الحديث الشّخصي في غُرف الصّحراء يحدث عندما ينهض شخصان من المجموعة وينزويان على بُعد حوالي خمسين خطوة من رفاقهم ويتجاذبان أطراف الحديث، ولكنهما أبداً لا يكونان بمنأى من المقاطعة والتّطفّل. إنّ تطفّل بدوي ثالث على المتهامسين بإلقاء السّلام والجلوس معهما يعدّ، على غرابته، بالنّسبة لأوروبي مثلي، إطراءاً وإعلاناً أنّ حديثهما من المرجّح أن يثير اهتمامه. إنّ وحدة الحياة المشتركة اللصيقة التي تجمع مجتمع البدو بمعيشتهم في الهواء الطّلق يفترشون الأرض ويلتحفون السّماء والألفة والحميمية المتأصلة في الشّخصية البدوية ووحدة الدّفاع المشترك ضد أيّ عدو يتهدّدهم، قد ألغت خصوصية الفرد. ويجب على الأوروبي الذي يرغب أن تمرّ رحلته بسلام أن يتقبّل بل ويعتنق هذه المعايير. فعلى سبيل المثال، عند حضوري إحدى المناسبات، انقضّ احد أفراد قبيلة بن كثير على قصعة الحليب خاصّتي وأفرغ ما تبقى فيها من قطرات في جوفه. لم أكن أملك، كأوروبي غريب، أن اعترض أو أبدي استياءً من هذا التّجاوز. فحتى الأحاديث الشّخصية التي دارت بيني وبين الشّيخ صالح لم تسلم من المقاطعة والتّطفّل، فما إن يرانا أحد البدو من على بُعد حتى يهرع إلينا ويلقي علينا سلاماً حميماً وينضمّ إلينا دون استئذان ويصغي لما نقوله. استأنفنا السّير تجاه الغرب مرة أخرى بعد أن انخفض عدد رفاقي في رحلتي الحالية لعشرين رجلا معظمهم ليس لديّ سابق معرفة بهم.

ساورتني الشّكوك عندما لم نجد مخيمات في طريقنا، إنّ الجزء الرّئيسي من قبيلة الرّاشد نصب خيامه شمالاً طلباً للكلأ والمرعى. كانت المحافظة على المؤن من استغلالهم هي شغلي الشّاغل، كما كان علي أن أتفادى إثارة الشّعور الدّيني لدي أيّ متعصّب يعترض على وجودي على الأرض المقدّسة للمؤمنين.

كما هو متوقع، لم نقطع في اليوم الأول سوى مسافة قصيرة، فقد أبطأت الجمال

التـي ضجّت بالشّـكوى تحت وطأة الحمولـة الثّقيلة التي لم تعتد عليهـا من قبل. كما تزامن ذلك مع تشاجر الجمّالين فيما بينهم بدعوى عدم العدالة في توزيع الأحمال على الإبل. بيد أنّ سـرجي البيكانري[1] Bikaner أثار موجة من الاسـتنكار والاعتراضات، ممّا أجبرني على تحمّل مذلّة ومهانة تغيير ناقتي بشكل يومي.

كانـت الرّمال في منطقة الدّكاكة، التي تعدّ معبراً فسـيحاً للوصول لعروق الضّحيّة، أقل برودة، فقد كانت تتكون أساسـاً من رمل أحمر خشن متراكم كالأمواج المتلاطمة اللانهائيـة في بحر هائج، تعترضها بين الفينة والأخرى تلالٌ رملية شـاحبة اللون يُطلق عليها اسـم الحُقنة *hugna*، وهي ذات تكوين مثير للعجب؛ فقد كانت صلبة في بعض الأحيـان وعلـى هيئـة حدوة حصان فـي أحيان أخـرى، ويقـلّ ارتفاعها كلما تقـدّم بنا المسـير. تكوّنت هذه التّلال نتيجة لنشاط الرّياح الارتدادية، فالمناطق المنخفضة فيها تكسوها عادة بقع من الجبس وعادة ما يتخلّلها عين ماء.

إنّ المـاء العـذب - مقارنة بالمياه الموجودة في الصّحراء - متوفّر في هذه الأنحاء. اسـتمرّ تقدّمنـا ببطء متعمّد وسـط المراعي المتعافيـة، ممّا أعطانا فرصـة ذهبية لجمع عيّنـات والتقـاط صور لدراسـة الحيوانات على خلاف ما حدث فـي رحلاتي الطّويلة المشـحونة بالتّوتّـر والتي اضطررت خلالها لتجاهل ذلك. بينمـا ذهب بن كلّوت وبن حَم في جولة استكشافية للمنطقة بحثا عن عيّنات لي، اكتفينا بالتّلكّؤ وقتل الوقت.

بمـرور الوقـت، نـال حَمَد بـن هـادي، العضـو الجديد فـي مجموعتـي، احترامي وتقديري. كان حَمَد يتمتع بمكانة مرموقة بين رفاقه، ما يليق بابن ابيه المَهْري الذي ذاع صيتـه عبـر صحراء الرّبع الخالي والذي ذبح ثمانية رجال من قبيلة المناصير المنافسـة وتوفّـي فـي عمر الوقار والهيبة بجوار بئر هادي الذي سـمّي باسـمه تيمّناً بـه[2]. إنّ بئر هـادي هي واحدة من عيون الماء الكثيرة التي قام الأخير بحفرها؛ اصطحب حَمَد معه ابن أخيه مرزوق الذي أوكلت له مهمّة الأذان للصّلاة خلال رحلتنا. أما ابن عمّه حَمَد،

(1) أي سرج صُنع في مقاطعة بيكانر بالهند.

(2) ويوجد هذا البئر شرقي الدّكاكة، إلى الجنوب من صفراء ثمّ، ما بين حقنة القبيل وحقنة ناصرة.

الـذي كان يحمل نفس اسـمه، فقد كان متقلّب المزاج وبـدا وكأنّ خيطين قد تدليا من منخريه، وكأنه طبيب قد وضع سـماعته الطّبية في منخريه بدلاً من أذنيه. إنّ مشـهد سد فتحتـي الأنف بقطعتين من القطن مألوف فـي صحراء العرب وفارس، ويراد به حماية الأنـف من الرّوائح الكريهـة التي تطلق العنان لمعظم الأمراض والعلل. لم يسـاورني أدنى شك بأن حَمَد كان يعاني من الرّمد، ولكنه يعزو ذلك للرّوح الشّريرة، الزّار Zar.

لقد سـنحت لي الفرصة لحضور جلسـة طرد الأرواح الشّـريرة ذلك المسـاء. إنّها عبارة عن طقس بسيط إذا ما قورنت بالممارسات المعقّدة التي تتم في القرى السّاحلية لسـلطنة عُمان، وان لم تختلف في تصويرها العنيف والمحموم للشّخص الممسوس. إنّ الفـارقَ الرّئيسَ بينهما هو أنّ المتفرجين والمشـرف علـى الطّقوس هم من الرّجال وليس النّساء، اللاتي يشاركن عادة بالرّقص الهستيري. ويستعاض عن النّار بالدّماء.

جثـا حَمَد، الممسـوس، علـى ركبتيه أمـام النّيران وتحلّـق حوله رفاقه الجالسـون القرفصـاء، ثم جلس المشـرف علـى الطّقوس محمّد بن شُـغيلة بالقرب منه، ثم وضع قدحاً مشـتعلاً بالنّيـران بينهما. وقام واحد أو اثنان من رفاق حَمَـد بإحضار آنية الطّهي وقاموا بتهيئة المشهد.

خلـع حَمَد غطاء رأسـه وقـام بطيّه مرة واحدة على شَـكل مثلث، مسـدلاً إياه على رأسـه وكتفيه، بينما أمسـك بطرفيه بيديه الممدودتين. بدأ جسده بالتّمايل والارتعاش، بينمـا انهمك رفاقه البدو بالإنشـاد والتّصفيق[1] والنّقر بأصابعهـم على القدور، وكلما انقضت الدّقائق، كانت حركات الرّجل الممسـوس تزداد اهتياجاً واضطراباً، ثم اندفع كالمغشـي عليه منحنياً فوق النّار المتأجّجة حتى كاد أن يسـقط فيها أكثر من مرّة، لولا قيام أحد الواقفين بقربه بوضع عصا أمامه حالت دون سقوطه في النّار.

كان الممسـوس يقوم من آن لآخر برفع قدح النّار ووضعه تحت خماره لاستنشـاق ما يتصاعد منه ويملأ منه رئتيه وكأنه بخور، ممّا يدفعه للقيام بالمزيد من تلك الحركات

---

(1) كتب المؤلف: انظر الملحق 6 بخصوص التّرنيمة.

المحمومة، إلى أن بات صوته مرتعشاً وتملّكته حمّى هستيرية، واستمرّ الحال على هذا لمنوال لمدة ساعة من الزّمن، ثم بدأ طارد الأرواح الشّريرة ممارسة طقوسه بإلقاء سلسلة من الأسئلة على الزّار (الرّوح الشّريرة) التي باتت تنطق بلسان الرّجل الممسوس. ويبدو أنّ الزّار كان يشاركني الرّأي بأنّ الطّقوس كانت تلك اللحظة مختزلة ومختصرة، أو هكذا تهيّأ لي من تأخّره في الإجابة على أسئلة طارد الأرواح الشّريرة. فقد سأله طارد الأرواح الشّريرة «هل أنت عفريت؟» فلم يجب، فأردف قائلاً: «إذن هل أنت جنّي؟» فلم ينبس الزّار ببنت شفة، فتعالت صيحات البدو المنشدين «بالطبع إنه الزّار. ألم يقل حَمَد إنّه سيف شنجر[1] Saif Shanjur؟».

استمرّ الممسوس بالانتفاض والهذيان والهلوسة، في حين صمت طارد الأرواح الشّريرة، فاستحثّه البدو صارخين «هيا تابع الطّقوس يا محمّد!».

فصاح طارد الأرواح الشّريرة «أنت شيخ. قل لنا ماذا تريد؟» لكن الزّار واظب على صمته.

ازدادت حدّة القرع على الطّبول والتّصفيق. عندها أخذ الممسوس يهمس مخاطباً نفسه: «متى ستظهر يا شيخ شنجر؟».

فسأله طارد الأرواح الشّريرة: «هل تريد مالاً؟». وأخيراً أجاب الزّار قائلاً: «أريد خاتماً».

سأله طارد الأرواح الشّريرة «لا بدّ أنك تريده ثميناً مرصّعاً بحجر كريم؟».

فأصرّ الزّار قائلاً: «أريد خاتماً».

فنهر البدو المنشدين طارد الأرواح الشّريرة بقولهم: «لا تطرح عليه أسئلة غير ضرورية!».

سأل طارد الأرواح الشّريرة البدو: «من منكم يملك خاتماً؟».

---

(1) كتب المؤلف: هنالك العديد من أنواع الزّار. وهذا أكثرها شهرة.

فناوله معيوف خاتمه المتواضع، حيث مرّره طارد الأرواح الشّريرة أولاً على قدح النّار ثم وضعه في أحد أصابع حَمَد وأمسك يده، ثم سأل الزّار: «هل ستزيل الشّرّ من العين؟» فأجاب الزّار: «أجل».

سأله طارد الأرواح الشّريرة: «هل هناك شر آخر في العين؟» فأجاب الزّار: «لا».

فأصرّ طارد الأرواح الشّريرة قائلاً: «أقسم أنك ستزيل الشّر من العين». فأجاب الزّار: «أيه... أيه».

فأصرّ طارد الأرواح الشّريرة قائلاً: «أقسم بالقسم القَبَلي». فأقسم الزّار قائلاً: «في وجهك».

فصرفه طارد الأرواح الشّريرة قائلاً: «شرد» فانصرف.

وهكذا انتهت الطّقوس، ووقف حَمَد المعافى مترنّحاً واتجه رأساً إلى فراشه المترب ليخلد إلى النّوم.

غادرنا المخيم الذي يقع شمال عين بالعشوش[1] Bil Ashush ثم اتجهنا غرباً إلى أن وصلنا، بعد ساعتين، إلى هضبة مترامية الأطراف على شكل حدوة فرس يطلق عليها اسم تل هليّل. المثير للدّهشة أن الرّمال الحمراء في تلك الهضبة مكسوة بطبقة كثيفة من العَبْلة الخضراء الدّاكنة (نوع من العشب).

كان عيد رأس السّنة الميلادية يوافق ذلك اليوم، وهو عيد لا يعرفه البدو بالطّبع، حيث أنّ اثنين فقط من أصحابي من آل راشد كانوا على دراية بأيام الأسبوع.

أدخل المكان البهجة والسّرور إلى قلوبنا جميعنا بمراعيه الخصبة، لذا قرّرت التّوقف وقضاء اليوم في الصّيد في ذلك المكان. دنا مني حَمَد، بطل ليلة طرد الرّواح الشّريرة الماضية، وأنا أترجّل عن ناقتي. لفت نظري أنّ عينيه لم يطرأ عليهما تحسّن يذكر، على الرّغم من حرصه على الادّعاء بأنه قد تعافى، مشيراً إلى أنه قد قام بنزع

(1) صواب التّسمية كما على الخرائط: أبا العشوش، وثمّة عرق يسمّى عرق أبا العشوش.

سـدادات فتحتـي منخريه التي تدلّـت من عنقه دليلاً علـى ذلك الشّـفاء المزعوم. لقد لاحظت أنه احتفظ بسـدادات منخريه تحسّـباً للظّروف فساورتني الظّروف أنه لـم يكن من جيل المؤمنين الذين لديهم اعتقاد راسـخ بالعلاج المعتمد على الإيمان والعقيدة. ومـن المعروف عن قبيلة المَهْرة أنها لا تمارس السّـحر، باسـتثناء بعض المجموعات المنعزلة في الجنوب التي تعلمت ممارسـة السّـحر من قبيلة الرّاشـد الذين يمارسـون السّحر شأنهم في ذلك شأن كل قبيلة في البادية جنوباً.

لـم تبرح البندقية كتفي طوال ذلك اليـوم وأنا أطوف حول المخيّم على مدى ميلين أو ثلاثة، ولكني لم أصادف أثراً لحيوان أكبر حجماً من الأرنب البري. فعلى الرّغم من مـرور الكثيـر من القوافل التي تفتقر إلى المؤن والطّعـام، على طول الحدود الجنوبية، كنّـا نمـر بآثار أقدام لظبي أو ثعلب كل يوم! وبحكم الخبرة، تعلمت كيف أميّز بين آثار أقدام كل أنواع الحيوانات الصّحراوية البرّية، بل وتحديد وقت مرورها.

كانـت صحـراء الدّكاكة تعجّ بأعداد هائلة مـن الأرانب البرّية ذهبيـة اللون، فما من دغل (شجيرات خفيفة كثيرة الأغصان) إلا ويحمل أسفل منه آثار حفرة حفرت مؤخراً لبناء جحر.

كان البدوي يغوص بيده عميقاً داخل أحشاء تلك الجحور ويسحب منها المخلوق الـذي يتدلّـى ويصارع محاولة التّملص والنّجاة بحياته. بل كثيراً ما كنا نلمح أرنبا غافياً تحت فيء إحدى الشّجيرات وكنا ننجح في الاقتراب منه بسهولة ويسر بفضل صمت الرّمال النّاعمة.

إنّ تناول الأرنب البري على العشاء كان دافعاً لرواية إحدى قصص الحيوانات. ومن الضّروري قبل أن ننصت للحكاية التي تتحدّث عن الكيفية التي أصبح من خلالها أكل لحم الأرنب حلالاً، أن نعرف أنّ الأرنب كانت لديه القدرة على التّحدّث كالإنسان في تلك الأزمنة الغابرة، وأنه كان من المألوف أن تقوم النّسـاء في ذلك الوقت بربط حزمة من العصي التي قمنا بجمعها معاً ومن ثم امتطائها، في مشهد يذكّرنا بساحرات أوروپا ومكانسهن السّحرية.

تبدأ القصة على النّحو التّالي:

في يوم من الأيام أمر الرّسـول بعض النّسوة قائلاً: «اذهبن واجمعن حطباً للتّدفئة». وهكذا ذهبت النّسـاء على الفور لجمع الحطب، ولكن ما لبسن أن انهمكن في الثّرثرة والقيل والقال وتأخّرن في العودة.

وعندما لم يعدن في الوقت المناسب، فقد الرّسول صبره وأمر الأرنب قائلاً «اذهب لتوِّك إلى البرية وهناك ستجد مجموعة من النّسـوة يقمن بجمع الحطب، فقل لهن أن يربطن ما جمعنه من حطب في حزمة لكل منهن ويقمن بركوبها والعودة إلى الدّيار على الفور». وذهب الأرنب ووجد النّسـوة ولكن بدلاً من نقل الرّسـالة كما قالها الرّسـول، اكتفى بقوله: «إنّ الرّسـول يأمركن أن تضعن الحطب فوق رؤوسـكن وتعدن للدّيار». وهكذا استمرّت النّسـوة في جمع العصيّ علـى مهل. في هذا الوقت، ازداد الرّسـول غضبـاً وأخيراً بعد مرور سـاعات، رآهـن يقتربن فصاح: «لماذا لـم تعـدن وانتن تركبن الحـزم كعادتكن؟» فرددن قائـلات: «الأرنب قال لنا إنك ترغب فـي عودتنا على هذه الصّورة!» عندئذ صبّ الرّسـول جام غضبه على الأرنب بدلاً من النّسوة والتقط جمرة من النّار فقفز الأرنب هارباً، ولكن الرّسول تمكن من ضربه على ذيله الذي لازال إلى يومنا هذا، يحمل أثر علامة سوداء صغيرة، ثم صاح الرّسول بصوت جهوري «من الآن فصاعداً، لحمك وكل جزء فيك، حتى أحشاؤك أكله حلال لبني آدم».

* * *

بدأنا رحلتنا مبكرين في اليوم التّالي وما لبثنا أن مررنا بتلّين كبيرين على شكل حدوة فرس كانا يشـتهران بعيني الماء مشـرومة وضريبي Dhiraibi. كنت أنا وحَمَد الرّبيع[1] *rabia* نركـب فـي المقدّمة، وفجأة تسـمّر الأخير في مكانه وأمعن النّظر في شـيء رآه مـن بعيد ومدّ يده إلى لتناول تلسـكوبي، ثم أشـار لي، ونحن نترجّل، نحـو التّلّ الذي أثـار مخاوفه وأومأ أن أبقى حيث كنت، ثم زحف متسـللاً باتجـاه التّلّ متخفّياً بالرّمال

---

(1) الرّبيع في لهجة الإمارات وعُمان تعني: الرّفيق، وهنا بمعنى رفيق السّفر.

المتلاطمة. وما لبث أن عاد وقد تنفس الصّعداء فالشّيء الذي أثار مخاوفه ليس سوى أكمة وليس عدواً. يبدو أن حَمَد كان رجلاً يُشار إليه بالبنان، فقد اشتهر بشنّه للغارات بمفرده في بعض الأحيان في أراضي ضار. وكان في حقيقة الأمر قد قام بسفك دماً صيعَرياً، ولذا فقد كان ينتظره الموت المحقق لو التقى بمجموعة من الصّيعَر تفوقه عدداً. بالإضافة إلى ذلك، كان حَمَد قد ورث ثأر أبيه مع قبيلة المناصير، لذا فقد كان نهباً للهواجس والمخاوف، فمرّة تلو الأخرى كان يعرقل ويؤخّر مسيرتنا لكي يجري مسحاً شاملاً متفحصاً الآفاق بتلسكوبه. كما دأب على أن ينسلّ خلسة كلما توقفنا لقضاء الليل في الصّحراء وينهمك في إزالة آثار أقدامنا لتمويه مرورنا وإخفائه لبضعة أميال حول المخيم، خشية أن يقوم عدوّ ما باقتفاء الأثر، محللاً بالأخبار السّارة أنه الآن يمكننا أن نشعل النّيران دون خوف.

يشاع أن هناك عين ماء في اتجاه الشّمال في وريقة Waraiga. وهناك لحق الرّسولان اللذان كنت قد أرسلتهما من ظُفار للبحث عن قبيلتهم بها، ووجدا القطعان الرّئيسة للقبيلة ترعى هناك[1].

إنّ القدر المحتوم لكل من يولد في هذه البيئة الصّحراوية هو تربية الجمال ورعايتها، بل إنّ حياته نفسها تتوقّف على وجود النّاقة - فهي تمدّه بكل مقومات حياته تقريباً من طعام وشراب، كما أنّ ملابسه وخيامه تعتمد على وبرها. يكرّس البدوي حياته من المهد إلى اللحد للبحث والتّنقيب عن المراعي الخضراء، فالمطر بالنّسبة له عطية

---

(1) كتب المؤلف: الطّريق الذي سلكاه في غاية الأهمية للتّعريف بالطّريق الذي سلكته قبيلة الرّاشد عند انسحابها تحت ضغط سلب ونهب قبيلة صيْعَر. لقد انطلق الرّسولان من شصر واتجها ناحية الشّمال الشّرقي عبر أمّ الحيّات وسارا بهمّة عبر رمال المعترضة حتى وصلا لغنيم، وهناك قاما بالتزوّد بالماء في الخسفة وذعبلوتن ثم اتجها ناحية الشّمال الغربي عبر أحواض الملح (مناطق منخفضة من الأرض تستخدم لتجميع الماء المالح وتترك ليتبخر الماء ويترسّب الملح) والجبال الرّملية في منيجور، إلى رمال الحْباك، واستقوا الماء عند الزّغين، ومنها اتجهوا نحو الجنوب الغربي لعين الماء المحاذية للحدود في فيضة Fida وتقدّما عابرين صحراء الدّكاكة ومتجهين نحو المورد المائي في وريقة.

اللـه، والبرق شـرارة النّار والدّفء. إنّـه غافل عن كل ما يجري في هـذا العالم المتغير أبـداً. إنّ ازدهـار الممالـك وأفولهـا، والعلم والفـن والثّقافـة، وكل القـوى الرّوحانية التي تتضافر وتتفاعل لرفعة الإنسـان ورفاهيتـه - أو المصطلح المضلّل القائل بصراع العلـوم - والأنظمـة التي أغرقت الإنسـانية في وحول الانحـلال والانحطاط الفكري والأخلاقـي واختـلاط الأعراق واللغـات والطّبقـات، كل ذلك لم يكن يعني له شـيئاً البتـة، لـذا لا وجود له علـى الإطلاق. إنه يتبع ما وجد عليه آبـاءه وأجداده الأولين منذ عشـرات آلاف السّـنين، وما ينبغي على أبنائه وأحفاده أن يستمسكوا به أبد الدّهر. لقد تبـرّأ البـدوي من حياة الرّفاهة والتّرف وكان شـعاره دائما القسـوة والوحشـية وتحجّر القلب في تعامله مع أعدائه، وأقصى درجات الشّـجاعة والرّحمة والتّعاطف الإنساني في تعامله مع أصدقائه.

تعتمـد حيـاة البدو الرُّحّل علـى أمرين أساسـيين، ألا وهما الماء والـكلأ[1]. تحتلّ المراعي في فصل الشّـتاء الأولوية بالنّسـبة للقطعان، حيث أنّ القطعان نادراً ما تحتاج إلى الماء في الشّـتاء، اللّهم إلا مرّة كل خمسـة عشـر أو عشـرين يوماً. فلو كانت التّربة مُشبعة بالماء والعشب، فإنّ القطعان قد لا تحتاج للذّهاب إلى مورد الماء لمدة شهرين كامليـن، يعـوّض خلالهما البدو عن حرمانـه من الماء بالاعتماد على شـرب الحليب بشـكل حصـري. أمّا فـي أشـهر الصّيف، من ناحيـة أخـرى[2]، فعندما تتسـبّب حرارة الشّـمس الملتهبة والقيظ الحارق برفع درجة حـرارة الرّمال إلى ما يفوق طاقة احتمال

---

(1) كتب المؤلف: يطلق على المراعي والكلأ بصفة عامة مصطلح «معاش» وذلك باللهجة الرّاشدية. إن أفضل علف للجمل هو السَّمر وهو نوع من شجر السّنط أو الأكاسيا الذي يوجد في السّهل العشبي الواسع على ارتفاع أكثر من ألف ومئتي قدم. وتأتي في المرتبة الثّانية أجمات (الشجيرات الملتفة الأغصان) العَبْلة والذّهارة والقصيص التي تكثر عقب هطول الأمطار والنّدى. كما يوجد نباتا الضّغية *dhu'ya* والضّعوت *dha'ut* وكلاهما من نباتات السّهل العشبي، ثم المرخ *markh* الذي نجده بين السّهل العشبي والصّحراء. يلي ذلك بالترتيب شجر الغاف *ghaf* (السّنط) والسّلم *selem* المعروف محلياً باسم حرضاي *hardhai*.

(2) كتب المؤلف: هناك الكثير من أنواع علف الجمال الأخرى، لكن ما ذكرته هو الأنواع الأكثر شيوعاً في الصّحارى الجنوبية.

البشر والحيوان، فتنحصر الحركة وتنتقل القطعان إلى مسافة تبعد يومين فقط عن مورد الماء، حيث أنهم يكونون بحاجة لشرب الماء كل يومين[1]. أمّا في المرتفعات الشّاهقة، ووسط المراعي الممرعة (الدّائمة على مدار العام) التي توجد في السّهل الواسع الجنوبي مقابل الجبل، فإنّ قطيع الجمال يساق إلى الكهوف في الصّباح لحمايتها من قيظ الصّيف الخانق، ويتم إطلاقها لترعى ليلاً بخطى واسعة وسريعة، متنقلة من مورد ومرعى إلى مورد ومرعى آخر محاذٍ للأول. أمّا في فصل الشّتاء، حينما لا تكون المياه ضرورة ملحّة، وترعى القطعان حيثما وُجد الكلأ، فيكون التّنقل من مكان إلى آخر في وضح النّهار مع توقف يومين أو ثلاثة للرّاحة في كل مرعى. تتحرّك القطعان ببطء عبر الأراضي الشّاسعة باتجاه دائري. ويحدّد اتجاه السّير اثنان من البدو الكشافة (الطّوّافين) ممّن لديهم القدرة على الانتقال لمسافات بعيدة وبسرعة كبيرة. ويستمرّ تأمين الطّريق لبضعة أسابيع في الشّتاء، يعيش الطّوافان خلالها على شرب الحليب الذي ملأا قربهما به عند بداية رحلتهما[2]. وما إن تتوسّط الشّمس كبد السّماء حتى يغدو النّوم في هذا الهجير القائظ ضرباً من المستحيل، فلا يحصل الطّوّافان على كفايتهما من النّوم تحت ضغط الحاجة لاستئناف المسير ليلاً بغية استغلال الانكسار النّسبي للحرارة. تعدّ مهمتهما مهمّةً جليلة ومشرّفة لا توكل إلا لأفضل وأكفأ الأدلّاء الذين يمكن أن يوثق بهم لحساب الوقت اللازم لنفاد قِرَب الحليب خاصتهم بدقة متناهية. وغالباً ما يعودان صائمين بعد يوم أو يومين من نفاد الحليب. ولقد مرّ الشّيخ صالح والكثير من أصحابي البدو بتلك التّجربة.

---

(1) كتب المؤلف: يطلق على الجمال التي تحتاج لشرب الكثير من الماء: شوارب، أما تلك التي تطيق البقاء دونما لمدى طويلة في فصل الشّتاء فتسمّى هكذا:

(2)

	مفرد	جمع
قبيلة المَهْرة	جازي	جوازي
قبيلة الرّاشدي	ناش	نواش

كتب المؤلف: في عقب الأيام القليلة الأولى من الأسفار الطّويلة بتخثر الحليب فيصار إلى تخفيف كثافته عن طريق خلطه بقليل من الماء المالح.

من البديهي أن يضع البدو حليب النّوق في منزلة أعلى من منزلة أيّ نوع من اللحم، فهو بالنّسبة لهم أكثر الحياة. لقد شهد الرّسول نفسه بهذا في حوار دار بينه وبين أحد الصّحابة عندما عاد الأخير من مأدبة كان مدعوّاً إليها فسأله الرّسول: «ماذا قدّم لك مضيفك من طعام؟»، فأجاب الصّحابي: «لقد قدّم لي لحم جمل». فقال الرّسول: «لقد ذبح لك مضيفك». فأردف الصّحابي قائلاً: «ورُطَباً». فقال الرّسول: «لقد أسعدك مضيفك». فأردف الصّحابي: «وكذلك حليب ناقة». فصاح الرّسول: «حسبُك. لقد احتفى بك!».

تابعنا مسيرنا في اليوم الرّابع نحو الغرب باتجاه الحقنة (التّلّة الرّملية) في خضفيعة، وهي تلّة كبيرة كانت على مرمى البصر من المكان الذي خيّمنا فيه الليلة القادمة، وقد مررنا عليها بالفعل بعد نصف ساعة وكعهد كل التّلال التي هي على شكل حدوة فرس والتي تطلّ على الجنوب الغربي، كان يوجد في تجويفها الضّخم المكسو بالجصّ مجموعة من الملاذات المسقوفة بما يشبه القش، والتي يندر أن توجد في الصّحارى، وهي تستخدم كملجأ للحماية من أشعة الشّمس الحارقة ولقربها من مورد الماء.

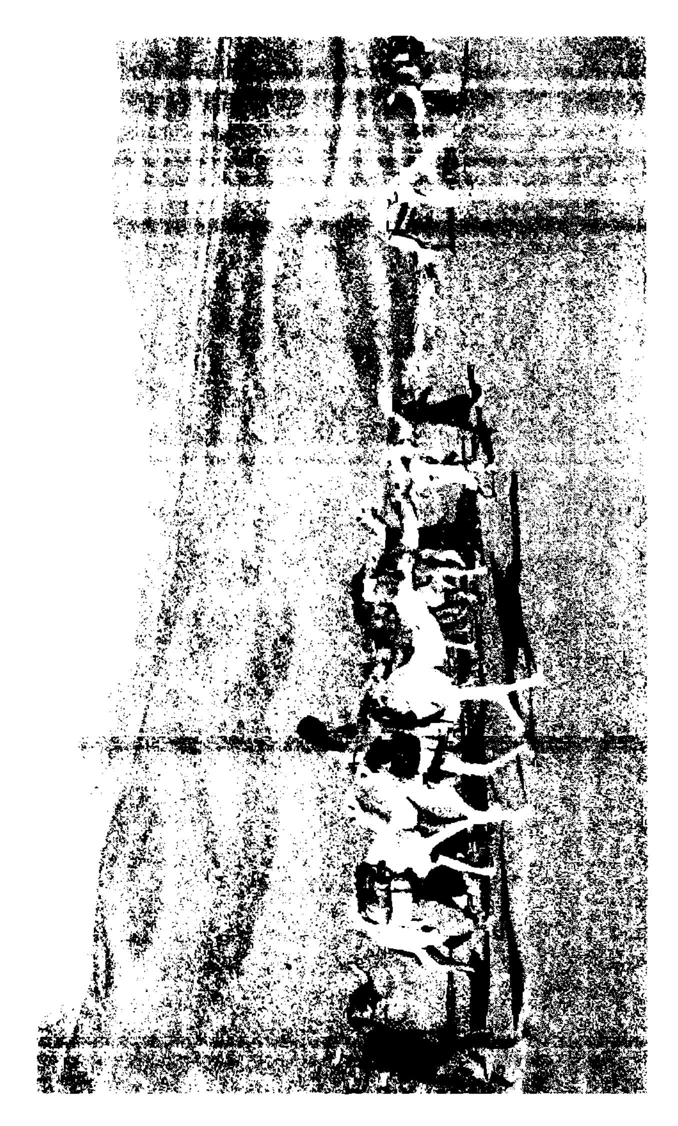
من المحتمل أن تكون هذه الملاجئ عبارة عمّا خلّفه المسافرون وراءهم أثناء التّزوّد بالماء في فصل الصّيف. انزلق حَمَد عن ظهر ناقته دون إناختها، كعادة البدو، ثم سلّم اللجام لابن أخيه ثم هبط عبر تجويف التّل للبحث عن آثار السّقاية للغزاة المحتملين، ثم لحق بنا فيما بعد وهدّأ من روعنا وطمأننا إلى أن كل شي كان على ما يرام وأنه لا يوجد إلا آثار أقدام ناقة بن حَم - أحد أفراد مجموعة البدو التي سرّحتها مؤخراً، وهو الآن في طريقه في حملة تجنيد - التي تشير إلى أنه مرّ من هذا المكان منذ ثلاثة أيام.

لقد غذذنا الخطى وتمكنا من الوصول إلى عين الماء في شَنَّة بعد ثلاث ساعات. وما إن وصلنا حتى تراكض حرّاسي من البدو الذين سبقونا في الوصول إلى هناك وتمترسوا عند عين الماء أسفل التّل للقائنا وصرخوا باللهجة البدوية «جوموا... جوموا»... «لقد مرّ من هنا محمّد بن مبارك الكَربي ومحمّد بن جواد الصّيعَري». لقد

كان هذان اسـمين لاثنين من الغزاة سـيئي السّـمعة من حضرمـوت، وكان بينهما وبين أصحابي في السّفر ثأرٌ كبير.

تفحّـص حَمَـد الـذي نزلت معـه إلى التّجويـف طبقة الجـصّ التي تكسـوه ثم نظر لرفاقنـا أعلـى التّل مبتسـماً ومطمئنّاً. إنّ الخدعة لـم تنطلِ علـى حَمَد، وقد كان الهدف منهـا إغاظة حَمَـد أو إرغامي على القليل مـن مخزون الطّعام «المـؤن» على اعتبار أنّه يفيض عن حاجتي، أو ربما يكون الأمر مجرّد مزحة سمجة قد أصابت هدفها في نهاية المطـاف. فقـد أدركنا أننا عرضـة لخطر الغزو في أيّ وقت، وعلى الفور اسـتعار حَمَد تلسكوبي وتسلّق أعلى التّل ولـم أره مرة أخرى إلا عند حلول وقت صلاة العشاء.





المسير في عروق الضّحيّة المهولة



المسير في الدّكاكة

الفصل السّادس عشر

وقفة عند بئر شَنَّة

قبيل الانطلاق نحو الشّمال

اكتمل البدر، قبيل قدوم رمضان، واكتماله نعمة ونقمة في آن معاً. فمن ناحية، تكون عمليّـة رصـد النّجـوم والكواكب بأفق متخيّل عويصة وشـاقة. لذا، فهـو حليف الغزاة وقطّـاع الطُّـرق، حيث أنّ السّـماء تكـون مضيئة وصافيـة إلى حدّ أنّ المغيـر (الغازي) يسـتطيع تتبّـع آثار الأقدام ليـلاً. أمّا من النّاحيـة الأخرى، فقد كان بوسـعي الإفادة من ضـوء القمر لتدوين مذكراتي وأنا مسـتلقٍ بجوار المخيم. لقـد تناولنا لحم جمل على وجبة العشـاء. ففي تلك الليلة اكتشـفنا أن إحدى النّوق كانـت تعاني من مرض مُهلك وكانـت الطّريقة الوحيدة للتّعامل مع الجمل المريض هي ذبحه وتناول لحمه. يوضح الخاتـم القبلـي على فاطرة *fatira* العجوز أنّها من أصل جنابي، وقد كانت النّاقة ذَلولاً وكذلـك سـيدةً تتمتّـع بمنزلـة رفيعة كجـزء من مغانـم إحدى الغـزوات قبـل أن تلقى مصيرهـا المحتوم. سـألت خويتم ذات مرة – وهو أول رسـول عمل لدي، وأحد أبناء قبيلة الرّاشـد التي اسـتقرّت الآن في ظُفـار – قائلاً: «كيف تصف لحـم الجمل مقارنة بلحم البقر؟» فقال: «إنّه أفضل بكثير!». فسـألته: «وماذا عن لحم الضّأن؟» فقال: «إنه يفتقـر لنكهة لحم الجمل المميّزة». فسـألته: «ما هي أجـزاء لحم الجمل الألذّ طعماً؟» فأجاب: «بالنّسبة للقعود (الجمل الصّغير) فالأجزاء السّفلية هي الألذ طعماً». فسألته: «وماذا عن نخاع عظم الفخذ؟»[1].

(1) كتب المؤلف: كانت لكل قبيلة بدوية أصيلة علامة مميزة ذات تصميم غاية في البساطة على الرّغم من دلالاتها ومغزاها القتالي. يختم عادة وجه وعنق وجزء من الأجزاء الأربعة للجمل بهذا الخاتم. لكل بطن من بطون القبائل حالياً وسمها المميز الخاص بها.

فقـال «إنـه من أطيـب أطايب الطّعـام، انتظر وسـتتبيّن بنفسـك. «فسـألته: «وكيف سـتطهو لحم الجمل؟ على نار خفيفة، أم ستشويه؟» (يمكن شيّ اللحم بطريقة العصر الحجري وذلك بجمع كمية من الحجارة من السّـهل العشـبي الواسـع) فأجاب قائلاً: سنسلق اللحم، ولكن ليس لدينا ملح للأسف. والله لو كان لدينا ملح، لكنت حكمت على هذا الحساء بما يستحقه».

قلت في نفسـي: «أه... يا للمحـبّ الأعمى!» أمّا رأيي الشّـخصي فإنّ لحم الجمل لحم عسير المضـغ مليء بالألياف، وعندما يسـلق، ولا مفر من سـلقه، فـي ماء مالح قليلاً ودون إضافة دهون أو سمن، فإنّه يسبّب عسر هضم ويسدّد لطمة لحاسّة الذّوق. سـيقت النّاقة بنت شنتوف bint Shantuf المسـكينة إلى مكاننا ثم حُفرتْ حفرتان في الرّمال تحت رجليها الأماميّتين الموثقتين وقام بدوي بمسـكها من ذيلها وآخر بجذب شفتها العلوية لإجبارها على الرّجوع برأسها إلى الخلف ليغدو بمحاذاة جسدها، وهو وضـعٌ يفقدهـا القدرة على المقاومة. شـحذ محمّـد، الذي كان يتقن فـنّ الجزارة أكثر مـن طـرد الأرواح الشّـريرة، جَنبيّته خصّيصاً لذبـح النّاقة، حيث انحنـى على الأرض، على الجانب الذي لا تسـتطيع النّاقة رؤيته منه وسـدّد طعنة نجـلاء إلى منتصف عنقها الـذي انبثـق منه نهر من الدّماء، بينما انهمك محمّد بشـق رقبتها مـن الوريد إلى الوريد وهو يردّد «بسـم الله الرّحمـن الرّحيم» ثم مضى في غرس نصل جَنبيّته وشـق عروقها وقصبتهـا الهوائية حتـى وصل إلى العظم، وكانت كفّاه ويداه تقطـر دماً. ترنّحت النّاقة بيـأس وأصـدرت عدّة نخـرات وقرقرات واهية ثـم هوت راقدة بلا حـراك، وقد تدلّى عنقها الضّخم إلى جانبها كشـجرة سـاقطة تعلو عينيها نظـرة زجاجية جامدة. لم أرَ في حياتي جماعة البدو في موقف أكثر فرحاً وابتهاجاً من هذا الموقف، فترقُّب وجبة طعام دسمة أصابهم بحمّى الاهتياج والفرح العارم، فهبّوا يسلخون ويقطعون من لحم النّاقة بفؤوسـهم الصّغيرة وسكاكينهم، وسـرعان ما تراكمت خمس أكوام من اللحم الطّازج فوق الرّمال. إذ كانت قافلتي تتكون من خمس مجموعات من البدو في المخيم.

أُطلقت صرخة ابتهاج عند حلول لحظة سـحب القرعة، وفق عُرف الصّحراء. تقدّم

خمسـة ممثلين عن كل مجموعة من البدو في المخيم ثم جيء بغطاء رأس ووضع كل ممثل حزام طلقاته بعد أن وضع عليه علامة مميزة، ثم ضُمّت أطراف غطاء الرّأس معاً ورُجّـت عـدة مرات لخلطها، ثم قام احدهم بسـحب أحد الأحزمة مـن الصّرة بصورة عشـوائية، وما إن سُـحب حزام طلقـات احد البدو، حتى حصل صاحـب الحزام على حق انتقاء القطعة المفضلة بالنّسـبة له من اللّحم قبل الآخرين. تكرّرت عملية السّحب أربع مرات، وعند سحب آخر حزام، كانت آخر قطعة لحم من بنت شنتوف قد اختفت. انتشـر البدو باحثين بلهفة عن حطب للشّـواء والطّهي، فما إن يُذبح الحيوان حتى يلقى برأسه في القدر.

إنّ سـيكولوجية العرب والمناخ الصّحراوي الحارق يحولان دون التّأخّر في طهي اللحـم. فالنّاقة التي سـارت إلى مكان حتفها قبل سـاعة من الزّمـن، باتت الآن تتقلّب على جمر المواقد وتتساقط منها الدّهون مصدرة نشيشاً محبّباً ورائحة شواء تسرّ قلوب وأنوف أولئك المتحلّقين حولها بلهفة ينتظرون التهامها.

بالطبع لم يتم التهام بنت شنتوف بالكامل، لأن قدراً كبيراً من اللحم سيتم الاحتفاظ به لسـد النّقص في مؤننا. كان رفاقي البدو سـيقطعون شـرائح رفيعـة طولية من اللحم الفائض ثم يجففونها كاللحم المقدّد وذلك بتعليقها على سـروجهم وتعريضها لأشعة الشّمس. وقد كانوا يتذوّقون قضمة منها من وقت لآخر متباهين بروعة مذاقها.

مـا إن انتهت صـلاة العصر حتى انقضّوا على معدة النّاقة الكبيرة اللامعة ووضعوها فـوق شـجيرات كثيفة الأغصـان (أجمة عَبْل) وحفـروا تحتها حفرة دائريـة بقطر ياردة واحدة، ثم بطّنوها بجلد عنق بنت شـنتوف لمنع تسـرّب السّـائل، ثم قاموا بثقب مثانة بنت شنتوف فوق تلك الحفرة فسالت محتوياتها مكوّنة بركة من السّائل الأصفر.

حبا البدو على أيديهم وأرجلهم وبدأوا بارتشـاف ذلك السّـائل من البِركة، ثم قالوا بأنه ألذّ بكثير من مياه الصّحراء الملحي.

لـم أبرح مكانـي فجراً، لكنّ خادمي محمّداً أخبرني بأنه ما إن اسـتيقظ البدو من آل

راشد على صوت المؤذّن لصلاة الفجر، حتى اندفعوا بابتهاج للارتشاف من الحوض[1] قبل أن يصطفّوا لإقامة الصّلاة.

عندما وصلنا إلى شَنَّة أحضر لي أحد البدو رأس سهم مصنوع من حجر الصّوّان بحرفية ومهارة وادّعى بأنه عثر عليه بالقرب من عين الماء، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. إنّ رأس السّهم ورأس الرّمح الكبير المصنوع أيضاً من حجر الصّوان والذي كان يملكه عربي آخر، كانا كلاهما في صحراء السّنام. لم يكن المالكان اللذان اشتريتهما منهما على علم باستخدامهما الأصلي، ولكنني توصّلت إلى أن تلك الأحجار يجري التقاطها في بعض الأحيان من الصّحراء وتستخدم لإشعال النّار. لقد عرضتُها على حَمَد بن هادي كي ينقّب لي عن أحجار مماثلة، ممّا يعود على كلينا بالفائدة لكنه أعلن بأنها لا تثير اهتمامه قط، حيث أنّ حَمَد لم يكن يتذوّق أو يقدّر الجمال، ناهيك عن علم الآثار. أكّد حَمَد أنه على بعد مسيرة يوم واحد فقط غرب شَنَّة سنجد الكثير من الأحجار التي تبدو أكثر إثارة للاهتمام، حيث توجد عليها صور آلهة وتماثيل قد يكون أبناء أدم قد قاموا بنحتها في العصر الحجري والله اعلم. تقع تلك البقع التي يُطلق عليها اسم «شِجّ المصاوير» (شِقّ المصاوير)، وسط كثبان قعاميّات الرّملية. إن اسم (وادي الصُّوَر) يبشّر بالخير الكثير، وبما أنه ليس من الحكمة في شيء أن أترك المجموعة الرّئيسة، فقد أرسلت حَمَد نيابة عني ليحضر لي عيّنات منها نظير مكافأة مجزية. عاد حَمَد بعد ستة وثلاثين ساعة ومعه حجر يشبه الضّلع بطول قدمين، وآخر دائري انسيابي بقطر قدم ونصف يبدو وكأنه تجويف حوض إحدى الزّواحف القديمة، بالإضافة إلى عيّنات صغيرة متنوعة من الأحجار الغريبة التي تشبه

---

(1) كتب المؤلف: يسمّى الفضّ *Ilfadh*. إن قبيلة المَهْرة، حسب كلام حَمَد، وعلى العكس من ذوق سكان جنوبي جزيرة العرب، لا يستسيغون الفضّ بدرجة كبيرة ولا يشربونه إلا عندما يعانون من الظّمأ الشّديد الذي لا يوجد ما يطفئه سوى الفض. تطلق قبيلة الرّاشد عليه اسم الثّض *althudh* فيستبدل حرف الفاء بالثّاء، وقد لاحظت هذه الاختلافات المميزة في طريقة النّطق في كلمات أخرى.
قلت: هذا ما تبيّن لي في قراءة الكلمتين كما أثبتهما المؤلّف، وأتمنى لو يفيدنا بعض أبناء قبيلتي المَهري والرّاشدي بذلك.

لوسپوپن Losspuppen أو أحجار الحوريات. من الواضح أنّ هذه الأحجار كانت من فعل الطّبيعة، فالاثنان الكبيران الحجم كانا يشبهان بقايا حيوان متحجّر، ولكن اتّضح أنهما من حجريات من الصّخور الرّملية[1]. وضع حَمَد الحجريات أمامي على الرّمال وقال لي «هاكَ يا صاحِب»، بينما رمقه رفقه البدوي بنظرة استياء وتذمُّر لأنه أضاف حملاً وعبئاً جديداً على كاهل الجمال. قلت لحَمَد: «ما هذه الأشياء؟ أنا لا أعرف ما هي!». فأجاب قائلاً: «أظنّها والله أعلم من صنع بني هلال». وأومأ الحاضرون برؤوسهم موافقين بالرّأي. إنّ قبيلة بني هلال هي اسم يعتدّ به في طول البلاد وعرضها وكذلك في شمال إفريقيا.

إنّ اسمها يمثل قبيلة ينسب إليها كل بئر وكل أثر من أثار الأزمنة الغابرة ورغم اندثارها، فإن اسمها لا يزال يتردّد على السّنة النّاس. إنّ قبيلة بني هلال هي ينبوع فلكلور الصّحراء الجنوبية، وما من بدوي إلا ويملك في جعبته رواية عن أبطالها الأسطوريين، يرويها بشكل أبيات من الشّعر بلغته المفضلة. وقد سمعت القصة نفسها من أشخاص مختلفين وكانت مطابقة للرّواية الأصلية في كل مرة، ليس لأنّ لديه ولد اسمه زيد، بل لأنه سيّد الفضائل - أي رجل له صفات من أسمى الصّفات الإنسانية وأكثرها نبلاً. لم يكن اسم عنتر مألوفاً بالنّسبة لساكني الرّبع الخالي البعيد، لكن أساطير بو زيد وقريبه ذياب بن غانم، وهو بطل آخر من أبطال القبيلة، منتشرة ومتداولة بشكل كبير.

يقال إنّ ديار بني هلال القديمة تقع في وادي مَرخة Marakha على الأرض التي تسكنها الآن قبيلة دهم[2]. ويقال إنّ بئر بير جوفة Bir Jaufa الضّخم بمعداته الثّلاثين لا يزال قائماً حتى يومنا هذا كنصب صَرح مجيد.

كان كل فرد من أفراد مجموعتي يحفظ بعض الأبيات من الملحمة البطولية لبني هلال في أوج مجدهم وأفوله. أمّا صالح فقد كان يحفظ الملحمة عن ظهر قلب!

---

(1) كتب المؤلف: انظر الملحق 2.

(2) قبيلة دهم من القبائل البكيلية الهَمْدانية القحطانية المعروفة، لهم سطوة ونفوذ في مناطق واسعة من شمال اليمن ممّا يوالي أطراف الرّبع الخالي الجنوبية بين شرورة ونجران. ويرعون رملة دهم ولا يتعمّقون في الصّحراء.

وتمجّد القصيدة البطولية أجداد بو زيد الذين بلغ عددهم مئة ألف، بل مئتي ألف فارس، ممتطياً صهوة جواده، وتسرد محنة القحط والجفاف الذي ضرب أرجاء الأرض مع انقطاع هطول المطر لمدة ثلاثين عاماً، حتى أن الإبل لم تجد بديلاً عن أكل وبر بعضها وهلكت عن آخرها بصورة مثيرة للشّفقة. أما مالكو الإبل فحاولوا عبثاً أن يحفروا الأرض بحثاً عن الجذور التي قد تسدّ رمقهم. حتى الرّياح أبت إلا أن تسهم في هذه المأساة، فلم تهبّ نسمة هواء واحدة، حتى أن مسحوق الوَرس[1] النّاعم الذي كانوا قد وضعوه على قمّة مَرخة، وُجد بعد عام ولم تتحرّك منه ذرّة واحدة من مكانها. عندئذ استنجد قوم بني هلال بأبيهم قائلين: «إنّ النّاس تتضوّر جوعاً ولا بدّ أن نأخذ مؤناً وطعاماً من التّجار كي نسدّ رمقهم». لكن أباهم رفض رفضا قاطعاً على الرّغم من أنه كان يتضوّر جوعاً، وكانت القلعة نفسها تئنّ من الأسى والكمد. لكن معظم القصص تركّز على الجيل اللاحق من بني هلال حينما تحولت القبيلة إلى قبيلة فقيرة مرتحلة تقوم بشنّ الغارات على سكان عريشة Arisha الأصليين بزعامة الملك الزّناتي. كان بو زيد بطل بني هلال في تلك الفترة مديناً بقدراته الخارقة لأمّه التي كانت تنتمي لقبيل من الجن (من نسل الجن) ممّا جعله أكثر مناعة من الحديد، سواءٌ كان سهماً أو سيفاً أو حربة من الحديد. وظل بو زيد يتمتع بهذه المناعة حتى شهد أن لا إله إلا الله، فقامت الجن بسحب مناعته من مقدّمة جسده التي زال عنها السّحر، ومن بعدها أصبح معرّضاً لخطر الموت مثل كل بشري. وبعض هذه القصص الطّريفة التي سمعتها حول نار المعسكر سأسردها في الفصول القادمة بالتّفصيل.

* * *

لقد قمت بتجديد موقعي الجغرافي فلكياً في شَنَّة. فأنا موجود في الاتجاه الشّمالي الشّرقي من حضرموت، على خط عرض 19° درجة شمالاً وخط طول ′50° 45 شرقاً وارتفاع 990 قدماً. كان هدفي الوصول إلى الدّوحة في شبه جزيرة قطر المطلّة على الخليج

---

(1) كتب المؤلف: نوع من أنواع النّباتات ينتج في جنوب غرب جزيرة العرب ويستخدم كصبغ للجلد في عُمان، ويباع على هيئة ذرور ناعم ذي لون أصفر كناري.

العربي على بعد 330 ميل، وهي نفس المسافة المستقيمة لذلك المحيط الشّاسع من الرّمال القاحلة للوصول إلى السّاحل. يدّعي حَمَد أنه سبق له الذّهاب إلى هناك وأشار بعصاه على بعد ظلّ واحد من جهة الشّمال الشّرقي ممّا كان يتطابق تطابقاً تاماً مع الحسابات الفلكية للموقع الحالي، وكان لزاماً عليّ ألا أظهر معلوماتي الحقيقية في هذا المجال. وبفضل مرشدي (دليلي) المَهْري، تبلورت خطة العمل في ذهني، وبمقتضاها سأخفض مجموعة رفاقي لاثني عشر من صفوة الرّجال والإبل وخمس دواب حمولة من أفضل حال. وهكذا لن تنفد المؤن إلا قبل خمسة أيام من وصول مجموعتي الجديدة، بيد أنه لم يكن بمقدوري أن أقلّص عدد مجموعتي الحالية خوفاً من الغزاة (المغيرين) المحتملين. والتّسكع والتّلكؤ في السّير في الصّحراء باحتياطي هزيل من المؤن لا يعني سوى الموت المحقق. إنّ المحافظة على الحالة الصّحية لرفاقي في السّفر والإبل في أفضل حال تعدّ مسألة حياة أو موت بالمرض أو الخيانة أو الخلاف القبلي أو التّعطل لمدة عشر أيام أو التّقدّم ببطء لا يؤدّي إلا إلى كارثة! إنّ اهتمامنا ينصبّ الآن على النّجاة من المجاعة التي تضرب بأركان الصّحراء بأسرع وقت ممكن. وهذه بعض الأفكار والمخاوف التي يلقيها حَمَد على مسامعي كل يوم. لم نكن نعلم إن كنا سنتمكن من عبور الصّحراء أم لا، فلو لم تكفِ المراعي والكلأ الذي سنمرّ به في طريقنا لسدّ جوع الإبل، فإننا سنضطرّ للاختيار بين المجازفة والاستمرار في السّير وركوب المخاطر أو العودة لأقرب نقطة انطلاق من وجهتنا النّهائية لتجديد نشاط رجالنا وإراحة الإبل والتّزوّد بالمؤن والطّعام، وعندها تكون جميع مشاكلنا على وشك الانتهاء.

لقد كنت على مفترق الطّرق. إن شَنَّة تعتبر نقطة إستراتيجية في رحلة العبور كما إنها نقطة الانطلاق لآخر محطّة لاستبدال مجموعتي الحالية من الرّجال بأخرى جديدة. وما إن بدأ وضع المؤن يتحسّن بعد ذبح ناقة بنت شنتوف حتى عُدنا إلى نقطة الصّفر مرة أخرى مع وصول ضيوف دون سابق إنذار. كانوا مجموعة من خمسة رجال من قبيلتي الكَرب والمناهيل قد عبروا الصّحراء دون مشاكل تذكر قادمين من أبوظبي، وعندما سألتهم عن الطّريق الذي سلكوه فإنهم، كعادة البدو، اكتفوا بالتّلويح بأيديهم

عشـوائياً بتحفّـظ وبرود. وقد قـرّرت أنه ليس من الحكمة بمكان أن أسـأل المزيد لئلّا يبقـوا طويـلاً، ولكن يبدوا أنّ التّمور والقهـوة التي قدّمناها لهم شـجّعتهم على البقاء. وسرعان ما أدركت أنهم سيستمرّون في البقاء طالما انهال كرم رفاقي من قبيلة الرّاشد عليهم دون حسـاب. أدرك حَمَد مع اقتراب شـهر رمضان، ضرورة ترشـيد اسـتهلاكنا للمـؤن. لكن الامتناع عن تقديم واجـب الضّيافة للغرباء طوال مدّة بقاءهم لا يعد فقط انتهاكاً صارخاً لحُرمة قوانين الضّيافة المقدّسـة في الصّحراء بل وصمة على جبين كل رفاقـي من البـدو. لقد كان رفاقـي يرغبون في التّعامـل مع الخطر الـذي يتهدّدنا جرّاء نقص المؤن بصورة مستمدّة من السّيرة المشرّفة لأبي زيد.

كان بـو زيد مشـهوراً بالكـرم في زمانه. لقد قـام بذبح ناقة وراء ناقـة حتى أتى على قطيعـه الضّخم مـن الإبل بالكامـل لإطعام الغربـاء والفقراء وإكـرام الضّيوف. عندئذ اجتمع أربعون بطناً من بطون قبيلة بني هلال وتشـاوروا في الأمر قائلين: «سـيقدّم كلٌّ منا ناقة لأبي زيد حتى يمتلك قطيعاً مرة أخرى». لكن كثرة الضّيوف ورقّة قلب أبي زيد وسماحة نفس دفعته لاستنزاف قطيعه بالكامل مرة أخرى.

وهكذا أُسـقط في يد بني هلال وأدركوا أن لا فائدة ترجى من تملّك أبي زيد لقطيع من الإبل وقالوا: «سنشارك جميعنا في إهداء ناقة واحدة لأبي زيد لتسهيل انتقال زوجه عنـد ارتحـال القبيلة من مكان لآخر، بشـرط أن يقسـم بـو زيد ألا يذبـح النّاقة لإطعام ضيوفه، كما سيفعل حتماً لو لـم نضع عليه هذا الشّرط».

مضت عدة أيام وبنو هلال مسـتقرّين مـع قطعانهم الضّخمة وخيامهم العديدة، إلى أن وصلت مجموعة من العرب قادمة من جهة مكّة وسألوا: «أين خيمة أبي زيد؟»، فلم يردّ عليهم أحد؛ فألحفوا بالسّؤال: «قولوا لنا أين خيمته؟» فجاءهم الرّد «إنها أمامكم»، دون أن يحدّدوا مكانها. فمضوا من خيمة لأخرى وهم يسـألون ذات السّـؤال ويتلقّون ذات الإجابـة، ومـا إن سـمع بو زيـد صوتهم، حتى نـادى على زوجته وطلـب منها أن تعصـب عينيه حتـى لا يرى وجوه ضيوفه الذين لا يسـتطيع أن يقوم بواجب ضيافتهم. أحضرت زوجته شـريطاً من سـلة التّمر وغطّـت عينيه بها، وبعد قليل قـال لها بو زيد:

«انظـري إن كان أحدٌ قد قام باسـتضافتهم بعد»؛ فنظـرت وقالت: «لا، إنهم يقفون أمام خيمـة فلان». وبعد قليل سـألها مرة أخـرى: «انظري إن كان احد قد قام باسـتضافتهم بعـد». فأجابـت زوجته: «لا، لـم يسـتضفْهم أحد بعـد، وقد انتقلوا إلـى خيمة أخرى». وهكذا ما انفكّ بو زيد يسألها المرّة تلو الأخرى وهي تردّ عليه بذات الإجابة حتى شعر بنيـاط قلبه تتقطع بين ضلوعه كمداً وأسـى، ولـم يعد بمقدوره كبح جماح نفسـه، فنزع العصابة عن عينيه وسـحب سـكينه وقام بذبح ناقته الوحيدة في مكان وقوفه عند باب الخيمة وأرسل في طلب الغرباء ليتناولوا وليمة في خيمته.

* * *

كان ضيوفي من أبوظبي في طريقهم إلى ديارهـم عبر السّـهل العشبي الواسع شمال شرق حضرموت، ممّا دفعني لسؤالهم عن سرّ عظمة بير بَرهوت، وهو المكان الوحيد في قلب بلاد العرب الذي يقال بأنه شـهد نشـاطا بركانياً. وفق رواية الدّكتور هوغارث «هذا البئر العظيم الذي لعنه عليَّ وفق رواية كتاب جهان نُما». يتفق ضيوفي مع مرافقي الأوائل أنه لا يوجد نشاط بركاني في بلادهم يرتبط بهذا الوادي الذي يتواجد فيه البئر. خرافات متنوعة وأكثرها تداولاً وشيوعا تلك القائلة بوجود أرواح الموتى من الرّجال الأشرار هناك. لذا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ليلاً حتى يومنا هذا.

عقـد أحد الحضارمة صفقة مع عضو في مجموعتي، حيث بادله ناقته الصّغيرة لقاء بندقيتـه وذخيرته وبعض الدّولارات، ولكن تبيّـن من الجدال الصّاخب الذي صاحب عقـد الصّفقـة أنها تفتقر إلى جـلال وهيبة أعمال بو زيد البطولية فـي ريعان الصّبا. فقد روى لـي رفاقـي أنّ «بو زيد كان يتيماً، وقد قام عمّه الشّـيخ حسـين بن سـرحان بتربيته ورعايتـه. وفـي يوم من الأيام مـرّت جماعة من العرب ومعهـم جمل حمل على ظهره سـيفاً ضخماً هو شـهمان *shahman*. وما إن رأى بو زيد السّيف حتى سأل العرب عما إذا كانـوا يرغبون في بيعه؛ فأجابوا بسـخرية: «نعم، إذا أردت شـراءه فعليك أن تحمله أولاً، لكنـه ثقيـل إلى درجة يتعذّر معها على أيّ كائن بشـري حمله». ثـم أناخوا النّاقة واتجه بو زيد إليهم وحمل السّيف قائلاً: «ليته كان أثقل؛ ولكن لا بأس».

ثــم وضعه جانباً واتجه نحو قطيعه وأحضر ناقة ووضعها في وضع التّزاوج مع أحد البعيرين الذين كانا في عهدته[1]. كان سيقوم باختبار قوة السّيف، فلو شقّ البعير وتحته النّاقة بضربة واحدة سـوف يقوم بشرائه. وهكذا تناول السّيف وتراجع قليلا إلى الوراء ثم هوى به بقوّة هائلة أدّت إلى شطر البعير والنّاقة إلى أربعة أجزاء، ثم عاد إلى جماعة العرب ودفع لهم ثمن السّيف والسّت نياق الباقية، وعاد مبتهجاً إلى كنف عمه.

* * *

كنت جالساً وقت الظّهيرة في شَنَّة في الثّامن من شهر يناير أتبادل القصص والحكايات مـع أصحابـي عندما ظهرت فجأة قافلة صغيرة من العرب في منتصف الطّريق من جهة التّـل. هـبّ أصحابي وبادروا إلـى تلقيم أسـلحتهم النّارية بالطّلقات وباتـوا على أهبة الاسـتعداد للهجـوم. ورغم أننا كنا بانتظار قدوم شـيخ بيت يَمانـي، فإنّهم قاموا بذلك كإجراء وقائي. وسـرعان ما أعاد تلسـكوبي حالة الاسترخاء لنفوس أصحابي الذين ما لبثوا أن تعرّفوا في الرّكب على الشّيخ محمّد بن حَم وخمسة من أتباعه. ترجّل الرّكب على مسـافة من مجلسـنا ثم قادوا جِمالهـم ومرّوا على صف المرحّبيـن واحداً واحداً لتبـادل قبلة الأنف المعتادة ثم جلسـوا معاً يتبادلون أخبـار الصّحراء، الإبل، المراعي، الغارات وما شـابه، وهم يرتشـفون أقداح القهوة والتّمور التي وفّرتُها لهم. كان مسلّم، مرافقـي في بعثتي العام الماضي جالسـاً بينهم، لقد كانت رؤيته مفاجأة سـارة لي بحق ولكن يا للأسف إنّ اسمه لم يُدرج في القائمة التي سلّمني إياها شيخ قبيلته. جاء مسلّم خصّيصاً ليناشـدني أن أدرج اسـمه في قائمة مرافقي أو اسـتبدل أحد المرافقين به. لم

(1) كتب المؤلف: الجمال في هذا الصّدد كحيوانات اللاما والأسود، تتزاوج في وضعية الجلوس، وهو أمر نادر في مملكة الحيوان. إنّ دور الجمّال البدوي ضروري لإتمام عملية التّزاوج، حيث أن عليه أن يحفر في الأرض حول أرجل النّاقة لتسترخي ثم يولج جُردان البعير بوضعية عكس كل المخلوقات الثّديية تقريباً - وبعد مرور بضعة دقائق يتدخل مرة أخرى ويقود البعير بعيداً عن النّاقة. في حالة عدم ظهور علامات الحمل بعد عشرة أيام، يأتي الجمّال ببعير آخر للتّزاوج مع النّاقة. وعلامة الحمل هي قيام النّاقة بهزّ ذيلها الطّويل ورفعه إلى أعلى إذا اقترب منها رجل يريد امتطاءها.

أنتظر طويلاً ففي الصّباح بدأ في تقديم التماسه. لقد كان شاباً بدوياً قحّاً ذا أسنان كبيرة غيـر متناسـقة وعلى لثته وشـم[1]. كما أنّ شـعره عبـارة عن غابة من الجدائل السّـوداء الطّويلة الشّعثاء التي تتدلّى من تحت غطاء رأسه الزّلق. وكعادة البدو، انطلقت كلماته كوابـل من الرّصاصات الجامحة الطّائشـة وظل يكرّر كلامـه دون تلعثم أو تردّد يذكر، ثم انحنى بالقرب مني وهو يتكئ بيده اليسـرى على عصاه المسـتقيمة، التي يستخدمها لركوب الجمل، وبسـط يده اليمنى وضم الإصبع الوسـطى والإبهام على شكل حرف O بالإنكليزية وظل يحرّكها للأمام والخلف، حتى تهيأ لي أنه يقرع باباً خفياً وذلك في محاولـة لإقناعـي بحجته. لن يتخيّـل أيّ غريب غير معتاد على أسـلوب كلام وطريقة تفكير العرب أنّ صوته الملتاع، الصّارخ، والمهتاج، يعبّر عن أسـلوب البدو في طلب جميـل من أحد. لقد أقسـم بالله أن يقول الصّدق وأنني لن أجـد مرافقاً أفضل منه وأنّ دابّته التي تعدّ مفخرة لكل راكب سـتكون رهن إشارتي. كانت خطبته الملتهبة المنمّقة نموذجـاً لأسـلوب تفكيـر وحديث الحـرب لدرجة أنني اتخـذت قراراً بأنها تسـتحق التّسـجيل. قال مسـلّم: «يا صاحِب - تشـوف - أنظر أريد السّـفر معك. تسـمعني؟ أنا أدرى بخبايا وطرق الصّحراء (لقد كنت أعرف أنّ هذا كذب متعمّد) وأنا لدي الحظوة عند الله أكثر من الآخرين. أشـهد الله على ذلك؛ اسـمع! يا طويل العمر. أنا لست مثل سهيل أو أيّ أحد آخر أتسمعني؟».

(إن من السّـهل على سـهيل سـماع صوته مـن على بعد) «لو ألحقتنـي بركبك - ثم التقط أنفاسه - وتوقف لثانية عن الكلام - تشوف - لا أريد أخذ مالي مقدّماً - أستطيع الصّبر - لتشـوف - يا طويل العمر، انظر لناقتي إنها سـمينة والله العظيم - إنّ بإمكانها الوصـول لقَطَر أو أيّ مكان ترغب فيه - أتسـمعني؟ أنا خادمـك دَه حين وغير دَه حين (الآن وفـي كل وقـت).. تشـوف يا طويل العمـر إذا رفضت مرافقتي لـك، فخذ ناقتي معك واجعلها فداك، أنا أخدمك مثل محمّد. أنت تعرفني هل فكرت في الأمر، أنا فتى

(1) كتب المؤلف: خطوط الوشم السّوداء القصيرة إلى أعلى وأسفل اللثة بين الأسنان والوشم يمارس على نطاق واسع، من الجنسين، في جنوبي جزيرة العرب ليعوق نمو الأسنان الطّويلة ويمنع تخلخل الأسنان.

صالح والله العظيم». عندئذ لمس كفي بيده ثم رفعها لشفتيه وقبّلها قائلاً: «لا يهمّني إلا سلامتك»، ونظر لأعلى إلى بعد أن ألقى خطبته البليغة وعاد عدّة خطوات للوراء، منتظراً قراري. وعلى الرّغم من إعجابي بهذا الشّخص الشّرس الهمجي، إلا أنّ معضلة المؤن كبّلت يدَي ومنعتني من زيادة عدد جماعتي، دون أن يكون لديّ مبرّر قوي؛ وهكذا رفضت التماسه، رغم أنني أرغب في اصطحابه.

وفي اليوم التّالي، جاء مسلّم ليودّعني وغادر مبتسماً للّحاق بقبيلته، دون أن يظهر عليه ما يدلّ على حقد أو ضغينة تجاهي، مؤكداً ثقته في حكمة الله التي لا يدركها البشر. لقد كانت مجموعتي على أهبة الاستعداد للانطلاق، فقد وصل الشّيخ صالح ورجالي معه. لقد أحضر رجلاً إضافياً معه لمرافقتي يدعى طالب وهو من قبيلة المَهْرة ومكلّف برعاية قطيع شيخ قطر. وبهذا ارتفع عدد مرافقيّ إلى ثلاثة عشر. مارس مرشدي وصالح عليّ الضّغوط حتى أضمّ طالب للرَّكب، فقد كان العرب لا يتطيّرون من رقم ثلاثة عشر وهو الرّقم الذي وصلت إليه مجموعتي من البدو. وسرعان ما أدركت أنّ طالب كان وبحق أفضل من استخدمتُه، حيث أنه عبر الصّحراء لتوّه هذا العام، بعكس مرشدي وربيعي الذي قام بعبور الصّحراء منذ سنين مضت، كما أنّ غالبية مرافقيّ البدو لم يعبروها أبداً انطلاقاً من خط الطّول الذي سنبدأ منه رحلتنا.

كانت على رأس مؤهلات طالب ادعائه أنه يعرف الطّرق في الجيبان Jiban، وقد كان ذلك يمثّل بالنّسبة لي أهمّية قصوى، حيث أنّ طريقنا يمتدّ إلى هذه المنطقة حيث توجد قبائل الإخوان[1] الذين لا يجب، مهما كلفنا الأمر، أن نتصادم معهم. لقد كان الإخوان مجموعة من المتعصّبين المتزمتين، إنهم، إن صحّ التّعبير پيوريتان (تطهيريو) الإسلام. لقد عُرف عنهم، بين المتزمّتين أمثالهم، التّعصب البالغ وعدم التّسامح مع الأديان الأخرى، ناهيك عن الطّبيعة العسكرية الجهادية لعقيدتهم. فبالنسبة لهم، حتى رفاقي أتباع المذاهب السُّنّية الإسلاميّة (جنوبي جزيرة العرب الشّافعية ومُرّة الحنبلية)

(1) كتب المؤلف: إن العناصر التي نخشاها تنتمي لبني حجر ولبطنين من قبيلة المَهْرة: فهيدة Fuhaida و Al Adhaba.

يوصمون بالهرطقة، وكان من المرجّح أن يتبنّوا موقفاً عدائياً مني كوني من غير المسلمين، على الرّغم من أنّني على الأقل تحت مظلّة حكم ابن سعود الاسمية، بل وربما يجرؤن على مهاجمتنا. إنّ التّدخين بالنّسبة للإخوان إثمٌ كبير يستوجب العقاب الإلهي. بما أنّ حياة البدو الرُّحّل مصابة بلعنة نقص المياه، فإنهم لا يجدون مناصاً من انتهاك تعاليم الإسلام التي تفرض الوضوء قبل الصّلاة والغُسل بعد الجِماع. وبما أنّهم كانوا من البدو ثم اعتنقوا الإسلام حديثاً وهجروا البداوة، فقد كانوا ينزعون للتعصّب والتّشدّد. إنّ محمّد خادمي الشّخصي من مسقط، وهو على أيّة حال ليس نموذجاً يحتذى به، قد عرض وجهة نظر الإخوان المشكّكة في صحة عقيدة البدو الرُّحّل وكأنها وجهة نظره الشّخصية، ففي يوم من الأيام نظر إلي رفاقي البدو قائلاً: إن هؤلاء البدو لا يعيشون كبقية خلق الله. فسألته: كيف ذلك؟ فأجاب: إنهم يتحملون البقاء دون ماء لأشهر. إنّ أبناء أدم لا يتحمّلون ذلك، كما أنهم يجامعون ولا يغتسلون بعده فكيف ستُقبل صَلاتهم؟





نوعيّة الرّمال المألوفة في منطقة الدّكاكة



ذبح ناقة تحتضر لأجل أكلها



دليلاي المُرّيان: حَمَد بن هادي وطالب

الفصل السّابع عشر

الانطلاقة نحو الشّمال

حانت ساعة الصّفر للانطلاق نحو الشّمال، واتجهنا نحو شَنَّة Shanna في السّاعة الرّابعة ظهراً في العاشر من يناير عام 1931. كنت أفضّل المبيت مبكراً في رحلتي لأنني كنت متعباً بعد قضاء يوم حافل بتسوية الحسابات مع مرافقي القدامى ودفع مقدّمات الأجور لمرافقي الجدد. كان هناك سببان مقنعان لهذا التّأخير. أولاً: ضرورة الانتقال لمكان آخر قبل البدء في توزيع حصص المؤن بين مرافقي في الرّحلة من البدو، خشية أن يطمع زوّار وأقارب مرافقي البدو الذين حضروا من حضرموت بحجة وداعهم، ثم تلكّأوا حتى اللحظة الأخيرة طمعاً في أن ينالهم حظ من حصص المؤن. كان من المستحيل أن أقوم بتوزيع حصص المؤن في وجودهم دون إعطائهم نصيباً منها أو أسمح لمرافقي أن يفعلوا ذلك. ثانياً: يعتبر مرشدي وربيعي أن يوم السّبت هو أنسب يوم لبدء رحلة، أما يوم الأحد فلم يكن مقبولاً على الإطلاق[1].

---

(1) كتب المؤلف: إنّ الأيام المناسبة وغير المناسبة ستصادفها بكثرة في جزيرة العرب. إنّ ثاني وخامس أيام الأسبوع تعدّ مناسبة، ويوم الجمعة لا بأس به. أما بطون قبائل المَهْرة فكان ضرباً من المستحيل أن يقوموا بشنّ غارة أو بدء رحلة يوم الأحد، أمّا يوم الجمعة فإنهم لا يفعلون ذلك قبل صلاة العصر أبداً. إنّ أول يوم لظهور القمر يعدّ يوماً جيداً بغضّ النّظر عن اليوم الذي ظهر من أيام الأسبوع. أخبرني الكَرب والبدو من حضرموت ببعض المعتقدات الخرافية التي قد يكون مصدرها عبادة النّجوم في العصور الغابرة في جنوبي جزيرة العرب):

أ - عند مرور القمر في منطقة برج العقرب الذي يستمرّ لمدة خمسة أيام، فإنه من غير المناسب القيام بأيّ نشاط. فمن غير المقبول شنّ غارة أو القيام ببدء رحلة أو ما شابه ذلك.

ب - إنّ مدّة القمر يبدأ بعد سبعة أيام من ظهور القمر ربع القمر، ويكتمل القمر عقب خمسة

مكّننا المرورُ بأوّل قمّة رملية شاهقة من تحقيق هدفٍ مزدوج، الحفاظ على حياتنا، وتجنّب مخالفة المعتقد الخرافي. عندما توقفنا لقضاء الليل، قمنا بنزع أقتاب الجمال وتقييد وشدّ قوائمها بالشّكال واقتيادها لأقرب مرعى، بينما متّع راكبو الهجن أعينهم بمشهد الطّعام الوفير، الذي قلّما يرونه، بل وشاركوا بالتهامه. قام كل منهم بسحب حصّته من السّمن ووضعها في إناء مصنوع من جلد السّحلية يوضع دوماً في حقيبة سرج النّاقة. وفي هذه الأثناء قمت بتسليم المؤن الأخرى، دون أن أضعها في أكياس، بين ثلاثة مجموعات كوّنها رفاقي البدو. إنّ مشهد التّمور والأرزّ والطّحين أدخل الحبور إلى قلب الرّجال الذين اعتادوا على الجوع، فأضحوا في حالة مزاجية ملائمة لرواية القصص. لم يحتج صالح، الذي ترأس مجموعة توزيع التّمور، لإقناع وإلحاح كثير من البدو لكي يروي قصة أخرى من قصص بو زيد.

* * *

كان لبو زيد زوجة، ولكنه لم يرغب في الاتصال الجنسي الكامل معها، وكان معتاداً أن ينزع قبل القذف. لذلك، فقد ساورته الشّكوك في نَسَب أبنائه، وشك أنّهم من صُلب رجل أخر، كما أنّ القبيلة لاحظت عدم وجود تشابه بينه وبين ولديه. لذلك، فقد لجأوا سرّاً لأخت بو زيد وقالوا لها إنّ بني هلال لا بدّ أن تحظى بولد من صُلب بو زيد. لأجل ذلك ذهبت الأختُ إلى سرير أخيها بو زيد، وعندما استلقى بو زيد في فراشه منعه الظّلام الدّامس من التّعرّف إلى أخته، فجامعها ظنّاً منه إنها زوجه. ولكنه ما إن وصل إلى مرحلة القذف وأراد أن ينزع، حتى كانت أخته مستعدّة لهذه اللحظة، فوخزته بإبرة كانت قد أحضرتها معها، فأولج بدلاً من أن ينزع؛ وهكذا حققت أخت بو زيد هدفها

عشر يوماً ويدخل في ربعه الأخير بعد اثنين وعشرين يوماً. ويتم اللجوء لمدّة القمر لمعرفة الاتجاهات التي يجب أن نسير عليها في رحلتنا.

إنّ أيام الأول والحادي عشر والعشرين أو ما يطلق عليه الدّوار مناسب للحركة في أيّ اتجاه كان. أمّا نصف الدّائرة باتجاه شرق - جنوب - غرب فهي تنقسم إلى عشرة اتجاهات تتطابق مع الأيام، فعلى سبيل المثال: الاتجاه الثّالث من الشّرق يتزامن مع اليوم الثّالث والثّالث عشر والثّاني والعشرين من الشّهر القمري.

وحملت بولدٍ في الوقت المناسب[1]. وأصبح هذا الولد يدعى عزيز بن خاله.

كبر عزيز وأصبح شاباً قويّ البنية يتحلّى بالشّجاعة وفضائل أخرى كثيرة. مرّت السّنون وأراد بو زيد أن يعرف أيّ من أبناءه الثّلاثة من صُلبه حقاً، لذا قال لأكبر أبناءه: تعال لنذهب في رحلة، ثم جهّز كيساً من الطّحين ووضع فيه تمرة واحدة. عندئذ أعدّ الشّائب والشّاب راحلتيهما وسافرا حتى وصلا لسهلٍ قاحل أجرد كظاهر اليد، باستثناء شجرة سِدر وحيدة. قال بو زيد: «سنتوقف هاهنا وسأضجع تحت شجرة السِّدر بينما تعدّ لي طعاماً». وفيما هو نائم، بحث الشّاب عن حطب فلم يجد لأنّ الشّجرة لا تزال خضراء؛ وعندما فتح كيس الطّحين ورأى التّمرة التهمها وسرعان ما استيقظ بو زيد وقال: أين الطّعام؟ فأجابه ابنه لم أعدّ الطّعام لأني لم أجد حطباً، وعندما فتحت الكيس لم أجد سوى تمرة واحدة فأكلتها. فقال بو زيد على الفور: «إذا لا بدّ أن نعود أدراجنا». وبقيا في خيامهما عدة أيام ثم توجه بو زيد لولده الثّاني قائلاً: هيّا سنذهب في رحلة. ومرّة أخرى جهّز كيس الطّحين وبداخله التّمرة الوحيدة مثلما فعل من قبل. بدأ الاثنان رحلتهما حتى وصلا إلى السّهل ذي شجرة السِّدر الوحيدة، فقال بو زيد: «لا بدّ أن أنام هنا وتقوم أنت بإعداد وجبة طعام لي». بحث الشّاب عن حطب فلم يجد، ولما فتح كيس الطّحين ورأى التّمرة، أكلها على الفور.

استيقظ بو زيد وطلب وجبة الطّعام فلم يجد شيئاً، وأجابه الشّاب نفس إجابة أخيه. وهكذا عادا للدّيار. مرّت بضعة أيام أخرى، ثم التفت بو زيد وانطلق الرّجل العجوز والشّاب في رحلة حتى وصلا إلى نفس السّهل الخالي إلا من شجرة السِّدر. قال بو زيد «لا بدّ لي أن أنام، جهِّز لي وجبة طعام». بحث عزيز عن حطب في السّهل فلم يجد، فجلس يفكر حتى اهتدى إلى استخدام الخشب الجاف الخاص بأقتاب الجمال وعصيّ الرّكوب التي تصلح لإشعال النّار. وهكذا أشعل النّار ثم قام بتشذيب أغصان من شجرة السِّدر باستخدام جَنبيّته وشكّلها على شكل سروج جديدة وعصيّ لركوب

---

(1) قصّة غاية في القبح، لكنها بالفعل ترد على هذا النّحو في قصّة أبي زيد الهلالي بتغريبة بني هلال، وتبقى العهدة على كاتبها.

الإبل. وهكذا خبز عزيز رغيفين من الخبز له ولبو زيد، وعند اكتشافه التّمرة الوحيدة، قسمها نصفين واضعاً كل نصف تمرة على رغيف الخبز. ثم أيقظ أبيه قائلاً: «انهض يا أبتاه وتناول طعامك». وعندما رأى بو زيد ما فعل الشّاب عزيز أعمت نار الغيرة بصيرته[1] وقال لنفسه: «لا بدّ لي من قتل عزيز، فهو أفضل مني!»، ثم رسم خطّة لقتله.

وفي صباح اليوم التّالي غادرا متوجّهين لعين الماء البعيدة، وفي منتصف الليل نهض بو زيد وتسلّل خلسة نحو ناقة عزيز وغرس إبرة في خُفّها كي تصبح كسيحةً لا تقوى على السّير.

ثم اعتلى ظهر ناقته بهدوء وغادر تحت ستار الظّلام الدّامس تاركاً عزيزاً لقدره، أملاً في أن يهلك من العطش. وما إن استيقظ عزيز في الصّباح حتى اكتشف المكيدة الشّريرة التي حاكها بو زيد ضده، فطفق يغرس الإبرة في أقدام النّاقة الثّلاثة الأخرى. وبهذا كانت كلّما وضعت قدماً على الأرض دفعها الألم الحادّ لرفعها ووضع قدم أخرى التي ترفعها بدورها جراء الألم الشّديد. وهكذا رفعت قدماً وخفضت قدماً وسارت للأمام. سلك عزيز طريقاً آخر غير الطّريق الذي اختاره بو زيد، فوصل أولاً لعين الماء وهناك أدركه التّعب والإرهاق فاستلقى طلباً للرّاحة، ولكن خشيته من غدر بو زيد دفعته لوضع درعه على جسده ثم ألقى عباءته عليه لإخفائه من عيون بو زيد، الذي وجده على هذا الحال فألقى عليه رمحه مستهدفاً غرزه في قلب عزيز، ولكن ما إن ارتطم الرّمح بالدّرع حتى انزلق وأيقظ صوته عزيز فهب واقفاً وتنازع مع أبيه حتى نزع الحربة من يده وقال: «أنا رجل أقوى منك وأنت الآن تحت رحمتي، ولكنك أبي وخالي في آن واحد، لذا سأعفو عنك». وكذا تأكّد لبو زيد أنّ عزيزاً ابنه من صلبه واغرورقت عيناهما بالدّموع وانهمرت مبلّلة أعناقهما وعادا معاً يخيّم عليهما الصّفاء والحُبور.

---

(1) كتب المؤلف: لم يتحمّل بو زيد أن يكون عزيز ندّاً له في أيامه الأخيرة، فقام بقتل ذياب بن غانم وهو محارب وصياد عظيم، وعلى الرّغم من أنه كان متزوجاً من إحدى أخوات بو زيد فإن ذلك لم يشفع له. وعندما كبر ابن ذياب قتل بو زيد ثأراً لأبيه وهذه هي عادة الأخذ بالثّأر عند العرب.

وما كاد صالح ينتهي من رواية القصة، حتى انفضّ المجلس لأداء الصّلاة قبل تناول العشاء.

* * *

في اليوم التّالي، وعلى غرار الأيام السّابقة، بدأنا مسيرة اليوم الرّابع بالضّبط، برجال وإبل جديدة، وكان اليوم قصيراً وصاخباً للغاية. توقفنا أكثر من مرّة من أجل تعديل حمولة الجمال، كما كان البدو يتشاجرون بوقاحة فجة حول وزن الحمولة في حزام القتب. استمرّت المشاحنات في إعاقة تقدّمنا في المسير، بحيث أننا عندما توقفنا لقضاء الليل لم نكن قد قطعنا أكثر من اثني عشر ميلاً. استمرّت هذه المشاحنات حتى توصّلنا إلى وضع نظام يقضي بتغيير حمولة الجمال كل يوم بترتيب منظم لضمان المعاملة العادلة للجميع، الأمر الذي أعاد الهدوء والسّلام إلى المخيم.

كان أحد البدو، وهو الأكثر هدوءاً بين الآخرين، قد قام بقصف فرع من نبات العَبل وأمسكه بالمقلوب ليريني كيف كان الماء يتساقط من ساقه النّدي وقال: «إنّ هذا النّبات هو السّر الذي يجعل الجمال تتحمّل العطش الشّديد لأيام عديدة». توجّهنا في اليوم التّالي إلى الجهة الشّمالية في وقت مبكر ومررنا بتلّ كبير أبيض اللون يدعى أبو خشبة.

* * *

وصلنا عصراً لمجموعة من الكثبان الرّملية المنعزلة التي أطلق عليها «قصمان» Gusman كاسم للمكان التي توجد فيه. وهي تعدّ علامة على بدء حدود الدّكاكة المتجهة للشّمال الغربي.

تقع الدّكاكة في قلب الحاجز الرّملي العظيم الممتد على طول الحدود الجنوبية للبلاد، وهي تتكوّن من محيط من الرّمال الشّاسعة المائلة للصّلابة والكثبان الرّملية المنخفضة التي تمتدّ في جميع الاتجاهات على مدى البصر. يبلغ ارتفاع هذا الحاجز الرّملي العظيم حوالي ألف ومئة قدم في الجنوب إلى سبعمئة وخمس وثمانين قدماً في مكان تواجدنا. أمّا محورها الطّويل فيمتدّ باتجاه شرق - شمال - شرق ويستغرق

اجتيازه مسيرة سبعة أيام متواصلة. وعندما سرنا نحو الغرب، أخذت تضاريس الدّكاكة تزداد وعورة وتعقيداً وازداد عمق أبار المياه إلى ثمانية عشر قدماً في الشّرق، وثمانية وسبعين قدماً في شَنَّة (مقياس عمق المياه يساوي ستة أقدام). أما بئرا الماء التّوأم، زويرة Zuweira وطويرة[1] Turaiwa، فكانا أكثر عمقاً من شَنَّة التي كانت على مسيرة يوم من طرفها الغربي. ويقال إنّهما يقعان في الاتجاه الجنوبي الغربي. أمّا خلفهما من جهة الغرب، فيقال إنّه لا يوجد ماء في رمال[2] القماعيّات والحوايا والشّويكلة الممتدّة باتجاه نَجران.

اقتفت قافلتنا في ذلك اليوم آثار أقدام قطيع صغير من الجمال، وقد تعرّف دليلي وربيعي على راكبيها قائلاً: إنهم من أقربائي وتدلّ وجهتهم على أنهم قد سقوا جمالهم مؤخراً.

لحقنا بالرّكب سريعاً وطُلب مني أن أترجّل أمام خيمتين صغيرتين لعيادة رجل مريض هزيل طاعن في السّن يشتكي من العلّة التي يشتكي منها الجميع، وهي ألم في المعدة. كان الرّواشد يعزون مرضه للعفريت، وهو أكثر الأرواح الشّريرة خطراً أو استعصاءاً على المعالجة؛ أما مريضي فيعزو مرضه لقضاء الله وقدره. المُسكّن الوحيد الذي كان بحوزتي هو حفنة من التّمر أواسيه واخفف عنه بها، وهي بالطّبع أخر شيء يرغب فيه هذا البائس المسكين.

يُصار إلى شرب بول النّاقة الصّغيرة بمقادير بسيطة لعلاج العلل المماثلة، ويفوقه في الأثر قيء النّاقة، وهو أقل تحفيزاً للعطش، فهو يقضي على الحشرات والآفات؛ وكم من فاتنة من فاتنات الصّحراء تضعه على شعرها. كان في الخيمة أيضاً امرأتان وطفل، وكانتا منقّبتين مثل النّساء في الصّحراء، ولكنهما لم تبديا استياءً أو تذمّراً من

(1) يكتب المؤلف الاسم بطريقة مغلوطة: تريوة، والصّواب ما أثبتناه حسب لفظ أبناء المنطقة: زويرة وطويرة.

(2) كتب المؤلف: إنّ طريق الغُزاة الذي يمتدّ من الصّحراء حتى حضرموت مقتصر على الجهة الغربية والشّمالية الجنوبية عبر صحراء الدّكاكة الغربية وخرخير، ومن هناك تنعطف غرباً على امتداد الحدود الجنوبية للصّحراء عند شريط ضيّق من الأرض يقال له: شقاق المعاطيف.

التحدّث إلى رجل غريب! كانت إحداهما زوجة الرّجل العجوز والأخرى ابنته. أما الطّفل فكان ابن المرأة الشّابة، وله من العمر أربع سنوات، يركض عارياً كما ولدته أمه، ولم يكن مختوناً بعد[1]. عندئذ جاء زوج المرأة الشّابة يحمل أرنباً مشوّهاً بصورة شنيعة، وكان صائدُه، وهو كلب طويل ذو لون بني غامق، يركض بجواره.

لدى جميع رجال قبيلة المَهْرة كلب من هذه الكلاب لصيد الأرانب البرية، ومن حين لأخر، لصيد الرّيم خالص البياض، بينما لا تملك قبيلة الرّاشد والقبائل الأخرى في جنوبي جزيرة العرب أيّة كلاب، كنا نمرّ من حين لأخر في طريقنا نحو الشّمال بآثار أقدام لأحد الكلاب وبالقرب منها أثار أقدام سيده البدوي. كان هناك أحياناً زوجان من أثار الأقدام جنباً إلى جنب، وفي أحياناً أخرى كان بفصل بين كل زوج من أثار الأقدام مسافة غير عادية، إشارة إلى أنّ الحيوان كان يطارد فريسته في ذلك الوقت.

جلستُ في خيمة بائسة تكاد تكفي بالكاد لجلوس رجل بالغ القرفصاء دون أن يضطر ليطأطئ رأسه. نُسجت هذه الخيمة بطريقة بدائية جداً من خيطين يبلغ طولهما عشرين قدماً ولونهما يجمع بين البني الغامق والأبيض. يأتي اللون الغامق من شعر الجمل أما اللون الفاتح فربما يكون من صوف غنم الحَسَا (الأحساء). لقد قامت المرأتان الجالستان في الخيمة بغزل ونسج كل خيط من خيوطها. كانت الخيمة تحتوي على المخرز المستخدم لنسجها وبعض الأوتاد المعدنية الخاصة بالمخيّم ونصب الخيام، وكانت الأخيرة مصنوعة من قرون الغزال. كما كانت القضبان المعدنية المستخدمة لحفر أبار المياه ملقاة هنا وهناك بالإضافة إلى حجر دائري تم جلبه من السّهل الواسع كثيف الأعشاب لاستخدامه كمطرقة وقتبَي جمل ودلاء متنوعة مصنوعة من الجلد الخشن ومثبّتة على إطارات خشبية، كان أحدها يستخدم كخابية للماء والأخر

---

(1) كتب المؤلف: يُختن الذّكور في قبيلة المَهْرة في حوالي سن الخامسة أو السّادسة، أمّا في قبيلة الرّاشد وإلى حدّ ما قبيلة بيت يَماني، فيُختنون في السّنوات الأخيرة وفق ختان البالغين، ولكنهم لا زالوا يتمسّكون ببعض الطّقوس التي تقضي بأن يرفع الصّبي رأسه بشجاعة أثناء عملية الختان، بينما يردّد الحاضرون دعائهم «ياكريم... ياكريم» أمّا قبيلة المَهْرة في الجنوب فلا تزال تمارس عادة ختان البالغين.

كحاوية لحفظ الجلود. لا يملك البدو الرُّحّل من حطام الدّنيا إلا تلك الأشياء القليلة المتواضعة. أمّا جمالهم وأسلحتهم النّارية فهي ثروتهم الحقيقية وأعزّ ممتلكاتهم.

* * *

غادرنا الدّكاكة (خط عرض 19 ° 32′) ودخلنا السّواجِب وهي واحدة من أوسع المناطق في الصّحراء وتستمدّ اسمها الذي يعني محلّياً سلسلة تلال أو مجموعة من سلاسل التّلال الرّملية الممتدّة في صفوف متوازية يفصل بين الصّف والأخر نصف ميل من الرّمال الحمراء الكثيفة قلّما يزيد ارتفاع تلك التّلال عن خمسين أو ثمانين قدماً، وعلى الرّغم من منحدراتها الرّتيبة تعطي انطباعاً بأنها أضخم ممّا هي عليه في الواقع.

يقال بأن تلك التّلال تمتدّ باتجاه الجنوب الغربي خلف قصمان وتطوّق الدّكاكة الغربية حتى تصل إلى الكثبان الرّملية المرتفعة في القماعيّات. وكلما تقدّمنا في السّير شمال شرق كانت المراعي تأخذ بالتّناقص. وقد قمنا بعبور السّواجِب من أقصاها لأقصاها على فترات طويلة ولم يكن هنالك من معلم مميّز في مسيرتنا التي قطعنا فيها ثلاثة عشر ميلاً سوى تلّ مزدوج عملاق يطلق عليه اسم خليلين، إلى أن وصلنا متأخرين عصراً إلى عين الماء بينها[1] Bainha، وقد أظهر البارومتر انحداراً طفيفاً تدريجياً يبلغ مئتي قدم) عندما قطعنا تسعة عشر ميلاً بلغ عمق الماء اثني عشر قدماً.

كان الماء على عمق قامتين، وقد أكمدني الغمّ عندما اكتشفت أنّ تجفيف الحساء لم يخفّف درجة الملوحة الشّديدة ولا اللون الغامق للماء الذي يشبه لون الجعة. وبالفعل أخذ طعم الماء في التّدهور منذ تلك المرحلة من رحلتنا لدرجة أنني توقفت عن شربه. بيد أنني كنت أضطر أحياناً لشربه عندما أعاني من الظّمأ الشّديد وأنا أمتطي النّاقة أو بين الفينة والفينة عندما نتوقف للاستراحة بإضافة الكاكاو إليه وذلك لأنه يتسبّب بالإسهال الشّديد. يقال إنّ الماء على الحدود التي تمتدّ إلى اتجاه الشّرق شديد الملوحة وقد كانت قبيلة الرّاشد التي كانت تقيم هناك من وقت لآخر، تمتنع عن شربه

(1) كتب المؤلف: أطلق عليها هذا الاسم لأنها تقع بين عين ماء بير هادي والبْواح. قلت: واسمها الفعلي: «خور بينها».

وكانت الجمال نفسها ترفض شربه في بعض الأماكن لشدة ملوحته.

اعتمدت على حليب النّاقة فقط في نظام غذائي ولكن كمّية الحليب أصبحت محدودة لأن النّاقتين الحلوبتين اللتين حصلت عليهما بعد مشقة وعناء كانتا تقتربان من فترة نهاية إدرار الحليب، حتى أنني اضطررت في بعض الأيام لخلط الحليب مع الماء ليكفي لأروي ظمأي. إنّ لهاتين النّاقتين الفضل في اللياقة البدنية التي كنت أتمتع بها خلال الرّحلة على الرّغم من أنني خسرت ما يقرب من عشرة كيلوغرامات من وزني.

لقد اكتشف بئر بينها التي سقينا فيها وحفرها، مرشدي (دليلي) حَمَد بن هادي. ولقد أعربت من قبل عن مدى تقديري وإعجابي بقدرات حَمَد كدليل. إنّ الإرشاد إلى الصّحراء لا يعتمد على ذاكرة الاتجاهات فحسب، بل على حَدس وبديهة حاضرة ويقظة تستشعر من خلالها أماكن وجود الماء والمرعى بالإضافة إلى القدرة على فك شيفرة وطلاسم الرّمال وتجنّب الشّرور التي قد تقودنا إليها الآثار المرسومة على وجه الرّمال. لا يملك كل عربي يولد في الصّحراء القدرة على الإرشاد إلى الطّريق، ففي حقيقة الأمر يضلّ الكثيرون الطّريق ويقضون من العطش، خاصّة عندما يشرد الجمل في الصّحراء صيفاً ويضطر أصحابه لتتبّع أثره ويعتمد عند عودته على تتبع أثار أقدامه أو أثار أقدام الآخرين، وهي أكثر الطّرق أماناً لمن ضلّ الطّريق للوصول إلى الماء.

تمحو الرّياح كل أثار الأقدام، وهي خطر قائم في أيّ وقت ولا يمكن التّنبؤ به؛ فقبل حوالي سبعة أعوام مضت هاجم اثنان من قبيلة المناهيل مجموعة من قبيلة المَهْرة التي تسكن في البادية، وهربا بعد أن قاما بسرقة جمالهم العشرة. وعندما اكتشفت قبيلة المَهْرة السّرقة، كانت أثار أقدام الغزاة الهاربين على الرّمال. لذا قام سبعة من المَهْرة أقوياء البنيان بتتبع أثار أقدامهم التي قادتهم إلى صحراء ضحيّة التي لم يكونوا يعرفون طرقها من قبل. راهن المتعقبون الشّجعان على أنّ الهاربين سيتوقفان عند عين الماء للتزوّد بالماء، فاتجهوا إليها ليكمنوا لهم، وليتزوّدوا في الماء وفي نفس الوقت. لكن المناهيل، الذين كانوا يخشون أن يتعقبهم المَهْرة، كانوا أكثر حذراً فتجنّبوا عين ماء

خور ضحيّة، وتقدّموا بعناء باتجاه الشّمال عبر الصّحراء المميتة. لكن أحد المناهيل الماكرين غافل رفيقه وذهب بمفرده إلى عين الماء وملأ قرب الماء خاصته، ثم عاد مهتدياً بآثار أقدامه من نفس الطّريق لينضم لرفيقه وواصلا السّير.

تتبّع المَهْرة آثار جمال المناهيل لأنهم كانوا متأكدين أنهم سرعان ما سيطفئون ظمأهم عند وصولهم لعين الماء. ولكن قبل أن يلحقوا بالسّارقين، هبّت عاصفة رملية طمست كل آثار الأقدام التي أمامهم وخلفهم. لقد ضلّوا طريقهم تماماً في الصّحراء. وعقب ستة أشهر كاملة، مرّ أحد أفراد جماعتي من الرّواشد على الهياكل العظمية البشرية السّبعة وعظام الجمال.

كنت معجباً بدقة حَمَد في تحديد الاتجاهات، فقد قمت بمقارنة قراءة بوصلتي الموشورية مرتين أو ثلاث خلال ساعة واحدة ولم أجد اختلافاً أكثر من خمس درجات بينها وبين ما حدّده حَمَد من قبل. لا يستطيع الظّل الذي عكسته الشّمس على ظهورنا أن يحدّد سوى الاتجاه العام الذي ينبغي أن نسلكه. وبطبيعة الحال، افترضت أنّ حَمَد كان يحدّد الاتجاهات التي ينبغي أن نسلكها بالاستعانة باتجاهات عروق الرّمال؛ وهنا كانت 45° 50°. بيد أنه، لاحقاً، وفي الصّحراء التي كانت تخلو من المعالم الواضحة والإمارات المميّزة، أظهر دقّة متناهية نادراً ما أخطأت في تحديد اتجاه سيرنا، حتى أنني بدأت أبحث عن تفسير آخر لهذا اللغز.

قد تكون التّموّجات والثّنيات الباهتة التي على سطح الرّمال والتي شكّلتها الرّياح الشّائعة، جزءاً من حلّ هذا اللغز. لكنّي في النّهاية أدركت أنّ موهبة حَمَد ترجع للحسّ الغريزي للاتجاهات الذي حباه الله لبعض الأفراد، وكان حَمَد من بينهم.

لم يزر حَمَد هذه البلاد منذ سنوات طويلة، فقد كان عدم الاستقرار في مكان واحد لفترة طويلةً من طبيعة حياة البدو الرُّحّل. لقد كان حَمَد وواحد فقط من جماعتي يعرفان أسماء مجموعات النّجوم والأبراج والنّجوم الكبرى[1].

---

(1) كتب المؤلف: تتطابق أسماء النّجوم مع أسماء النّجوم عند العرب. ففي حالة الطّير = النّسر، والرجل = القدم، العجرب = العقرب ولابد أن نتذكر حقيقة أنّ كثيراً من أسماء النّجوم في

بلهجة الرّبع الخالي	بالإنكليزية	بلهجة الرّبع الخالي	بالإنكليزية
رجل	Regel	نسر الطّاير	Altair
يد سعد	Betelgeuse	نسر أم وقع	Vega
يد القشا (الرّاشدي) يد الطّيب (المَهْرة)	Bellatrix	الجدي	Polaris
مرزم	Sirius	السّبع	Great Bear
سهيل الصَّدوق	Canopus	بنات نعش	One star called
		العنبري	Capella

وبحلول الليل، كان «بوصلة الصّحراء» قد سبر غور متاهة الرّمال على طريقنا. راقب رفاقي البدو وباهتمام بالغ وصولنا لحزام الحاذ hadh عند خط عرض 20°. والحاذ هي أجمة من الشّجيرات صغيرة لونها أخضر فاتح وماؤها ملحي، ولذا تستطيع تحمّل البقاء دون أمطار أو ندى مدة طويلة أكثر من عشب صحراوي. إنّ منطقة الحاذ هي الوحيدة التي يظهر فيها أثر للحياة عندما يصيب الصّحراء جفاف استثنائي. نجد هناك القبائل الصّحراوية ما لم يكونوا قد أخلوا مكانهم وانتقلوا لمنطقة البادية على الحدود. في هذه الحالة تتقهقر قبيلة الرّاشد تجاه الجنوب الشّرقي عند أمّ الحيّات Umm al Hait وواحة مُقْشِن، أمّا قبيلة المَهْرة فتتراجع لعيون الماء الشّمالية في يَبرين وخط التّخوم ما بين الجافورة ويَبرين.

كانت البُواح[1] Buwah أول منطقة ندخلها في الحاذ، وقد أسبغ الله نعمة عليها؛ لذا قرّرنا أن نقف مبكراً عندها للمرعى والكلأ. بدأنا رحلتنا مبكراً بعد امتلاء البطون وتوجهنا نحو الشّمال عن طريق الشّرق، وأدخل السّرورَ على قلبنا النّسيمُ الخفيف

الغرب مشتقة من البابليين مروراً بالعرب، وسأسجّل أحد أسماء النّجوم التي أعطاني إياها أحد سكان الرّبع الخالي والذي لم يغادره أبداً طوال حياته.

(1) ترد في الخرائط باسم: البوح، ومن المحتمل أنّ المؤلف سمع مرافقيه ينطقونها بصيغة الجمع: بُواح. وسوف يذكر في حاشية له بالفصل التّاسع عشر أنّ البُواح جمع البُوح، وتعني الحفرة الضّحلة ذات الماء السّطحي.

المنعش الذي كان يداعب وجوهنا. أصبح المجرى الذي يتخلّل السّواحِب عبارة عن كتل متدفقة حمراء خفيفة، ولكنها ناعمة لدرجة أننا اضطررنا أن نترجّل ونستخدم أيدينا لإزالة العوائق وإفساح الطّريق لجمالنا من آن لأخر.

بلهجة الرّبع الخالي	بالإنكليزية	بلهجة الرّبع الخالي	بالإنكليزية
سهيل القضيب	Achemar	الثّريّا	Pleiades
العَقرب	Scorpio	قلب الغانم	Aldebaran
الشُولة	(its tail)	الغانم	Auriga
الزَّهرة	Venus	سَعد	Orion
		جنبيّة	Orion's belt
		Ausa (قضيب)	3 small stars

والزُّهرة هي الكوكب الوحيد الذي له اسم عندهم، ولا اسم لديهم للمُشتري أو المرّيخ.

* * *

ثم مررنا بمناطق مقفرة تعاني من المجاعة ولا يسدّ رمقها إلا وريقات من نبات القصيص *gasis* الذي ينمو مطأطئ الرّأس، وكانت الرّياح الشّمالية الشّرقية العاتية قد تركت بصماتها على الأشجار التي مالت نحو التّلال. مررنا في فترة بعد الظّهيرة بثلاث عيون ماء ضحلة وهي باحة سلامة، باحة هجران وباحة جمال. يبلغ عمق الماء المتواجد في الجهة اليمنى ذراعاً ولكنه شديد الملوحة لدرجة يستحيل أن يشربه الإنسان أو الحيوان لذا سمّي خرّان واسمه مشتق من عملية إخراج الفضلات التي تمارس على نطاق واسع في الصّحراء.

إنّ البدوي الذي لم يكلّف نفسه مشقّة ملء قربة المياه خاصته في الدّكاكة سيحرص على ملئها في باحة جمال. لقد قمنا بسقاية جمالنا لحلاوة الماء فيها ولكن يوجد أمامنا

في الصّحراء ماء مالح يزيد من حدة العطش ويسبّب اعتلال الصّحة لم تكن الإبل نفسها تقبل أن تأكل من المرعى الذي سُقي بالماء المالح.

انتقلنا في اليوم التّالي من منطقة البْواح Buwah إلى أم مليسة. أما الرّمال التي تتخلّل المنطقتين فقد أصبحت أكثر وعورة وأصبحت التّلال الممتدّة الجميلة أقلّ تميّزاً وتفرّقت على شكل سلاسل صغيرة منفصلة يقال إنّها تمتدّ لجهة الشّمال على بعد مسيرة يوم باتجاه يدنا اليمنى مكوّنة حرف S باللغة الإنكليزية بالمقلوب. كما تمتد عبر منطقتي الكرسوع ووسيع وتصل إلى الكثبان الرّملية في صعفوق Sa'afuk شمال خط التّوازي الحادي والعشرين.

كانت قوّة تحمّلنا للحرارة تحت الاختبار، على الرّغم من أننا كنا في فصل الشّتاء وتحديداً في شهر يناير. وممّا لا شك فيه أنّ تأثير الشّمس الحارقة التي قامت بشيّ ظهري لمدة تسع ساعات متواصلة والعطش الحادّ الذي عانيت منه جرّاء شرب ماء البْواح قد جعلاني أشعر بالإرهاق الشّديد لأوّل مرة في رحلتي.

لقد تخلّفت عن تدوين ملاحظاتي لمدة أسبوع كامل لعدم توفر الوقت أو الفرصة اللازمة لذلك. وكنت على أتم الاستعداد للتوقف لقضاء اليوم والرّاحة لو كانت كمية المؤن تكفي لهذه المجازفة، ولكن كان لزاما علي أن أمضي قُدماً.

أمّا البدو المهووسون بصحّة جمالهم وسلامتها فقد كانوا قلقين من السّير في الصّحارى التي أنهكها الجفاف والقحط، وكانوا متلهّفين للوصول بأقصى سرعة للمراعي التي يتوقعون وجودها في مزيريق Mazariq الجنوبية.

وباتجاهنا نحو الشّمال، تضاءل خطر الغزاة حتى اختفى تماماً. ورغم أن قبيلة صيْعَر قد قامت في أوقات مضت بالإغارة على الشّمال إلا أنّها، بوجود الجزء الرّئيسي من قبيلة الرّاشد خلفنا في الجنوب، ستضطرّ أيّة جماعة من المغيرين الغزاة للتّعامل معهم، أو على أيّ حال لن يصل بها الغباء لدرجة تعريض نفسها لخطر انقطاع المدد.

إن اسم قبيلة صيْعَر يكفي لإلقاء الرّعب في قلوب أبناء قبيلتَي الرّاشد والمَهْرة

الجنوبيتيـن اللتيـن تربّي أبناؤها على الأخـذ بثأر إخوانهم وآباءهم واسـتعادة ثرواتهم السّـليبة. إنّ سـبب الغارات والضّغائن بين القبائل هو سـبب اقتصادي بحت، فالرّجال يَقتلـون ويُقتلون من أجل المحافظة على الجمال. يتعاقب السّـلام ـ الهدنة ـ والحرب لفتـرة عام أو اثنين. ومن العار والشّـنار أن يجبُن الشّـابُّ ويتقاعـس عن الانخراط في القتال في وقت الحرب. إنّ مرادف الفروسية والشّجاعة والإقدام هو «شارب الخمر»، ويطلق هذا الاسم على الشّاب الذي يخرج للقتال بكلّ حميّة، أما القاعد الذي يخشى علـى حياته أو يختلق الأعـذار عندما تكون المصالح العليا للقبيلـة على المحكّ، فإنه يعتبر جباناً رعديداً لا يستحق احترام ولا مصاهرة أحد.

روى لي كلفوت الشّـاب ابن الشّيخ صالح، قصة الثّأر مع قبيلة صيْعَر، وقد وجدت القصة تسـتحق التّسـجيل ليس لأنّها نسـخة واقعية لما يحدث عندما يلتقي الأعداء في الرّبع الخالي فحسب، بل لأنها تلقي الضّوء على سيكولوجية ساكني الصّحراء.

اندلعت نيران الحرب منذ أكثر من عام بين قبيلتي صيْعَر والرّاشد، وقرّر الرّواشد أن يجنحوا للسّلم. كان كلفوت واحداً من أربعة أرسلتهم قبيلة الرّاشد كمبعوثين ليحاولوا بـدء هدنة لمدّة عام. انطلق الرّواشـد حتى بلغـوا البادية، آملين أن يلتقـوا بأدلاء صيْعَر حتى يقودوهم إلى مناطق صيْعَر بأمان.

سـأروي القصة كما رواها لي كلفوت ونحن جالسـون حول نار المعسـكر ووجهه متـورّد ويـداه تتحركان بحيوية ونشـاط؛ فالبدوي يتكلّم بعينيه ويديه، وبذلك سـيكون وقع قصّته أفضل.

قـال كلفـوت: «كان الوقت حوالي سـاعة صـلاة الظّهر. ترجّلنا بالقـرب من طرف الوادي وتسـلّلنا زاحفين لطرفه حيث اختلسـنا نظرة للأسـفل، فرأينا خمسـة من البدو جالسـين حـول نـار المخيم، بينما تركـوا جمالهم ترعـى على مقربة منهـم. تأكدنا من انتمائهم لقبيلة صيْعَر من السّارية المزدوجة التي على سروجهم. لعب الجشع والطّمع برؤوسـنا، وعلـى الرّغـم من أننا جئنا لعرض السّـلام معهـم، فإننا لـم نفعـل ذلك بعد، ولهذا فكنّا لا نزال في حالة حرب معهم. كما بدا لنا بأن الله قد ساقهم إلينا لقمة سائغة،

فالليل يوشك أن يسدل ستاره وكان لا بدّ أن يطلقوا جمالهم للرّعي ويخلدوا للنّوم قريباً، وعندئذ سنتمكن من التّسلل زحفاً والإجهاز على أعدائنا والفوز بالغنيمة.

كانت الظّروف في صالحنا، لأنّنا رأيناهم أولاً دون أن يشعروا هم بوجودنا بعد. لكن أكبر الرّجال سناً في جماعتنا، وهو عمي سيف وشيخ السّعادنة، لم يوافقا على الخطة، بحجّة أن الجماعة في أسفل الوادي كانت على الأرجح جزءاً من مجموعة أكبر تعسكر على مقربة من المكان، وأنّ وجودهم في المقدّمة يدلّ على أنهم هم أنفسهم على أهبة الاستعداد للحرب وغير مستعدّين بعد لتقبّل عرض السّلام. لهذا كله كان من رأيهما أن نتراجع ونعود لديارنا وننجو بحياتنا.

كنت أنا ومسلمة من قبيلة بيت يَماني شابّين مندفعين مغرورين، لذا اتفقنا ألا نعود لديارنا إلا ومعنا جمال أعدائنا من قبيلة صيْعَر. ورغم أن كبار السّن نصحونا بالتّعقل والعودة معهم، فإننا رفضنا الإنصات لهم، فبعد ذلك غادروا وتركونا لمصيرنا.

عَقَلنا أنا ومسلمة النّاقتين لكي ترعيا على مسافة آمنة، ثم زحفنا لحافة ممرّ ضيق بين الجبال لمراقبة تحرّكات العدو. فعمّا قريب سيأخذ أحدهم الجمال للرّعي أسفل الوادي ومن ثم يعود لرفاقه. رأيناهم يوقدون نار المخيم لقضاء الليل، ولكن عددنا تناقص الآن إلى اثنين ضد خمسة من الأعداء، وكان من المستحيل أن نتغلّب عليهم. وهكذا قرّرنا أن نزحف إليهم تحت ستار الظّلام ونسرق جمالهم ثم نغادر، وريثما يستيقظون نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً نحو ديارنا، فلا يتمكنون من اللحاق بنا في الصّباح سيراً على الأقدام. وهكذا صلّينا العشاء وعدنا إلى مواقعنا للمراقبة، وانتظرنا حتى اقترب منتصف الليل وبدأت نار المعسكر تخبو. عندئذ زحفنا خلسة لأسفل الوادي. منعنا عددنا القليل مقارنة بأعدائنا من قتلهم وهم نيام، لذا اكتفينا بحلّ قيود النّوق ثم صعدنا منحدر سهل المرتقى ووجدنا جمالنا ثم اتجهنا رأساً لديارنا.

لكن أحد أفراد قبيلة صيْعَر استيقظ قبل حلول الفجر بمدة طويلة واكتشف اختفاء الجمال وأيقظ رفاقه وقاموا بتتبّع أثارنا حتى فترة ما قبل الظّهيرة من اليوم التّالي. في هذه الأثناء قرّرنا بغباء أن نخلد للنّوم لأنّنا كنا متعبين، وكنا نعتقد أننا نسبقهم بعدة

ساعات. وفجأة استيقظت فرأيت أمامي على مسافة مئة خطوة رجلاً عربياً يصوّب فوهة بندقيته نحوي. نظرت حولي بسرعة خاطفة، وعندما لم أرَ أحداً، قفزت خلف صخرة صغيرة لأحمي نفسي وأنا أسحب البندقية من سترتي[1]، ولكن قبل أن أتمكن من ذلك، بادرني المهاجم بإطلاق النّار.

أخطأت الرّصاصة الهدف، وتمكنت بسرعة من تلقيم بندقيتي، لكن تفكيري هداني لاحتمال أن يكون المهاجم صديقاً أو من قبيلة المَهْرة، وقد كان تصرّفه دفاعياً، أو أنه حسب أنني من قبيلة صيْعَر؛ لذا صرختُ قائلاً: «لا تخف، نحن من الرّواشد»، فأجابني قائلاً: «بوجهك.. أنا كذا وكذا من قبيلة صيْعَر ونحن - ثم ذكر البطن التي ينتمي إليها - في حالة سلام مع الرّواشد.. لقد استوليتم على جمالنا ونحن أكثر منكم قوة، وهناك ثلاثون رجلاً خلفي». صرخت قائلاً: «ابقِ على حياتي وردّ علي جملي وبندقيتي»، فأجاب: «بوجهي»، فنهضت، ولكن ما إن فعلت ذلك حتى انقضّت عليّ جماعته الذين لم يسمعوا ما دار بيني وبينه من حديث، ثم استلّ أحدهم جَنبيّته وطعنني. وهنا وضع كلفوت إصبعه في فمه وفرك بصاقه على طول ذراعه ليتحسّس مكان النّدبة، ثم قام أخر بطعن رفيقي، ولكنه تفادى الطّعنة بقفزة للخلف، ولكنها تسبّبت في جرح قاطع في أعلى الجبهة نزف من جراءه بشدّة، ولكن لله المنّة والحمد فقد جاء الرّسول الذي أمّناه على حياتنا وتدخّل وأنقذ حياتنا.

قلت له: «إذن لقد وقعتم في شرّ أعمالكم وهُزمتم شر هزيمة!» فأجاب: «نعم، لقد استولوا على ناقتينا واستعادوا جمالهم السّليبة واستولوا على بنادقنا وخناجرنا، على الرّغم من أني وُعِدتُ باستعادتها إن أنا سلّمت نفسي، ولكن فيما بعد حل السّلام بيننا، وأوفوا بعودهم. لقد ردّوا إلي بندقيتي وأعطوني جملاً عوضاً عن جملي الذي

---

(1) كتب المؤلف: يحمل كل بدوي في الرّبع الخالي بندقيته في حافظة جلدية بدائية الصّنع لمنع تسرب الرّمال لأجزائها الدّاخلية الدّقيقة، وكان البدوي يصنع هذه الحافظة بنفسه من جلد الظّبي عادة أو من غيره من الطّرائد. إن طرفها الأعلى عادة ما يزين بقطع رفيعة زاهية من الجلد، وكان الأثرياء العرب في عُمان يزيّنون مقبض بندقياتهم بأربطة من الفضة أو الذّهب للتّعبير عن تعلقهم بها.

استولوا عليه، بيد أنهم لم يعيدوا إليّ جَنبيّتي». إنّ تعويض المالك الأصلي عمّا سُلب منه أمر غير مألوف بين القبائل المتناحرة، كما لا تفرضه الأعراف والتّقاليد القبليّة، فإذا حلّ السّلام جبّ ما قبله. تابع كلفوت كلامه قائلاً: «لكن ما لبثت أن دارت الدّوائر على المجموعة ذاتها من قبيلة صيْعَر وشربوا من ذات الكأس. فقد واصلوا السّير تجاه الشّرق وقابلوا في طريقهم أحد المَهْرة وزوجه وجملهما فذبحوا الرّجل واستولوا على جمله، لكن ما إن وصلوا منطقة نفوذ المناهيل حتى لحقت بهم مجموعة من كبيرة من الغزاة من بيت كثير والمَهْرة وقتلوا شيخهم فلم يجدوا مفرّاً من التّقهقر والهروب في فوضى عارمة. أما غنائمهم، فقد وقعت بين يدي بن طَنّاف»[1].

(1) كتب المؤلف: إن ابن طنّاف هو اللقب الذي ورثه شيخ قبيلة المناهيل وهو لقب واحد من أشهر المغيرين. عند تقسيم الغنائم تكون الحظوة لزعيم المغيرين فيحصل على أفضل جملين أو ثلاثة من الغنائم المسلوبة، أما بالنّسبة لباقي المغيرين فتقسم الغنائم بينهم بالتّساوي، كما في سِفر صموئيل الأول، 30: 25.



في شمال غربي الدّكاكة



مخيّم صغير لقبيلة مُرّة

الفصل الثّامن عشر

في قلب رمال الصّحراء

تركنـا السّـواحِب Suahib خلفنـا. تركنـا أمـواج الرّمـال الحمـراء الضّخمة تطوي الصّحراء طيّاً وتشـعّ قممها الممتدّة ذات الأهلّة البيضاء ببريق الشّمس السّاطعة. تركنا المراعي الخضراء المعطاءة التي مررنا بها في مسـتهلّ مسيرتنا. وعند خط عرض 20° 44′ اجتزنا ممراً وعراً ضيقاً تلاه محيط شاسـع من الرّمال الشّـاحبة السّاكنة. لم يكن هناك ما يسـدّ رمقنا إلا رقع صغيرة من الأرض متناثرة هنا وهناك نما عليها عشـب حاذ ذابل وكَسَتها الرّياح الجنوبية الشّرسة التي هبّت مؤخراً بطبقة من الرّمل الأبيض النّاعم.

وبخـلاف ما تقـدّم كانت الصّحـراء الجرداء التـي لا زرع فيها ولا مـاء تهيمن على المشهد وتزحف إلى جزء شاسع من صحراء المزيريق الوسطى والنّواصف والمناجر، وتحوّلهـا إلـى أرض مقفرة قاحلة تصرخ مـن العطش والجوع وتتربّـص بكل من قاده حظـه العاثـر للمرور فيها أو التّلكؤ عندها. فمنذ أربعة سـنوات فقـط، قام أحد مرافقيّ المَهْرة برعي قطيعه في هذه المنطقة، وقال لي بأسـلوب المبالغات والتّهويل المتأصّل فـي البدو إنّ هـذه المناطق من الصّحراء كانت فيما مضى من أكثر المناطق التي باركها اللـه وأسـبع عليها نعمـه وعطاياه. وقد أماطت تلـك الأوضاع اللثام عن سـبب كتمان أماكن المراعي الفقيرة والمحفوفة بالمخاطر أصلاً وأماكن وجود الماء التي يطمع فيها القاصـي والدّاني. وقد سـاهم الحذر والحيطة والتّوجّس في الـذّود عن تلك المراعي وعيون الماء في غرس نزعة الشّـك والرّيبة في وجـدان رجل الصّحراء، حتى أضحت الصّفـة المهيمنـة على شـخصيته. أدّت التّقلبـات المناخية إلى ارتحـال وتنقّل العرب

الأوائل بحثاً عن الماء والكلأ، ومن أمثلة ذلك الغزو السّامي لبابل والكنعاني لسوريا وغزو الهكسوس لمصر واليهود لفلسطين.

لا تزال الحياة الحيوانية تنبض في هذه الأرض المقفرة القاحلة، وفي واقع الأمر حالفني الحظ وحصلت على أثنين من أكثر العيّنات أهمية من هذا المكان، أحدهما لثعلب ذي لون كلون الصّحراء وأكبر حجماً من الهرّ[1]، بيد أنّه مكتمل النّمو وفقاً لما قاله العرب لي، وقد اتّضح الأمر لي من فحص أسنانه أنه ينتمي لفصيلة جديدة، من غير المستبعد أن تكون النّسخة العربية من حيوان الفنك المصري.

أمّا ثاني العيّنات فكان لبيض النّسر الذي تم اكتشافه في عش ضخم يشبه عش غراب القيظ (الغُداف الإنكليزي) ولكنّه أكبر حجماً، وقد كان مستقرّاً أعلى عشب العَبل[2] الذي يخلو من الأوراق. وعلى الرّغم من أنني لم أرَ طائراً بأم عيني، إلا أن البيض كان يشبه إلى حدّ بعيد بيض النّسر الحبشي بلونه الأسمر الفاتح المائل إلى برتقالي مسمرّ. يعتبر العرب أكل بيض النّسر غير جائز، بينما يعتبرون بيض الحُبارى من أطيب الأطعمة مذاقاً. لمحنا الحُبارى في قلب الصّحراء الجنوبية وكانت عندما يقترب منها جملٌ ببطء بلا راكب فوقه، تبقى في مكانها ببراءة، لتفاجأ بانقضاض بدوي اختبأ وراء الجمل لاصطيادها. أما حينما يقترب منها أيّ رجل غير مألوف ووحيد، فإنها تبدي ارتياباً ملحوظاً ومبرّراً. لقد داعبنا الأمل في الكثير من استراحاتنا في اصطياد إحداها، ولكنا كنا نعود خاليي الوفاض نجرّ أذيال الخيبة دائماً ونحن نتابع بعيون مقهورة آثار مخالب الطّيور الهاربة بأقصى سرعة لها مطبوعة على الرّمال. كان شكل ريشها يحاكي الرّيش الذي يضعه أمير ويلز الوسيم على قبعته. كانت الطّيور قليلة العدد في الصّحراء، وكان أكثرها شيوعاً وانتشاراً الغراب ذو الذّيل المروحي، ويليه الذّعرة متعدّدة الألوان (وهو طائر صغير ذو ذنب طويل جداً يرفعه ويخفضه على نحو انتفاضي وكأنه مذعور). كنا نصادف الطّيور فرادى، وفي أحسن الأحوال أزواجاً،

---

(1) كتب المؤلف: يُطلق على الثّعلب «هِرّ» وهي التّسمية العربية الفصحى للقط.

(2) العَبل هو الأرطى بذاته، والتّسمية قد تتغيّر بحسب المنطقة.

وفـي ذات المـرّات، زوجاً منها وفي مرّة من المرات رأيت أربعـة حُبارى معاً وفي مرة أخرى رأيت ستة غربان، ولكن كان هذا أمراً استثنائياً.

إنّ مجموعـة التّاريخ الطّبيعي خاصتي[1] تتألف غالباً من الحشـرات الصّغيرة مثل العناكب، الخنافس، عدد من فراشات العثة، الفراشات العادية، يعسوب وحيد، حشرة سرعوف (فرس النّبي) جديدة وجرادة جديدة.

أمـا عن الثّدييـات، فقد كان الثّعلب والأرنب - وكلاهما بلـون الصّحراء الجنوبية. كمـا كان هناك فأر الصّحراء والقطّ البرّي والذّئب، رغم أنّ الأخيرين اسـتطاعا - بكل أسـف - الهروب مني. يقـال إنّ الثّعلب صغير الحجم ولونه مثـل لون رمال الصّحراء ويعيش بصورة أساسـية في السّـواحِب، حيث يتسنّى له الحصول على المياه السّطحية بيسر وسهولة بمجرد أن ينبش الأرض بمخالبه.

تضمّ مملكة الزّواحف اثني عشـر نوعاً من السّـحالي، جميعهـا تملك نفس الأنف الطّويـل البـارز ليسـاعدها علـى الغوص داخـل الرّمال. أما السّـقنقور فهـو أكثر أنواع السّـحالي عـدداً، وهو ذو لـون رملي وجسـم ذي حراشـف مربّعة الشّـكل وعلامات سوداء على طول جنبيه. ولـم يمنع جلده الأملس اللامع الذي يشبه جلد الأفعى الرّجل العربي من القيام بمزحة طفولية بالتّظاهر بوضع ذيل السّـقنقور ونصف جسده - الذي أخـذ يتلوّى ويصارع - داخل فمه. أما أكبر السّـحالي حجماً فهي الورل، والتي تتسـم بشراسـة وقوة متناهية فلا يمكن لمسـها إلا إذا التقطت - مثل الأفعى - بإمسـاكها من رأسها. لا يأكل العرب الورل، بعكس معظم السّحالي الكبيرة في البادية. وقد تبيّن لي أنّ السّبب عندما قطعت أحدها نصفين فوجدت داخله سقنقوراً - بنفس حجمه تقريباً. أمّـا عن عقارب الصّحـراء، فقد كانت صغيرة الحجم ذات لـون أخضر فاتح بالمقارنة بالأنـواع الكبيرة ذات اللونين الأبيض والأسـود التي توجـد في الجبال والبوادي. ولم يتسنَّ لي أن أشاهد أفعى الأقرن السّامة والثّعبان.

---

(1) كتب المؤلف: جمعت من الصّحراء عينات وصل عددها إلى مئة وخمس وعشرين عيّنة. أما الملاحظات التي أضافها موظفو المتحف الوطني البريطاني فهي مدوّنة في الملحق الثّاني.

تحمّس العرب لخدمتي وخدمة المتحف البريطاني نظير مكافأة مجزية. وبتناقص عدد مجموعة رفاقي من البدو في رحلتي إلى الشّمال، سنحت لي فرصة التّعرف إليهم عن قرب وبشكل فردي، الأمر الذي كان مستحيلاً مع رفاقي الأوائل الأكثر عدداً. سرعان ما أدركت أنّ البدوي بإمكانه أن يكون رفيقا ممتعاً بل ولطيفاً بشرط أن تبدي اهتماماً ملحوظاً بشغفه وهوسه الأول، أي السّروج والبنادق، وتكيل له المديح وتعدّد فضائل ومحاسن الجمال في جو من الودّ والمرح. أمّا إذا كان البدوي متعصّباً ومتطرفاً، فإنه في هذه الحالة يعاملك معاملة يغلب عليها التّحفّظ والتّجهّم والكتمان، ومع أنه قد يبدو للوهلة الأولى بارداً وغير ودود، فإنّ البدوي المعتدل يصبح - بعد أسبوع أو نحو ذلك - ودوداً ومرحاً، خاصة إذا تقرّبنا منه وبذلنا جهداً في كسب ثقته ومحبّته.

أمّا لو كان هناك ما يريده منك، فإنّه يبرع في المداهنة والتّملّق ليصل إلى ما يصبو إليه. أمّا حديثه فيفيض بذكر البلايا والمحن التي شاءت إرادة الله أن تُصبّ عليه صباً وتشمل، بكل تأكيد، ألماً مزمناً في المعدة! صرخ رفاقي البدو «حمّى! حمداً لله نحن لا نعاني من الحمّى في الصّحراء حمداً لله». فقد كانوا يجهلون أنّ لدغة البعوض تنقل الأمراض، وعبّر القليل منهم عن دهشة - ظننت أنها مفتعلة - بترديدهم «لا إله إلا الله»، وهو الهتاف المعتاد عند وقوع ما يثير الدّهشة والاستغراب. وقد شاطرني صالح الرّأي بأنّ البعوض يشكّل إزعاجاً لا يستهان به في ظُفار، ورغم أنّ زيارته لظُفار كانت فرصة للاستمتاع بالتّخلّص من الأعداد الهائلة من الذّباب الذي اعتاد أن يعاني منه حول عيون الماء في الصّحراء، فإنها عرّضته إلى لدغ البعوض المنتشر هناك والذي أذاقه هو وجمله صنوفاً من العذاب، جعلته يسعد بالعودة إلى الدّيار.

تزخر الصّحارى بالبراغيث والقمل، لذا فكلما وجد اثنان من البدو متسعاً من الوقت، انهمكا في التّنقيب عن البراغيث والقمل في شعرهما، كل بدوره، حيث يطأطئ أحدهما رأسه للآخر، الذي يجلس بالقرب من رأسه، ويكشط بجَنبيّته الضّفائر الطّويلة المتشابكة. سألني أحدهم: «ألم تجد أحدها في أمتعتك؟» فلمّا أجبت بالنّفي، نظر إليّ في دهشة ثم أعقب بخيلاء: «إن هذه الحقائب المصنوعة من القشّ التي نضعها على

السّـروج لا تجذب البراغيث، أما السّـروج ذات القربوس المزدوج لقبيلة المَهْرة فهي مأواهـا المفضّـل». وبما أنني كنت توّاقـاً لتغيير موضوع حديثنا لآخـر أكثر بهجة، فقد رحّبت بالإنصات لما آل إليه حالُ الشّـاب عزيز بن خاله، سـيء الطّالع، فقلت بالطّبع! عندئذ روى قصة التّضحية التي بادر بها عزيز بن خاله ليساعد أباه في علاقته الغرامية.

* * *

أحـبّ بـو زيد فتاة تدعى عَليا مـن قبيلة مجاورة، وفي يوم من الأيـام خرج لزيارتها مصطحباً عزيزاً، الذي لم يرها من قبل. أخذ بو زيد يصف جمالها الأخّاذ وهما سائران قائلاً: «سوف تعرفها ما إن تراها، آه يا عزيز، إنّ الأنظار ترنو إليها وتأسر قلب من يراها في الحال».

وصل الأب وابنه لبئر كانت النّسـاء تسـتقي منها، وكانت عليا تقف وسـطهن. وقد راقب عزيز النّساء وهن جالسات حول البئر، ثم وهن واقفات في طريقهن للانصراف، فعرف أيّهن عليا. لكن لحظ بو زيد السّـيء خطب عليا أحد أقارب والدتها وكان حفل زفافها في تلك الليلة.

كانت عليا تعسة، لأنها مغرمة بأبي زيد، وكان أنّ عزيزاً تنكّر في ثوب زفافها وارتدى مجوهراتها حول عنقه وذراعيه وجلس مكانها في سرير العرس، بينما فرّت عليا للبرّية وقضت الليل في أحضان بو زيد.

وعندما أتى العريس لمخدع عليا للبناء بها، كانت تصدّه وترفض الإنصات لتوسّلاته كلما اقترب منها، ثم نهرته ودفعته بعيداً عنها. وفي الصّباح التّالي ذهب العريس الحانق للفقيه وشـرح له محنته وابتلائه وأضاف «أنا لسـت متأكداً من أنها عليا لأنني قوي ولم أقابل من يقدر على مقاومتي سـوى عزيز بن خاله». فقال له الفقيه: «اذهب إليها الليلة مـرة أخرى وخـذ معك إبره، وعندمـا لا تسـتجيب لرغبتك بها، أنزع خصلة شـعر من رأسها وأغرس الإبرة في عرق الأخال في فخذها الأيسر، فإذا كانت هي عليا فستحيا، أما إذا كان رجل متنكراً في ثياب عليا فسيموت وستتعرّف عليها من شعره».

وهكـذا ذهـب العريس يريـد الدّخـول بعروسـه، فلقي نفـس الممانعـة والمقاومة والإعـراض، فنـزع فـي صراعه مع عزيـز - المتنكر في ثيـاب عليا - خصلة شـعر من رأسـه ثـم غرس الإبرة في عـرق في أعضائـه التّناسـلية (عورته) ثم انصرف. اسـتيقظ عزيـز قبيل الفجر كعادته وذهب لأبيه في البرّيـة وأخبره بما جرى. فأصاب عليا الذّعر لكـن بو زيد نزع خصلة من شـعرها وغرس إبرة في فخذها الأيسـر حتـى يرى زوجها النّدبة فلا يسـاوره الشّـك فيها. وبعد ذلك امتطى عزيز وبو زيد ناقتيهما وغادرا وكانت الإبـرة لا تـزال مغروسـة في فخذ عزيز الأيسـر، فقد كان أدرك أنه لو حـاول أن ينزعها فسـوف ينزف حتى الموت! ووصلا لسـهل واسع، فسأل عزيز أبيه «يا أبت، لأيّ شيء يُستخدم هذا المكان؟» فأجاب بو زيد قائلاً: «إنّه مكان يصلح لرعي الجمال وتزويدها بالـكلأ». ثـم واصلا مسـيرتهما حتى وصلا مكاناً يكثر فيه العشـب النّديّ فسـأل عزيز أباه: «ولأيّ شيء يُستخدم هذا المكان؟» فأجاب أبوه: «هذا يا بني مكان مناسب لتربية الخيول». ومرة أخرى سارا حتى وصلا لمكان موحش مقفر، فسأل عزيز أباه: «ولماذا يسـتخدم هذا المكان؟» فرد أبوه: «إنه يصلح كمقبرة!» فقال عزيز: «إذا فلنترجّل هاهنا ولتسـاعدني في حفر قبر». فقاما بحفر قبر ثم سـحب عزيز الإبرة من فخذه فمات على الفور ودفنه أبوه في القبر.

واصـل بو زيد السّـير حتى وصل لخيـام قبيلته، وعندما رأته أختـه أم عزيز من بعيد هرعـت إليه وسـألته «أيـن عزيز؟.... أيـن عزيز؟» فأجابها بـو زيد «لقد كنـا نغير على القبائل وغنمنا جمالاً كثيرة، فقرّرت الرّجوع أولاً لأزف لكم الأنباء السّارة وطلبت منه أن يلحق بي ومعه الغنائم».

ومضـت عـدّة أيام والأم تـزداد قلقاً على ابنهـا، وكلّما مضت الأيام ولـم يعد عزيز غرقـت فـي أحزانها وهامت علـى وجهها بيـن خيام قبيلتهـا تنوح على ابنهـا ومصيره المجهول، ولم يسـتطع أحد أن يواسيها أو يخفف عنها فامتلأ قلب بو زيد حزناً وأسى وغمغم محدثاً نفسـه: «هل أحسستِ أيتها المرأة العجوز بوقوع شرّ لعزيز؟» ثم أردف قائلاً بصوت جهوري: «آه.... يا للأسـى! لو أخبرتُها أن عزيزاً قد مات، فستموت قهراً

وحزناً، ولو أخبرتها أن عزيزاً حي يرزق، أكون كاذباً». وهكذا عرفت أم عزيز أن ابنها قد مات.

* * *

انتهت القصة وهبّ رفاقي في السَّمَر واقفين ما إن سمعوا نداء المؤذّن للصّلاة، وانتظموا للصّلاة في الصّف الطّويل من المصلّين الذين يصلّون عادة خلف حَمَد بن هادي في جماعة.

انطلقنا مبكرين في يوم التّاسع عشر من يناير، ولا تزال وجهتنا الشّمال الغربي. سرنا بأقصى سرعة، نظراً لغياب المراعي وأماكن التّزوّد بالكلأ على طريقنا، وأخذ الظّمأ من جمالنا كل مأخذ جرّاء تناولها الكلأ من المراعي المشبعة بالماء المالح. تاركين أم قراين[1] إلى يميننا – يقال بأنها عين ماء تشكل نقطة الحدود الشّمالية للمُنَجَّر Munajjar – وصلنا لمنطقة السّنام، ذات الأمواج الرّملية البيضاء التي تتمايل بخفّة ورشاقة، واسم هذه المنطقة يشير إلى سنام الجمل. وتشتهر هذه المنطقة بحلاوة مياهها النّسبية والعمق غير العادي لعيون الماء فيها[2] والذي يبلغ نحو ستة وستين قدماً، ويصل إلى تسعين قدماً في أماكن أخرى. كما نجد عيون ماء يصل عمقها لنحو مئة وقدمين.

وفي بعض الأحيان يتم ردم الآبار السّطحية في الصّحراء الجنوبية بعد انتهاء السّقاية لإعاقة وعرقلة تقدّم مقتفي الأثر. وفي هذا المكان يتم سقف عيون الماء لحمايتها حيث أنّ حفرها يستلزم جهداً مضنياً وخبرة وحنكة وشجاعة منقطعة النّظير. لقد أهلكت عيونُ الماء الكثير ممن حفروها، فجدرانها الزّلقة الطّرية معرّضة للانهيار

---

(1) تقع أمّ قرين ما بين خور غلفيص وبئر المري، إلى الشّمال الشّرقي من المنجر، وبينه وبينها خور مهيوبة. وإلى الغرب منها بئر القرائن، ومن الواضح أنّ التّسميتين متّصلتين ومصدرهما واحد.

(2) كتب المؤلف: تشكل البكرة البدائية، وهي قطعة خشب تثبت فيها البكرة وتستخدم لسحب الماء من العيون، جزءاً من أدوات المهري التي لا يستطيع الاستغناء عنها. ولا يحتاج البدو لاستخدامها في الجنوب.

فـي أيّـة لحظة ودفن من ينزل إليها لحفرها واستكشـافها، ولا يوجـد ما يدعم جدرانها الرّخوة سوى الأغصان الملتفة لبعض الشّجيرات الهزيلة الموجودة على الرّمال، فهي الحاجـز الوحيـد الذي يحـول دون انهيارها. التفـت إليّ أحد أفراد قبيلـة مُرّة - ونحن نمـرّ في السّـفيف قائلاً: «يرقـد في قاع هذه البئـر أربعة من إخوتي من قبيلـة مُرّة. هبط اثنـان منهما في البئر لتنظيفهـا، ولكن الرّمال الزّلقة ابتلعتهمـا، وعندما حاول اثنان من أصحابهما إنقاذهما دُفنا معهما حيّين. إنّ السّفيف ما هي إلا مقبرة، لذلك فقد هجرناها كلية.

كادت أنوار شـهر رمضان - شـهر الصّوم - أن تشـرق على العالمين. بيد أنّ هلال رمضـان أبـى أن يظهر على الرّغـم من حلول صباح اليوم العشـرين من ينايـر، لذا فقد عقدتُ الآمال على المسـاء. توقفنا في الوقت المناسب واتجهت كل الأنظار إلى جهة الغـرب، بعيد غروب الشّـمس. إنّ رؤية هلال رمضان تحـرّك وتنعش قلوب المؤمنين بمشـاعر اللّهفة والشّـوق والتّرقّب. وتتم مراسم تنصيب سُـلطان في بداية ونهاية شهر رمضـان، لكن الأقدار كانـت تخبئ لنا خيبة أمل كبيرة، فقد تحوّلت السّـماء من اللون الأصفـر البرتقالي إلى اللون الرّمادي، فـالإردوازي، ثم حلّ ظلام دامس أبى القمر أن يضيء صفحته السّوداء. إذن فلن يتقرّب أصحابي لله ويمجدوا اسمه من خلال الصّيام في الغد.

كانت فرجة Farajja - عين الماء التّالية - على مسـيرة تسع ساعات ونصف، لكننا كنـا مضطرين للوصول إليها لملء قرب الماء الفارغة. كنّا في طريقنا لعين الماء عندما تناهى إلى سمعنا صوت طلقات نارية تأتي من الأمام عقب غروب الشّمس تماماً. وبدأ هلالُ رمضان يظهر باستحياء على صفحة السّماء الشّاحبة.

زُلزلـت الأرضُ من صيحات «الله أكبر» وبدا وكأن الصّحراء تُرجعُ الصّدى، فأناخ رفاقي البدو جمالهم ثم خرّوا سـاجدين شكراً وحمداً لله بعد قيام واحد أو اثنين منهم بغـرس ماسـورة بندقيته في الرّمال. تحـوّل اتجاهنا غرباً مقتفين أثر مجموعة الكشـافة التـي كانت في المقدّمة ترشـدنا وتؤمّـن لنا الطّريق. بقينا على هـذا الحال حتى بعد أن

أسـدل الليل سـتاره. وبعد حين، اسـترعى انتباهنا ضوءٌ متوهج لنار مضرب خيام بعيد كان بمثابة منارة الإرشاد إلى مكان استراحتنا.

رغـم تمتّـع أصحابي برخصة الإفطـار أو تأجيل الصّيـام أثناء السّـفر حتى عودتهم للدّيـار، فـإنّ جميع رفاقي مـن البدو آثروا الصّيام[1] طوال السّـفر، كمـا فعل بيت كثير في مُقْشِـن منذ عام مضى. وعلى الرّغم من اسـتفادتهم - حتى الآن - من رخصة جمع وقَصـر الصّلاة أثناء السّـفر، مختصرين الخمس صلوات إلى ثـلاث، فإنّهم آثروا تأدية جميـع الصّلـوات دون جمع أو قَصر، إكراماً لهذا الشّـهر المبـارك. وخروجاً على هذا النّمط من الحماسة الدّينية، لـم يطرأ أيّ تغيير يذكر في نظامهم الغذائي. كان العشاء في السّـابق بعد صلاة العشـاء جماعة، ولكن بعد قدوم رمضـان أصبح بعد انطلاق الآذان بعد غروب الشّمس، وأصبح محشوراً بين الآذان والصّلاة، ويحلّ للمستكشفين الذين يؤمّنون الطّريق ويرشدوننا لأماكن الكلأ والمرعى أن يؤجّلوا الصّيام. أمّا حُكم الصّيام بالنّسـبة للغـازي فيختلف جملـةً وتفصيلاً. يتمتع الغـازي برخصة تأجيـل الصّوم عن طريق عودته من الغارة أو الغزوة، ولكن عليه الصّيام عند الخروج للغزو وأثناء الغزو.

وتتفرد قبائل الصّحراء بعادة فريدة في الزّواج. فالجِماع مباح في شـهر رمضان، إذا أعقبه الغُسل، وهذا يعني التّواجد قرب مورد الماء أو حمل ما يكفي منه للغسل. أمّا في الأوقات الأخرى من العام فإنّ الغُسل يتم التّغاضي عنه.

يلجـأ البـدو - عندما لا يتوفـر الماء - للتيمّم بأديم التّراب قبـل الصّلاة، ولكنهم لا يتيمّمـون بعـد الجِماع. على الرّغم من أنه لا يحرّم الـزّواج في رمضان إلا أن مثل تلك الزّيجات نادرة، إن لـم تكن غير موجودة أصلاً.

---

(1) كتب المؤلف: إن قبيلة صيْعَر - وفقاً لرواية الرّواشد - ولابدّ لي أن، أشير هنا إلى أنهم مصدر غير موثوق نظراً للعداوة المتأصلة بينهم وبين قبيلة صيْعَر - لا تلتزم بالصّلاة أو الصّيام بل ويتندّرون - عندما يحلّ السّلام بينهم وبين الرّواشد - بأيّ راشدي يلتزم بالصّلاة أو الصّوم، بالرّغم من أنهم يؤمنون بالله ويصفونه بالعليم ويدعون أن جدّهم قام بإنقاذ حياة الرّسول من أيدي الكفار الذين كانوا قد عقدوا العزم على قتله، لذا قام الرّسول بإعفاء جدهم وذريته إلى يوم الدّين من الصّلاة والصّوم وإيتاء الزّكاة. هكذا يقولون بأفواههم. غفر الله لهم!

إنّ الشّهور في الصّحراء قمرية[1]، ولكن يطلق عليها أسماء لا تتفق دائماً والتّقويم الإسلامي المتعارف عليه. فعلى سبيل المثال، لا يستخدم ساكنو الصّحراء كلمة «مُحرَّم» على الإطلاق، كما أنّهم يحسبون بداية العام من بداية شهر الصّوم أو الحج.

لا بدّ أن ثخانة رمال السّنام آخذة في التّناقص من خط عرض 21° 30′ وذلك لأنه ولأول مرة تمكنا من رؤية بقع دائرية صلبة مسطحة من الأرض بين الرّمال.

أحضر لي أحد رفاقي من البدو قطعاً صغيرة من إناء خزفي وزجاج قديم معتم. لقد قمت بفحص تلك البقايا فحصاً دقيقاً بيد أنني لم أجد دليلاً يشير إلى أنها مزيفة بل كان من الواضح من تقوّس وانحناء أطرافها أنها أصلية. وقد ساورني الشّك في أن تلك المنطقة كان يوجد فيها أماكن كثيرة آهلة بالسّكان وفضّلتُ الانحياز إلى فرضية أن بعضهم قد أحضر الدّبس - شراب التّمر - في قدور فخارية من الحَسَا (الأحساء) إلى ذلك المكان في أحد أشهر رمضان الماضية وذلك في فترة سبقت ظهور النّفط وتربّعه على عرش الثّروات المستخرجة من جزيرة العرب. لكن على أيّة حال يجب أن نستبعد العثور على بقايا أثرية في أرض السّنام. فلدى قبيلة مُرّة بالفعل مقولة متواترة عن وجود أركان حصن كانت قائمة ولكنها الآن طمرت تحت الرّمال. وكذلك فإنّ بئر أمّ الحديد يقال بأنّها كان فيها بعض الأطلال، وهي كتلتان كبيرتان من الحجر المسمّى بحجر الحديد، وهو مصدر اسمها. ولكن ربّما كان هذان من النّيازك.

كنت قد عثرت على كسرة من نيزك أسود في منطقة البْواح في السّواحِب. وقد عُثر عليه مُلقى على الرّمال فيما كنّا نمرّ، والبدو الذين التقطوه سمّوه حجر الحديد ربما على اعتبار وزنه الهائل. كان من الصّعب تبيان طبيعته في البداية بسبب شكله

(1) كتب المؤلف: شهور عرب الصّحراء هي : رمضان عيد الفطر الأول، وعيد الفطر الثّاني، عَرَفة (شهر الحج) أشور (شهر الزّكاة)، صفر، توم الأول، توم الثّاني، توم الثّالث، مثال (أحياناً توم العرب) توأم، رجب وقصير. يعتقد أن قصير ومثال شهران لا يحل الإغارة أو السّفر خلالهما كما لا يحل السّفر أو الإغارة في رمضان ما لم تكن الغارة قد انطلقت قبل بداية رمضان. إنّ سلوى والسّكك ونباك هي مواقع لأماكن قديمة في قلب شبه جزيرة قطر تنسب إلى الفوارس. إنهم يقيمون الآن في مناطق الإخوان لذا لا أستطيع أن أستكشفها.

غير المنتظم وحوافّه الحادّة، وذلك لأنّ النّيزك يكون في العادة حجراً مدوّراً، ويكون أحياناً مرقّشاً بالثّقوب. ولذا يُعتقد أنّ نموذجي الذي عثرتُ عليه في البْواح Buwah كان جزءاً نيزكٍ أكبر بكثير انفجر وتشظّى إلى قطع أثناء عبوره الغلاف الجوّي[1].

عند بئر فرجة[2]، تمّ أخذ الأباعر لترد قبل الظّهر، ممّا أتاح لي فرصة جمع معطيات من أجل خارطتي - أي أسماء واتجاهات ومسافات الرّمال والآبار التي ينبغي تسجيلها أثناء مسيرنا وتمّ حسابها بعمليّة حساب المثلّثات. ولكن البدو ميّالون للتّململ عند طرح الأسئلة الطّويلة المتقاطعة عليهم، وأكثر المعلومات فائدة تأتي عند تشجيع العربي على المحادثة. وكانت المناسبة تتضمّن أيضاً قصّة، وهي قصّة بو زيد وأخويه يوسف وبريقة Baraiga ومواجهتهم لجنّي. وهذه هي فيما يلي مجريات القصّة:

في أحد الأيّام، انطلق بو زيد ويوسف وبريقة في سفرة، وتوقفوا عندما حلّ اللّيل عند بيت كان يسكنه رجلٌ وأمّه وخروفهما. فقال لهما الرّجل: «إنّي أودّ أن أصحبكم في رحلتكم.

قالوا له: «لا، أنت غير قادر على الأمور التي قد تُطلب منّا في طريقنا، وإلّا لكنّا أخذناك».

فما كان من الرّجل، الذي رغب بأن يُريهم أيّ نوع من الرّجال كان، إلا أن توجّه إلى شجرة سَنط (أكاسيا)، وأمسك بجذعها بين ذراعيه واقتلعها كما لو أنّها شجرة أثل، وألقى بها جانباً وقال: «ولكن ألستُ قوياً؟».

ولذلك قرّروا أخذه معهم وانطلق الأربعة قُدُماً. وقادتهم خطاهم إلى موضع وجدوا به فتاة كانت تقود كبشاً وتحمل بيدها طبقاً من الأرز المُشبع بالسّمن السّائح. كانت الفتاة ابنة حاكم بلدة تقع على مقربة. فسألوها إلى أين تمضي. قالت: «أنا ذاهبة إلى قربان الجنّي في ذلك الوادي، لأنّ البلدة يتعيّن عليها تقديم قربان، وينبغي إرسال بنت

---

(1) كتب المؤلف: ثمّة وصف له في مذكرة مستر كامبل سميث (الملحق الثّاني).

(2) كتب المؤلف: سمّي بئر فرجة نسبة إلى مَن حفره فَرَج، وهو رجل مُرّي يقال إنّه هو أيضاً من حفر بئر شَنَّة.

عـذراء وكبـش وطبق من الأرزّ إلى الجنّي في كل عشـيّة، وإن لـم تصله هذه التّقدمات فإنّ الجنّي يخرّب البلدة».

عنـدذاك، كان بـو زيد ورفاقه قد جاعـوا، وزادت في جوعهم رائحـة الطبق اللّذيد، فقالـوا للفتـاة: «ولكنّنا نبغي عشـاءً لنـا. أعطنا الكبـش لنذبحه والأرزّ لنأكله، وسـوف نذهب إلى الجنّي ونمنع حصول أيّ أذى للبلدة».

فقالت: «الجنّي سوف يجفّف الماء فيموت قوم أبي».

لكنهـم لم يأبهـوا لكلامهـا، وأخذوا الكبـش فذبحوه وشـووه وأكلوه. ثـم أعملوا الحيلـة فـي أمر الجنّي، فقسـموا اللّيلة إلى أربع نوبات حراسـة، بحيث يقوم كلّ واحد منهم بدوره بمراقبة الجنّي لنفس المدة الزّمنية.

أُسـندت أول مناوبة لمراقبة الجنّي للرّجل القوي الذي اجتثّ شـجرة الغاف *ghaf* مـن جذورهـا وألقاهـا على قارعـة الطّريق، فذهب إلـى الجنّي - الذي تجسّـد كأفعى ضخمـة - واقتـرب منه فصرخ بـه: «آها... أنت يا من تجلب لي وجبة العشـاء، أحضر لـي الكبش أولاً!». فارتعـدت فرائص الرّجل من الخوف والفزع وأطلق سـاقيه للرّيح حتـى وصل للإخـوة الثّلاثة بو زيد ويوسـف وبريقـة Baraiga وقال لهـم: «إنّ الجنّي سيلتهمكم لا محالة!» ثم فرّ هارباً ولم يره أحد بعد ذلك.

ذهب يوسـف ومعه سيف وترس وعصا، وما إن سمع الجنّي أحداً يقترب منه حتى فغر فاه الكبير، فصنع يوسـف صليباً باسـتخدام سـيفه وعصاه ثـم أدخلهما في مقبض التّـرس لتثبيتهمـا وقـام بغرس الصّليب في فم الجنّي، بحيث ثبّت السّـيف على لسـانه فلامس سقف حلقه، أمّا العصا فاستقرّت بين فكيه، فلم يعد يستطع إغلاق فمه وأُسقط في يده. وهكذا أمضى يوسـف فترة مناوبته إلى أن حان وقت اسـتراحته، فنزع أسلحته مـن فـم الجنّي وغادر لجوار إخوتـه. وحان دور بريقة في المراقبـة، وكان جلده ناصع البيـاض فما كان عليه سـوى أن يخلع ثيابه ليغدو غير مرئي. وهكذا لم يسـتطع الجنّي رؤيتـه وقضى وقتـه يتلمّس طريقه إلى فريسـته دون جدوى، وإذا برأسـه يرتطم بحجر

ويفقـد إحدى عينيه، وهكذا انتهت المناوبة الثّالثة لمراقبة الجنّي. اضطلع بو زيد بآخر مناوبة لمراقبة الجنّي، فتقدّم بكل جرأة وجسارة وقال للجنّي: «أغمض عينك الأخرى ومـدّ عنقـك وافتح فمك، لكي أتمكّن من الدّخول إليه وأغدو عشـاء لك». نفّذ الجنّي كلام بو زيد، فسحب بو زيد سيفه وهوى به على عنق الجنّي فقتله.

ثـم انحنـى فوقه ولوّث كفّـه بدم الجنّي وركض بسـرعة فائقة إلى قلعـة الحاكم في البلدة ووثب وثبة عالية حتى وصل للسّـطح تقريباً وضـرب الحائط بكفه الدّامي تاركاً أثـر دمـاء الجنّي فوق مدخـل القلعة، ثم عاد لأخويـه وابنة الحاكم فـي البرية. وعندما أشرق الصّباح تجمّع النّاس في البلدة على مشهد تدفّق سيل من دم الجنّي الأحمر من علامـة الكف الذي علـى جدران القلعة. جمع الحاكم النّاس في البلدة ليعرف من قتل الجنّي وخاطبهم قائلاً: «والله إنّ من قتل الجنّي سـيصبح الحاكم بدلاً مني وسأسـلّمه القلعة بنفسـي» فارتفعت أصوات كثيرة من الحضور وكل منهم يردّد: «أنا فعلتها... أنا فعلتها».

ردّ عليهم الحاكم بقوله «هيا إذن، فليقفز من فعلها ويلمس مكان الدّم فوق البوابة».

لكن أحداً منهم لم يستطع أن يفعل ذلك.

وهنا دخل يوسـف وبريقة البلدة لرؤية أحوال العباد والبلاد تاركين بو زيد مع الفتاة الشّـابة والجِمال ورائهم في البرّية. وما إن سـمع الحاكم عن وصول غرباء للبلدة حتى أمـر بإحضارهـم للوقوف بين يديه وقـال لهم إنّ القرية كانت تـرزح تحت نير العبودية للجنّي، وقد تخلّصت منه الآن ولن تُقدّم فتاةٌ وكبشٌ وطبقٌ من الأرزّ قرباناً له بعد الآن. والآن اخبرونـي مَـن منكم خلّصنا من هذا الاسـتعباد؟ من أسـدى لنا هـذا الصّنيع كي يحلّ مكاني كحاكم للبلدة؟». فأجابوه: «لا علم لنا». لكن الحاكم لم يصدّقهما وقال: «لا بدّ أن تقفزا الآن لأرى بأمّ عيني أيكما فعل ذلك».

امتثلا لأمره، ولكنّ أيديهما وصلت لمكان قبل مكان الكف الدّامية بمسـافة كبيرة، فتيقّـن الحاكـم أن المخلّص ليـس واحداً منهما، فالتفـت إليهما وسـألهما: «أين باقي

رَكبكم؟» فردّا – لأنهما خشيا العواقب الوخيمة لقول الحقيقة: «لم نصحب معنا سوى عبد لنا – وهو وصف يناسب بو زيد بسبب لونه الأسود – «وهو ينتظرنا عند مدخل البلدة حيث يرعى جمالنا».

فقال الحاكم «سأحتجزكما حتى أراه، ثم أمر بناقة وطلب من إحدى الإماء أن تذهب لإحضار بو زيد من مدخل البلدة، وقال لها: «عندما تصلين لمكانه مُريه أن يركب خلفك، فإن كان عبداً، فسيطيع أوامرك، أمّا إن كان حراً، فبالتّأكيد سيفضّل أن يركب في المقدّمة ويردفك خلفه على النّاقة.

وهكذا مضت الأمَة من فورها حتى وصلت للبرّية حيث كان بو زيد، ثم قالت له: «أنا رسول من قبل الحاكم وهو يطلب منك أن تحضر بين يديه للتّوّ واللحظة، وعليك أن ترجع معي إليه على ظهر هذه النّاقة، ثم أشارت إلى مكان ركوبه خلفها. لكن بو زيد تجاهل ما قالته وأزاحها جانباً لتركب خلفه ثم ركب أمامها، وانطلقا إلى أن وصلا لقلعة الحاكم، ثم ترجّلا.

قال الحاكم لبو زيد: «اقفز أيها العبد وضع كفّ يدك على الكف الدّامية فوق مدخل القلعة». فقال بو زيد: «أنا عبد، فكيف يتأتّى لي فعل ذلك! أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً». فأصرّ الحاكم قائلاً: «قلت لك اقفز، لا بدّ لك أن تقفز». فقفز بو زيد عالياً حتى لامست يده نقطة أعلى من علامة الكف الدّامي التي تركها الليلة الفائتة، وهكذا تأكد الحاكم وأهل البلدة جميعاً أنّه هو من ذبح الجنّي.

خاطب الحاكم النّاس قائلاً: «إنّ من خلّص البلدة من عبوديتها، يستحق أن يكون حاكمها، والتفت إلى بو زيد فقال: «من الآن فصاعداً هذه قلعتك»؛ لكن بو زيد قال: «أنا لا أريد مالاً ولا سلطاناً، لا أريد سوى أن تسمح لي بأن أذهب بحال سبيلي». فكافأه الحاكم بكنوز وجياد وما تيسّر من رزق الله وغادر مع إخوته في رضا وسعادة تامة.

* * *

قبل إسدال السّتائر على قصّة بو زيد، لمحنا على الجانب الآخر من الصّحراء جِمالنا مقبلة نحونا عائدة لتوّها من السّقاية، فاتجهنا أنا وحَمَد للقائها، وفي الطّريق مررنا بالكثير من آثار أقدام الجمال الحديثة التي تظهر أنّ فرجة أصبحت قِبلة من يريد الاستقاء.

وقد استوقفتْ رفيقي البدوي آثارُ أقدام أربعة جمال تسير في صف واحد فالتفت إلي وسألني مداعباً: «أيّ من النّوق تعرف من آثار أقدامها أنها الأفضل؟» فأشرتُ إلى النّاقة الخطأ، ومعي كل العذر، كما أقنعت نفسي لاحقاً، وأشار قائلاً: «هذه هي أفضل ناقة، أترى ثنايا أصابع خفّها؟ إنها علامة جيدة، بعكس هذه النّاقة»، مشيراً إلى آثار النّاقة التي اخترتها؛ «أمّا هذه»، وأشار لثالث أثر لقدم النّاقة، «فقد كانت مؤخّراً في البادية، بدليل أنّ آثار خفّها متجعّدة متغضّنة، فلو كان قد قضت وقتاً طويلاً في السّير على الرّمال لتركت آثاراً ملساء ناعمة، أما ذاك (وأشار للأثر الرّابع) فإنّه حوار النّاقة. إنّ النّاقة التي اخترتها تحمل صغيراً بدليل أن آثار قدميه الصّغيرتين الخلفيتين تغوصان في الرّمال».... الخ... الخ. إن قدرة حَمَد على فك شيفرة آثار الأقدام المطبوعة على الرّمال كانت من أهمّ ما يميّزه ويتمتع بهذه القدرة والمعرفة جميع قاطني الصّحراء تقريباً بدرجات متفاوتة، فيتمكن البدوي من قراءة أثر الأقدام أن يعرف حالة الدّابة دون أن يراها، ومن خلال ذلك يحدّد ما إذا كان عليه الفرار أم متابعة السّير في أمان. إن اقتفاء الأثر علم دقيق يتوارى منه خجلاً نظام الكشف عن البصمات في الغرب ذي الإمكانات والمجالات المحدودة، فالرّمال هي الأداة المثالية لتتبّع الأثر.

تأخذ المحكمة في عُمان، على سبيل المثال، وهي من أكثر الأماكن رقيّاً ومواكباً للعصر والتّقدّم في شبه الجزيرة، بشهادة مُقتفي الأثر كدليل إدانة يعتد به. إنّ القَفّار[1] *qaffar*، كما يُطلق عليه هنا في عُمان، يملك كمقتفي للأثر في الصّحراء مواهب وإمكانيات في تعقب الآثار لا يملكها أحد من العالمين. وفي فترة خدمتي في مسقط

---

(1) القفار هو قصّاص الأثر، أي الرجل الذي يستطيع أن يقتفي آثار الاقدام في القفار، ويسمّى في لهجة الإمارات: الجفير.

عُرضت عليّ قضية تتعلّق بجريمة قتل رجل صيني جاء لشراء اللآلئ والبزاقات من عُمان. ففي ليلة من الليالي قُتل الرّجل الصّيني وهو نائم على سطح منزله في بازار مسقط ـ السّوق الشّرقية لمسقط. وكان من الواضح أن أحداً قد باغت القاتل وهو في حالة تلبّس، فاضطر للقفز من السّطح ـ كان المبنى من طابق واحد - بهدف للفرار. لكن أثر قدمه ظلت مطبوعة على الزّقاق بين الأبنية. وفي الصّباح التّالي، عندما اكتُشفت الجريمة، وُضع أثر القدم تحت حراسة مشدّدة عُيّنت على مدخل ومخرج الضّواحي. ومرّت الأيام وأخذت حالة القلق والتّوجّس تتزايد في البلدة نظراً للطّبيعة الوحشية للجريمة، حيث ذُبح الرّجل ذبح الشّاة بجَنبيّة حادّة حتى تم فصل رأسه عن جسده، ولا يزال القاتل حرّاً طليقاً. وأخيراً وصل مقتفي الأثر وقضى بضعة دقائق جاثياً على يديه وركبتيه متفحّصاً الأثر وكأنه يحاول حفظه عن ظهر قلب. وفي اليوم التّالي أمر مجلس البلدية كل حي من الأحياء أن يرسل الرّجال الذين يسكنون فيه ليخضعوا للتحقيق على يد القَفّار. وما إن انقضت عدّة أيام حتى قدَّم القَفّارُ دليل الإدانة لعبدٍ شاب في العشرينات. ويعمل هذا العبد الإفريقي يا للعجب في المحكمة، لذا كان لا بدّ من التّأكد من إدانته لتفادي عواقب الاتهام الخطأ. تم القبض عليه فوراً وأُرسل لقلعة السّجن وهناك وُجّه له الاتهام بالقتل، ولكنه أنكر ارتكاب الجريمة جملة وتفصيلاً، ثم أُرسلت ملابسه للتّحقيق الجنائي في مومباي في الهند. وعلى الرّغم من عدم العثور على بقع دم، فإنه كانت هناك أدلة ظرفية أخرى عضدت من شهادة مقتفي الأثر.

فقد كان العبد شخصية سيئة السّمعة، وكان السّاكن الوحيد للمنزل المجاور لمنزل القتيل ـ الضّحية ـ ولذا كان بإمكانه أن يقفز بسهولة من شرفته بالأعلى على السّطح الذي ارتُكبت فيه الجريمة المروّعة، لكنه لم يكن يستطيع القفز عائداً إلى شرفته التي تعلو السّطح، لذا فقد كان مضطراً للقفز من الشّرفة. وعند فحص الطّب الجنائي الهندي لأثر القدم، عُثر على شظيّة حجر مغروسة في منتصف الأثر، وكان من رأيه أن الرّجل الذي قفز هارباً وهبط بقدميه على شظيّة الحجر، لا بدّ أنه يعاني من جرح ـ قطع صغير ـ في أخمص قدمه اليمنى. وهكذا أحضر السّجين بين يدي فأمرته أن يريني أسفل قدمه،

فرفع قدمه اليسرى بسرعة، وعند فحص أسفل قدمه اليمنى شاهدتُ ندبة جُرح يتوافق سُـمكه ومكانه مع مكان شـظيّة الحجر في أثر القدم. وقد أكّدت قراءة جهازي لقياس هذه النّتائج. ونفّذت فرقة الإعدام الحكم عليه بالإعدام رمياً بالرّصاص في ميدان عام وعلـى مرأى من سـكان البلـدة. إذن لم يذهب جهـد مقتفي الآثار سـدى! والآن، بعد مضيّ سـتة أشـهر على هذه الواقعة، أدرس أثار أقدام الحيوانـات الأصغر في جو أكثر هدوءاً وسكوناً في أعماق الرّبع الخالي.

يكتفي البدو بقراءة ومعرفة معنى ودلالات آثار الأقدام، أمّا الأوروبي، فيتعدّى ذلك ليتواصل مع سـحر الخطوط الرّشيقة ويُعْمِلُ خياله في فك طلاسم تلك الآثار فتتراءى له الخطوط الرّقيقة النّاعمة التي تسـطّرها عُشـبة القصيص المتدلّية على الرّمال عندما تحركهـا الرّياح وكأنهـا صورة مصغّرة من حلقـة الصّلاة التي يحدّدهـا البدوي بعصاه قبيل غروب الشّمس، ويدرك التّباين بين تنسيق وتناغم آثار مخالب الطّيور التي تمشي في خط مستقيم ونظام عجيب، واحداً تلو الأخر، وبين فوضوية التّعرجات والمتاهات التّرابيـة التـي تحفرها بعض ذوات الأربع مـن الحيوانات الصّغيرة. كما يبهره الشّـكل الدّائري الذي يرسـمه الفأر على الرّمال بنعومة وإتقان وينتهي إلى دغل تجد فيه حفرة ضئيلة وكومة من الرّمال التي تم حفرها حديثاً دليلاً على مدخل جحره.

وهكـذا تبـدو الانحنـاءات والالتفافـات والتّعرّجـات المعقّدة والجميلـة في ذات الوقت لحركة السّحلية التي تبدو كصورة الأرابيسك، وكأنها حركة غُصين من العشب الكثير المياه لعبت به الرّياح فتقلّب وتدحرج والتفّ في فرحة غامرة واسـتمرّ في لهوه وعربدته بينما تطرحه الرّياح أرضاً مرة بعد مرة كيفما اتفق.

* * *

كان صباح اليوم التّالي شـديد البرودة وكانت الرّياح الشّمالية العاصفة تهبّ بشكل غير مباشـر علينا فيما كنا نسـير باتجاه الشّـرق ثم انحرف طريقنا حتى أصبحنا نسير في مواجهتهـا، وكنت ممتنـاً لإحضاري معطفي الثّقيل السّـميك معـي. ولأول مرة رأيتُ صقراً كبيراً يحوم فوق رؤوسـنا في الصّحراء ثم يطير بسـرعة في اتجاه الرّيح، بينما كنا

نمرّ بركب من قبيلة المَهْرة يتكوّن من خمسين جملاً أسود اللون. إنّ الغالبية العظمى من قطعان قبيلة المَهْرة سوداء اللون[1]، ومن أجل ذلك كانت الخيام في الصّحراء سوداء اللون بشكل عام. وهذا اللون يتباين بشكل حادّ مع لون الحيوانات البرية في الصّحراء، وخاصة الثّدييات التي تحاكي لون بيئتها.

انعطفنا لتفادي هؤلاء المَهْرة، على الرّغم من أنه كان من الواضح أنّهم ينتمون لبطن من بطون المَهْرة ليس بيننا وبينهم عداوة، لكن رأينا من الحكمة ألّا يراني أو يسمع بوجودي أحدٌ خوفاً من أن تسبقنا أخبار وجودي في الرّكب، ممّا ينذر بعواقب لا يُحمد عقباها.

كان الشّيخ صالح يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه وهو فوق جمله بجانبي، ولكنه لم يكن ليستنكر البرد القارص مخافة تحدّي إرادة الله واستجلاب سخطه، فهو الذي أرسل هذا البرد. ولمّا أخبرتُ صالحاً عن البرد القارص الذي يشلّ الحياة في إنكلترا في الشّتاء، التفت لمبارك وقال: «أسمعت هذا؟ يتجمع الماء البارد في بلاد الوزير في برك ثم يتجمّد جرّاء البرد القارص حتى إنّ العرب وجيادهم وحميرهم تستطيع السّير عليه». ردّ مبارك قائلاً: «لا إله إلا الله».

ولقد قرأت الهلع والخوف في تعابير وجهه من أن أكون من طليعة الغزاة الذين جاؤوا يتحرّقون شوقاً للهروب من بؤس بلادي إلى جنّة رمالهم! لقد قضيتُ أوقاتاً طويلة أتضور جوعاً وأنا أواصل السّير فوق جملي وقد أذاقتني الرّياح الشّمالية قارصة

(1) كتب المؤلف: يطلق على قطيع الجمال جيش بالمَهري ونشرة بالرّاشدي وبوش بلهجة القبائل في عُمان. ولدى القبائل البدوية خمسة ألوان للجمال: أبيض، أحمر، أسود، أصفر، وأخضر وهذه هي المترادفات كما جاءت في القاموس: وفي الحقيقة:
الأبيض: يعني لون أبيض مصفرّ باهت.
الأحمر: لون الغزال.
الأسود: أسود بني.
الأصفر: لون بين الأبيض المصفرّ الباهت ولون الغزال.
الأخضر: لون بنّي دخاني رمادي.

البـرودة العـذاب ألواناً، فقد انخفضت درجة الحرارة ليلاً إلـى 40 فهرنهايت، وبما أنّه لم يكن هناك خيمة أو غطاء يقي رأسي، فقد كان من الضّروري أن أنام بجميع ملابسي بالإضافة إلى ثلاثة أغطية.

وفـي اليـوم الثّاني والعشـرين من شـهر يناير ونحن نخـوض أمواج التّـلال الرّملية الحمراء في غُبيلة، قاسينا النّذر الأولى لسلسلة من العواصف الرّملية. كنا نجلس حول نـار المخيـم عقب وجبة المسـاء وقد تشبّع الهواء منـذ ليلتين ـ ولأوّل مـرة منذ تركنا جبـال القَرَا ـ بالنّدى. أما الليلة فقد هبّت رياح شـمالية ولكن لم يكن هناك شـيء ينذر بهبوب عاصفة عاتية. وفجأة تطاير لهب المعسـكر في هذا الاتجاه وذاك، وكأن الرّياح كانت تهبّ من كل مكان في أن واحد، فأسرعنا بتغطية وجوهنا بأيدينا لإنقاذ عيوننا من الدّخـان الخانق، ورفاقي البدو يتراكضون في الظّلام لجمع الجمال التي كانت ترعى. إنّ العاصفة الرّملية هي العدوّ اللدود للجمال.

زادت حدّة العاصفة الرّملية وشراسـتها، فاحتشد البدو بعباءاتهم الهزيلة ـ جنباً إلى جنـب ـ طلباً للدّفـء. وقد نمـتُ نوماً متقطعاً وكأنني محموم. كان النّوم مسـتحيلاً في خضم هسـيس الرّياح المثقلـة بالرّمال وصلصلة حبال خيام المعسـكر والصّقيع الذي تمكّن من قدمَي. عصفت الرّياح المثقلة بالرّمال بوجهي فأحسستُ أنّ سكيناً حادةً قد غُرسـت فيه ثم انخفضـت درجة الحرارة إلى 37 وفق مقيـاس فهرنهايت الجاف و 35 درجة وفق مقياس فهرنهايت الرّطب. غشيني النّعاس قبيل الفجر مباشرة، ثم استيقظت بعـد الفجر لأجـد قتبي وأمتعتي مدفونة تحت الرّمال. هـدأت الرّياح فتحلّقنا حول نار المخيم ونحن نرتجف، ثم قام رفاقي من البدو باستنهاض جمالهم التي جمعوها الليلة الفائتة لتأمين سلامتها، حيث تدافعت الحيوانات البائسة وهرعت نحو المرعى للتزوّد بالكلأ والشّعور بدفء الشّمس المشرقة.

أمّـا بالنّسـبة لـي، فقـد كان لتلـك الليلة نتائـج كارثية، فقد تسـلّل الرّمـل إلى داخل معدّاتي وعبث بها، فتعطّلت آلة تصويري السّينمائية الصّغيرة ولم يعد البارومتر يسجل أيّة قراءة، لذا لم يكن أمامي منذ ذلك الحين فصاعداً إلا أن أسـجل قراءتين مختلفتين،

على الرّغم من أنني لست متأكداً من صحّة أيّ منهما وذلك حتى نهاية رحلتي. صرخ بدوي شاب في الصّباح التّالي قائلاً: «أحمل لك بشارة من الشّمال.. أحمل لك بشارة من الشّمال» وذلك في إشارة للرّياح الشّمالية العاتية، وقد استقرّت درجة الحرارة في حدود 5 فهرنهايت عند درجة التّجمد. أسرع الشّيخ صالح مقتبساً شعراً صحراوياً يتحدث عن الأثر المنشّط للرّياح على ذكر الجمل يقول فيه:

«لكن الرّياح الشّمالية لن تنشط مرة أخرى!»

وما إن اقتربنا من عين الماء في جحيش، حتى حلَّ محيطٌ من رمال السّنام البيضاء الشّاسعة محل أمواج الرّمال الحمراء المتلاطمة في عُبيلة. كان يوماً بارداً كئيباً، فقد غطّت السّهل شبّورة من الدّخان الأبيض، الذي اندفع بقوة تجاهنا حتى غلّف أرجل الجمال بالرّمال ثم تجاوزنا. أصيب رفاقي من البدو بلسعة البرد القارص فأخذوا يرتجفون. فثيابهم الهزيلة التي احتموا بها جعلت البرد يتسلّل إليهم طوال مسيرتنا. صرخوا بي قائلين: «أنِخْ ناقتك يا صاحِب! فقد حان موعد صلاة العصر». وأدركت عندئذ أننا سنستريح لبقية اليوم، فقد كان هناك حطب بالقرب من عين ماء الدّويرس[1] المهجورة، كما كان هناك مرعى صغير. امتلأت عيناي بالرّمال وكذلك دفتر مذكراتي. لقد غزا الرّمل كل مكان، وكان من المستحيل أن أكتب مذكراتي بأصابع مخدرة. كل ما يمكننا فعله الآن، هو الجلوس بتراخٍ وكسل بين مطرقة الرّمال وسندان البرد وندعو أن تهدأ العاصفة. hg[g,s

جمع البدو أغصاناً من الأيكة وصنعوا منها سياجاً قوياً يبلغ طوله عشرين ياردة. لقد رأينا في هذا المكان - لأول مرة - شجرة الغَضا *gadha* الخفيضة كثيفة الأغصان. أنخنا النّاقة خلف ذلك الملجأ وجمعناها في مكان واحد في عجالة، ولم يشذّ عن ذلك الجمع سوى بضعة ابل اختارت أن تظل واقفة متسمرة تملأ بطونها بالكلأ. وفي وقت لاحق من النّهار، عندما تسلّل دفء الشّمس إلى الكون من حولنا وخفّت حدّة الرّياح، تزاحمت النّوق المنهكة متجهة إلى بعض المراعي القريبة للتزوّد بالكلأ، لكنّها

(1) تقع إلى الشّمال مباشرة من بئر عويدة، وجنوبيّ آبار هرّة.

مـا لبثـت أن عادت أدراجها دون إبطاء - بخُفـي حُنين - إذ ما إن ثارت ثائرة الرّياح من جديد حتى خشي الجمالون أن يفقدوا جمالهم بعد أن قامت الرّيح العاتية بطمس أثار الأقـدام. تملك الجمال غريزة مذهلة ألا وهـي الحنين إلى الوطن الأم الذي ترعرعت فيـه وألفتـه - والمفارقة هنا أنها لا تملك منزلاً أو موطنا بالمعنى المألوف - ومع ذلك فان الشّـوق والحنين إلى استعادة المراعي السّـخية، التي تربّت في ربوعها، والقطعان التـي تربت في أحضانهـا، تتملّكها وتدفعهـا دفعاً نحو وطنها. وربما تنسـى في خضمّ وعثاء السّـفر والسّير تلك الرّغبة الملحة لما ألفته، لكن ما إن يـؤذن الحادي بالتّوقف للاسـتراحة والتقاط الأنفاس ويطلق سـراحها للتزوّد بالكلأ والرّعـي دون قيود، حتى يعاودها الحنين إلى موطنها فتتجه إليه من تلقاء نفسها وتجد طريقها إليه بغريزتها ومن نفس الطّريق الذي جاءت منه. أمّا جَمّالها (سيّدها)، فلا يشكّل أهمية تذكر بالنّسبة لها، فهي لا تكنّ له أيّة مشاعر ولا تعرف ولا تريد أن تعرف عنه شيئاً أكثر من صوته. وعلى الرّغم من كل ذلك فإنها تعتمد عليه اعتماداً مطلقاً في سـقايتها، فهي في واقع الأمر لا تملك من أمرها شيئاً ولا تملك ردّ الأذى عن نفسها أو تخليص نفسها من أقل الأخطار حتى وإن كان أكثر عيون الماء ضحالة وأقلّها عمقاً. ولولا قدرتها الاستثنائية، الخارقة للطّبيعـة، علـى تحديد وحفـظ الاتجاهات وتميزهـا لبدت كما هي فـي حقيقة الأمر، حيواناً في منتهى الغباء! وعلى الرّغم من ذلك كلّه فإنها - كما يقول البدو - عطيّة الله لهم! وقد قال لي الشّـيخ صالح في يوم من الأيام: «لو تُركت النّاقة عَقَبة[1] على هواها

---

(1) كتب المؤلف: يتفرّد كل جمل باسم خاص يناديه الجمالون به لكن عامّة النّاس تستخدم أحد أسمائها التّسعة الشّائعة تبعاً لعمرها: من الميلاد حتى شهرها السّابع: يطلق عليها حوار Huwar أي لا تزال في طور الرّضاعة. من الشّهر السّابع الى العام الثّاني: يطلق عليها انفرد Inferid أي تقي نفسها من المخاطر بمفردها. عند بلوغها العام الثّاني: يطلق عليها بنت البن Bint al Bun او ولد البن Weled al Bun. وفي عامها الثّالث: يطلق عليها مضربة Madhriba أي يمكنها أن تتزاوج مع ذكر. و في عامها الرّابع: يطلق عليها يضة Yadha أي يمكن ان تلد عجلاً. وفي عامها الخامس: يطلق عليها ثنية Thiniya. وفي عامها السّادس: يطلق عليها ربة Raba. وفي عامها السّابع: يطلق عليها سدس. وفي عامها الثّامن: يطلق عليها شقّ النّقا Shag al Naga أو نفي Nufi.

لكانت سارت عبر الصّحراء مهتدية بهدي ذلك النّجم وعادت أدراجها مباشرة إلى الدّكاكة لترتمي في أحضان القطيع والموطن الذي ألفته، على الرّغم من أنها لم تسلك ذلك الطّريق من قبل».

فسألته مستفسراً: «لكن كيف تتصرّف وتدبّر أمرها حيال الماء؟» فردّ قائلاً: «ان كان الفصل شتاءً، فسوف تتمكن من العودة لمنزلها بأمان دون أن تشرب قطرة ماء واحدة، أما اذا كان الفصل صيفاً، فسوف تهلك - لا محالة - من العطش قبل أن تقطع ربع الطّريق. وقد حدث خلال مسيرتنا في اليومين الماضيين ما يثبت صحة ذلك فقد انضمّت إلى قافلتنا ناقة جديدة تحمل صغيراً[1]؛ أو بالأحرى، تقدّمت الطّريق حيث أنها وثبت وثباً للأمام متجهة مباشرة إلى قَطَر. وكانت وُسمت بعلامة تدلّ على أن قَطَر هي موطنها الأصلي. ومن المحتمل أنها كانت متعطشة لتناول المزيد من التّمر أو السّردين وهما أشهى الأكلات المحلّية التي افتقدتها في خضمّ لهيب الصّحراء. وقد كان الحظ حليفاً لتلك النّاقة فقد كان الفصل شتاءً. صاح أحد المَهْرة محذّراً في اليوم التّالي: «إيّاك أن تأكل النّاقة من شجيرة الغَضا! وكنا آنذاك مارّين بالسّهل الأخضر «انه مسكون بالجن!» بيد أنّ حَمَد استطرد قائلاً: «إنّ هذا الحظر والمنع لا يشمل سوى مراعي الحِرَّة Al Hirra وبنيّان التي توجد بها شجيرات الغَضا!» يعدّ هذا النّبات - في الأماكن الأخرى - مصدراً هاماً للعلف، ففي مرة من المرّات لقيت خمسة جمال حتفها في هذا المكان في ليلة واحدة وفي مناسبة أخرى، سقط اثنان منها فريسة للمرض وجفّ لبنهما.

وقد اكتشفتُ أنّ سطوة الجن طالت الحياة النّباتية في مُقْشِن حيث حالت دون اقتراب أحد من أيكة مهيبة غاية في الرّوعة والجمال من شجر السَّنط. لقد امتنع البدو

---

(1) كتب المؤلف: تسمى النّاقة التي تحمل صغيراً مديني *midini* باللهجة الرّاشدية، ولقحة *al-gaha* باللهجة المَهرية. تبلغ مدة حمل الأنثى اثني عشر أو ثلاثة عشر شهراً وفي بعض الأحيان لا يتعدّى أحد عشر شهراً ولكن في تلك الحالة قلّما يكتب للصّغير الحياة. ولو حدث ذلك، فيسمّى سهم *saham* وتسمّى الأم جارت *jaret*. وتسمى عجلة البقر التي لم تبلغ سن السّفاد بَكرة *bakra*، ويطلق المَهْرة على العجل والعجلة قَعود *ga'ud* وحاشي *hashi* على التوالي.

عن ممارسة عادتهم الرّاسخة بعلف جمالهم بأيديهم - بمواعيد نظامية - بأعشاب المراعي الطّرية النّدية كثيرة العصارة، أو صيد الأرانب البرّية لأجل طعامهم[1].

يؤمن الكثيرون من أبناء قبيلة كثير بمعتقد غريب مفاده أن أيّ جمل يُعلف باليد في منطقة مُقْشِن بدلاً من أن يرعى ويتزوّد بالكلأ بنفسه، فإنّه سيعاني من سوء الحظ ونكد الطّالع. تقع عين ماء بنيّان الشّهيرة على مسيرة يوم إلى أمامنا وقد اصحبنا في مواجهة التّلال الرّملية الحمراء في خيوط البريدان - التي تعيّن الحدود الشّمالية للسّنام - عقب ساعة ونصف السّاعة من وداعنا للمراعي المتخمة بالحاذ - التي قضينا فيها الليلة الفائتة. هدأت الرّيح وبدا أنّ هناك تفاوتاً وتبايناً منعشاً ومتجدّداً بين السّطح النّاعم الصّافي للتّلال الرّملية المتورّدة، التي يُطلق عليها هنا اسم حمرور Hamarur، والسهول البيضاء الدّخانية التي مررنا بها مؤخراً. اصطفّت رقع من عشب الهَرَم *haram* الأخضر الزّاهي على الأغوار الطّويلة الضّيقة - الحصوية - في التّلال الرّملية. كانت جمالنا - بين الفينة والفينة- تخطف كشّة من الكلأ - دونما تشجيع- ونحن سائرون في طريقنا وتواصل سيرها بلا مبالاة. يعدّ الهَرَم علفاً مشبعاً بالملح يضرّ بالحيوان الذي لم يعتد عليه أيّما ضرر. قال لي أحد البدو وهو يشير بخفّة إلى جهة الشّرق: «إنّ المناصير الآن يملكون القليل من المراعي غير المُشبعة بالملح، لذا ترعى جمالهم وتنمو على تلك المراعي حيث ينمو لها سنام مثل هذا»، وهنا أمسك بمرفق يده وثنى ساعده أعلى راحة يده الأخرى في إشارة معروفة للدّلالة على السّنام الكبير ثم الحيوان مكتمل الصّحة والنّمو.

لقد شكّلت التّلال الضّيقة الطّويلة - النّادرة - من الرّمال الحمراء في السّهل ورقع عشب الغَضا النّابت من أعماق نتوءات رملية - تشبه شكل الفيل - تحيط بجذوره. ويطلق على المنطقة اسم غَضاة زعزع[2] Za'aza وقد قادتنا إلى تلال ذات رمال حمراء

---

(1) كتب المؤلف: لدى قبيلة المناصير حظر على أكل الأرنب أو أيّ حيوان آخر قُتل برصاصة في رأسه اعتقادا منهم أن الرّصاصة تتسبب في فساد مخ الحيوان وجعله غير صالح للأكل.
(2) هكذا كتب المؤلف الاسم، وصوابه: قوز زعيزع.

أكثر تموّجاً وتدفقاً. وقد توقفنا للرّاحة عند عين ماء بنيّان. مشت قافلتنا الهوينى كدأب القوافل التي بلغ منها التّعب مبلغه[1].

لقد استنزف صيام شهر رمضان، الذي ترك بصمته القاسية على رجال قافلتنا، طاقة ونشاط الجميع. كما أنّ المراعي الملحية المشبعة بالملح قد أنهكت قوى النّوق واكتوى كلٌّ من الرّجال والنّوق بلهيب السّير لمسافات طويلة في القيظ وصقيع الرّياح الشّمالية. كنا أنا وحَمَد أول من وصل لموقع الاستراحة.

حثّني حَمَد قائلاً: «اشرب يا صاحِب فإنّ ماء بنيّان[2] Banaiyan ماء عذبٌ صافٍ!» أمّا حَمَد فكان لا بدّ له أن يمتنع عن شرب الماء - حتى في الأشهر الأخرى عدا شهر رمضان - امتثالاً لأعراف لصحراء التي تحتم عليه ألا تلامس قطرة ماء شفتيه - عقب يوم قاسى فيه ألوان من العذاب من الظّمأ - وعقب وصوله إلى عين الماء - ما لم يصل آخر البدو في مؤخرة القافلة! ولم يكن ليشاركني تناول كسرة خبز جافة على الطّريق ما لم يشاركنا فيها رفاقه فرداً فرداً! وعلى الرّغم من أسلوب الحياة المحفوف بالمخاطر والمهالك الذي يؤجّج السّجال الوحشي بين الأعداء فإنّه - في ذات الوقت - يسمو لأعلى الدّرجات الإنسانية مع الأصدقاء. كانت عين بنيان بئراً حقيقية فقد كان لها سور حجري ولم تكن مجرد حفرة في الرّمال كغيرها من عيون الماء في الجنوب. وبتوافد رفاقي البدو لمكان البئر بدأ يطرأ عليهم تغيّرٌ ملحوظ، فقد عمّ الحبور والسّرور وانطلقت صيحات الفرح والبهجة متناغمة مع صوت صبّ الماء الذي يعشقونه. أمّا إبلهم الضّخمة الظّمأى ذوات الأعناق الطّويلة فقد مدّت رؤوسها لأجران الماء لتعبّ الماء عبّاً. امتنع المسافرون عن التّوقف للاستراحة في هذه التّلال الجرداء ذات الأمواج المتلاطمة بسبب نقص المراعي، لذا بدأت الجمال التي تمّت سقايتها في التّحرّك قبل أن تتقدّم آخر الجمال للسّقاية. لقد تلكّأت لأسير مع رفاقي

---

(1) تسمّى المنطقة التي يمرّون بها: خيوط البريدان.

(2) يكثر المؤلف من الحديث عن هذه الآبار، وهي تقع إلى الشّمال من قوز زعيزع، وإلى الجنوب من بئر الخشبي.

البـدو في مؤخرة القافلة، وما لبثنـا أن توقفنا لأداء صلاة المغرب وفي أعقابها ازدادت صعوبة اقتفاء آثار الكشّـافة البدو في مقدّمة القافلة. ومع تلاشـي الضّوء شـيئاً فشـيئاً، أصبـح الأمر مسـتحيلاً. لقـد قطعنا الطّريق مهتديـن بقبس النّجم القطبـي الواقع أعلى كتفنا الأيسـر، أو كمـا يصوّره البدوي واضعاً يده فوق عظمـة التّرقوة الموازية لكتفه - حتى لا يلتبس عليّ الأمر! وما كادت تمضي ساعة حتى صرخ رجل من خلفي فالتفتُّ لأرى وميضاً صادراً من نار معسكر بعيد الى الشّرق من مكاننا.

وعلى الفور قمنا بالالتفاف والاتجاه لمعسكرنا في السّاعة السّابعة. وعندما وصلنا كنتُ في أشـدّ درجات الإنهاك والإعياء بعد عشر ساعات ونصف من السّفر فوق قتب النّاقـة. ولكن ما بعث الرّاحة في نفسـي هو إدراكي أنني قد قطعت الصّحراء الوسـطى القفراء القاحلة من الرّبع الخالي، وأنّ البحر لا يبعد سـوى ثلاثين ميلاً إلى الشّـمال... إنّني أكاد أتذوّق طعم النّجاح!





نوعيّة الرّمال المألوفة في السّواحِب



فصيلة جديدة من الثّعالب؟ (الفنك)



عش نسر

الفصل التّاسع عشر

استعادة الأحداث الماضية والتّفكر بها

عندما وطأت قدماي بنيّان كنت قد وصلت إلى الحافة الشّمالية لمنطقة الرّمال[1] وهنا أغتنم الفرصة لأتوقّف هنيهة عن سرد القصة لأقدّم فصلاً موجزاً عن شكل وبنية هذه الأرض كما ستكشفه رحلاتي. تنقسم جزيرة العرب - جيولوجياً - عند الرّبع الخالي. إنّ الكتلة الرّئيسية السّائدة من شبه جزيرة العرب تعدّ جزءاً جيولوجياً من القارّة الأفريقية وقد انفصلت عنها لتواجد منطقة منخفضة أو خسف في وادي البحر الأحمر. وقد ارتفعت عدّة آلاف من الأقدام حاملة معها الصّخور البحرية لأعلى مستوى لها. ولم تعانِ من الاختلال في مركزها فقد تمّ لفظ الكتل البركانية دون قوّة تذكر، وبذلك لم تتشكّل أيّة قمم بركانية وبشكل عام ظلت البلاد على نفس حالتها - لم تُمسّ بسوء نسبياً - على امتداد وتعاقب الحقب الزّمنية بدءاً من الحقبة الجيولوجية. أمّا المنطقة الشّرقية - وأعني بذلك الجزء الرّئيسي من سلسلة جبال عُمان على الجانب المقابل - فهي تعدّ جزءاً من التّركيب الفارسي بسلاسل الجبال ذات التّضاريس شديدة الوعورة والتّعقيد نتيجة الضّغط من الشّمال تجاه الجزء الرّئيسي الأكثر استقراراً ورسوخاً من جزيرة العرب الأصلية، في وقت كان النّشاط الأرضي يشكّل سلاسل الجبال الكبرى

---

(1) كتب المؤلف: تقع بنيّان عند خط طول 51 شرقاً، وبالتّالي فإنها تقع عند الحدود الشّمالية لمنطقة الرّمال، أما من الجهة الشّرقية فتمتدّ الرّمال جهة الشّمال عبر مناطق البطنة والجواء (اليواء) والقفاء وبينونة وصولاً إلى شواطئ الخليج العربي وتمتد الرّمال باتجاه الغرب عبر الجوب والجافورة وصولاً إلى منطقة الحَسَا (الأحساء) - (انظر الخارطة). ولكن وفقاً لما ورد بلسان ابن الصّحراء فإنّ هذه المناطق ليست جزءاً من منطقة الرّمال.

في جنوب فارس والهند الشّمالية[1].

لقد كانت ظُفار نقطة انطلاق رحلتي وجاءت تلك البداية ملائمة لدراسة البناء الجيولوجي لمساحة كبيرة من الهضبة العربية. وهناك غُرانيت مكشوف وصخور بلّورية شفّافة أخرى على طول شاطىء البحر وهي تشكّل القاعدة العريضة الضّخمة لشبه جزيرة العرب. وتكسو هذه الصّخور طبقات من الأحجار الرّملية الحمراء التي تشكّل المنحدرات الأكثر انخفاضاً في جبل القَرَا والمماثل على الارجح للصّخور الرّملية النّوبية الموجودة في مصر وسيناء وما وراء الاردن. وللأعلى توجد الصّخور الجيرية المتمثلة في جُرف جبل القَرَا ويعود للعصر الطّباشيري والإيوسيني. وفي حقيقة الامر، إنّ المنحدر الجنوبي ما هو إلا حافة هضبة الحجر الرّملي الشّاهقة والتي تنحدر انحداراً تدريجياً وصولاً لحافّة رمال الصّحراء. وقد عثرتُ هنك على بقايا حيوانات ونباتات متحجّرة من عصر الإيوسين الجيولوجي.

إنّ حزام الرّمال المهيب الذي يقع في الجهة الشّمالية ويمتدّ لأكثر من 300 ميل، لا يوجد ما يدلّنا على كم من الزّمن مضى عليه على الرّغم من أنّ العيّنات الرّملية[2] التي جلبتُها معي من منطقة الوسط تحتوي على حبيبات أو بلّورات بيضاء وقرنفلية من الحجر الجيري التي تشير إلى أنّ الرّمال لم تقطع مسافة كبيرة، وإلا لكانت تلك الحبيبات والبلورات اختفت جرّاء الاحتكاك بمعدن الكوارتز. وقد وجدتُ مرّة أخرى بقايا حيوانات ونباتات متحجّرة في الصّخور من نفس العصر بمحاذاة حافة الرّمال الشّمالية إلى شمال بنيّان. لكن كان من المستحيل أن أحدّد بمجرّد عبوري لمرّة واحدة ما إذا كان البحر الايوسيني، الذي كان في السّابق يمتدّ على طول المسافة من قَطَر إلى ظُفار، وغطّته لاحقاً الرّمال العواصف العاتية من الشّمال الشّرقي. كما أنّ ضرباً من

---

(1) كتب المؤلف: أحيل القارئ المهتم بمعرفة المزيد عن هذا الموضوع لكتاب «علم الجيولوجيا - طبقات الأرض والتكتونية في عُمان وجنوب شرق جزيرة العرب». وأدين بالشّكر والعرفان للدّكتور جي إم ليز G. M. Lees، لإمدادي بكتابه «الجيولوجيا وعلم الاجتماع» عام 1928.

(2) كتب المؤلف: توجد في الملحق الثاني قائمة للعينات الرّملية مع تحليلها.

المستحيل أن أحدّد ما إذا كانت المواقع التي تمتدّ لمسافة مئة ميل على الجانبين كليهما - في قلب الرّبع الخالي - والتي عثرتُ فيها على بقايا الحيوان والنّبات المتحجّر تمثّل الحدود الشّمالية والجنوبية لاجتياح البحر الإيوسيني.

ومن المحتمل أنّ قاع منطقة الرّمال يتكوّن من بنية من الحجر الجيري قد تعود إلى العصر الطّباشيري أو الإيوسيني، مع انكشافات من الحجر الرّملي النّوبي الذي تسبّب في هبوب الرّياح المشبعة بالرّمال. لقد ظهر أنّ الرّبع الخالي هو منطقة ضغط جوي منخفض تقع بين مرتفعات نجد إلى الغرب وجبال عُمان إلى الشّرق. وقد حدث هذا الانخفاض وقت ارتفعت فيه أرض عُمان، أي خلال العصر الطّباشيري الأعلى والعصر الثّلثي (الأول من العصر الحديث). وممّا يسترعي الانتباه - حتى ولو بصورة سلبية - الطّابع الطّبوغرافي السّلس لما مرّ بي في رحلتي، والذي يتميّز - بشكل عام - بغياب أيّة طيّات صخرية ضخمة، ما يؤدي إلى ظهور معالم أكثر بروزاً ووضوحاً. لقد زحفت البادية على جبال القَرَا بارتفاع 2000 قدم تقريباً ثم انحدرت برفق إلى 1100 قدم وصولاً إلى حافة الرّمال، أي أنّ الانحدار بلغ 900 قدم فحسب لكل 100 ميل! كما تبدأ البادية من الحافة الجنوبية للصّحراء على ارتفاع 1100 قدم وتمتدّ إلى الحافة الشّمالية لبنيّان على ارتفاع 200 قدم، أي كان الانحدار لا يزيد عن 900 قدم لكل ما يقرب من 300 ميل. ويستمرّ نفس الانحدار السّلس باتجاه البحر في الجهة الشّمالية من بنيّان.

وفي غمرة انكبابي على وصف روح الصّحراء وحقيقتها[1]، قمت بتدوين أهم المرتفعات فيها: بلاد الكثبان الرّملية التي تمتدّ على طول الشّريط الطّويل الضّيق

(1) كتب المؤلف: إنّ مجمل الأحزمة الرّئيسية لأشكال الرّمال التي مررت عليها هي كالآتي:
كثبان رملية حمراء مرتفعة 20 ميلاً.
أكثر ارتفاعا واقل تعقيدا برمال حمراء تتخلّلها تلال على شكل حدوة حصان 40 ميلاً.
سلاسل أو جبال بيضاء متوازية تتخلّلها وديان حمراء 100 ميل.
سلاسل مستوية أو بها تموجات سلسة من الرّمال البيضاء 70 ميلاً.
البادية وتتعاقب عليها السّهول الملحيّة والتّلال الحمراء 100 ميل.

الجنوبـي وتنتقـل شـمالاً - وفقـا للتّقرير العربي - علـى خط طـول 49° تقريبا، ومرة أخرى على خط طول 53°.

إنّ امتداد هذه الأجنحة يقسم منطقة الرّمال لثلاثة أقسام متساوية تقريباً. وبالاستشهاد بالخارطة، سيظهر أنّ مسار قافلتي يمرّ عبر القسم الثّالث من منطقة الرّمال. ولقد أثبتنا أنّ الاعتقاد الشّائع من عدم وجود مياه في الصّحراء لا أساس له من الصّحة. إنّ الماء، على أيّة حال، موجود - على الرّغم من ملوحته الشّـديدة - جهة الشّـرق 51° شـرقاً[1] وعلى طول وعرض المنطقة الوسطى في الصّحراء المنخفضة للسّواحِب الشّرقية وفي غيرهـا. ويبـدو أنّه كانت هناك كمّيّة وفيرة من الماء أسـفل الطّبقة السّـطحية من التّربة، بغضّ النّظر عن درجة ملوحتها التي تجعلها - بصورة عامّة - غير صالحة للاسـتهلاك الآدمي. ولا تتمتع مثل تلك العيون بأسـماء مميزة ولكنها - كما ذكرنا سـابقاً - تُصنّف بالخيران! أمّا في المناطق الأخرى، فتتمتع عين الماء، التي يشرب منها كل من الإنسان والحيـوان بأمـان، بأسـماء مميّزة تحمل عادة اسـم مـن حفرها وتلعب النّاقـة - عندما يستدعي الأمـر ذلك - دور معمـل التّقطيـر أو الفلترة - فالنّاقة تشـرب المـاء المالح والرّجل يشرب حليب النّاقة.

تتركـز الحيـاة النّباتيـة ونموهـا في مناطـق تمتد من الجنوب إلى الشّـمال، حسـب المعطيـات كالتّالي: الحزام، الغطـاء النّباتي، خط العرض، معدّل الارتفاع. والعشـب هو: الزّهر، البَركان، العَبل، الحاذ، الغَضا، الشّنان.

---

(1) كتب المؤلف: ومرفق في الملحق الثاني التّحليل الكيميائي لمحتويات كل عين ماء استخدمتُ مائه.

Belt	Vegetation*	Latitude From	Latitude To	Altitude From ft.	Altitude To ft.
I., II.	*Zahar* / *Barkan* / *Abala*†	18° 30′	20° 30′	1100	550
III., IV., V.	*Hadh*	20° 00′	23° 00′	600	250
V., VI.	*Gadha*	22° 40′	24° 00′	275	125
VI.	*Shinan*	23° 12′	24° 30′	200	S.L.

Lesser herbage was *Gasis* and *Haram* in the red sands of I., II., V., VI.

* *Zahar* (*Tribulus alatris*, Del.).
Hadh (*Salsola sp.*).
Shinan (*Arthrocnemum glaucum*, Ung.).
† *Abala* is the most considerable growth of the sands and by far the most useful. The framework of the camel saddle and tent utensils are made from this wood; it is also excellent firewood, unlike *Hadh* and *Shinan*.

إنّ أكثر المياه حلاوة هي تلك المواقع التي تقع في أقصى الغرب في طريقي إلى الدّكاكة الغربية والسّنام، حيث يبلغ عمق عين الماء 78 قدماً أو أكثر، ولكن يقال إنّ ديمومة مخزون المياه التّحتية غير مؤكدة. وبالفعل تجفّ عين الماء تماماً كما حدث لبئر الطّريقا[1] Turaiga. وتقع أكثر المياه ملوحة في أقصى الشّرق من مسيرتنا حيث يكون الماء سطحياً كما في البْواح. ومن الواضح أنّ مخزون تلك المياه هائل، لا ينفد، ويعزّز ذلك اعتقاد العرب أنّ الرّمال الهائلة الآخذة في الارتفاع جهة الغرب والجنوب الغربي لا يوجد فيها أثرٌ للمياه!

تشتق أسماء الرّمال المتداولة محلّياً، في كثير من الأحوال، من السّمات الطّبوغرافية للمكان[2] – وصفه وسماته من هضاب وأنهار... الخ، أو من الصّفات المميزة لطبيعة

---

(1) توجد هذه البئر في ملسة الطّريقاء جنوبي منطقة السّنام التي يتوجّهون صوبها. وتوجد إلى الشّمال من البئر مواقع أمّ السّيقان والحقينة وبئر الدّقماء.

(2) كتب المؤلف: لقد تطرّقنا آنفاً لتقسيم مناطق الدّكاكة والسّواحِب والسّنام إلى:
بواح جمع بوح وهى الحفرة الضّحلة ذات الماء السّطحي
مُنجَّر مشتقة من منجور وهي المكان الذي يحفر في الصّخر الصّلب بحثا عن الماء

الماء أو النّبات أو – من آن لآخر – الجمال. إنّ المراعي قصيرة العمر ذات العطاء المحدود والماء المالح في الرّبع الخالي، لا تسمح بحياة سوى حياة القبائل والارتحال المحفوفة بالمخاطر والتي تعاني من عدم الاستقرار الاقتصادي والسّياسي ولكنها – مع ذلك – تنعم بالاستقرار والأمن الاجتماعي.

ويتوقف رخاء ورفاهية القبيلة على عدد وحالة النّوق التي تملكها. إنّ مصادر الثّروة تنحصر في ثلاث: المراعي الخصبة، شجاعة واستبسال، وعزيمة وإقدام رجالها في الإغارة على القبائل الأخرى وسلب خيراتها والاستيلاء على نوق الأعداء. هناك نوعان من النّوق: القطعان الحلوبة – الأصول واحتياطي المال – والجمال المخصّصة للأعمال الشّاقة والسّفر الطّويل – رأس المال العامل – وهي أقلّ عدداً. تساوي النّاقة من النّوع الأول ألف دولار، أما النّوع الثّاني فيساوي من 100–400 دولار، عندما تكون الدّابة في أفضل حالاتها. تعامل النّاقة الحلوب معاملة فريدة من نوعها – فلا يلمس ظهرها قِتب ولا يركبها أحد!

إنّ التّناسل وإنتاج الحليب والوبر (الصّوف)، هو الهدف من تربيتها ورعايتها. لذا ترتفع قيمة النّاقة – أنثى الجمل – وتتلقّى صغيرتها عناية فائقة وتعتبر تربية ورعاية الجمل الصّغير رفاهية لا طائل منها وتبديداً للموارد لا تستطيع القبيلة أن تتحمّله، لذا قلّما يبقى الجمل الصّغير على قيد الحياة لأكثر من عام، وكثيراً ما يُنحر في يوم

حاذ الجعدة وهي منطقة ينتشر فيها نبات الحاذ

خِلّة عجمان وهي منطقة تخلو تماما من الحاذ

أم مليسة – أم النّعومة – وهي منطقة لا ينمو فيها نبات الحاذ ولا الزّهر

الجوب وهو منخفض – كالوادي في طبيعته – يوجد في عمق الرّمال، في منطقة بنيّان، ويَبرين، وجيبان وهي جمع جوب.

الجافورة مشتقة من الحِفر وهي حفرة عميقة

شويكلة وهي الخيوط التي تصنع منها الحقيبة التي تحمل على النّاقة والمنطقة التي تحيط بها– من كل جانب – منطقتان متجاورتان، حَوية

طوال أي عين الماء شديدة العمق في منطقة التّنام الغربية

عقال – قيد شكال النّاقة – وتشير إلى الحفر التي يبلغ عمقها 3 أقدام في جيبان الشّرقية.

مولـده وقبـل أن تقـع عين أمّه عليه، مـن أجل الغذاء. وعادة يُسـتخدم بعيـران أو ثلاثة فقـط للتّزاوج مع قطيع قوامه خمسـون ناقة! ويُلقى علـى عاتقه نقل أكثر الأحمال ثقلاً وإنهاكاً - من خيام وخلافه - في أثناء السّفر.

عندمـا تهيـم القطعان على وجهها فإنها تتفرّق وتنتشـر على مسـاحات شاسـعة في مناطـق بعيـدة يتعـذّر بلوغهـا، فتتكفل كل عائلـة بدويـة برعاية مجموعة مـن القطعان خاصّتهـا، لكـن - في نهاية المطـاف - تتجمّـع القبيلة - كلما دعـت الحاجة للمرعى والكلأ وتتّحد معاً للوقوف في وجه الغزاة والطّامعين في البادية كما حدث في الشّـتاء الماضي.

تملـك قبيلـة المَهْرة - بالإضافة إلـى قبيلتي المناصير والمناهيـل وإلى حدّ ما قبيلة صيْعَـر - أفضـل النّوق وأقواهـا. أمّا قبيلة الرّاشـدي فقد تدهورت حالتهـا الاقتصادية جـرّاء سـلب ونهب قبيلـة صيْعَر، لذا فإنّ الرّاشـدي الـذي يملك خمسـة جمال - في الوقت الحالي - يعدّ ذا سِـعة، أمّا لو كان يملك عشـرين ناقة فهو غني، وفاحش الثّراء هو من بلغ عدد نوقه مئة. أمّا متوسط عدد النّوق التي تملكها قبيلة المَهْرة فيتعدّى ذلك بكثيـر! وقـد قام أحد أفراد قبيلة الرّاشـدي - الذي ملأ الحقد والحسـد قلبه - بتصوير ثرائهم الفاحش بقبض قبضة من الرّمال، ملء كفّه، ثم ترك الرّمال تنساب ببطء من بين أصابعه!

وهـو تشـبيه مألوف لدينا في الغـرب ورد في العهد القديم. ثـم أردف ذلك البدوي الواشي قائلاً:

«واللـه إنّ فـلان بـن فـلان يمللـك أربعمئة ناقـة، علـى الرّغم مـن أنه ليس شـيخاً ولا يملـك مـالاً ولا يرتدي ثيابـاً أفضل مني!» فسـألته: «وماذا يحـلّ بحليب كل تلك النّوق؟»، فأجاب: «مهما كان يملك من حليب النّوق الحلوب فسوف يستهلكه ويأتي عليه الضّيوف وعابرو السّـبيل الكُثر، فالجميع يتوقع منه تقديم واجب الضّيافة، سـواءٌ جيرانه أو عابرو السّبيل. أمّا فائض الحليب فيُقدّم للنّوق الصّغيرة».

يـكاد صوف النّاقة يوفّر كل الاحتياجات - المتواضعة أصلاً - لحياة البدو الرُّحّل، كلوازم التّخييم والحبال وأحزمة السّروج والأغطية المزركشة المتنوعة للسّروج. وتبرز - في هذا المجال - النّاقة كالحصان الرّابح الأكثر كسباً وفائدة. فكل عام تُجزّ أكتافها وظهرها بالجَنبيّة أو بقبضة اليد للحصول على المواد الأولية التي تعكف النّسـاء عليها لتجهيزها للنّسج. فالنّساء تحتكر حرفة النّسج بدلاً من حلب النّوق، على الأقل بالنّسبة لقبيلة الرّاشـدي والعوامر، اللتين تشتركان في فرض حظر على حلب النّساء للنّوق في المناطق الجبلية! أمّا قبائل المَهْرة والمناصير وصيْعَر وقبائل بادية حضرموت فتسـمح للنّساء بحلب النّوق.

يسـتخدم نوعان من الأقتاب في الصّحراء: القِتـب ذو القربوس المزدوج، ويوضع فـوق سـنام الجمل، والقِتب المتعـارف عليه في بقية جزيرة العرب، والذي تسـتخدمه قبائـل المَهْـرة وصيْعَر والكَـرب في الرّبع الخالي حصراً. أما باقـي القبائل - بوجه عام - كالتي في عُمان وجميع أنحاء جنوب شـرق جزيرة العرب، فتسـتخدم الزّانة *zana*، وهـو إطار صغيـر الحجم، خفيف الوزن - بلا قربـوس - مغطّى بجلد الماعز ويوضع خلف سنام الجمل. وهكذا نرى أنّ الأقتاب تتوزّع توزيعاً جغرافياً في حقيقة الأمر. إنّ القبائل التي نمرّ بها جهة الغرب تسـتخدم سـرج الشّـداد، أما التي على الجهة الشّـرقية فتستخدم قتب الزّانة.

تعـرف الصّحارى لهجتين مـن لهجات اللغة العربية تتـوزّع وفقاً لخطوط العرض. فهنـاك لهجة شـمالية أو مَهْرية وجنوبية أو راشـدية، ويتحدّث العوامـر[1] القاطنون في الشّـمال الشّـرقي بالأخيرة. إنّ الفروق الرّئيسـية بين لهجات الشّـمال والجنوب - في واقع الأمر - تكمن في اختلاف المفردات المستخدمة[2] والاختلاف الكبير في طرائق

---

(1) كتب المؤلف: كان كثير وعامر Amr' من أجداد قبيلتي الرّاشد والعوامر المتعاقبين وهم أجداد إخوة وأبناء همدان وفقاً للعُرف والمأثور. وقد اعتدت سماع تعبير مألوف على لسان الشّيخ صالح وهو يحلف قائلاً «وسُنّة كثير وعامر!» سُنّة تعني أحكام. وتملك قبائل حضرموت لهجتها الخاصة.

(2) وعلى سبيل المثال:

اللّفـظ. تطوع حَمَد بن هـادي بمعلومة تفرّد وخصوصية لهجة قبيلتـه، فالمَهْرة - وفقاً لحديثـه - نشـأت من صُلب رجـل كافر عاد للإيمـان بفضل مثابرة أفـراد قبيلته. وكان هنـاك إجماع على أنهم من أصول أعجميّة مشـتقة من يـام[1] Yam، لكن جدّهم الأكبر - مـن ناحيـة الأم - هو الجنّي - بارك الله به - بلحمه وشـحمه! ورغم السّـماح بتعدّد الزّوجـات، فقلّما يحظى البـدو بأكثر من زوجة واحدة في وقت واحد، حتى وإن كانوا موسرين؛ لكنهم عادة يتزوّجون اثنتين أو يتزوّجون ثم يطلّقون ثم يتزوّجون ثانية.

لم يُسمع من قبل عن المساكنة في المجتمع القبلي، بل إنها تعدّ ضرباً من المستحيل فـي المجتمـع القبلـي المحافظ الذي ترتبـط فيه حرّية الفـرد بمصلحة عشيرته وأهله والأجيال القادمة. فالمبادئ الأخلاقية الصّارمة تضرب بجذورها في أعماق المجتمع القبلـي وتسـتقي حكمتها من خبرة السّـنين وتنأى بنفسـها - في إبـاء - عن المهاترات الفلسـفية العقيمة للحكماء الطّاعنين في السّـن. ومن النّاحية النّظرية، لا يتم الاعتراف بشرعية الزّواج أو قانونيّته، إلا إذا تمّ عقده على يد القاضي بشكل رسمي.

وقـد يتـم عقد القـران على يد مـأذون (قاضـي)[2] مصحوباً باحتفـال ضخم مهيب

اللهجة المرّية	باللهجة الرّاشدية	المعنى
جدامه	جرص	فطير خبز غير مخمّر
ادفه	خاونقه	هرّ برّي
حديبه	جَدّة	بادية
إلهيم	عتيله	أداة للحفر

لقد ذكرنا آنفا أن حرف الياء تحل محلّ حرف الجيم المعطشة في اللهجة الرّاشدية. والكاف لا ينفرد بها الرّواشد فحسب بل إنها شانعة بين قبائل الأخوان من مْطير والعُجمان وعتيبة والدّواسر، الخ. أما حرف الجيم فيحلّ محل القاف ولا ينطق البدوي حرف الكاف أبداً. أما الفعل قد فنلاحظ انه غير موجود بالمرة في اللهجة العراقية لكنه شائع الاستخدام في جنوبي جزيرة العرب ويقابله بِر في اللهجات المهرية وغير العربية.

(1) يام من القبائل الهمدانية القحطانية الكبيرة التي تسكن منطقه نجران، وهم يرعون بمناطق شاسعة من الرّبع الخالي، وخاصّة من جهه المندفن والمنخلي.

(2) كتب المؤلف: يضطلع القاضي بتفسير وشرح الأحكام الشّرعية. ويطلق السّنة عليه لقب الشّيخ بينما يطلق عليه الشّيعة في فارس والعراق المُلّا. إن مبدأ معاقبة الأسقف امرءاً بلعنه غريب على

مُكلف، كي يفكّر الطّرفان كثيراً قبل الإقدام على فسخ عقد الزّواج.

يذهب العريس ووكيل العروس - الأب أو الأخ عادة - معاً إلى أقرب بلدة يوجد فيها قاضٍ[1]، فلم تجرِ العادة على ذهاب القاضي لعقد القران في الصّحراء. وقد اكتسب بعض رجال القبائل صلاحية عقد الزّواج بين قاطني الصّحاري البعيدة بمقتضى نظام يسمح لهم باستغلال الإقامة المؤقتة في البلدة لتعلّم إجراءات وصيغة عقد الزّواج والاضطلاع بمهام القاضي، والاحتفال بالزّواج. وأصبح المنصب متوارثاً. ومن المعتاد أن يدفع العريس عقب عقد القران مهر الزّوجة للأب ثم يهدي العروس بعض المجوهرات الفضّيّة وحصيرة متواضعة - سرير الزّفاف. ولا بدّ للعريس من قبيلة الرّاشدي أن يقيم مأدبة قبل البناء بعروسه. ويقبّل العريس عروسه على سرير الزّفاف قُبلة الأنف المتعارف عليها. ويعتبر الرّجل المرأة مخلوقاً أدنى منزلة وأقلّ شأناً ويعاملها كعبدة! وقد تكون هذه نتيجة طبيعية للحياة القاسية في البيئة الصّحراوية.

تتطلّب طبيعة الحياة في الصّحراء القاحلة أن يحافظ المرء على لياقته البدنية وقوته الجسدية وشخصيته العدوانية، تلك الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها المرء ليضمن البقاء والاستمرار في تلك البيئة القاسية. لا يجد البدو المَهْرة أيّة غضاضة في السّماح بضرب المرأة لأسباب واهية سخيفة، بينما ينكر الرّواشد ذلك.

تتمحور السّياسة في الرّبع الخالي حول العلاقات المتشابكة والمعقّدة بين القبائل. وتقسم القبائل لثلاثة مجموعات تكاد تكون مستقلة بذاتها بناءً على اعتبارات جغرافية بحتة: قبائل الرّمال Rimal tribes؛ وجيرانهم في البادية الشّرقيّة؛ وقبائل البادية الجنوبيّة.

طائفة الارثوذوكس، كما أن الحوزة العلمية والتّسلسل الهرمي للأئمة (الآيات) غريب على المسلمين، الوهابيين منهم بصفة خاصة.

(1) كتب المؤلف: يقوم أبناء قبيلة المناصير بعقد قرانهم في أبوظبي.
ويقوم أبناء قبيلة العوامر بعقد قرانهم في عبري وضنك وبريمي.
ويقوم أبناء قبيلة المَهْرة بعقد قرانهم في الهفوف ويَبرين.

كانت هـذه القبائل تكنّ بعضها لبعض العداوة والبغضاء قبل عشـرين عاماً مضت. وما برحت العلاقة بين المَهْرة والمناصير منذ الأزل قائمة على العداء الشّرس والحقد الأعمى، وكانـت الضّغينة والبغضاء أكثر حدة وتطرّفاً بيـن قبيلتي العوامر والمناصير. وقـد كانت قبيلـة العوامر قبيلـة مرهوبة الجانب فـي جنوبي جزيرة العـرب، كما كانوا السّـكان الأصلييـن للمناطـق التـي يقطنهـا الرّواشـد فـي الوقـت الرّاهن فـي الدّكاكة والسّـواحِب والحْباك وغنيم. لكن الصّراعـات والنّزاعات التي خاضوها والتي لا قبل لهم بها قد ألقت بهم إلى التّهلكة ومدارك الفقر المُدقع. وبين المَهْرة والرّواشد عداوة وضغائن منذ الأزل.

أما اليوم فقد حلّ السّـلام، سـلام ابن سـعود، في جميـع أنحاء الصّحـراء. إنّ نفوذ وسطوة حاكم جزيرة العرب الوسطى، الممثلة في نائبه ابن جْلُوي في الهفوف، فرضت السّـلام بيـن القبائـل المتناحرة وأعـداء الأمس بفضـل المكانة المرموقة والشّـخصية المُهابة التي يتمتّع بها عبد العزيز. إنّ فرض السّـلام لا يتمّ بسيطرة مباشرة لأنّ هذا غير ممكن، بل اكتسـحت شـعبيته أرجاء الصّحراء فقد كان البدو يؤمنـون بحنكته وقدراته وبُعد نظره. إنّ مبايعة النّاس بالولاء والطّاعة لعبد العزيز ينبع من مهابة النّاس له وليس محبّتهم، وهذا ما يمكّنه من تسيير أمور البلاد والعباد.

علـى الرّغم من أنّ دليلي في السّـفر - حَمَـد بن هادي - لم يقدّم بعد فروض الولاء والطّاعة له، إلا أنّ مشـاعره نحوه كانت مزيجاً من الاحترام المشـوب بالهيبة. لقد كان يؤمن أنّ لدى حاكم الرّياض القدرة والنّفوذ والقوة للاستيلاء على غنائمه وإلقائه فريسة لأعدائه! إنّ السّلام السّائد في الصّحراء في وقتنا الحالي قائم على هذا الإيمان المطلق والاعتقاد الرّاسـخ. ودرجة ولاء وطاعة قبائل الصّحراء لابن سعود متفاوتة، فالضّريبة الاسـمية التـي تدفع له كان الغـرض منها ضمان الحماية المتبادلـة بينهما. وتُجبى هذه الضّريبة سنوياً بمقدار دولار على كل جمل. أمّا من النّاحية العملية، فعدم امتلاك قبيلة الرّاشدي للمال الكافي وبُعدهم عن الرّياض وانعزالهم داخل الصّحراء وفّر لهم فرصة ذهبية للتّهرّب من دفع الضّريبة، متذرّعين بذلك. بيد أنّهم يقومون بإرسـال ناقة في كل

عـام - كلما سـنحت الفرصة لذلك - دليـلاً على ولائهم ومبايعتهـم. أمّا عندما تهطل الأمطـار في الصّحارى الشّـمالية ويضطـرّون للهجرة لها، فلا يجدون مفـرّاً آنذاك من دفـع الضّريبة إلـى الجُباة، فيبيعون بضعة جمال خصّيصاً لهذا الغرض. ورغـم هشاشـة هـذا الـولاء والرّابطة، فإنّ القبائل ما فتئت تتذمّر من تبعاتـه. إنّ القبائل لا تؤمن بالمثل العربـي - الذي انطلق دونما شـك من بلدة ما - ومفاده: «الرّضوخ لسـلطان طاغٍ خيرٌ من التّناحر المستمرّ».

إنّهم يقدّسون الحرّية بلا قيد أو شرط، وسيستمرّ السّلام الحالي ما ظلّ نظام الحكم الحالـي في الرّياض قائماً. لكن ما إن يصل إليهـم خبر زعزعة أو اضطراب الحكم في الرّياض أو الهفوف، حتى يسـتأنفوا غاراتهم وتسيل الدّماء مخضّبة رمال الصّحراء من جديـد. وهذه العقلية ليسـت بغريبة عن الرّبع الخالي، حيـث نجد عدة أمثلة على ذلك في تاريخ الإمبراطورية البريطانية.

وعندمـا تأكّـد لـي أنّ الحكم الذّاتي - الصّارم والمسـالم فـي آن واحد - قد أوقف نزيـف الـدّم والعداوات والثّـارات الضّاربة بجذورها في عمـق التّاريخ في الماضي - وربما المسـتقبل - فقد أقدمتُ على خوض رحلتي في أعماق الصّحراء. إنّ نفوذ يؤثر بن سعود على سياسة البادية، على الرّغم من أن تأثيره يتفاوت من عام لآخر.

وتسـتقطب الطّوائـف والفـرق العتيقة الموروثة - التي أشـرنا إليها مـن قبل - مثل الهناوي والغفاري مجموعات من القبائل. تنتمي للعوامر والحراسـيس وعفار للطّائفة الأولـى، أما الدّروع[1] والبوشـميس[2]، فتنتميـان للغفاري، ولكـن نزاعاتهما لا يتردّد صداها في الصّحراء. لا يوجد لابن سعود نفوذٌ يذكر على سياسة البادية في الجنوب.

تتمتـع القبائـل العظيمة كصيْعَر والمناهيل وكثير والمَهْرة[3] أو الأقل شـهرة وشـأنا

---

(1) كتب المؤلف: رغم أن الدّروع والمناهيل ينحدرون من أصول مشتركة، فإنه من العجيب أنهم ينتمون لطوائف متناحرة.

(2) كنّا قد علقنا على هذه أصول القبائل وأماكن وجودها أعلاه.

(3) المَهرة قبيلة حميرية قحطانية يسكنون الرّمال الجنوبية مثل رملة أم غارب، ويرعون في شقاق

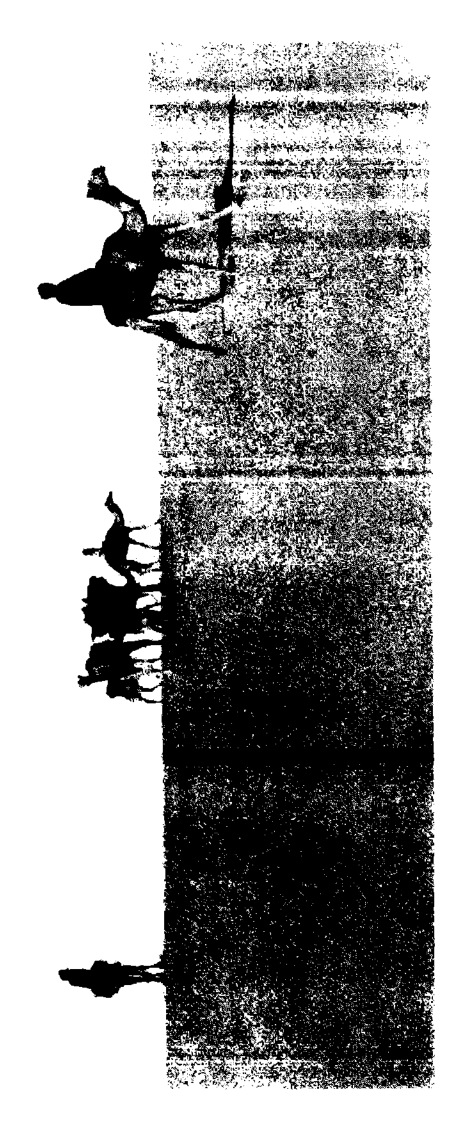
مثـل الكَرب ويام ونَهْد[1] والنّسـيين Nisiyin بالاسـتقلال والحكم الذّاتـي. تعدّ قبيلة صيْعَر من أشـدّ القبائل بأسـاً وقوّة وتطوي تحت جناحها قبيلتـي نَهْد والكَرب، فبينهم تفاهـم وتنسـيق مشـترك، أمّا المجموعـات الأخرى فلديها القـدرة التّامّة علـى التّعبئة لشـنّ غارات مسـتقلة، بيد أنهـم لا يملكون القدرة على شنّ حرب نظامية طويلة الأمد، فـلا يملـك الرّجل منهم أكثر من عشـرين حزامـاً أو نحوه من الذّخيـرة، يحرص عليها ويسـتخدمها بحذر وتقتير خشـية نفادها، ما لم يذهب في رحلة إلى السّاحل لبيع جمل أو اثنيـن لشـراء المزيـد منها. وبنـاءً على ما تقدّم فـإنّ حروبهم هي عبـارة عن إغارات متقطّعة غير منتظمة والغنائم هي هدفها وغايتها.

تمثّـل قبيلة صيْعَر وحلفاؤها التّهديد الأكبر والخطر الدّائم في الصّحارى الجنوبية. ويبلغ عدد مقاتليها الأشـداء نحو ألفي مقاتل مسـلحين بالبنادق، وقد اسـتغلّوا عامليّ المسـافة والانعزال لزيادة بأسـهم وبطشـهم، حتى أنهم رفضوا استقبال سفير موفد من ابن سعود.



المعاطيف بالشّتاء ويقيظون بوادي الحزر. وبلادهم تسمّى باسمهم المَهرة ما بين حضرموت وظُفار عُمان، والإبل المَهرية معروفة.

(1) نَهْد قبيله قحطانية تسكن غرب حضرموت وبادية نَهْد قرب شبوة بأطراف الرّبع الخالي.



نوعيّة الرّمال المألوفة في منطقة السّنام



وقفة للصّلاة



في عبيلة الباردة والجائعة

الفصل العشرون

من بنيّان إلى البحر

المرحلة الأخيرة

مرّ علينا يوم الثّامن والعشرين من يناير ونحن نلتقط أنفاسنا في بنيّان، عقب اندفاعنا - بلا هوادة - لمدة ثمانية عشر يوماً متواصلاً عبر الصّحراء الوسطى. فلا مناص من إعطاء فرصة للاستراحة وتجديد النّشاط للرّجال والنُّوق المنهكة. وعند هبوط الظّلام تحلّقنا حول نيران المعسكر. وقد تبيّن لنا فيما بعد أن تلك كانت آخر استراحة وهدوء نحظى بهما خلال مسيرتنا.

وبما أنّ نهاية رحلتي قد أصبحت وشيكة، فقد قرّرت التّخلّي عن تحفّظي وتكتّمي المعتاد وأطلقت لنفسي العنان قليلا. أصيب رفاقي بالذّهول والعجب عندما وقعت أعينهم على مصباحي الكهربائي واستحوذ على تفكيرهم السّؤال: «هل من الممكن أن يساعدنا هذا المصباح في تعقب واقتفاء أثر جمل شريد أو مسروق في ليلة حالكة السّواد؟» اكتشف أول بدوي وضع يده على طرف المصباح المضيء أنه لا يصدر حرارة شديدة، فقام بلفت أنظار رفاقه البدو لهذه المعجزة! فحذو حذوه ولمسوا المصباح، وبدلاً من أن يشعروا بالحرارة رأوا بالطّبع لوناً أحمر قانياً يتخلّل ظلال أصابعهم، فانطلقت صيحات الدّهشة: «لا اله إلا الله!» ولسان حالهم يقول: «لا بدّ أن قوم صاحبنا قادرون على صنع معجزات عجيبة!» ولم يُجدِ نفعاً اعترافي له بأنني لم أصنع الكشّاف الكهربائي؛ ألم نصنع أشياء أكثر عجباً مثل البنادق والذّخيرة؟

سألني أحد البدو وهو يعبث ببندقيته: «من صنع البندقية؟» فقال له بدوي آخر دون أن يرفع بصره إلينا: «الكفّار!» فبادرتُه قائلاً: «لا، نحن قوم مؤمنون!» فأردف قائلاً:

«فهل إذا قدمنا إلى بلدك سترشـدنا إلى الطّريق حتـى لا يقوم احدٌ ما بإيذائنا؟» فأجبتُ مؤكّداً: «لا حاجة لمرشد أو دليل في بلادي». فقال حَمَد: «لكن ماذا ستفعل لو حاول أحدهم أن يقتلني وكنتَ مُرشـداً لي؟». قلت: «لن يحـاول أحد ذلك البتّة، فالنّاس في بلادي لا تحمل أسلحة!».

شـعرت عندئذ أنهم يحدّثون أنفسـهم قائلين: يا له من مكان لا يصلح سوى لإقامة النّساء والعبيد! وسألني أحدهم: «وهل يتوفر حليب النّوق في بلادك؟» فأجبته معتذرا عـن هـذا التّقصير: «ليـس عندنا جِمال في بـلادي»؛ وقد كان اعتذاري يهدف لكسـب رضاهـم وإعجابهم، فسـألوني: «إذن ما نـوع الحيوانات التي تملكونهـا؟ غنم؟ بقر؟» قلـت: «نعـم، غنم وبقر، بيد أننا نصنع سـفناً وبنادقَ وكل أنواع الأشـياء المصنوعة من الحديد المستخرج من الأرض».

تدخّل الشّيخ صالح مدلياً بدلوه وقال بطريقة توحي بالخبرة والحنكة: «لقد سمعت أحـد المناصيـر من أبوظبي أنه جاء لشـيخهم رجل نصراني في يوم مـن الأيام وقال له ملوّحاً بالعصا التي يهشّ بها على جمله بأنهم يصنعون في بلاده من مثل ذلك القضيب - لكن من الحديد - خمس بنادق».

فـردّدت مجموعـة البدو: «لا الـه إلا الله!» ثم التقـط أحدهـم الكشّـاف مرة أخرى وقـال: «إنه ثقيـل!» ثم أخذه آخر من يده قائلاً: «يا لله إنه ثقيل بحق!» فقال صالح: «لا تقلل من شـأن هؤلاء النّاس فقبيلتهم ليسـت ضعيفة ولا يجوز الاسـتهانة بقدر أبناءها أو معاملتهم بفوقيّة». فبادرتُه قائلاً: «إن داخل هذا الكشّـاف جوّة (قوّة) - وكنت أعلم علـم اليقين أنها كلمة يقدّرونها حق قدرهـا - إنها أكثر فاعلية وقوة من الرّصاص حتى أنها تودي بحياة الرّجال». فسـألوا: «ولماذا تقتلهم؟». فأجبت: «نقتل الرّجال الأشرار فحسـب، الرّجال القتلة». فبادروني قائلين: «إي، العين بالعين والسّن بالسّن، إنه شرع اللـه!». ثم سـألوني «ألديكم دية؟» فقلـت: «لا، البتّة». فقالوا: «أتعنـي أنّ أخ المقتول وابنـه لن يحصلا علـى دولار واحد؟». فكرّرت قائلاً: «ولا دولار واحد!»، وأنا مُدرك تماما بأنني أحظى بالمزيد من الإعجاب والقبول.

فسألني: «لكن أعندكم حقّ جيرة؟» فقلت: «لا إنّ شيخنا قوي للغاية لذا لا يتجرّأ أحد منا أن يجير قاتلاً!». فقال صالح: «إنّ حق الجيرة مقدّس بالنّسبة لنا باستثناء من ارتكب جريمة مخلّة بالشّرف، فإننا على سبيل المثال لا نمنح الدّليل الذي خان من استأجره حق الجوار، فمثل ذلك الرّجل لا عهد له ولا شرف»، ثم استطرد قائلاً وهو ينظر لرفاقه: «لا يمكننا بأيّ حال من الأحوال أن نرفض منح الجوار لرجل قتل خصمه». فقالت جماعة البدو: «أحسنت والله!».

وعقب فترة قصيرة من الصّمت سألني أحدهم: «في أيّ اتجاه تقع بلادك يا صاحِب؟» فأشرت بعصاي في اتجاه الشّمال الغربي؛ فأردف قائلاً: «كم تبعد إذن؟» فقلت: «بسم الرّوح القُدس - إنّ الوصول إليها من هنا يستغرق عاماً كاملاً، من رمضان إلى رمضان الذي يليه، في حال التزمنا بنفس سرعتنا الحالية في السّير». فقال البدو: «لا اله إلا الله».

تدخّل صالح قائلاً: «في أيّ اتجاه هي من مكّة؟» وكنت أعلم أنه أحد القلائل من البدو الذين قاموا بأداء فريضة الحج، فأشرت كالسّابق بعصاي- ولكن أبعد بمسافة ظل واحد باتجاه الشّمال.

قال: «وكم تبعد بلدك عن مكّة؟».

«كبُعدها عن هنا تقريباً».

صاح البدو: «لا اله إلا الله!».

«إذن تقع ما وراء البحر يا صاحب؟».

قلت: «نعم، وراء البحر».

«وماذا يوجد فيما وراءها؟».

قلت: «البحر مجدّداً».

سألني طالب: «أين يقع بحر برلمل؟ أظنك تعني بحر برلمل Barlimul» والتفت

ليخبر أصحابه أنّ العالم ينتهي هناك، ولا يوجد فيما وراءه شيء. إنه سابع البحار وآخرها، «الله العليم».

أحسست أنني شاركت بما يكفي من القصص، وكنت متلهّفاً إلى سماع قصصهم، خاصّة عندما بدأ أحدهم يقصّ قصّة من قصص ذياب بن غانم.

* * *

كان ذياب ينتمي لطبقة النّبلاء من بني هلال، على الرّغم من مظهره الخارجي الذي يشبه العبيد. وفي واقع الأمر كانت بشرته السّوداء التي تشبه بشرة العبيد حبل الإنقاذ له من السّجن المحتوم في اليوم الذي قُتل فيه يوسف ووقع ذياب وبو زيد وبريقة في الأسر، فقد ظنّوا أنّه عبدٌ لا يؤبه له.

تمّت معاقبة ذياب بإرساله أولاً للعمل مع البنّاءين لإصلاح وترميم قلعة الزّناتي، وعلى الرّغم من أنه بدأ العمل بهمّة ونشاط، فإنه لم يكن يملك المهارة أو الخبرة الكافية لإتقان تلك الحرفة، لذا كان عندما يقوم برفع الحجارة بحبل الرّفع يقذفها إلى الأعلى لتتجاوز أسوار القلعة وتسقط على طرفها البعيد في الصّحراء. فتشاور آسروه فيما ينبغي فعله معه واتخذوا قراراً بأن يسندوا إليه مهمة رعاية قطعان البقر، حيث أنه لا يصلح كبنّاء. وهكذا فقد عُهد إلى ذياب بالبقر ليعتني بها، ولكنه أهمل سقايتها حتى كادت تهلك ظمأً. وعندما رأى أسياده بأنه لا يصلح كراعٍ للبقر، قرّروا إرساله للبحث عن قطع صغيرة من الخشب الجاف يقوم بتشذيبها وشحذها لإضرام النّار فيها. فقام بقطع عصاتين طويلتين وقام بشحذ أطرافهما ثم ألقى بهما على ظهر الحمارين كي يحمّل عليهما الحطب. وهكذا فقد جلب حمولة ضخمة لأسياده فصفّقوا له أول الأمر - حيث أنهم لم يكونوا على دراية بالحيلة التي لجأ لها لإنجاز ذلك - لكن ما إن افرغ حمولة الحمارين حتى سقطا صريعين! هزّ رجال عريشة Arisha رؤوسهم قائلين: «إن قدرات ذياب العقلية محدودة، لذلك فهو لا يصلح سوى لرعاية النّوق التي سلبناها من بني هلال». وهذا ما كان!

تمكّن ذياب بن غانم بهذه الطّريقة من الوصول إلى غايته. وبمرور الأيام تحسّنت حالة النّوق وأصبح لذياب الحظوة عند أسياده. وكان يحرص كلّما خرج لسقاية النّوق أن يختار عين ماء أبعد من سابقتها بقليل، وشيئاً فشيئاً أخذت فترات غيابه تطول دون أن يثير الشّكوك، إلى أن حلّ اليوم الذي توفّرت له فيه الظّروف والمعطيات الملائمة للفرار، فعاد إلى مضارب بني هلال مصطحباً معه جِمالهم السّليبة.

وكان لخشيته أن يفضح أمره أحد الوشاة ويبلغ الزّناتي عن هروبه قد جلس على ناقته وأدار وجهه للخلف باتجاه عريشة، ثم خفض رأسه حتى كادت تلامس الأرض، بينما ظلّت ساقاه تحت وركيه[1]. وهكذا عاد ذياب لبني هلال وأخبر الشّيخ حسين بن سرحان بالقصص ووضع الأخير خطّة لإنقاذ بو زيد وبريقة.

بعد أن أصبح الوقت ملائماً، انطلقت القبيلة حتى وصلت لبركة ذات أريج وشذى فوّاح، تنحدر منها ثلاثة أودية، فتشاور بنو هلال فيما بينهم إلى أن قرّروا ترك نساءهم ودوابهم بحماية ستين فارساً إلى أن يغير الجوم (القوم) على بلاد الزّناتي، لكنهم غيّروا خطتهم في الصّباح فقرّروا ترك النّساء والدّواب في عهدة ذياب بن غانم بدلا من السّتين فارس، وودّعه الشّيخ قائلاً:

«إنّ جمالنا ونساءنا أمانة عندك، فقم بحمايتها والذّود عنها، وإن كلّفك ذلك حياتك!»

فبادره ذياب بالقول: «إن حياتي فداءٌ لها!».

وفي ذات الليلة نزل جنّي إلى الوادي هائماً على وجهه ليرى من يعسكر هناك، حاملاً حربة ضخمه بيده، ثم سار بين النّوق باحثاً عن أكبرها حجماً وأكثرها عافية؛ وما إن وجدها حتى غرز حربته فيها ثم حملها والحربة مغروسة فيها على كتفيه ومضى صاعدا أعلى الوادي. ثم تكرّر الأمر في الليلة الثّانية، وفُقدت ناقة أخرى، وعند زيارته

---

(1) كتب المؤلف: أسجّل هنا القصة كما سمعتها، لكن لعمري، لم استطيع فهم الوضع الذي قام بوصفه بوضوح، إنما لم يكن بإمكاني قطع حبل أفكار راوي القصة لأسأله أن يوضحه لي.

المخيم للمرة الثّالثة استولى الرّعب والهلع على أبناء المخيّم، حيث لم يسبق لأيٍّ منهم رؤية جنّي من قبل، عدا زوجة ذياب، وكانت تمقت الحديث في هذا الشّأن خشية أن تثير حفيظة الجنّي وتستجلب على نفسها انتقامه. لكنّ ذياب لاحظ صمتها المريب، فسألها سؤالا مباشراً رفضتْ الإجابة عليه.

فضربها ضربة خفيفة وصاح: «قولي لي ما تعرفينه يا امرأة وإلا سفكت دمك!» وهكذا أخبرته بما كان من أمر الجنّي الذي نزل إلى الوادي وكيفية قتله للنّوق والهرب بها. وفي اليوم التّالي أرسل ذياب عبده ليقتفي أثر الجنّي ويجلب له أخباره ومكان إقامته. فمشى العبد حتى وصل لبئر، سقط نجم من السّماء فحفرها، ورأى الجنّي يقبع داخلها وجيف النّوق متناثرة حول فوهتها، فعاد مسرعاً يحمل الأخبار لذياب الذي أسرع بركوب مهرته متوجهاً للبئر. وما إن أحسّ الجنّي بقدومه حتى وقف يستعرض جسده الهائل، فالجزء الذي ظهر من جسده كان مساوياً للجزء الذي اختفى بداخله! وصرخ الجنّي مخاطباً ذياب:

«واهاً يا ذياب بن غانم، هل جئت للأكل أم للقتل؟». فأجابه ذياب: «جئت للاثنين معاً»، ثم استلّ سيفه البتّار وهوى بضربة ساحقة على الجنّي فقسمه نصفين، نصف يقف داخل البئر وآخر يرقد خارجه. فقال النّصف العلوي لذياب: «تقدّم واضربني ثانية» لكنّ ذياب أجاب:

ما ثنيّ............... أنا لا أضرب مرتين

ولا زَنيّ.................. ولا أزني

ولا ياكلني الجنّي............. ولا يأكلني من هو على شاكلتك.

فالكل يعرف أنّ ضربة واحدة تقتل الجنّي، أمّا ضربتان فتعيدانه إلى الحياة مرة أخرى. لذلك فقد عاد ذياب للمعسكر ليجد إن قومه قد عادوا للتّو، ولكن بكل أسف لم يكن يعلم بمقتل أبنائه الثّلاثة وعمرو بن خفيّات Amr bin Khafaiyat – ذلك الفارس المغوار المحبوب التي كانت أمّه من بني هلال.

احتار القوم كيف ينقلون إليه تلك الأنباء المشؤومة، خشية أن يُصمي بحربته - التي لا تخطيء طريقها أبداً - حامل هذه الأنباء. وقد كتب لذياب أن يظلّ حياً ما دامت حربته تنغرس في لحم، ولكن ما إن تخطئ هدفها فلا تصيب لحماً، فإنّ ذياب سيموت في نفس اليوم. وبالطبع لم يتجرّأ أحد أن ينقل له أنباء هلاك أبنائه الثّلاثة. عندها قرّر القوم إرسال عبد يدعى دليّان Dalaiyan لينقل إليه نبأ مقتل أبنائه، فان مات فهذا قدره، وإن كتبت له الحياة فسيظل عبداً.

طلب دليّان إمداده بأسرع مُهرة لدى القوم، فكان له ما أراد. حملته النّاقة إلى مكان ذياب، ولكنه شدّ لجامها لتقف على مبعدة من مكان ذياب، فصرخ ذياب عندما رآه قائلاً: «قل لي آه يا دليّان، فلا أحد يريد إخباري بما يدور من حولي، كيف سارت المعركة، وهل أبلى أبنائي بلاءً حسناً، وماذا حلّ بهم؟ «فأجابه العبد:

«لقد قضى في المعركة أفضل نوقنا ورجالنا.

ومن ضمنهم أبناؤك الثّلاثة وابن خفيّات.

خيرة فرسان قبيلتهم، عبر الأزمان».

وما كاد دليّان يتفوه بآخر كلمة حتى لكز مهرته لتنطلق في الاتجاه المعاكس لا تلوي على شيء، لكن ذياب كان قد أسرع بالتقاط حربته، حيث قذف بها بسرعة نحو دليّان، الذي انحنى بجسده تفادياً لها، فمرّت الحربة من فوق رأسه واستقرّت على بعد خطوات منه محطمة رأس أفعى شاءت الأقدار أن تتواجد في ذلك المكان. فأصبح ذياب مستطير الجنان وصاح قائلاً: «يالله يا عظيم لقد أخطأتْ حربتي هدفها لأول مرة ولم تسقط على لحم، ولا بدّ لي الآن أن استعد للموت»[1]. فصرخ العبد قائلاً: «سلّمني يا ذياب (أعطني الأمان) وسوف أخبرك بما يسرّك».

«بوجهي! (آمنتك على نفسك)».

---

(1) هذا هو المعروف في الرّواية الشّعبيّة حول ذياب بن غانم، وكانت حربته تسمّى: «شلفا ذياب»، وقد سمّاها هو: «سمّ ساعة».

«لقد انغرس نصل حربتك في لحم». فقال ذياب: «سبحان الله.. لقد كُتب لك عمرٌ جديد».

* * *

بدأنا السّير مبكرين متجهين نحو منطقة الوهابيين[1]، سرنا خائفين متوجّسين وأخذنا نتفحص بأعيننا الأفق كل ساعة من النّهار بحثاً عن نذر «الپيوريتان» المسلمين- المتطهّرين المسلمين - الذين تجرّدت قلوبهم من الرّحمة أو الشّفقة؛ فهم يعتبرون أنّ محاربة الكفار والمرتدّين عن الإسلام واجب ديني مقدس، ويندرج تحت هذا التّعريف كل مسلم لا يحمل نفس آرائهم ومعتقداتهم الموسومة بالتّضييق. وقد شدّد رفاقي البدو على ضرورة ألا نتلكأ في السّير في هذه المنطقة الخطرة لأيّ سبب حتى لو كان كتابة ملاحظاتي. كما طلبوا من الجميع عدم المخاطرة والالتفاف عند الوصول للسّاحل ورؤية آثار مريبة وأن نلتزم بالسّير طوال الليل والاستراحة في الصّباح في البرية. ولحسن حظي لم نمرّ بما يستدعي الالتفاف أو تغيير خط السّير، فقد تراجعت قبائل الإخوان لمناطق الجوب والجافورة لتتفرّغ لشهر الصّوم - رمضان، ومن ثم تمكّنتُ من رسم خارطة للمكان!

صاح مرشدي وربيعي[2] حَمَد قائلاً: «الله يكفينا شرّهم!»[3]. وفي أول الأمر، كان طريقنا يمرّ عبر سهل واسع مقبض وراسخ المعالم يتناثر فيه حصى بلون العقيق واليشم، ثم مررنا خلال حقول الملح الشّاسعة ذات الرّقع الدّاكنة الرّطبة؛ ولحسن الحظ لم تكن الأمطار التي هطلت مؤخراً كافية لتحويل السّطح القشري العتيق إلى مستنقع زلق، وهكذا فقد مرت عليه الإبل من دون مشاكل تذكر.

---

(1) كتب المؤلف: سمّيت بهذا الاسم لأن ساكنيها من أتباع تعاليم محمّد بن عبد الوهاب الدّينية في نَجْد. وهو مصلح ديني ظهر في القرن الثّامن عشر، أما الإخوان فقد خرجوا من عباءته وأحيوا مذهبه وتعاليمه في القرن العشرين.

(2) أي رفيقي في السّفر، بلجهة الإمارات وعُمان.

(3) كتب المؤلف: إنّ كلمة شرّ تعني كل البلايا والمحن - الأوبئة والغارات على سبيل المثال.

مررنـا خلـف تلك الحقـول بفلاة فاتحـة اللون ذات منخفض يشـبه الـوادي، تنمو فيـه النّباتـات[1]، ويطلق على المنطقة التـي أقمنا مخيّمنا عليها جـوب الذّيبي[2] Jaub Dhibi، وقـد اكتشـفنا من الآثار التي وجدناها أنها كانت مـأوى للضّباع والهررة البرّية والسّحالي وأنواع أخرى من حيوانات البادية.

وفـي الأيـام التّالية تـراءت لنا منطقة الجيبـان Jiban على مدّ البصر مـن حولنا وقد انسـابت فيها أشـرطة مـن البادية مع السّـهول الملحية وتلال من الأمـواج الرّملية التي يتخلّلها منخفضٌ رملي يموج بالعشب الأخضر مثل الذّيبي. مررنا بمنخفضات أخرى يفصـل بين كل واحد منها مسيرة نصف يوم: خَريط، وثريّـا وصفاوية، والعِزبة. كانت البادية تتألق تحت أشـعّة الشّمس، وقد تناثر فوقها جصّ وحصى أسود وأبيض وأحمر وأخضر، وأخضر ضارب إلى السّواد.

كانت السّـهول الملحية الشّـمالية مرصّعـة بما لا يعدّ ولا يحصـى من الأصداف[3] صغيـرة الحجـم التي كانت في مرحلـة مبكرة من التّحجّر. اكتسـحت الأخاديد التّلال الرّمليـة وامتـلأت بأشـجار الهَـرَم *haram* الخفيضـة ذات اللـون الأخضـر الزّاهي أو الـوردي أو الأبيض وازدانت ببُرقع من قطع الحجـارة الصّغيرة الخام. قمنا بحفر تلك الأخاديد للحصول على الماء للسّقاية. لكن قبل أن نبلغ العِزبة مررنا بسلسلة مرتفعات ضيقـة طويلة ومترامية الأطراف، وهي فريدة من نوعها من حيث أنها تمتدّ من الشّـرق إلـى الغـرب على مدّ البصـر وترتفع لحوالـي 200 قدم مـن ناحية الجنـوب ويتناقص ارتفاعهـا كلما اتجهنا شـمالاً فتتحول إلى فـلاة عارية مقفرة وتنتهي كبحـر من الرّمال المتلاطمة.

تزحف الكثير من الخنافس المضلّعة باللون الأسـود وسط العشب الطّازج وبواكير الفاكهة الخضراء التي بعثتها إلى الحياة الأمطار الشّتوية الهزيلة. ويقال إنّه عندما تأكل

---

(1) كتب المؤلف: ومن ضمن تلك النّباتات : الشّنان والقصيص والطّرثوث والسّعدان.

(2) هكذا كتب المؤلف التّسمية، وصوابها: جوّ الذّيبي.

(3) كتب المؤلف: انظر الملحق.

النّاقة من هذا العشب فإنها تنتج ألذ حليب يمكن تذوقه، لذا كنا نتوقف للاستراحة من وقت لآخر لترعى نوقنا وتتزوّد بالكلأ.

* * *

على الرّغم من أن استبدال حَمَد بطالب - وهو من قبيلة المَهْرة في الشّمال- كمرشد لنا كان أمراً خاطئاً ولكنّه حتمي للمسير شمالي الحلوَين Haluwain - فقد كان الرّجل الوحيد الذي لديه دراية بالثّقافة المحلية - إلا انه كان قد ألقى بنفسه إلى التّهلكة! فكافة القراءات البوصلة والقياسات التي أمدّنا بها والتي من المفترض أن تقودنا لأقصر الطّرق للوصول إلى عيون الماء، كانت ضالّة مضلّلة! ولمّا صببتُ عليه جام غضبي موبّخاً إياه، أقسم بأنه يقول الحقيقة قائلاً: «والذي خلقني وخلق الشّمس» وتأكدت من حسن نواياه وعدم تعمّده خداعنا أو تضليلنا. وعلى الرّغم من أنّ مهمّته هي أن يدلّنا على أمكنة الاستراحة الزّاخرة بالمرعى والحطب، فإننا لم نجد شيئاً مما وعدنا به وأرشدنا إليه. وقد استحوذ على تفكيرنا مسألة المرعى والحطب والمكان المثالي للمبيت طوال فترة ما بعد الظّهر، حتى أنّ رفاقي ضجوا بالشّكوى والتّذمّر وصاح أحدهم: «لا يوجد أمامنا يا عرب سوى البرد القارس والموت جوعا!». وهكذا لم يكن أمامنا سوى تغيير اتجاهنا صوب الشّرق، فأصبح التّل الرّملي البارز الذي يُطلق عليه علامة النّخلة Alamat al Nakhala على يسارنا، بعد أن كان في السّابق على يميننا. وعند غروب الشّمس تركناه وراء ظهورنا وسرنا بعيداً عن وجهتنا الأصلية أملاً في الحصول على شيء من الدّفء والطّعام تلك الليلة.

لم يساورني أدنى شك أنّ ذلك الخطأ في التّقدير والقياس كان سيكلّفنا حياتنا لو حدث في فصل الصّيف، حيث يبلغ الجفاف والقحط مداه الأقصى! إنّ واحدا من كل عشرة من البدو يعدّ دليلاً يشار له بالبنان، وواحد من أصل خمسين من البدو يعدّ مصدراً للمعلومات يمكن الاعتماد عليه والثّقة بولائه. إن علاقة الأفراد الذين ينتمون لقبيلة المَهْرة وقبيلة الرّاشدي من مجموعتي علاقة يغلب عليها الشّك ويشوبها الارتياب، وقد أثبت لي ذلك مدى هشاشة العلاقات السّلمية السّائدة حاليا، الأمر

الـذي جعلهـم حريصين علـى عدم إفشـاء أسـرار وخبايا مناطـق نفوذهم وسـطوتهم للطّـرف الآخر! لذا فقد كان أحد المَهْرة ينسـلّ - مـن آن لآخر - لفحص ومعاينة أحد الآبـار أو عيون الماء، وكان يحرص علـى ألا يتبعه أو يصاحبه أو يطلع على ملاحظاته أحـدُ أفراد قبيلة الرّاشـدي. وعلى كل مـن يفكر بالقيام بمثل هـذه الرّحلة التي أقدمتُ عليها أن يتصف بالحكمة والحصافة اللازمة ويقوم بجمع كل المعلومات التي يستطيع أن يضـع عليهـا يده قبل بـدء الرّحلة. عليه كذلك التّأكّد مـن ولاء ومصداقية عميله من البدو قبل أن يسـتعين بخدماته. توالت الأيام بعد ذلـك على وتيرة رتيبة واحدة. وقبيل شـروق الشّمس بنحو السّاعة، صدح صوت مرزوق بالأذان لصلاة الفجر ليوقظني من نومي، وقد تردّد صداه مدوّياً في أرجاء الفلاة من حولنا:

الله أكبر.... الله أكبر.... أشـهد ألا اله إلا الله.... أشـهد ألا اله إلا الله.... أشـهد أنّ محمّداً رسـول الله.... أشـهد أنّ محمّداً رسـول الله.... الصّلاة خيرٌ من النّوم.... الصّلاة خيرٌ من النّوم.... الله أكبر الله أكبر.... لا اله إلا الله.

وصل لمسـامعي أصـوات البدو يردّدون آمين خلفه - متظاهريـن بالتّقوى والورع! وكان من المعتاد أن يُسمعَ صوتُ الشّيخ صالح وهو يوبّخ - بحرص أبوي - كلفوت، الـذي أقعده المرض، لتكاسـله وتباطؤه في النّهوض للصّـلاة صائحاً: «قُم يا كلفوت، أتسـمعني، هيـا قُم لأداء الصّـلاة!» وفي لمح البصر يـؤدّي البدو الصّلاة ثم ينتشـرون ليسوقوا نوقهم لأقرب مرعى للتزوّد بالكلأ ثم يهرعون لتناول وجبة الإفطار من التّمور - حفنـة مـلء الكف - وجرعة من الماء المالح، على الرّغم من أنهم لـم يتناولوا طعاماً منذ أحد عشر ساعة - وفي أثناء شهر رمضان لا تبلّ شفاههم قطرة ماء!

لكن يبدو أنّ تلك اللقيمات المتواضعة تسدّ رمقهم! أمّا بالنّسبة لي فقد كنت أتناول وجبتي الإفطار والغداء معا في السّاعة الواحدة - عقب شروق الشّمس - وكان يتكوّن مـن وعـاء من حليب مـن حليب النّاقـة وصحن من الشّـعير، وقد التزمت بهـذا النّظام الغذائـي التزامـاً كاملاً طوال الخمسـة وثمانين يومـاً. وقد كان مسـموحاً لي - إن كان المرعى خصباً وغنياً - أن أتلكأ مسـتمتعاً بتناول وجبتي وتدوين ملاحظاتي على مهل

عـن العيّنـات الخاصة بالتّاريخ الطّبيعي التـي عثرنا عليها، قبل أن نشـدّ الرّحال لموقع جديـد. أمّـا إذا كان المكان الذي عسـكرنا فيـه مجدباً وقفراً، فـلا أكاد ازدرد آخر لقمة حتى نلقي بالأقتاب على النّوق ونحن نعلم علم اليقين أننا سنضطر للسّير ببطء لنعطي النّوق فرصة للتزوّد بالكلأ من آن لآخر. كان جمل الحمولة أول من وصل من القافلة. لذا انطلق البدوي صائحاً: «لا اله إلا الله... يا الله. ندعوك يا ربّنا».

ثـم التقـط عصـاه الملقاة على الرّمال ممسـكا بهـا بإصبعين من أصابـع قدميه ونقر العصـا بخفّة خلف ركبتها أو فوق عنقه لإناخة الجمل، مردّداً خ خ خ، ثم هرول بدوي آخر لمسـاعدته في تحميلها. وبينما قرقر الجمل محتجّاً على ثقل الحمولة، رفع البدو عقيرتهـم بالغناء لحثّه على الرّضوخ لمصيره. انزلق البدو عن نوقهم - بقدمهم اليمنى - وانتشـروا فـي كل مـكان يعبئـون ويفرغون الحمولـة مردّدين بصـوت خافت بعض الأدعية القدَرية. وصيغة دعاء البدوي من قبيلة الرّاشدي[1] كما يلي: بسم الله الرّحمن الرّحيم، توكلنا على الله، السّـلام على الرّفيق *rafiq*، يا ربّ، لا إله إلا أنت، ولا مهرب من إرادتك، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا بغفرانك ورحمتك، ووفّق رفيقنا وأرشده! أمّا مجموعة البدو فأخذت تردّد وراءه «لا اله إلا الله».

كان روتيننا الصّباحي يشـمل السّـير أول ثلاثة أو أربعة أميال على ظهر النّوق، ولم يكن يسبقني أحد إلى اعتلاء ظهر النّاقة إلّا بن حَم Bin Ham، وهو شيخ بيت يَماني[2]، ولا يـزال البدو يعتبرونه محارباً جسـوراً لا يشـقّ له غبار، على الرّغـم من الإعاقة التي كان يعاني منها جراء إصابته بطلق ناري في ساقه أثناء إحدى الغارات.

يضفي الحجم الكبير للنّاقة وحركاتها البطيئة الكسـولة مسـحة جنائزية على طريقة سـيرها، بعكس طريقة سـير قائدها المتّسـمة بالخفّة والنّشـاط. وقد تبيّـن أن معدّل ما

(1) كتب المؤلف: يردّد البدو؛ في بعض الأحيان، الدّعاء التالي - قبل شن الغارة - «يا رب أسبغ على النّاقة الحظ الطّيب وسدّد خطاها وردّنا سالمين غانمين».

(2) بيت يَماني، ويعرفون ببيت هاني، أحد فروع قبيلة آل كثير الهمدانية القحطانية، يسكنون منطقه غنيم وما جاورها.

تقطعه النّاقة في المناطق المنبسطة - الخالية من التّضاريس الوعرة - يبلغ نحو 3 أميال في السّـاعة! وعند إناخـة النّاقة يتأرجح عنقها الطّويل بشـموخ من جانب لآخر ويبقى فمهـا الكـدر - المليء بالجرّة - بانتظار أن يقترب منها راكـبٌ ما، فقد تدرّبت على أن تقف على قائمتيها ما إن تشـعر بأقل لمسـة على ظهرها. ولهذا السّـبب، يجب الصّعود علـى النّاقـة بالوثب سـريعا فوق ظهرها فـي جزء من الثّانيـة! أما إذا أردنـا إناختها مرة أخرى فعلينا أن ننقر - بخفّة - على ركبتها. لكن طالما احتفظ راكبها بعصاه مغروسـة في الرّمال تحت ناظريها، فسـوف تظل جالسـة مستكينة؛ لكن ما إن تلمحه يلتقط تلك العصا حتى تبدأ بالتّململ وتبدو عليها علامات التّوتّر والتّرقّب.

قلّما يستخدم الرّاكب الرَّسَن ليقود النّاقة، بل في كثير من الأحيان تنطلق النّاقة دون رَسَـن ولا يحتاج الرّاكب سـوى للنّقـر على رقبتها بعصاه وإصـدار عدد من الأصوات لتعليمها أن ترضخ لإرادته. فلو تُركت النّاقة تسير على هواها ولولا ردع ونهي سيدها، لتوقفـت لـتطحن بفكها العلوي الأهتم كلَّ كشّـة من الكلأ أو قطعة من العظم الأبيض الجاف تمرّ عليها.

يتحرّك البدوي صعوداً وهبوطاً، للأعلى والأسـفل - ساعة تلو السّاعة - على ظهر النّاقة، وقد يعدل من جلسته بين الفينة والأخرى. لا يركب البدوي منفرج السّاقين على القتب العُماني لمدة طويلة، فتراه يشـمّر عن ساقيه ويثني قدميه لأعلى لتلامس وركيه، متخذاً وضعية السّجود، أو يستقرّ على القتب جاعلاً قدميه كلتيهما تتدلّيان على جانب النّاقة. وربما يكون شـكل القتب ذي القربوس المزدوج رتيباً ومملاّ، إلا أنّه أكثر راحة للأوروبيين، حيث يتيح لهم فرصة وضع ساق على أخرى لتستريح على كتفي النّاقة.

يسير معظم البدو دون غطاء للرّأس، لأنّ كومة الشّعر الأشعث البنّي الغامق تقيه من أشعة الشّمس الحارقة. وهم لا يجدون أيّة غضاضة في أن يستلّوا خناجرهم وهم على ظهر النّاقة لحك رؤوسهم العامرة بالدّويبات.

وهم يحملون بنادقهم في اليد الأخرى على ظهر النّاقة. تحتوي الأقتاب الرّاشـدية علـى مكان لحمل البندقية، أمّا المَهْرة فيكتفـون بوضعها في دلو لتتأرجح وتتمايل من

ناحية لأخرى وتهتز شراريبها عند هبوب الرّياح. والبدوي يتّسم بالرّوح المرحة فيظل يدندن لنفسه طوال الوقت ببعض الأهازيج، ثـم تفيض قريحته فيصدح بدون سابق إنذار بالإنشاد لرفاقه بصوت جهوري، أمّا رفاقه فيتجاوبون معه على الفور ويشجّعونه ويهللون له! وفي بعض الأحيان يقوم ثنائي من البدو بالإنشاد في تناغم وانسجام. وكل قبيلة لها أهازيجها المميّزة الحصرية. وقد دفعني فضولي وحبّي لتعلم الأهازيج أن أسجّل كل أهزوجة سمعتها حتى الآن بقدر توافقها مع النّوطة الموسيقية الأوروبية[1]. كما يقومون بتسلية أنفسهم بإسقاط أحدهم الآخر من على ظهر النّاقة لإثبات قوتهم وتفوقهم البدني، وعقوبة الخاسر هي السّقوط الموجع من على ارتفاع 10 أقدام على الرّمل!

كان حَمَد – ربيعي (رفيقي) - أكثر رفاقي البدو بأساً وصلابة، وقد تبارينا في مباراة ملاكمة مرة أو اثنتين دون أن نصل لنتيجة تحسم من الفائز. ثـم جرّبنا المصارعة ولم نحرز نتائج أفضل، على الرّغم من أنني كنت أطول منه وكانت كتفاي أكثر ارتفاعاً!

ولأجل النّزول عن النّاقة، لا يقوم البدوي عادةً بإناختها، بل ينزلق على جانبها، ومن عادته كذلك إذا أراد الصّعود على النّاقة أن يقوم بتسلّق قائمتها الأمامية وهي تسير، ثم يتشبث بإصبع قدميه الأكبر والثّاني بالمنطقة التي تعلو ركبتها تماماً، ثم يدفع نفسه أعلى رقبتها ويثب معتمّداً على يديه ويدير نفسه مرتكزاً على السّنام لوضعية الجلوس.

ولقد قمتُ مراراً بأداء تلك الحركات البهلوانية لأتمكن من جمع العيّنات صغيرة الحجم من مجموعتي الخاصة بالحيوان. ومن وقت لآخر يصرخ بدوي من خلفي: «نَمونه يا صاحِب نَمونه!»[2] فألتفتُ لأجد أحد العرب يركض تجاهي حاملاً بعض المخلوقات الصّغيرة التي ستنتهي ميتة في زجاجة أجمعها فيها. وكثيراً ما يتبرّع البدوي

---

(1) كتب المؤلف: انظر الملحق السّادس.

(2) كتب المؤلف: إن مرادف عيّنة باللهجة البدوية هي نمنة وينطقها البدو – في كثير من الأحيان: لمونه، وفي بعض الأحيان: مونه. ويبين ذلك مرونة وسلاسة اللسان البدوي.
قلت: فات المؤلف أنّ هذه الكلمة (نمونه) غير عربيّة، بل هي دخيلة من التُّركيّة، وهي مستعملة إلى اليوم بمعنى: نموذج، عيّنة.

بأن يقصّ علي حكاية من حكايات الجن المرتبطة بذلك المخلوق.

في يوم من الأيام أحضر لي أحدهم بزّاقة سمينة وقصيرة وبيضاء اللون – وهي مخلوق منفّر يعيش داخل فتحتي أنف النّاقة ولا يغادره إلا عندما تعطس فتلقي به إلى الخارج – وقال لي: «إن هذه الحشرة الصّغيرة هي التي أخضعت الجمل لخدمة الإنسان ولولاها لكان الجمل حيواناً برّياً جامحاً كالثّعلب والغزال، لا يصلح إلا كطريدة للصّيد.

وفي يوم آخر أحضروا لي عنكبوتا صحراوياً – من النّوع الذي نسج شبكته على مدخل الغار عقب اختباء الرّسول فيه ليخدع متعقّبيه الكفار وينقذ حياة النّبي منهم.

لطالما حافظ رفاقي البدو على أداء الصّلوات في أوقاتها بدقة ومواظبة، خاصّة صالح الذي دأب على النّظر إلى السّماء سائلاً: «هل حان موعد أداء الصّلاة؟»، وكنت انظر لساعتي وأجيب وأنا أشير نحو بعض المراعي أمامنا: «بعد نصف ساعة»[1]. وكان توقفنا لأداء الصّلاة يحدّده وجود المراعي والكلأ.

وعندما يشرف اليوم على الانتهاء ينتشر رفاقي البدو على مسافة ميل أو أكثر ليعطوا الفرصة ليتناوب كل اثنين أو ثلاثة منه على الصّلاة في المكان الذي قفزوا عليه من فوق ظهر النّاقة بينما يستمرّ الباقي في السّير، ثم يصعد من أنهى صلاته على ظهر ناقته بسرعة ويقفز آخرين للصّلاة وهلمّ جرّا، وهكذا يؤدّون الصّلاة دون أن يضطروا للتوقف والصّلاة معا في صف واحد كما يحدث في في المعسكر.

أمّا الجمال فترعى وتتزوّد بالكلأ ريثما ينتهي سيدها من الصّلاة. وعقب مرور عشر دقائق يصيح البدوي هرّرر (مع تشديد نطق حرف الرّاء كما يفعل الإسپان) ويردف قائلا: «شوم» منادياً اسمها فتنظر النّاقة لأعلى وتنتظر كالصّنم حتى يأتي ويقودها من رسنها قائلاً: «مَه مَه» أو «را را را» بإيقاع منتظم. تستخدم هذه الصّيحات لتنبيه النّاقة

(1) كتب المؤلف: إنّ كلمة ساعة لا تعني شيئا بالنّسبة للبدوي. كما أنّ وحدة قياس الزّمن الوحيدة التي يعتبرها أقل من يوم هي الفترات الفاصلة بين الصّلوات الخمسة. أمّا وحدة قياس الزّمن فهي المسافة.

التي تسير دون رَسَن أو قائد عندما تخرج عن صف القافلة أثناء السّير.

وكثيراً ما يجثم الملل والصّمت القاتل على صدورنا ولا يرفعه سوى أن يصدح أحدهم قائلاً: «الله أكبر ولا اله إلا الله». وتردّد الألسنة دوماً هذا الذّكر بمناسبة وبغير مناسبة. أمّا عن نفسي فكنت أكسر حاجز الصّمت الرّهيب قائلاً: «ياله من جو بارد!». فأتلقى الرّد السّريع: «هذه إرادة الله!» إن مجرّد تمنّي حدوث عكس ما هو قائم يعد كفراً بيّناً فكل شيء يحدث بإرادة الله ومشيئته. ولم أصادف في حياتي مثل ذلك الإيمان المطلق بحكمة وحتمية الأقدار من قتل وغارات وأمراض، فإن كل ذلك جزءٌ لا يتجزأ من المنظومة الإلهية لتسيير شؤون الكون. إن كل شيء يحدث وفقا للتوقيت الذي كتبه الله.

ويجب ألّا نغفل ذكر الجانب الأقل قتامة والأكثر مرحاً من حياة البدو، فمن وقت لآخر يلقي أحد البدو ما يفضّله من الشّعر العامي عن بو زيد أو ذياب بن غانم أو عملاق آخر من سالف العصر والأوان. وفي يوم من الأيام، تقدّم صالح وسار – وهو على ظهر ناقته – بجواري وهو يلقي شعراً عامياً يفتخر بقوة وبطش بني هلال بأعدائهم قائلاً:

«أعدائنا ما هم إلا عصافير ضعيفة تقف على شجرة سِدر بو زيد الصّلبة القوية
نجبرهم على الفرار والطّيران بعيداً ونعود أدراجنا لنتمتع بظل الشّجرة الوارف
إذا وجدنا دواء لمن نهشه الذئب فلن نجد دواءً للجرح الذي تسبّبت به حربة بو زيد
فالدّماء تتدفّق منه وكأنها تنصبّ صبّاً من دلو مُلِئ لآخره من البئر».

أخذ أحد البدو يردّد «تنصبّ صبّاً» بصورة مسرحيّة ثم التفت إليّ قائلاً: «قال نبيّنا إنّ بو زيد مبشّر بالجنة!» فلم أُبدِ دهشة أو اعتراضاً يذكر، فتدخل أحد المعجبين بـ بو زيد مترنّماً:

«آه يا بو زيد آه يا بو زيد... يا بو مخيمر.

ما إن تستلّ سيفك من غمده حتى تنتهي حياة من تهوى به عليه..

فكم من عين ماء مررت عليها وأنت تسابق الرّيح للإغارة على القبائل الأخرى..

وكم من ناقة رأيتها تهلك جوعاً بعد غروب الشّمس فيما تقوم بحمايتنا وحراستنا في الليل وفي النّهار وأنت تغافل الأعداء وتحصدهم حصداً..

ولسرعة الغارة فالنّوق التي أنهكها الجوع لم تعد تستطيع الوقوف للأعداء»[1].

أقرّ بأنّني أفضّل النّثر العربي على الشّعر العربي. انكبّ أحد البدو على سرد قصة الصّراع بين ذياب بن غانم وعلاّم Alan عبد عريشة.

كان علاّم عبداً للزّناتي وخصماً مُهاباً من بني هلال، فما من أحد تبارى معه إلا ولقي حتفه. لذا فقد أسرع القوم لبو زيد متوسّلين إليه أن يفتك بجواد العلاّم، لكن بو زيد رفض، لأنه والعلاّم اتفقا على ألا يؤذي احدهما الأخر عندما وقع أسيراً عند الزّناتي، وجاءه العلاّم قائلاً:

«لنقطع على أنفسنا عهداً ألّا يؤذي أحدنا الآخر إن التقينا في ساحة المعركة». وهكذا لم يستطع بو زيد، عندما تمكّن من الفرار وقام باستنفار القوم ليهبّوا لنجدة أخيه بريقة، أن يشارك في الهجوم واكتفى بمراقبة سير المعركة من الخطوط الجانبية. وكان من عادة كل فريق أن يرسل أفضل مقاتليه لتحدّي أفضل مقاتلي الفريق الآخر في الخطوط الأمامية أمام أسوار قلعة الزّناتي، وكان العلاّم العبد هو البطل الذي يفتخر به الزّناتي، فقد كان الموت مصير كل من تحدّاه وبارزه: أبناء ذياب بن غانم وعمرو بن خفيات المحبوب. كان العلاّم يمتطي جواداً فريداً من نوعه لم يرَ أحد من قبل أومن ذلك الحين مثيلاً له. كان عندما يصهل ترتعد فرائص جياد بني هلال وتتجمّد من شدّة الرّعب والهلع، فتصبح لا حول لها ولا قوة!

كان العلاّم يعتمد أسلوباً يرتكز على إسقاط خصومه من على ظهور جيادهم برمي سلسلة طويلة - معلّق في أخرها خطّاف - بدقة ومهارة شديدتين على الدّرع الواقي

---

(1) يورد المؤلف هذه الأبيات بترجمة إلى الإنكليزية، ومن المحال معرفة أصلها بصيغته العربيّة.

الذي يرتديه خصمه، فتعلق به، فيقوم العلّام بسرعة وخفّة بسحبه من على ظهر جوداه وقتله. تشاور بنو هلال فيما بينهم قائلين: «بما أنّ أبا زيد يرفض قتل خصمه، فلم يبق أمامنا سوى الاستعانة بالرّجل الوحيد الذي يستطيع القيام بهذه المهمّة: ذياب بن غانم».

وهكذا أرسلوا في طلب ذياب بن غانم. ولمّا جاء وعلم بالأمر، أخذ ثلاثة أثواب وقام بغليها حتى انصهرت وتغضّنت واتحدت في ثوب واحد مكوّن من طبقات، ثم قام بارتدائه بدلاً من الدّرع الواقي ذي السّلاسل، ثم ملأ أذني جواده بالطّين حتى لا تسمع صهيل جواد العلّام المرعب. كانت حلبة المبارزة، أمام قلعة الزّناتي، على أتم الاستعداد، وكان يحيط بها خندق مائي يقفز فيه العلّام عادة ليدخل القلعة عقب ذبحه لخصمه. تقدّم المحاربان بعضهما من الآخر حتى أصبحا وجهاً لوجه لكن حصان العلّام صهل فجأة فقام ذياب، بمكر ودهاء، بحث جواده على الالتفاف والتّقهقر في اتجاه بني هلال لاستدراج خصمه بعيداً عن القلعة، فلحق به العلّام وهو يستحثّ جواده بحدّة وعنف. وعندما أصبح ذياب على مسافة تسمح له بالتّصويب قام بخفّة ومهارة بقذف خطافه تجاهه فعلق الخطاف بأول طبقة من رداء ذياب فمزق قطعة صغيرة منه، فكرّر آلان قذف خطافه فعلق بالطّبقة الثّانية ثم بالثّالثة، وباءت جهود العلّام بالفشل الذّريع!

فقد العلّام أعصابه واهتزّت ثقته بنفسه وبدأ يتقهقر، لكنّ ذياباً كان له بالمرصاد، فسابق الرّيح ليلحق به. وعند وصول العلّام لحافة الخندق المحيط بقلعة الزّناتي، صهل جواده كعادته، لكن مُهرة ذياب التي ملأ أذانها بالطّين لم تستطع سماع صهيله، فقفزت خلفه في الخندق وصعدت لمدخل قلعة الزّناتي جنباً إلى جنب معه! وفي اللحظة التي أدار آلان فيها رأسه ليرى مكان خصمه، قام ذياب باستغلال الفرصة وغرس حربته في عين العلّام حتى اخترقت مخّه وخرجت من الجانب الآخر من رأسه ليستقرّ نصفها في سور القلعة.

سقط العلّام ونظر لأعلى وسأل ذياب وهو يعاني سكرات الموت: «هل أنت ذيب

أم ذياب؟» فقد كان - والله أعلم - يعلم أنّ مصرعه سيكون على يد رجل يدعى ذياب، فأجابه ذياب: «إنّ اسمي ذياب». فقال له العلّام وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «سوف نلتقي يوم الحساب».

* * *

كانت ليلة الأول والثّاني من فبراير باردة رطبة وقد ظللتُ مستيقظاً حتى أذان الفجر. لقد توارى كوكب المشتري، الذي ظل يتصدّر السّماء طوال أسبوعين، خجلاً أمام القمر كبير الحجم الذي أضاء بنوره أرجاء السّماء، جهة الغرب، وظلت ڤينوس (الزُّهرة) ملازمةً له، لا تفارقه! وقد راقبتُها وهي تتحرّك أسفل منه خلال الليالي الفائتة. لقد تعلّمت تحديد الزّمن ومعرفة الوقت بمراقبة حركة وسير النّجوم والأجرام عبر السّماء المدارية الصّافية. ظهر الليلة قلب الأسد ثم المنجل الذي بدا صغيراً كالمشترى لقربه النّسبي من القمر، ثم تلاه ظهور السّنبلة وهي أسطع النّجوم في برج العذراء، وهلم جرّا.. وصولاً إلى العقرب. لقد كانت مجموعة النّجوم التي تألقت جهة الشّرق غاية في الرّوعة والإبهار! وقد تسمّرتُ في منتصف الليل لألقي نظرة فاحصة على النّجم القطبي، بولاريس، لكن خاب أملي عندما اكتشفت أني لم أقم بضبط آلة قياس ارتفاع الأجرام السّماوية كما ينبغي، فهي بحاجة لتعديلٍ وضبطٍ يومي عقب التّأرجح والاهتزاز على ظهر النّاقة، الأمر الذي يفسد ضبطها في كل مرة، وإن إصلاح العطب هذه المرّة قد تجاوز حدود معرفتي. على أيّة حال، لم أكن أستطيع أن أراقب وأتابع حركة النّجوم وسيرها - وهو سرٌّ لطالما حرصت على أن يبقى قيد الكتمان - نظراً لوجود أحد البدو الذي كان حركاته الدّائمة - واقفاً.. راكعاً.. ثم ساجداً - تظهر على خلفية السّماء المتألقة، وهو يؤدّي الصّلاة - من دون داعٍ على الإطلاق - في هذه السّاعة المتأخرة من الليل!

وفي الفجر، غرقت السّماء - جهة الشّرق - باللون الأحمر الذي تخلّلته غيوم أرجوانية طويلة مائلة، ما لبثت أن شحبت النّجوم وتوارت خلفها.

بدأنا المسيرة مبكراً وعدنا في أول الأمر - معتمدين على آثار الأقدام - في اتجاه

تـل نخلة الشّـاهق، وعبرنـا أمواجـاً هائلة مـن الرّمـال المتلاطمة التـي كانت تحجب عنـا رؤيتـه، مـن آن لآخر. قمت أنـا واثنان من البـدو - طالب وحَمَد - بتسـلّق جانبي التّل شـديد الانحدار - بعناء ومشـقة شـديدتين - لكن جهودنا أثمرت، إذ لمحنا مياه الخليـج العربـي عن بُعد. لقد كان يوماً مشمسـاً، ذا جوّ معتـدل، وكان موقع تلّ النّخلة يعـرض پانورامـا لجميع الجهـات، بدءاً من صحـراء الرّمال الخفيضة التـي تمتد جهة الغـرب، حتـى تصل لمسـاكن الجافورة، ثم جهة الشّـرق، على طول سلاسـل الجبال والتّلال الرّملية الجرداء التي تنحدر تدريجياً إلى البحر. كانت الآن الصّحارى الجرداء الشّاسعة مترامية الأطراف في الرّبع الخالي، التي تكاد تخلو من البشر، من خلفنا، ولم يكن أمامنا سوى مسيرة أربعة أيام للوصول إلى لأماكن المأهولة بالسّكان.

وعندمـا أخذنـا بالهبـوط، سـجّلت قـراءة البارومتـر أن الأرض حيث كنـا نقف قد أصبحت تحت مستوى سطح البحر - كما حدث في اليوم السّابق واليوم التّالي أيضاً. وأخيراً وصلنا إلى سـبخات المناصير التي تقع إلى ما وراء بعض التّلال الرّملية، وهي عبـارة عن حقل ملحي تبلغ مسـاحته بضعة أميال مربعة، ملـيء بالأصداف التي بدأت بالتّحجّر[1].

تابعنـا السّـير تجـاه الشّـمال عبر منطقة مقفـرة تبـدو وكأنها مقلع حجـارة مهجور، وكان البحـر على بعد مسـيرة يوم إلى يميننا. وفجأة اخترق سـمعنا عـواءُ ذئب بالقرب مـن منحدر فرهـود الصّخري حيث قمت بجمـع أصداف أخرى في حالـة متقدّمة من التّحجّر.

وما إن وصلنا عين الماء التي تسمى خفوس Khafus، حتى اندلع شجارٌ بين رفاقي البـدو حول سـقاية الجمـال هناك من عدمـه، وقد كانت الغلبـة للموافقين. ثـمّ توقفنا للاسـتراحة والتقـاط الأنفـاس لمدة خمسـين دقيقة أتاحـت لي الفرصـة - خاصّة مع اقتـراب يـوم دفع الرّواتـب - لقياس الاتجاهات بالنّسـبة لأعلى نقاط فـي التّلال فوق سطح البحر.

---

(1) كتب المؤلف: راجع الملحق الثّاني.

كما أنني - عقب قضاء الليالي الطّوال مع رفاق رحلتي من البدو - كنت قد نلت ثقتهم إلى حدّ ما.

وفي اليوم التّالي من مسيرتنا، انطلقنا على بُعد ظلّ واحد من جهة الشّمال الشّرقي، وسط فلاة مقفرة كمقلع الحجارة وعقب مسيرة ستة أميال، رأيت أمامي بركة كبيرة، فضّيّة اللون. وقد أخبرني أحد البدو أننا لا بدّ أن نمرّ على سبخة أمرة[1] Amra إلى يميننا. وقد افترضت أنّها سهل ملحي جاف مثل السّباخ التي مررنا بها مؤخراً. وقد كان منظر البركة التي يبلغ طولها سبعة أميال تقريباً وعرضها ميل ونصف يدخل السّعادة والسّرور إلى القلوب! وما إن اقتربت من طرفها الجنوبي، حتى التقطت صدفتين كبيرتين متحجّرتين. وامتدّ طريقنا، من ذلك المكان، في السّهل الصّواني المنخفض الارتفاع الذي ينحدر إلى جهتها الشّمالية؛ وقد بدا أنّ شاطئها الجنوبي مليء بالتّلال الرّملية منخفضة الارتفاع.

وإذ كنت منهمكاً بتصويرها تحت أشعة الشّمس الحارقة - وكان أمراً لا مناص منه - وتحت سماء ملبّدة بالغيوم الصّفراء الشّاحبة، قام بدوي بجمع أجزاء كبيرة من الملح الصّخري من حافة البركة لاستخدامه في طهي الأرزّ[2].

كان عرض الحدود ما يقرب من حوالي عشرين قدماً، وكانت مكسوّة باللون الأبيض الثّلجي، حتى كان من المستحيل تحديد أين يبدأ وأين ينتهي الملح أو الماء! وعلى مسافة ستة أقدام من حافة الماء امتدّ صف من الجراد الأبيض الميت - عيّنات متحجّرة - من المحتمل أن تكون من النّوع الأحمر كبير الحجم الذي يعدّ طبقاً عربياً شهيّاً! ويبدو أن تلك المخلوقات البائسة قد اندفعت قادمة من الصّحراء - بأعداد هائلة - في الرّبيع ثم غاصت في أول مسطّح مائي في طريقها لتلقى حتفها غرقاً. وقد كان

---

(1) لم أجد الاسم في الخرائط والمراجع الجغرافيّة، فهي مجرّد سبخة وقد تكون جفّت. وهكذا تبيّن لي الاسم وليس (عَمرة) لأنّ المؤلف يعبّر عن حرف العين كعادة المستشرقين بحرف c صغير مرتفع.

(2) كتب المؤلف: للتحليل الكيميائي انظر الملحق الثّاني.

جليّاً مـن المكان الذي وجدنا فيـه تلك العيّنـات أنّ حافة البركة قـد تعرّضت لعوامل التّعريـة - من حتّ وتراجـع التّربة - خلال العام. ولكن لم يقـدّم المَهْريان الوحيدان، اللـذان زارا تلك البقعة من قبل، تفسيراً مقنعاً لهذه الظّاهرة! وقد يكون سـقوط بعض الأمطار أو تبخّر الماء صيفاً سبباً لذلك، فالانحدار أو الحتّ كان طفيفاً.

وفـي أعقاب مغادرتنا للبركة واتجاهنا نحو الشّـمال الشّـرقي، عبر جبل العُديد ذي القمّة المحدّبة، وصلنا لسهل تنتشر فيه أحجار حادة متشققة ثم إلى سهل ملحي فسيح يطلـق عليـه أمرة، يقال انـه يمتدّ جهة الغـرب مروراً بمواقع السّـكك Iskak وسـلوى Salwa ونبـاك[1] Mabak القديمـة حتـى يصـل إلـى شـواطئ خليج قطـر. كانت كافة الدّلائـل - البركة الملحيـة والأصداف التي وجدناها مؤخراً وقراءات البارومتر تشـير إلـى أنّ شـبه جزيرة قطر[2] كانـت في وقت غير بعيد منخفضة عن سـطح البحر! وقطر جزيرة كجارتها البحرين[3] ولكنها تفوقها حجماً بمرات عديدة.

توقـف رفاقـي البدو لأداء صـلاة الظّهر على السّـهل. وعند صعودي قـرّرت ناقتي عَقَبة أن المكان يلائمها فرفضت السّير وجلست تجأر وكأنها تنادي وتحنّ إلى رفيقتها بنـت رمان، التي طالما رافقتها في المسـيرة، وكان صوتها يفسـد الجـو الإيماني الذي ارتفعـت فيـه أصوات المؤمنين بالدّعاء. وقد نلتُ ما أسـتحقّه من التّقريع والتّوبيخ من أحـد البـدو لاحقـاً، فقد ارتكبتُ خطـأ لا يقع فيه سـوى المبتدئين بإعطائي لها إشـارة خاطئـة، فقد تدرّبـت النّاقة على أن تنهض بعد أن يُنقر بالعصـا فوق قائمتها الأمامية أو

---

(1) يكتبها المؤلف بالغلط بحرف الميم.

(2) كتب المؤلف: كان من غير المنطقي أن نظنّ أننا يمكننا العثور على الجرهاء، ذلك الميناء الخليجي العتيق الذي يعود لعهد بطليموس - إن لم يكن موجوداً بالفعل في البحرين - ليس تحت البحر كما يشاع بل على بعد بضعة أميال داخل اليابسة.
قلت: والآثاريّون في عصرنا الحاضر يعتبرون أنّ موقع الجرهاء القديم يوجد في المنطقة الشرقيّة عند رأس القرية أو في ثاج أو ميناء الفاو.

(3) كتب المؤلف: إنّ للبحرين اسم يشير إلى مسطحي الماء المحيطان بها وقد كان هذا الاسم يطلق أصلا على المنطقة الممتدة من الدّوحة إلى القَطيف. وكانت الجزر التي يطلق عليها اسم البحرين الآن تعرف باسم أوال في العصور القديمة.

الخلفيـة، ولكني قمت بالنّقر علـى رقبتها فظلت جاثمة. إنّ النّاقـة الحرون تفقد المرء صوابـه، ومـع ذلك لا يمكن أن نرى بدوياً يرفع عصاه ويضربها أبداً خوفاً من أن تتأذّى بـأيّ شـكل كان، فتتدنّى قيمتها ولا تجلب له المنفعة المرجـوّة. وربما يضيق بها ذرعاً في بعض الأحيان لكنه يكتفي بالصّراخ في وجهها قائلاً:

«حَـيّ (صـوت يلفظ من الأنـف) قومي فليحـل عليك الخَـرَش - وهو وبـاء قاتل مميـت. حاي قومـي فليحلّ عليـك الموت بالحـلال أو الحرام. قومـي فلتحلّ عليك الأحمال الثّقيلة المنهكة!

لكنـه فـي أعماق قلبه لا يعني ما يقول! فبينه وبين النّاقـة رابطة وثيقة لا تنفصم وهو يعلـم علـم اليقين إنها علاقة من طرف واحد، ولذا فانه عندما تتعثر النّاقة، يقول - على الأرجح: حَيّ! سلامتك.. حَيّ الله ينجيك من كل شرّ.

وحتى عندما يقطع الأميال سـيراً على الأقدام بحثا عن ناقته التّائهة أو الشّاردة فإنه، عندما يعثر عليها، يقترب منها قائلاً: حَيّ! بارك الله بك. أو: يا حَيّ بإيش فلانة[1].

* * *

حثّتنـا آثـار الجمال الطريّـة التي تمّ التّعرّف إلـى كونها تتبع قبيلـة المناصير، إلى أن نسارع في مسيرنا قُدُماً، بسبب أنّ حَمَد المُرّي لم يكن راغباً في مواجهتهم.

ولمّـا ظهرت بعض الأباعر التي ترعى في الأفق سـرت صيحات التّحذير بين أفراد فريقي. أمّا طالب الذي كان شـخصاً مقبولاً لدى المناصير، فقد تابع طريقه إلى الأمام لكـي يجـسّ المنطقة ويخفي طبيعة فريقنـا إن لزم الأمر، بينما قمنـا نحن باتخاذ طريق آخر لتجنّب لقائهم.

قال سهيل: «هناك أمرٌ أريده منك عندما نصل يا صاحب».

«وما هو؟».

---

(1) كتب المؤلف: العبارة التي يستخدمها المُرّة للتّرحيب بالغريب هو: «مَرحبا ومَسهلا»، بينما يقول المناصير: «مَرحباكُم».

«تنباك».

«ولكننا في صيام رمضان».

«التّنباك هو الشّيء الوحيد الذي لا يمكنني البقاء دونه يا صاحب. أنا أصوم عن كلّ شيء إلا التّنباك».

«ولكن أليس ذلك إثماً؟».

«والله إنّه لإثم، ولكن ما يسع الإنسان فعله؟ وهذا هو أوّل رمضان لي بذلك، لم يسبق لي في الأعوام الفائتة أن شربت التّنباك».

لا ريب أنّ المتديّنين سيعدّون سهيلاً قد أبطل صومه بالتّدخين، ولذلك فلا جدوى في باقي صيامه. ولكن سهيلاً كان المدخّن الوحيد في مجموعتي الذي لم يستفد من الرّخصة التي تسمح للمسافر المسلم بالإفطار في شهر رمضان. لقد كان ينوي الالتزام الكامل بالصّيام ولكنه كان سيتحمّل - بصدر رحب - أيّ توبيخ يوجّهه إليه أيّ متعصّب على تجاوزاته! وقد سمعته ذات يوم - وأنا أسير بجواره على ظهر ناقتي - يناجي ربّه قائلاً:

«اللّهم ارحمني برحمتك يا رب العالمين».

صاح طالب - ربيعي - الذي أسرع على صهوة جوداه لاستكشاف هوية وغرض القافلة الغامضة القادمة من الاتجاه المعاكس، وهو لا يزال على بعد نحو مئة ياردة من موقعنا:

«هل أدّيتم الصّلاة؟».

فصاح البدو: «أي والله العظيم!».

فاقترب منهم قائلاً: «يا حيّاكم.. ياحيّاكم.. لديّ بشائرة لكم إن شاء الله!» فتجمّع البدو - المولعون بالقيل والقال - للاستماع لآخر أخبار وإشاعات الصّحراء. ولم تمضِ بضعة دقائق حتى تأخر الشّيخ صالح عن الرّكب وسار على ظهر ناقته بجواري وخاطبني قائلاً:

«الحمـد للـه إنها أنباء سـارة بحـق! إنّ عبد العزيز بن سـعود في الرّيـاض الآن. إنّ الحـكّام - مشـيراً إلـى بـن جْلُوي حاكـم الحَسَـا (الأحسـاء) لازالوا في سـدّة الحكم يسيطرون على مناطق نفوذهم»[1].

فقال أحد البدو: «الحمد لله».

«وفي الجافورة حياة».

«الحمد لله»، أجاب جمعٌ من البدو. فالمراعي الخصبة اليانعة أصبحت متاحة الآن ممّـا سـيعطيهم الفرصة أن ينعطفـوا على جانب الطّريـق أثناء عودتهم ويُسـمنوا إبلهم لبعض الأسـابيع قبل البدء برحلة العودة الطّويلة صوب الصّحارى الجنوبية، بل كانت الأمطار تتساقط بالفعل في الموقع الذي توقفنا عنده لأداء الصّلاة.

وقفت بومة فوق حجر تنظر بلا مبالاة إلى أحد البدو الذي أخذ يقترب متسللاً إليها مـن علـى بعد ثلاثين يـاردة ويبدو أنها كانـت على يقين أنّها هدفٌ صعـب المنال، فقد أخطـأ البدو التّصويب عليها. وظلت البومة جاثمة في مدى تصويب بندقية بدوي آخر ولـم تطر بعدم اتزان إلا عندما طاشت رصاصته بعيدة عنها.

لاحـظ رفاقي البـدو وجود آثار أقـدام مجموعة مـن الحمير بعد سـاعة وذلك عند مرورنـا بعين ماء زَرقا Zurga التي يبلغ عمقها سـتة وثلاثيـن قدماً والتي تعدّ خزان ماء الموسـرين في الدّوحة. قمنا بتتبع آثار الأقدام الباهتة ببطء وعلى مهل، وقد رأينا على مبعدة قطيعاً كبيراً من النّوق يتزوّد بالكلأ ويرعى ففي هذه المنطقة توجد - بلا شـك - أفضل المراعي وأكثرها خصوبة. أرسلنا طالب لاستكشاف الطّريق من أمامنا وراودت البـدو الأحلام بشـرب الحليب على العشـاء، وعلى الرّغم من عـدم تحقق أمالهم فإنّ طالـب لم يعُد خالـي الوفاض، إذ جلب معه الكثير من التّمر مـن راعي قطيع نوق قَطَر الوحيد. ويبدو لي أنّه قد سـلب الجزء الأكبـر من مخزون طعام هذا العبد البائس، فقد

---

(1) كتب المؤلف: إنّ مغزى هذه الأنباء يشير إلى أنّ الأمن والأمان لا يزال قائماً، والهدنة بين قبيلتي الرّاشد والمَهْرة والمناصير مستمرّة والغدر أو العدوان غير وارد.

سدّ رمق جميع أفراد القافلة في تلك الليلة. لقد كان العطاء والكرم الحاتمي والإيثار حقّاً لكل ضيف وعابر سبيل، وشرعة ومفخرة الصّحراء بغض النّظر عما يتمخّض عنها من نفاد المؤن والجوع والفاقة!

مرّ علينا المساء كئيباً مريراً فقد باءت كل جهودنا، للعثور على عيدان جافة لإشعال حطب للتّدفئة، بالفشل الذّريع ولم نجد مفرّاً من إشعال نار بائسة بالاستعانة بروث الإبل. تساقطت الأمطار رذاذاً لكن عندما صحوت كان غطاءي غارقاً بالماء فاضطررت، كي استطيع تناول إفطاري دون أن ابتلّ، أن استلقي تحت منضدة المعسكر. وبما أنّه آخر إفطار لي في الصّحراء فقد تقبّلت بصدر رحب كل التّقلّبات الجويّة المحتملة.

كنا على وشك الوصول. فتقدّم رفاقي البدو بخطوات رشيقة نشطة وهم ينشدون أناشيد ورود الماء، بينما أصغت النّوق الظّمأى بانتباه وشوق وترقّب لسماع صوت تعرفه تمام المعرفة. لقد تركنا آخر تلّ رملي خلفنا، وبعد خوضنا أمواجاً من الرّمال، رأينا منخفض سهل النّعيجة Na'aija الصّخري الذي كان يمتدّ أمامنا، وقد عقدنا العزم على أن تكون آخر سقاية لنا في ذلك السّهل. لقد انعكست ظلال أبراج قلعة الدَّوحة على صفحة مياه الخليج العربي، وبعد نصف ساعة فُتحت لنا أبواب القلعة. وهكذا، تمّ لنا عبور الرّبع الخالي.





حلوين: مورد ماء عقال



غدير جديد: سبخة أمرة



آخر سقاية ماء لنا عند النّعيجة



حصن شيخ قَطَر في الدّوحة



مجموعة من رجال قَطَر: الشّيخ (في الوسط)، مضيفي الشّيخ
محمّد بن عبد اللّطيف المانع (إلى اليمين)، وصالح



فريقي في الرّحلة

الملحق الأول

الصفات العرقية لعرب جنوبي جزيرة العرب

بقلم السّير آرثر كيث وويلتون ماريون كروغمان[1]

كتب برترام توماس في خطاب أرسله من مسقط في مطلع عام 1930 مخاطباً رئيس معهد الأنثروپولوجيا الملكي التّصريح التّالي: لا يخالجني أيّ شك - لاعتبارات اللغة والتّراث والثّقافة - أنّ ما ورد في قائمتي من رقم 1-8 ينتمون إلى أجناس أخرى غير عربية في جزيرة العرب، وكما أشرت في مساهمتي في دورية المعهد الملكي للأنثروپولوجيا عام 1930، كانت ملامحهم تدل على أنهم ينحدرون من نسل الحاميّين الذين كانوا يقطنون الجانب الآخر من البحر الأحمر ولم تكن كالملامح العربية المألوفة في وسط وشمال جزيرة العرب.

وقد أكد - الكاپتن توماس - مرة أخرى بعد عام في بحثه الثّاني الذي قدّمه للمعهد في شهر يوليو 1931 الصّفات الحاميّة الموجودة في سكان جنوبي جزيرة العرب قائلاً: «بعد خمسة عشر عاماً من التّعامل واكتساب الخبرات والتّجارب مع سكانها في بلاد الرّافدين ومناطق الأردن والخليج العربي، استوقفتني الصّفات الفريدة لسكان وسط جنوبي جزيرة العرب». وقد أورد الكاپتن ريتشارد بُرتون والميجور ميتلاند

(1) كتب المؤلف: كان الدّكتور كروغمان يقوم بالبحث في موضوع الأنثروپولوجيا في معامل كلية الجراحين الملكية حينما بدأت شراكته الموفقة مع السّير كيث فقد كان عندئذ بين عامي 1930-1931 زميل المجلس القومي الأميركي للأبحاث.

ذكر الصّفات العرقية المميزة لسكان جزيرة العرب فقد لاحظ بُرتون أن العرب الذين يسكنون في الصّحراء في شرق الجنوب الشّرقي لجزيرة العرب يمثّلون السّكان الأصليين لشبه الجزيرة الكبرى.

وكان ميتلاند يشاطره رأيه قائلاً: «إنّ عرب جنوبي جزيرة العرب أقصر قامة وبشرتهم داكنة وملامحهم أكثر قسوة وخشونة كما إنهم لا يميلون لإطلاق لحاهم. أجمعت كل المصادر على أنّ عرب جنوبي الجزيرة يمتّون بصلة قرابة إلى الأحباش (الإثيوپيين)، لكن من العجيب أن يكون العرق المصري - الأفريقي هو أصل العرب، بينما سكان الشّمال السّاميين الأكثر مهابة والأعظم شأنا هم عرب بالتّبنّي والإقامة أكثر من الأصل والنّسب. وهكذا فإنّ تجربة الكاپتن توماس الشّخصية قادته ليكوّن رأياً عن الأصول العرقية لسكان جنوبي جزيرة العرب، يماثل إلى حدّ بعيد الرّأي الذي تبنّاه كلٌّ من بُرتون وميتلاند، أعني أنّ بإمكاننا العثور على أقربائهم وأنسباهم من الدّرجة الأولى بين سكان شواطئ البحر الأحمر المطلّة على قارة أفريقيا وليس بين شعوب العرق السّامي القاطنين في شمال جزيرة العرب. وقد وجّه عدّة أسئلة لزملائه في المعهد الملكي للانثروپولوجيا في نهاية بحثه الثّاني، موجّهة لذوي الخبرة والرّأي السّديد، قبل أن يصل لقرار حاسم حول الأصول والطّبيعة العرقية للقبائل غير معروفة الأصل التي قام بزيارتها ودراستها عن كثب وطرح أسئلة مثل: «من هي تلك القبائل ومن أين أتت؟ وهل هم سكان أصليون أم لا؟ وهل تعود جذورهم إلى أفريقيا؟ أم يرتبطون بصلة قرابة مع القبائل الأفريقية؟ أم أن كل هذه الفرضيات والنّظريات منطقية ويمكن إثباتها والدّفاع عنها؟». وسنحاول في هذا الملحق إجابة أسئلة الكاپتن توماس وتسجيل البيانات بقدر ما تسمح به الأدلّة المحدودة التي بحوزتنا. فليس هناك شك أنّ تحت رمال جزيرة العرب ترقد مواد وأدوات سوف تساعد العلماء الذين يبحثون في أصل الجنس البشري في جنوبي جزيرة العرب وتوزّعه وتطوره وأعرافه وأعراقه وعاداته لتقديم إجابات محدّدة وحاسمة على أسئلة الكاپتن توماس وتسليط الضّوء على أصل وتاريخ الإنسان في الشّرق.

وقبل البدء بمناقشة أصل الجنس البشري وكل ما يتعلّق به في جنوبي جزيرة العرب في ضوء ملاحظات وسجلات الكابتن توماس، سنلقي نظرة فاحصة على رأي خبير الأنثروبولوجيا سي جي سيليغمان C. G. Seligman فإنّ جهوده الحثيثة قد هوّنت علينا ذلك الجانب من مهمتنا.

لقد وفّرت إسهامات الدّكتور سيليغمان المتعدّدة في مجال الأنثروبولوجيا الأفريقية، التي جمعها في كتاب صغير ومفيد للغاية عنوانه «أعراق أفريقيا» عام 1930، علينا الكثير من الجهد والعمل الشّاق في هذا المجال[1]. فقد قام عام 1917 بجمع القياسات التي جمعها من القليل من سكّان جنوبي جزيرة العرب الأصليين، ثم قام بفحص عدد قليل من جماجم الموتى من سكان جنوبي جزيرة العرب وقد تم ضمّها فيما بعد لمقتنيات المتحف البريطاني. وتكتسب ملاحظاته ومشاهداته عن الصّفات والطّبيعة العرقية لسكان جنوبي جزيرة العرب قيمة وأهمية خاصّة، وإنّ سيليغمان يعدّ المرجع الرّئيسي عن الشّعوب التي عاشت في ذلك الجزء من أفريقيا الذي يقع على الجهة المقابلة من جزيرة العرب[2] والبحر الأحمر وقناة السّويس التي تضع خطّاً فاصلاً بين موطن الأفارقة وموطن العرب.

لقد قام الدّكتور سيليغمان - وهو يقوم بجمع المعلومات والبيانات المتعلقة بالعرب القاطنين في جزيرة العرب - باكتشاف أذهل السّواد الأعظم من علماء الأنثروبولوجيا. لقد اكتشف استدارة رؤوسهم إلى حدّ بعيد وأنّ قصر الرّأس يعدّ السّمة الغالبة عليهم. وسبب إصابتهم بالذّهول أنّ الشّعوب الأفريقية، من المصريين شمالاً حتى قاطني الأدغال جنوباً، يتّسمون بطول الرّأس بصورة لافتة للنّظر. كما أنّ العرب في شمالي جزيرة العرب والسّكان الأصليين الأوائل يتّسمون بطول الرّأس. كما أن سكان أور Ur الأوائل كانوا من ذوي الرّؤوس الطّويلة. وكان من المتوقع أن

(1) حاشية للمؤلف: الصحيفة الدّورية الصّادرة عن معهد الملكي للانثروبولوجيا عام 1917 المجلد 47 صفحة 214.

(2) حاشية للمؤلف: قام الدّكتور سيليغمان بتلخيص إسهاماته المتعددة في مجال الأنثروبولوجيا الأفريقية في كتاب صغير لكنه غاية في الأهمية بعنوان «أعراق أفريقيا - 1930.

يسود طول الرّأس دون انقطاع أو تذبذب في ذلك الجزء من الكرة الأرضية، الذي يقع بين بلاد الرّافدين شمالاً وومستعمرة القرن في الجنوب. لقد أدّت نشرات الّكتور سيليغمان إلى ضرب المفاهيم الأنثروپولوجيّة السّائدة. وكان سكّان جنوبي جزيرة العرب من ذوي الرّؤوس المتطاولة. إنّ المعلومات والبيانات التي توصل لها الدّكتور سيليغمان تظهر أنّ العكس هو الصّحيح، فالقياسات التي أخذها الكاپتن توماس أثبتت أن رؤوس سكان جنوبي جزيرة العرب من أكثر الرّؤوس استدارة أو تفلطحاً.

يتسم سكّان شمال شرق أفريقيا بطول الرّأس، أمّا بشرتهم فذات صبغيات داكنة: بنّية اللون في حالة المصريين، وسوداء أو شبه سوداء، كما في حالة الصّوماليين والشّعوب الحاميّة النّقية. إنّنا نجد في الهند أيضاً طول الرّأس والبشرة متنوعة الصّبغيات وتتدرّج من البنّي إلى الأسود. إنّ التّشابه كبير بين السّكان الأصليين لشمال شرق أفريقيا والجزء الأكبر من الهند، ممّا يدفعنا للاعتقاد بأنّ البلاد التي تقع بين مصر والهند كان يسكنها - في وقت من الأوقات - عرقٌ بشرته داكنة ورأسه طويل. وكان المدافعون عن تلك النّظرية يتوقّعون أن يجدوا سكان جنوبي جزيرة العرب ذوي بشرة داكنة وشعر صوفي مجعد، بل ويتسمون بقصر الرّأس، خاصة إذا كانوا من نسل السّكان الأصليين الذين نبحث عنهم. ويجب أن نواجه الحقيقة الماثلة أمام أعيننا، وهي أنّ سكان جنوبي جزيرة العرب رؤوسهم قصيرة بصورة لا تدع مجالاً لأيّ شك. ولا نستبعد البتّة احتمال أن يكون قصر الرّأس قد تطور بشكل مستقلّ بين الشّعوب التي تفصل بينها مسافات بعيدة. فلو نظرنا إلى سكان جنوبي جزيرة العرب على أنهم نتاج لتطوّر تعرّضوا له في أوطانهم، فمن البديهي أن نفترض أنّ الشّعب الذي كان يتسم بطول الرّأس في الأصل، أصبح مع مرور الزّمن وعملية التّطوّر، قصير الرّأس. وعلى أيّ حال، عندما نلقي نظرة فاحصة على التّوزيع الحالي للشّعوب قصيرة الرّأس، نلاحظ أنّ قصر الرّأس هي الصّفة المميزة الغالبة على معظم الشّعوب التي تقطن الأراضي الممتدّة في آسيا من أفغانستان، وسلاسل الجبال إلى الشّرق من آسيا الوسطى إلى آسيا الصّغرى وسوريا في الشّرق. وهكذا لا بدّ أن نضع في الحسبان احتمال انتشار قصر

الرّأس من الحزام الشّمالي إلى الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب.

هناك ما يبرّر الطّرح القائل بأنّ صحراء جزيرة العرب الجرداء الموحشة، كانت في عصور البليستوسين وحتى آخر مرحلة من العصر الحجري الحديث في عصرنا الحالي، واحدة من أكثر أجزاء الأرض خصوبة واعتدالاً. ومن المؤكّد أنّ الكثير من العوامل والمؤثّرات التي حدثت خلال تلك المدّة الزّمنية الطّويلة قد أدّت إلى إضعاف سمة قصر الرّأس من مرتفعات آسيا الغربية إلى جهة الجنوب، وقبل زمن طويل من بدأ التّاريخ. إن الحثيين Hittites الذين ربطتهم علاقات مصاهرة محدودة مع الأرمن كانوا ينتمون لحزام قصار الرّأس، وقد يكونون قد نقلوا مستعمراتهم في وقت ما إلى الجنوب. وقد أمدّنا الدّكتور سيليغمان بتفسير مماثل لانتشار قصر الرّأس بين سكان جنوبي جزيرة العرب. فقد افترض أنّ اختلاط دماء سكان بلاد الرّافدين مع سكان الجنوب قد نتج عنه ظهور سمة استدارة الرّأس، بالإضافة للعديد من قسمات الوجه ومن بينها الأنف المحدّب (كمنقار البغاء). وإنّ صلة كل من سكان جنوبي جزيرة العرب والسّكان العرب في الشّمال - سواء من ناحية الصّفات أو الأصل - بالحاميين العرب في الشّمال، هي صلة ضعيفة أصلاً، على الرّغم من أنّ كليهما كان من أصل سامي وكليهما من العرب الأصليين. وقد اعتمد الدّكتور سيليغمان في نظريته على الصّفات المميّزة للجمجمة، أما الكابتن توماس وبُرتون والميجور جنرال ميتلاند، فقد أسّسوا نظريتهم على حقيقة أنّ سمات سكان جنوبي جزيرة العرب والحاميين من حيث البشرة والشّعر والكثير من السّمات العرقية الأخرى متشابهه. وسوف نقوم بتمحيص القيمة العرقية لتلك السّمات لاحقاً.

مهما كان رأينا في الأصول والصّفات العرقية لقبائل جنوبي جزيرة العرب، فلا نملك إلا أن نصنّفهم كعرب. وهناك إجماع بين المراقبين على الإقرار بوجود اختلاف عميق بين العرب في الشّمال والجنوب. وفي الوقت الذي كان فيه الكابتن توماس منهمكاً بقياس رؤوس رجال القبائل في الجنوب، كان السّيد هنري فيلد، أمين قسم الأنثروبولوجيا في متحف فيلد في شيكاغو، يستخدم آلة قياس سماكة وثخانة الرّأس (المسماك) لقياس أبعاد رؤوس أفراد قبيلة من البدو العرب الأصليين في مناطق قيس (تسمّى اليوم كيش، وهي

جزيرة تتبع لإيران في منطقة الخليج العربي) وبلاد الرّافدين المجاورة.

لتوضيح الاختلافات والفروقات بين سكان العرب في شمالي وجنوبي جزيرة العرب في شكل وحجم الرّأس. (الجدول الملحق - الشكل التّوضيحي 1) يمثل بدو جزيرة قيس - الذين يبلغ عددهم 38 بدوياً - الدّائرة البيضاء في ذلك الجدول؛ أمّا الدّائرة السّوداء، فتمثل العرب (40 عربياً) الذين قام الكابتن توماس بدراستهم. وسيدرك القارئ بسرعة النّمط الذي وضع على أساسه ذلك الجدول. تشير الخطوط الرّأسية لطول الرّأس والذي يبدأ من 160 ملمتراً إلى رؤوس غاية في القصر - وينتهي عند 210 ملمترات - رؤوس غاية في الطّول.

ومن ناحية أخرى، تشير الخطوط الأفقية لعرض الرّأس الذي يبدأ عند 120 ملمتراً - رأس غاية في الصّغر - وينتهي عند 160 ملمتراً - رأس غاية في الكبر. والرّجل الذي يبلغ طول رأسه 190 ملمتراً وعرضه 130 ملمتراً مبيّن في الرّسم البياني عند تقاطع الخطين الرّئيسين الأفقيين المتطابقين. تمثل الأربعة خطوط المائلة 70 و 75 و 80 و 85 الحدود الفاصلة بين خمس مجموعات رؤوس مختلفة الشّكل. أما الرّؤوس فوق خط 70 فيبلغ عرضها 70 ٪ أو أقل من نسبة طولها، أي أنها تكون صغيرة للغاية أي مستطيلة الرّأس إلى أقصى حدّ. أمّا الرّؤوس التي تقع تحت خط 85 فيبلغ عرضها نحو 85 ٪ أو أكثر من طولها، أي دائرية الشّكل إلى أقصى حد. يلاحظ في الجدول أنّ عرب جنوبي جزيرة العرب يندرجون تحت مجموعة الرّؤوس الشّديدة القصر وأنّ عرب قيس (ساكني جنوب الفرات) يندرجون تحت مجموعة الرّؤوس الشّديدة الاستطالة. أما الرّؤوس التي تقع بين خطي 75-80 فيمثل عرضها 75 ٪ إلى 80 ٪ من طولها وتشكّل مجموعة متوسطية. يندرج العرب القاطنون في شمال وجنوبي جزيرة العرب تحت تلك المجموعة المتوسّطية كان هناك صوماليون ضمن العرب السّتة الذين خضعوا للدّراسة من جنوبي جزيرة العرب. إنّ الرّؤوس الطّويلة تقع بين خطّي 70-75.

وتشكل مجموعة الرّؤوس شديدة الاستطالة، وهم الرّجال ذوو الرّؤوس التي يبلغ عرضها أكثر من 70 ٪ وأقلّ من 75 ٪ من طولها.

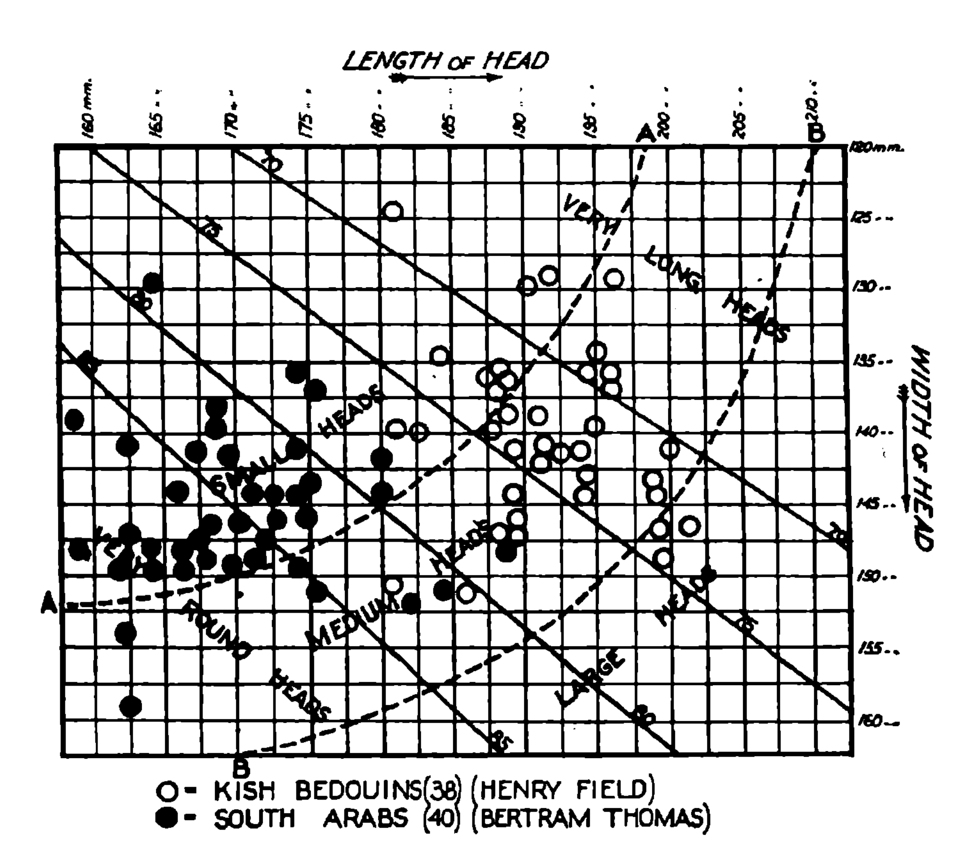


FIG. I. CHART TO SHOW THE SIZE AND SHAPE OF HEAD.
(1) IN TRUE BADAWIN OF THE NORTH; (2) ARABS OF THE SOUTH.

ولا تضم تلك المجموعة أيّ عربي من جنوبي جزيرة العرب، بل تضمّ عرب شمال جزيرة العرب أو العرب الأصليين.

وبالمثل توجد مجموعة الرّؤوس المستديرة أو القصيرة التي تبلغ نسبتها المئوية أو نسبة أقصى عرض × 100 تقسيم أقصى طول أكثر من 80 ٪ وأقل من 85 ٪، ولا يندرج تحت تلك المجموعة سوى اثنين من الشّمال، وينتمي الآخرون للجنوب. وهكذا، إذا قمنا بتلخيص النّتائج الممثلة في الرّسم البياني سنجد أن الأرقام على رأس كل مجموعة كالأتي:

	قصر رأس شديد	قصر رأس	المجموعة المتوسطية	رأس مستطيل	استطالة رأس شديدة
عرب الشمال	0	2	6	22	8
عرب الجنوب	21	13	6	0	0

	Ultra Dolichocephalic.	Dolicho-cephalic.	Meso-cephalic.	Brachy-cephalic.	Ultra-brachycephalic.
North Arabs	8	22	6	2	0
South Arabs	0	0	6	13	21

أمّا بالنّسبة لرؤوس العرب في شمال وجنوبي جزيرة العرب فهما يمثلان طرفي نقيض، فالعرب سكان شمالي جزيرة العرب رؤوسهم شديدة الاستطالة أمّا العرب سكان جنوبي جزيرة العرب فرؤوسهم شديدة القصر. ينحدر العرب سكان شمالي جزيرة العرب من نسل حام بن نوح بنسبة أكبر من عرب جنوبي جزيرة العرب. أمّا بصدد التّناسب بين طول وعرض الرّأس فسنناقش أهمية ملاحق قياسات الرّؤوس بالنّسبة للتمييز العرقي. وحتى ذلك يجدر بنا الإشارة إلى سمةٍ قام الرّسمُ البياني بتوضيحها. فالحجم الحقيقي الفعلي للرّأس يساوي في أهميته شكل وأبعاد الرّأس

عندمـا نتصدّى لبحث ودراسـة العلاقات والصّـلات بين الأعراق، بـل تزيد أهميتهما عندما نرغب في تقييم القدرات العقلية والذّهنية لشعب من الشّعوب. إنّ طول وعرض الـرّأس لا يحدّد حجم الرّأس بصورة دقيقة. أس لكن في الاسـتبيان التّمهيدي الحالي تبرز أبعاد الطّول والعرض سمة استثنائية للعرب، سواء في الشّمال أو الجنوب، وأعني بذلك صغر حجم رؤوسـهم وأدمغتهم. وقد قام أحد أعضاء مجموعتنا بإدخال خطين منحنيين في الرّسم البياني - شكل 1.

تتزايـد أبعاد الـرّأس بصورة مطّـردة من حافة الرّسـم البياني إلى اليسـار ومن حافة الرّسم البياني إلى اليمين. وقد رسمت تلك الخطوط المنحنية لتصنيف لرؤوس لثلاثة مجموعات ترتكز على الحجم فحسب. فالرؤوس التي تقع إلى أعلى والى يسار الخط A, A صغيـرة الحجـم. فيبلـغ حجمها 1325 سـم مكعب أما تلك إلى أسـفل ويسـار الخـط B, B فهـي كبيـرة الحجم - 1475 سـنتيمتر مكعـب أو أكثر. أما الـرّؤوس التي بيـن هذين الخطين فهي متوسـطة الحجم. وعند عقـد مقارنة بين حجم رأس البدو في الشّمال وأبناء القبائل في الجنوب سنلاحظ الآتي:

السّمات العرقية لسكان جنوبي جزيرة العرب:

	رأس صغير الحجم	رأس متوسط الحجم	رأس كبير الحجم
العربي الشّمالي	10	25	3
العربي الجنوبي	33	7	0

	Small-headed.	Medium-headed.	Large-headed.
North Arab	10	25	3
South Arab	33	7	0

ونستنتج من ذلك أنّ رؤوس رجال القبائل الذين أخضعهم الكاپتن توماس للدّراسة والفحص لا تتسم بالاستدارة فحسب، بل أيضاً بصغر الحجم إذا ما تمّت مقارنتها بالبدو الأصليين. يحتل البدو مركزاً منخفضاً نسبياً بالنّسبة لحجم الرّأس، فثلاثة فحسب من الثّلاثة والثّمانين بدوي يندرجون تحت المجموعة العليا، فسعة رؤوسهم أكبر من الرّجل الإنكليزي العادي التي تبلغ نحو 1475 سم مكعب. وعلى الرّغم من أنّ تعرّض البدوي للظّروف الصّحراوية القاسية قد يساعده في تحفيز قدرات عقلية وجسدية معيّنة فإنها لا تطور النّمو العقلي. إنّ جثث الرّجال التي اكتشفها السّيد ليونارد وولي في القبور العتيقة في سومر إلى جنوب الفرات ترجع إلى الألفية الرّابعة قبل ميلاد المسيح، وكانت لرجال رؤوسهم طويلة وكبيرة. لقد أبرز الرّسم البياني الاختلافات الجوهرية بين أشكال وأحجام رؤوس العرب في جنوبي جزيرة العرب تبعاً لقياسات الكاپتن توماس والسّيد هنري فيلد الذي قام بقياس بدو القيس. إنّ تحليلنا ودراستنا لم تساعدنا في الوصول لقرار حاسم حول طبيعة الأصول والعلاقات العرقية بين ساكني جنوبي جزيرة العرب.

إذن نحن بحاجة لتحديد العرق الرّئيسي الذي تنتمي إليه تلك السّلالات الفرعية القاطنة في جنوبي جزيرة العرب التي قام الكاپتن توماس بقياس ورسم رؤوسها. ولنبدأ مع المواطنين الأصليين القاطنين على حافة الجنوب الشّرقي من جزيرة العرب ويمثلهم المواطن العُماني. ويبدو الشّكل الجانبي لوجه أحد العُمانيين في (الشكل 2) فيبدأ رأسه في البروز فوق الأذنين كما تبرز مؤخرة الرّأس بشكل حاد من نهاية العنق وتكون الأذنان شبه ملتصقتين بمؤخرة الرّأس ممّا يذكّرنا بالشّعوب التي تتّسم بقصر الرّأس. إنّ نسبة عرض رأس الرّجل العُماني من طوله تبلغ 82.7 ٪، أمّا أنفه فمعقوف وطويل وبارز كما هو موضح بالشّكل رقم 3 الذي يظهر وجهه كاملاً غير منقوص. ونلاحظ أنّ شفتيه ممتلئتان وبارزتان وتتوزّع اللحية غير الكثّة تحت شفتيه السّفلى وأعلى وجنتيه، وشعره ذو لون أسود كما أنّه غير مجعد. أمّا وجهه فطويل ولون بشرته بني شاحب. يبلغ طول العُماني 5 أقدام وستة إنشات ونصفاً. وهناك في الشّكل التّوضيحي 4 نسخة نموذجية من الشّكل الجانبي للأرمن في آسيا الصّغرى.

وقد قام باختيارها أحد علماء الباثولوجيا النّمساويين لتمثّل سلالة متفرّعة عن العِرق القوقازي. ويبدو فيها رأس الأرمني أكثر ارتفاعاً ومؤخرة الرّأس أكثر تسطيحاً بينما الأنف أكثر بروزاً وساميّةً من نظيره العُماني. وعلى الرّغم من وجود الكثير من الفروق الثّانوية بين الرّجل العُماني والأرمني، فإنّ هناك أوجه شبه في القسمات المذكورة آنفاً ممّا يدفعنا لزجهم تحت العِرق أو السّلالة الواحدة الرّئيسية التي سنختارها لتصنيف ذوي مؤخرة الرّأس المسطحة القاطنين في آسيا الصّغرى. أمّا في الشّكل التّوضيحي 5، فنجد نسخة من الشّكل الجانبي لقبيلة فريدة في مَدراس لدرجة أن ثُرستون اعتبرها إحدى القبائل الأصلية في هذه الفئة. ومرة أخرى تكشف قسمات الوجه الأمامية الأرمينية أنّ التّشابه بين العُماني والمدراسي أقرب وأوسع من تشابهه مع العرق الأرمني الأصيل. لآسيا الصّغرى.

على الرّغم من أنّ آسيا الصّغرى هي الموطن الأصلي للعِرق الأرمني المتفرّع من العرق القوقازي، وهم يتميّزون بمؤخرة رأس مسطحة ورأس مرتفع وأنف بارز معقوف ووجه طويل - في رقعة واسعة من آسيا تمتدّ من جبال پامير إلى المشرق. فكيف نفسّر إذن انتشار قسمات الوجه الأرمينية في عُمان ومناطق معيّنة من الهند، ولا يمكننا أن نعزو ذلك إلى هجرة التّجّار من السّاحل الفارسي منذ قديم الزّمن إلى الهند أو إلى بلد مجاور له يقع على ساحل الخليج العربي. تثبت اكتشافات السّير جون مارشال في وادي السِّند Indus أنّ بلاد الرّافدين وشمال غرب الهند كانت تربطهما علاقات تجارية في وقت مبكر من الألفية الرّابعة قبل الميلاد. ونعتقد أنه، بشكل أو بآخر، تسلل النّاس ذوو الرّؤوس القصيرة الذين يعيشون بين سلاسل جبال آسيا الوسطى وبلاد الشّام إلى الجنوب ووضعوا بذور سماتهم السّائدة في مواقع متنوعة من الخليج العربي وما وراءه. إذا فنحن نتفق مع طرح الدّكتور سيليغمان فيما يخصّ الرّجل العُماني، فقسماته تشبه القسمات الأرمنيّة المنبثقة عن العِرق القوقازي. كما أنه يمتلك أيضا قسمات أخرى اكتسبها من قبائل السّير توماس القاطنة على طول الأراضي السّاحلية الجنوبية لجزيرة العرب.

يجدر بنا أن ننهي مناقشتنا الهادفة لعرض السّمات الحاميّة في سكان جنوبي جزيرة العرب لنقدّم دليلاً وثيق الصّلة بموضوع دراسة الجماجم، فهناك جمجمتان في متحف كلّية الجراحين الملكية لا بدّ أن نقوم بتحليلهما لنوضح اختلاف رأس العُمانيين القصير عن نظيره أرمني الأصل. فتظهر واحدة من الجماجم التي تم العثور عليها في عُمان قسمات وجه أرمينويديّة أصيلة لا جدال فيها.

أمّا الأخرى، التي استخرجها الكابتن توماس من مقبرة في وسط الجنوب من عصر ما قبل الإسلام، فتظهر شكلاً مختلفاً تماماً من قصر الرّأس الذي تتسم به جماجم الأرمن. انظر الشّكلين التّوضيحيين 6 و 8. لقد قام أحد أعضاء مجموعتنا بصياغة التّقرير التّالي:

لقد تمكن الكابتن توماس من الحصول على جمجمة واحدة فقط ينقصها أحد الفكين، وكانت تمثل القبائل في جنوبي جزيرة العرب. وقد تم استخراجها من قبر صخري في جنوبي جزيرة العرب لا يحتوي فعلياً على شيء عدا ذلك سوى التّراب. إنّ أسلوب الدّفن في تجويف داخل الصّخور مبنى من الآجرّ كان سائدا في عصور ما قبل الإسلام، أما في زمننا الحالي فلا يتم اللجوء إليه إلا عندما يتوفّى مسافر ولا يملك رفاقه أيّة وسيلة لحفر قبر ملائم له يتفق والتّقاليد والأعراف السّائدة. وقد كانت الجمجمة تنتمي - في الغالب - لشاب بالغ يتراوح عمره بين 25-30 عاماً. وكانت الصّفات المميزة للجنس لديه غير مكتملة النّمو على الإطلاق. كانت جبهته ملساء ناعمة ومفرق حاجبيه بارز وناتئ بشكل طفيف. أمّا سقف حلقه فصغير والمسافة بينه وبين الحلق ليست كبيرة. وكان الجزء السّفلي من الوجه نحيلاً وقد زاد من هزاله انكماش لثته نتيجة لفقد القواطع الأولى والثّانية على النّاحية اليمنى من الفك.

إنّ تماسك أنسجة المخ والمساحة المحيطة بها غير مسبوق، وهناك أثر ضئيل لانسداد رأسي في الجزء الخلفي منها. ويجب أن نشير هنا إلى المنطقة الأمامية اليمنى من الصّدغ.

إنّ الرّأس قصير طوله 80.12 ونسبة عرض الرّأس 82.1 من طوله ويضاف 8 مليمتر

للطّول و 10 للعرض لحساب ما كان عليه عندما كان حيّاً يرزق. كما أن متوسط النّسبة بين ارتفاع وطول وعرض الجمجمة مرتفع نوعاً ما 86.8 و 74.16 لحساب ما كان عليه عندما كان حيّاً يرزق. إنّ العظم القَذالي (قوس مؤخرة الرّأس) مكتمل النّمو. ويبلغ طول الجزء الخارجي الغضروفي للأذن 53٪ من الطّول الكلي للجمجمة. والجمجمة بيضاوية الشّكل تقريباً لو نظرنا إليها عمودياً مع ملاحظة أنّ نمو أعلى جدار الرّأس الخلفي وقوس العظم القَذالي الأيسر أكثر اكتمالاً.

إنّ الوجه منخفض فالجزء الأعلى منه طوله 49.5 والتّقوّسات الوجنية طفيفة نسبياً وتمتدّ من الفكّ العلوي متجهة لأعلى بصورة تدريجية وتنساب متناغمة مع الحدود الخارجية للجمجمة. إنّ عظم الفك العلوي للوجه قصير للغاية أمّا فتحتا الأنف فمتوسطتا الاتساع 48.5 وصغيرتان وذواتا شكل بيضاوي. وحافة الأنف السّفلية منفصلة بشكل حاد أمّا عظم الأنف فبارز. إنّ جزء الأنف العظمي العلوي متصل بعضه ببعض مشكلاً زاوية حادة بعض الشّيء، وإذا نظرنا إلى الشّكل الجانبي للأنف فلا يبدو بارزاً بشكل ملحوظ. وتتقاطع العظمتان الأماميتان للأنف على ارتفاع منخفض، أمّا ارتفاع محجري العينين فمتوسط (81.5). وهما مربّعا الشّكل، ومائلان بشكل طفيف، وناتئان بشكل ظاهري جانبي.

الحنك صغير جداً وضحل، وإهليلجي الشّكل. وجميع الأسنان غير موجودة، والأسنان القواطع العليا اليُمنى فُقدت قبل الوفاة، بينما الأخرى سقطت بعد الوفاة.

الوجه برمّته سَويّ الفك (بمعدّل 88.3).

وبغية التّأكيد على فرادة هذا النّوع، سيكون من الملائم مقارنته مع نوع جمجمة شخص عُماني محفوظة في مُتحف الكلّية الملكيّة للجرّاحين، على اعتباره يمثّل تأثيراً «أرمينويدياً» محتملاً في جنوبيّ جزيرة العرب (انظر الشّكلين 7 و 9).

هذه الجمجمة، الكاملة بفكّها الأسفل، هي جمجمة ذكر بالغ له من العمر قرابة خمسة وعشرين عاماً. ودروز القحف بها جليّة ومتوسّطة التّركيب، والدّرز اللامدي

(على شكل حرف لامدا اليوناني) هو الأكثر تركيباً، يليه الإكليل، والدّرز السّهمي بسيط تماماً. ومواصفات الجنس فيها عموماً ضعيفة، ولو أنّها ليست باهتة كما في الجمجمة السّابقة؛ والحواف فوق الحجاجيّة وعظم القمحدوة ليست واضحة بشكل قوي، والعظام الصّدغيّة أدعى إلى الصّغر غير أنّ عظم المقطب بارز إلى حدّ ما.

الجمجمة مدوّرة بشكل جليّ، وسويّة الفكّ (بمعدّل 86.9، وتم تصحيحه إلى 88.7)، وهي مرتفعة وسويّة الفك (معدّل 84.1 وتم تصحيحه إلى 80.2). ومع ذلك فالصّفة الأكثر بروزاً هي القَذال المسطّح بشدّة، بحيث أنّ الطّول ما بعد التّقلّص الأذيني اللّيفي للجمجمة لا يتجاوز 45 بالمئة من الطّول الكلّي. ولدى مشاهدتها من جهتها الشّاقوليّة، فإنّ الجمجمة مدوّرة بشكل غير متناظر، حيث أنّ المنطقة الفصّيّة الجداريّة اليسرى أكبر من اليمنى.

الوجه طويل، والمعدّل الأعلى للرّأس يبلغ 93.7. والأقواس الوجنيّة قويّة، ولكنّها لا تنتأ ما وراء محيط الجمجمة لتعطي «عظاماً وجنيّة مرتفعة». بل هي ترتفع بشكل باتر من عظم الفك الأعلى، وتجتاح أفقياً، وهي مثلومة عميقاً عند الدّرز الفكّي العلوي. وفوهة الأنف ضيّقة، وتشكّل زاوية حادّة، وهي ناتئة عند النّظر إليها من جهة الطّرفيّ. والوصلة الأنفيّة غير منخفضة. ومحجرا العينين عاليان وشكلهما hypsiconchic (89.7)، وفيما هما مائلان قليلاً عند طرفيهما، فهما ناتئان بقوّة عند حواشيهما الجانبيّة الطرفيّة.

الحنك يميل إلى أن يكون بشكل U وله عمق متوسّط. والأسنان صغيرة، وبشكل خاص الرّحى الثّالثة.

والوجه بأكمله سويّ الفك (بمعدّل 89.4).

وللفك الأسفل كتلة متينة وفرع صاعد عريض. والثّلم السّيني ضحل والنّتوء التّاجي يبرز لكن قليلاً ما فوق مستوى النّهاية المستديرة للعظمة (اللّقمة). وعظم الذّقن نام بشكل جيد. وللقوس شكل U والأسنان صغيرة. وللرّحى الأولى نتوء خامس بدائي، بينما الثّانية والثّالثة لهما شكل +.

6-088 HASIK, SOUTH ARABIA

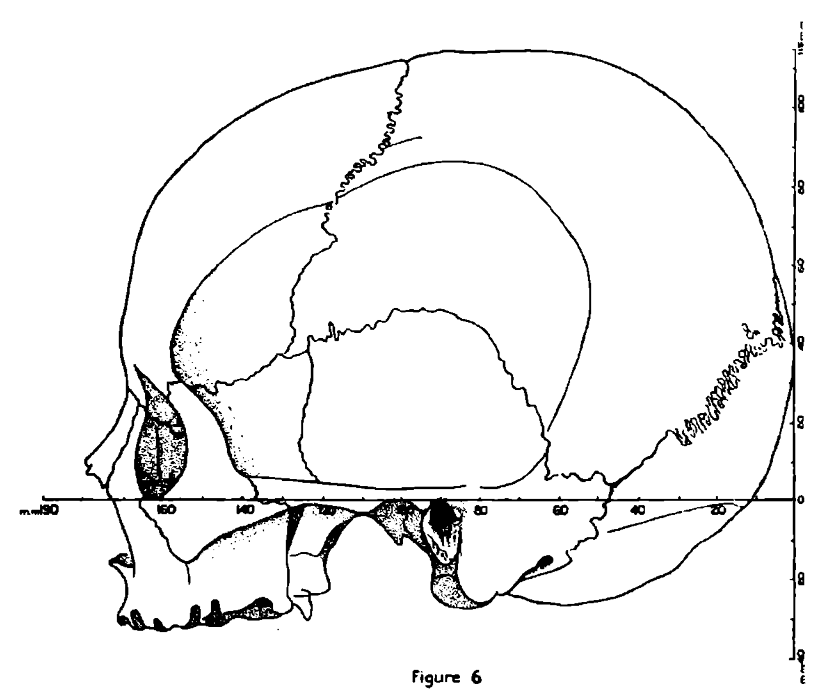


FIG. 6. PROFILE OF SKULL OF SOUTH ARAB (HASIK) TWO-THIRDS NATURAL SIZE.

6·093 OMAN

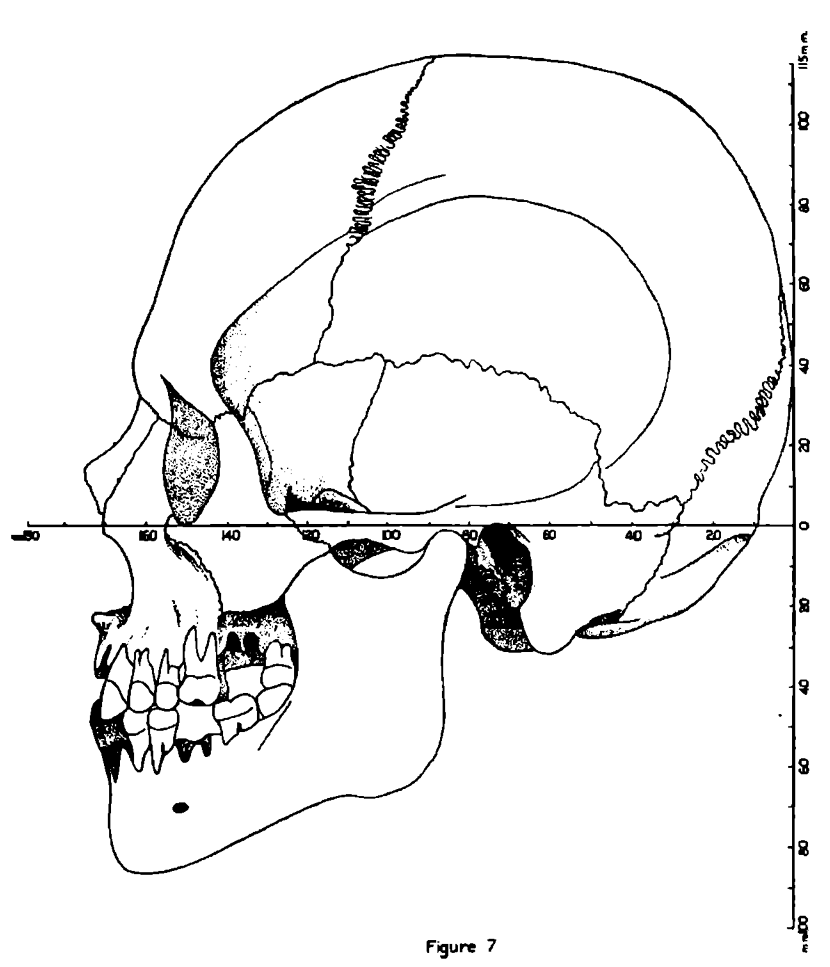


FIG. 7. PROFILE OF SKULL OF OMANI (ARMENOID TYPE) REDUCED TWO-THIRDS NATURAL SIZE.

APPENDIX I

CRANIAL MEASUREMENTS

Skull	L	B	Ht.	OH.	FL.	UFL.	BIZY.	NL	NB	OW	OH	BN	BA	Capacity.
6·088 Hasik	171·0	137·0	133·5	114·5	—	61·0?	123·2	47·0	22·8	39·5[1]	32·2	94·5	83·5	1365 cc
6·093 Oman	162·8	141·5	137·0	116·5	119·0	71·0	127·0	56·5	24·6	39·0[2]	35·0	113·0	101·0	1300

CRANIAL INDEXES

Skull	B/L	H/L	FL/BIZY.	U-F-L/BIZY.	NB/NL	OH/OW	BA/BN
6·088 Hasik	80·12	76·8	—	49·5	48·5	81·5	88·3
6·093 Oman	86·9	84·1	93·7	55·9	43·6	89·7	89·4

إنّ قياسات الجمجمة السّابقة والجداول تعرض للفروقات الأساسيّة ما بين الجمجمتين، ونموذج حاسِك يقارب النّموذج العربي الجنوبي، بينما العُماني فهو نموذجي كنوع متّصف بتأثير أرمينويدي. وممّا يدعو للاهتمام ملاحظة أن تسنّم الرّأس في الجمجمة العُمانيّة قد تأتّى بشكل خاص من العُمق دون الأذني، حيث أنّ الجمجمتين لهما تقريباً نفس الارتفاع دون الأذني الشّاقولي. ولذلك فإنّ سعة المُخيخ في النّموذج العُماني أكبر.

* * *

من خلال قياسات الدّكتور كروغمان والمقارنات يتبيّن بأنّ استدارة الجمجمة العُمانيّة تختلف بعدّة جوانب مهمّة عن العرب الجنوبيّين الآخرين. ففي الجمجمة العُمانيّة والأرمنيّة يعود القِصر إلى تسطّح كبير في القَذال (مؤخّر الرّأس) وتقلّص القسم الأذيني اللّيفي للجمجمة. أمّا لدى العرب الجنوبيّين فإنّ القِصر لا يعود إلى تسطّح القسم الأذيني اللّيفي وقصره. ومع ذلك فإنّ علينا أن نقرّ بأنّه حتى في قبائل أواسط الجنوب - ثمّة أفراد لهم قَذال عالٍ ومستقيم، وأنف أقنى يشبه المنقار، ولذلك

فـإن كان التّأثير الأرمينويدي يوجد أقلّ بكثير فـي القبائل التي فحصها الكاپتن توماس ممّا هو لدى العُمانيين، فمع ذلك لا يبدو من المحتمل أنّ شـعباً ذا سـمات أرمينويديّة كان فـي فترة سـابقة قد امتزجت دمـاؤه بدماء أجداد القبائـل الجنوبيّة. وهذا الإقرار لا يعني بأنّنا نصنّف العرب الجنوبيّين ضمن الأرومة الأرمينويديّة القوقازيّة.

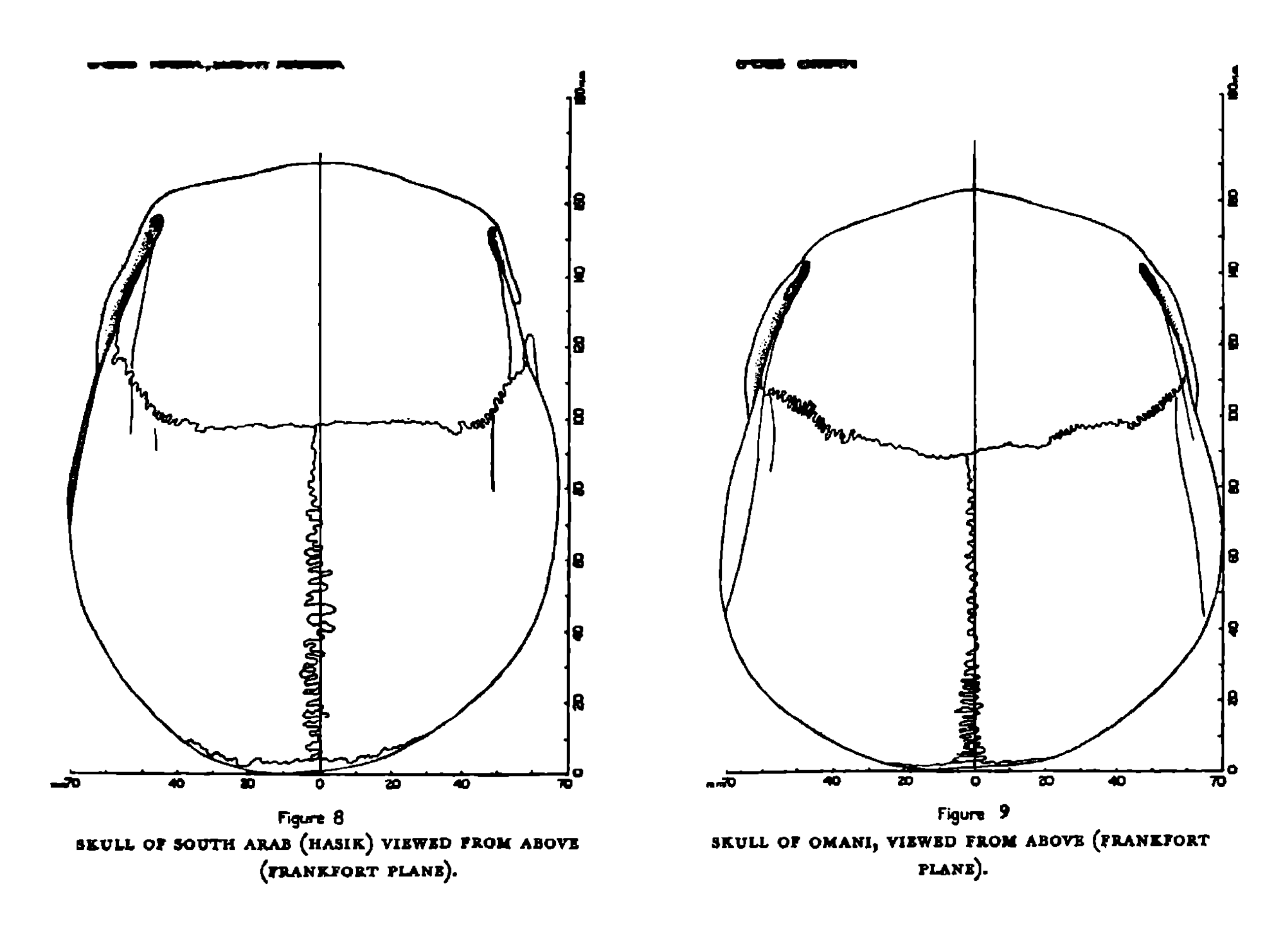


Figure 8
SKULL OF SOUTH ARAB (HASIK) VIEWED FROM ABOVE (FRANKFORT PLANE).

Figure 9
SKULL OF OMANI, VIEWED FROM ABOVE (FRANKFORT PLANE).

قبـل المتابعة إلى نقاش القسـمات العِرقيّة التي تكشّـفت في صـور الكاپتن توماس الفوتوغرافيّـة للعرب الجنوبيّين، من الملائم أن نسـتعرض نـوع الدّليل الذي ينبغي أن يقودنا في تحديد مكان الشّـعب المكتشف حديثاً في أيّ مخطّط للتّصنيف العِرقي. إنّ علم الأنثروپولوجيا المحترفين قد أعطوا بشـكل غير واعٍ الانطباع بأنّ العِرق البشـري يمكن الجزم بتصنيفه فقط عن طريق قياس أبعاد الرّأس، والجسدِ، ولون البشرة، وبنية الشّـعر - باحتسـاب الجداول، الخ. والآن إن كنّا بصدد تأسيس نظـام علمي للمعرفة فيما يتعلق بالأعراق - وهو نظام يمكن لأي عامل أن يضيف إليه حصّته، فعندها ينبغي القيام بقياسـات صحيحة باسـتخدام الأدوات. ولكن ينبغي لنا ألا ننسى على الإطلاق بأنّ أيّ إنسـان يولد في هـذه الدّنيا هو عالم أنثروپولوجيـا بالفطرة - ودارس لأصناف البشـر. نحن لسـنا بحاجة لأيّة مسـاعدة تقنية لتمييز الزّنجي أو الصّيني أو الأوروپي أو البوشـمان، إلـخ، عندما يمرّ هـؤلاء أمامنا في الطّريـق. بل إنّ لمحة خاطفـة من العين تكفـي لقياس مئة من القسـمات التّشـخيصيّة. وإنّ المكتشـفين والرّحّالين قد أضحوا خبـراء على نحـو مدهش بالتّمييـز بالنّظر أفراد القبائل والشّـعوب، حيثمـا التقوا بهم، وبمجـرّد أن يلمحوهم يمكن لهـم غالباً تصنيفهم إلى مواطنهـم الأصليّة. لا يمكن لنا أبـداً أن نأمل في أن تسـمح لنا طرائقنا التّقنيّة بنتائج جدّ دقيقـة وجدّ موثوقة في تحديد الهويّـات العِرقيّة بالقدر الذي يتوصّل إليه الرّحالون المسـتندون إلى مجرّد حواسـهم وتخمينهـم. على سـبيل المثال، يورد الكاپتن توماس رأي سُـلطان مسـقط لتأكيد هذا الجدال بأنّ صلات القُربى للعرب الجنوبيّين تتصل بشـمال شـرق أفريقيا أكثر منها مع شـمالي جزيرة العرب. ومثل هذا الرّأي يستحق الأخذ بعين الاعتبار. من يوم إلى آخر كان السّلطان يقوم بتعريفات عرقيّة، وهو ذو خبرة واسعة بالأقوام التي تقطن الأراضي السّـاحلية مـن زنجبـار إلى بومبـاي. ومن خلال هـذه التّمرينات على تلـك المهارات الطّبيعيّة تمكّن الكاپتن توماس من استنتاج أنّ العرب الجنوبيّين ينبغي تصنيفهم ضمن الأعـراق الحاميّة وليس السّـاميّة للبشـريّة. وإنّ مسـحاً لصـوره الفوتوغرافيّة يمكن أن يقودنـا إلى دعم اسـتنتاجه. إنّ العربي الجنوبي يقدّم لنا خليطـاً غريباً من المواصفات. شعره الأجعد، ووجهه الذي يخلو غالباً من شعر اللّحية، وبشرته ذات اللّون الدّاكن -

وتكاد تكون سوداء، جسمه الصّغير وبعض قسمات وجهه تذكّر بالأعراق الموجودة في الأقسام المجاورة من أفريقيا: الصّوماليّون، الدّناكِل، الهَدَندوَة، المصريّون - بما يشمل عصر ما قبل السّلالات الحاكمة، وعصر السّلالات، والوقت الحاضر. ولكنّ هناك عديداً من القسمات الأخرى التي هي قوقازيّة، أو لنكن أكثر تحديداً، قوقازيّة ساميّة. إنّ العيون الفاتنة الكبيرة الدّاكنة تُصادَف في شمالي جزيرة العرب كما في الجنوب. وقسمات الوجه وتعابيره، والأنف والشّفاه - تقريباً بأكملها - هي قوقازيّة. وعلى الرّغم من ذلك، فبينهم وعلى الأخصّ في سنّ الطّفولة، نصادف قسمات تذكّر بما هو موجود في جنوبيّ الهند. وبعض النّساء حاميّات في سمات وجوههنّ، ومع ذلك فهناك، كما سنبيّن حالياً، أفراد موجودون في الجنوب ذوو سحنة بوجه مفلطح كالذي نراه في العادة في بلاد فارس وأفغانستان، وفي پامير والوديان الواقعة على السّفوح الغربيّة للهيمالايا. إنّ العربي الشّمالي (البدوي) يبدو للعين المدرّبة قوقازياً أو ساميّاً قوقازياً بالكامل. أمّا العربي الجنوبي بالمقارنة فهو لا أكثر من نصف قوقازي، ونصفه الآخر حامي - أو درافيدي Dravidian.

عندما يصادف علماء الأنثروپولوجيا شعباً يملك سماتٍ من خليط من الأعراق، فإنّهم على الفور يميلون إلى افتراض أنّهم مهجّنون أو مولّدون من أعراق وأصول مختلفة. إنّ مجرّد ظهور السّمات الأرمنية في السّكان الأصليين لجنوبي جزيرة العرب يعضد تلك الأطروحة. وعلى الرّغم من إقرارنا باختلاط عرقي بالأرمينيين فما زال علينا تفسير وجود سمات حاميّة في جنوبي جزيرة العرب. وعلينا الآن بناء نظرية جديدة لتساعدنا على فهم تشابه العرب في جنوبي جزيرة العرب والسّكان الأصليين في دول أفريقيا المجاورة من ناحية وسكان الهند الأصليين من ناحية أخرى. وبالإضافة لذلك ينبغي لنا تفسير ظهور السّمات الأرمنية بينهم. إنّ المعلومات والبيانات التي أمدّنا بها الكاپتن توماس عقب صولاته وجولاته الجريئة في قلب مجاهل أفريقيا تعضد النّظرية التي سنقوم بعرضها الآن.

إنّ لغز الأنثروپولوجيا الحديثة يكمن في أعماق الحزام الأسود للجنس البشري

الـذي يبـدأ في أفريقيا ويضمحلّ بين سـكان جـزر ميلانيزيا في المحيـط الهادي، التي تفصل بين غينيا الجديدة وأوستراليا. يوجد في أقصى طرفي الحزام الأسود في أفريقية وميلانيزيـا أناس بشـرتهم سـوداء وشـعرهم صوفي أجعـد ولا لحية لهـم تقريباً، كما أنّ فكّهـم بـارز ورأسـهم طويل. إنّـه من غير المنطقـي أن يأتي هؤلاء الزّنـوج - الذين تفصـل بينهـم الآن مسـافات بعيدة - من أصـول مختلفة مسـتقلة. لذا نفتـرض أنّه في وقـت من الأوقات قام السّـكان الأصليون للحزام الزّنجي بعبور العالم العتيق وشـغل الأراضي الواقعة في الوسط مثل بلوشستان والهند وجنوب شرق آسيا والفليپين وجزر المالاوي. كما أننا نفترض أنّ تلك الأجزاء الواقعة في وسـط الحزام الزّنجي الأصلي قد مرّت بعملية تحوّل أدّت إلى زيادة تأثير الشّعوب الحامية في أفريقيا وأبناء عمومتهم في جنوب الهند وشـعوب الهند ذات البشـرة الدّاكنة. ومفاد نظريتنا أنّه كان يشغل شبه جزيرة العرب في وقت من الأوقات شـعب يجمع بين الصّوماليين من ناحية وشـعوب جنـوب الهنـد من ناحية أخرى. ثـم تم اختراق الحزام الأسـود الكبيـر مرتين من جهة الشّمال. فبدأ العرق المغولي الذي نشأ إلى شمال الهيمالايا باختراق جهة الجنوب في جهة الجنوب الشّـرقي من آسـيا وأرخبيل المالاوي وصولاً إلى جزر المحيط الهادي، وقام بطمس شعب الحزام الزّنجي الأصلي -باستثناء المناطق المعزولة - وعزل شعب الهند من شعوب ميلانيزيا. كما أعقب ذلك اختراق آخر قام بفصل - بالمعنى العرقي - الهنـد عـن أفريقيا. إنّ الدّليل الهزيل الذي بمتناول أيدينا يقودنا إلى الاعتقاد بأنّ العرق القوقازي نشأ في مرتفعات آسيا الغربية التي تعدّ همزة الوصل بين مرتفعات الهيمالايا وسلاسل الجبال في آسيا الوسطى. لقد اخترق العرق القوقازي الجنوب وتسلّل داخل جزيـرة العـرب[1] والأراضي التي تربط بـلاد الرّافدين بالپَنجاب وفارس وبلوشسـتان وأفغانستان. وقد حدث الاختراق القوقازي - على الأرجح في وقت متأخر من العصر

(1) هذا الكلام وفق المعطيات الأنثروولوجيّة الحديثة غير صحيح، والنّظريّة الحديثة تقول العكس، أنّ أصل الإنسان انطلق من أفريقيا الوسطى قبل 200 ألف سنة، وبدأ يهاجر باتجاه الشّرق والشّمال وليس العكس. فبالتالي لا يمكن أن نقول بأنّ العرق القوقازي تغلغل جنوباً وبدأت تظهر آثاره على الأقوام هناك.

الپليستوسيني – في وقت كانت أراضي جزيرة العرب خصبة ومليئة بالموارد المائية أي كانت قبلة للصّيادين المغامرين. وإذا صحّت نظريتنا فيجب علينا أن نجد في أقصى الجنوب – فضلاً عن أيّ مكان آخر – دلائل وآثار السّكان الحاميّين الأصليين لجزيرة العرب. ومن التّفسيرات المنطقية أنّ سكان أقصى جنوب شبه الجزيرة تشبّعوا بالدّماء الحاميّة للسّكان الأصليين للمنطقة قبل هجوم الغزاة القوقازيين بوقت طويل، أو بتعبير آخر كانت الشّعوب الأصلية الحاميّة قد امتزجت وتشبّعت بدورها بدماء الغزاة. وتساعدنا هذه النّظرية، على الأقل، على تعليل السّمات العرقية التي لاحظها الكاپتن توماس في عرب جنوبي جزيرة العرب. وقد توصّلنا لنظريتنا قبل أن تصبح ملاحظات وأطروحات الكاپتن توماس في متناول أيدينا.

إذن كيف لنا أن نعلّل انتشار الرّأس المستدير بين سكان جنوبي جزيرة العرب؟ فعلى الرّغم من أنّ مؤخرة رأسه غير بارزة وغير مسطّحة مثل العرق الأرمني فإنّها شديدة الاستدارة! إنّ جنوبي جزيرة العرب يعد مركزاً لذوي الرّؤوس المستديرة في وسط صحراء شاسعة يطغى عليها ذوو الرّؤوس المستطيلة. ومن المستحيل أن تكون استدارة الرّأس ناجمة عن تطور ذاتي على الأرجح – إنّ هذه السّمة واردة من الشّمال. والسّؤال الذي يطرح نفسه هو هل كان الغزاة القوقاز الأصليون لشبه جزيرة العرب مستديري الرّأس؟ إنّ الدّلائل المستخرجة من القبور العتيقة في بلاد الرّافدين تدحض هذا الطّرح! فالسّكان الأوائل لبلاد الرّافدين – على حدّ علمنا – كانوا ذوي رؤوس طويلة وكبيرة الحجم. ومن المحتمل أنّ موجات الغزو لجنوبي جزيرة العرب قد جاءت من جهة الأراضي على الجانب الشّرقي للخليج العربي وخليج عُمان، وليس من الأعماق الشّمالية لشبه جزيرة العرب. فإلى شمال تلك الأراضي يقع المركز الرّئيسي للقوقازيين ذوي الرّؤوس القصيرة. وسوف نقوم بالتّنقيب عن أصل استدارة رؤوس سكان جنوب الجزيرة. وليس في أرمينيا. إنّ الجندي اليافعي الذي يجلس القرفصاء في الصّف الأمامي على يسار القارئ يعرض قسمات وجه نصادفها عادة في البلاد شرق وشمال الخليج العربي.

وهكذا أتممنا مناقشة كافة النّظريات والأطروحات وينبغي لنا أن نبحث الجانب الأنثروبولوجي الأكثر أهمية كالسّجلات التي قام الكابتن توماس بتدوينها عن عرب جنوبي الجزيرة - القياسات والرّسوم بصورة خاصة. والجزء اللاحق من التّقرير قام أحد أعضاء جماعتنا بصياغته ويتحمّل كلٌّ منهما - عضو جماعتنا والكابتن توماس - مسؤولية ما توصّلا إليه من نتائج.

* * *

إن المعلومات والبيانات التي قام برترام توماس بوضعها تحت تصرفنا ذات قيمة كبيرة ليس لأنها تفسر المعضلة العرقية المحيّرة فحسب، بل لأنها تلقي أيضاً الضّوء على سلالات نتجت عن الاحتكاك العرقي، وخبايا التّطوّر الإنساني. بل إنّ قيمتها الكبيرة تكمن في أنها تتعرّض لمشاكل هامة لا يمكن حلّها ألا بالبحث اللاحق الشّامل.

لقد تم أخذ طول وعرض الرّأس فقط، ويقاس الطّول من مفرق الحاجبين إلى أعلى عظمة في مؤخرة الرّأس، أمّا العرض فيقاس من أعرض منطقة في الوجه. والنّسبة المئوية لمعدل طول وعرض الرّأس النّاتج ما زالت الطّريقة الفضلى لعقد المقارنات العرقية. ويقوم التّقرير ببحث ودراسة قياسات 42 حالة فقط، 37 منهم من البالغين وخمسة من الأطفال. وعلاوة على ذلك، فقد قمنا بتقسيم 42 حالة على 10 قبائل: الصّومالية: 6 - اليافعي: 5 - المشايعة: 1 - المَهْرة: 5 - القَرَا: 7 - الشِّحري: 9 - الكثيري: 4 - بطحري: 1 - حراسيس: 1 - وعُماني: 3. إن النّتائج التي تم التّوصّل إليها غير حاسمة. وتظلّ حقيقة أنّ ما بحوزتنا من معلومات ووسائل ذات أهمية قصوى، فهي على الرّغم من محدوديتها تقدّم مفاتيح عديدة لتحديد الأصول العرقية لعرب جنوب الجزيرة. ولو درسنا مقاييس الرّأس بطريقة موضوعية فسنصل لتصنيف تقريبي تدريجيي لذوي الرّؤوس الطّويلة والمستديرة، ثم تغفل النّسب التّقريبية التي لعبت دوراً في تكوينها. وغنيّ عن الذّكر أنّ استدارة الرّأس تختلف في أبعادها من شعب لآخر. فالشّعب الأول ربما تكون سبب استدارة رأسه زيادة قصر الجمجمة، أمّا الثّاني فسببه زيادة عرض الجمجمة. وهكذا نجد أنّ التّوصّل للأبعاد المطلقة مهمّ

للغاية للقيام بتحليل مفصّل لشكل الرّأس والجمجمة.

إنّ كل أعضاء قبائل جنوبي جزيرة العرب الذين قام برترام توماس بقياس رؤوسهم، باستثناء الصّوماليين، رؤوسهم قصيرة، ممّا يؤكد البحوث المبكرة التي قام بها البروفسور سي جي سيليغمان[1].

إنّ قياسات معدّل طول وعرض الرّأس والنّسبة المئوية بينهما كالآتي: تقسم القبائل وفقاً للموقع الجغرافي الذي يمتدّ من الغرب إلى الشّرق لأسباب سنوضحها لاحقاً:

قائمة بالقياسات التي أخذها برترام توماس

للقبائل في جنوبي جزيرة العرب

LIST OF MEASUREMENTS OF SOUTH ARABIAN TRIBES MADE BY BERTRAM THOMAS

Group.	*Age.*	*Stature.*	*Length.*	*Breadth.*	*Index.*
Somali:					
1	20	5′ 4¾″	163	130	79·75
2	20	5′ 4½″	175	137	78·28
3	20	5′ 4½″	169	138	81·65
4	30	5′ 8½″	174	142	81·61
5	32	5′ 8½″	188	147	78·19
6	36	5′ 10″	180	144	80·00
Averages		5′ 6¾″	174·83	139·66	79·91

(1) سيليغمان «السّمات الجسدية للعرب» عام 1917 انظر ص 214–37

Group.	Age.	Stature.	Length.	Breadth.	Index.
Yaf'i:					
1	20	5′ 2¼″	184	151	82·09
2	22	5′ 2½″	165	142	86·06
3	23	5′ 4″	174	137	78·73
4	25	5′ 2½″	180	141	78·33
5	28	5′ 5½″	173	144	83·23
Averages		5′ 3¼″	175·20	143·0	81·68
Masha'i:					
1	40	5′ 4¾″	174·00	150·00	86·20
Mahra:					
1	20	5′ 3″	167	148	88·62
2	23	5′ 5″	163	148	90·79
3	27	5′ 3¾″	175	143	81·71
4	27	5′ 5″	167	144	86·22
5	34	5′ 8″	172	148	86·04
Averages		5′ 5″	168·80	146·20	86·67
Qara:					
1	9[1]	3′ 11½″	158	148	93·67
2	11	4′ 11½″	163	141	86·50
3	12[2]	4′ 8¾″	168	140	83·33
4	15	5′ 7″	162	154	95·06
5	33	5′ 9″	168	146	86·90
6	35	5′ 4″	165	150	90·90
7	40	5′ 5″	168	147	87·50
Averages		5′ 6¼″[3]	164·57	146·57	89·12

[1] Mahra mother. [2] Son of seven. [3] 1 to 3 excluded.

Group.	*Age.*	*Stature.*	*Length.*	*Breadth.*	*Index.*
Shahari:					
1	18[1]	5′ 3¾″	164	150	91·46
2	20	5′ 2″	164	150	91·46
3	24	5′ 3½″	168	148	88·09
4	30	5′ 1″	173	146	84·39
5	33	5′ ¼″	170	146	85·88
6	40	5′ 8″	181	151	83·43
7	40	5′ 4″	175	151	86·28
8	47	5′ 5″	162	158	97·53
9	60	5′ 0″	171	143	83·59
Averages		5′ 3½″	169·77	149·22	88·12

[1] Son of nine.

Group.	*Age.*	*Stature.*	*Length.*	*Breadth.*	*Index.*
Al Kathiri:					
1	11	5a- 4′ 6″	153	138	90·19
2	35	5′ 6″	170	148	87·06
3	35	5′ 5″	163	150	92·02
4	35	5′ 5″	163	150	92·02
Averages		5′ 5½″[1]	162·25	146·50	90·32

[1] 1 excluded.

Group.	*Age.*	*Stature.*	*Length.*	*Breadth.*	*Index.*
Bautahari:					
1	40	5′ 7″	182·00	144·00	79·12
Harasis:					
1	22	5′ 1½″	174·00	145·00	83·33
Omani:					
1	21	5′ 4¾″	167	144	86·23
2	26	5′ 10″	171	148	86·55
3	47	5′ 6½″	174	144	82·76
Averages		5′ 7″	170·66	145·33	85·18

APPENDIX I

TABLE I

Tribe.	*Length.*	*Breadth.*	*Index.*
Somali . .	174·83	139·66	79·91
Yaf'i . .	175·10	143·00	81·68
Masha'i . .	174·00	150·00	86·20
Mahra . .	168·80	146·20	86·67
Qara . .	164·57	146·57	89·12
Shahari . .	169·77	149·22	88·02
Al Kathiri . .	162·25	146·50	90·32
Bautahari . .	182·00	144·00	79·12
Harasis . .	174·00	145·00	83·33
Omani . .	170·66	145·33	85·18

الجدول رقم ١

القبيلة	الطول	العرض	النتائج
الصّومالي	174.83	139.66	79.91
اليافعي	175.10	143.00	81.68
المشايعة	174.00	150.00	86.20
المَهْرة	168.80	146.20	86.67
القَرَا	164.57	146.57	89.12
الشّحري	169.77	149.22	88.02
الكثيري	162.25	146.50	90.32
البطحري	182.00	144.00	79.12
الحراسيس	174.00	145.00	83.33
العُماني	170.66	145.33	85.18

يتيح لنا الجدول تحليلاً أكثر دقة وحذراً للجماجم في جنوبي جزيرة العرب - قصيرة الرّأس. يتحوّل الرّأس المتوسط غرباً إلى قصر الرّأس الملحوظ كلّما اتجهنا شرقاً ثم يتناقص قليلاً في أقصى الشّرق. إنّ تذبذب طول الرّأس يكتسب قدراً كبيراً من الأهمية. ومن الواضح أنّ هناك ثلاثة مجموعات: الغربية والوسطى والشّرقية. أمّا

المجموعة الأولى والثّالثة فتتساوى في طول الرّأس، وأمّا الثّانية فيقلّ طول الرّأس فيها إلى حدّ بعيد. إنّ تأثير المجموعتين يعزّز زيادة طول الرّأس ويؤثر سلباً على النّاس الأوائل الذين يحتمل أنهم ورثوا قصر الرّأس من أسلافهم. أمّا عرض الرّأس، فلا يبدو أنّه طرأت عليه تغيرات كبيرة باستثناء المجموعة الصّومالية التي من الواضح أنها تنتمي لعِرق مختلف. ولقد وضعنا يدنا على أصل المشكلة، وهو كيفية فكّ شيفرة التّشابك والتّداخل والتّمازج بين الأعراق والسّلالات المتعدّدة التي تركت آثارها على التّنوع الواضح في شكل الرّأس والجمجمة. ومن الثّابت أنّ عرب شمال جزيرة العرب طوال الرّأس بما يتفق مع الخطوط العريضة للسّلالة السّامية. ولكنّنا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار احتمال أن يكون العربي من جنوب الجزيرة يمثّل سلالة شمالية تأثرت بغُزاة قصار الرّأس. وقد منحنا السّيد هنري فيلد امتيازاً حصرياً بالسّماح لنا بالاطلاع على مجموعته التّصويرية الفريدة والنّادرة لسلالات بلاد الرّافدين والعرب حول قيس في الخليج العربي وبدو البايجو Baiju الرُّحّل. إنّ عرب جنوبي جزيرة العرب يشبهون السّلالة الشّمالية في كل تفاصيل وقسمات الوجه باستثناء الأنف الذي يبدو أحياناً كأنف السّاميين. إنّ مقارنة قياسات الجماجم الفعلية الموضحة في جدولنا (شكل 1) هي شغلنا الشّاغل حالياً. لقد قمنا للتّو بتوضيح الاختلاف والتّباين الملحوظ في تصنيف السّلالات الشّمالية والجنوبية لجزيرة العرب. وتحتلّ مجموعة جنوبي جزيرة العرب الجزء الخاص بالرّؤوس الصّغيرة في الجدول - مع وجود القليل من الاستثناءات بالطّبع. ونلاحظ أن الفارق الرّئيسي يكمن، دون أدنى شك، في الحجم، فحجم رأس العربي من شمال جزيرة العرب كبير نسبياً، أمّا العربي من جنوبي الجزيرة فحجم رأسه صغير، ومن المستبعد انتمائهما لأصل مشترك واحد ما لم نفترض أنّ رجحان كفّة قصار الرّأس تزامن مع تناقص طوال الرّؤوس نتيجة للاختلاط بسلالة قصار الرّأس. ولكننا نستبعد ذلك لأن الجمجمة الارمنية التي تتّسم قطعاً بقصر الرّأس تعدّ أكثر طولاً بدرجة كبيرة من جمجمة عرب جنوبي جزيرة العرب. وقد أشرنا في الجدول 1 إلى تزايد القبائل في غرب الجزيرة التي يقلّ فيها قصر الرّأس لصالح طول الرّأس. وقد ألمحنا إلى أنّ سبب ذلك يرجع إلى تأثير طوال الرّأس القادمين من

الغرب - شمال شرق أفريقيا - فالعربي من جنوبي جزيرة العرب والصّومال ترجع أصولهما للأجزاء المتجاورة في الحزام الأسود الأصلي. ونستنتج من ذلك أنّ العربي والصّومالي تربطهما قرابة. يتطابق شكل رأس - وبشكل أكبر - قسمات وجه القبائل التي تسكن أقصى الشّرق كالمَهْرة والشّحرة، فهناك عِرقٌ حامي لا تخطئه العين في المنطقة بأثرها. وستكشف دراسة الصّور التي قام برترام توماس برسمها لليافعي (شكل 10، 11) والقَرَا (شكل 12) والمَهْرة (شكل 13) والصّيعَر (شكل 14) أنّهم جميعاً ذوو شعر حامي نموذجي، أي شعر أسود أو بنّي داكن ذو زَغب. إنّ صبغيات الشّعر والجلد والتّشابه العام في قسمات الوجه يصعب تحديدها، بيد أنّه عند عقد مقارنة بين تلك الصّور الممتازة التي رسمها سيليغمان[1] لقبيلة من الرُّحّل في أفريقيا الشّرقية (السّودان ومصر وأريتريا) وبني عامر، سنتيقن من صلتهم بالحاميين. وفي نفس الوقت لا بدّ أن نلاحظ أنّ عرب جنوبي جزيرة العرب يميلون لإطلاق لحاهم بصورة أكبر من الحاميين وأقلّ من عرب شمال جزيرة العرب. لقد تعرّفنا حتى الآن على عِرق واحد يجمع كل القبائل التي تمّت دراستها -الحامية. ولكننا أشرنا إلى أنّه على الرّغم من أنّ القسمات تنتمي إلى ذلك العِرق فإنّ شكل الرّأس يتعارض مع شكل الرّأس الحامي النّموذجي مستطيل الرّأس. ويقودنا قصر رأس العربي الحاد في جنوبي جزيرة العرب - بالإضافة إلى عامل التّقارب الجغرافي - إلى الشّك في احتمال تأثير العرق الأرمني، فعرض الرّأس يمثل 85 ٪ تقريباً من طول الرّأس. لكننا يجب أن نعرف حيثيات التّوصّل لذلك المعدّل المتوسط بين طول الرّأس وعرضه. لقد أمدّنا كاپرز بمتوسط الطّول 182,0 وعرض 155.4 لمئة وسبعة وتسعين أرمني. إنّ النّسبتين كلتيهما تعتبران أكبر من المعدّل المتوسط المسجل لقبائل جنوبي جزيرة العرب. ولو كان هناك أثرٌ واضح على شكل الرّأس لتزامن معه تناقص شديد في تلك الأبعاد. لكن يمكننا أن نتحقّق للمرّة الأخيرة من احتمال تسلّل العرق الأرمني، بالنّظر إلى شكل الجمجمة ذاتها.

---

(1) كاپرز، في كتابه «إسهامات في أنثروبولوجيا الشّرق الأدنى والأرمن»، مجلد 33 أمستردام عام 1930 صفحة 792-801.

تتسـم الجمجمة الأرمينية بمؤخّرة الرّأس شـديدة الانبسـاط، ممّا نتـج عنه تناقص أبعـاد منطقـة خلـف الأذن وارتفـاع الجمجمـة. كمـا يميزهم الأنـف الأرمنـي البارز - السّـامي. ويمكننـا تمييز جسـر الأنف العلوي العظمـي الواقع بين العينيـن - الناتئ نسـبياً - عند معاينة الجمجمة. (انظر الشّـكل 19). والسّـؤال الذي يطرح نفسه هو هل نجد تلك السّـمات الأرمينية بين قبائل جنوبي جزيـرة العرب؟ الإجابة نعم. لكن تلك السّـمات محصورة في أقصى الشّـرق وربما في الجنوب الشّـرقي، أي بيـن العُمانيين والحراسـيس - وإن كان ذلـك مسـتبعداً. وأنا أركّز هنا على شـكل الـرّأس النّموذجي فحسب. ونلاحظ أنّ الأنف الأرمني البارز أكثر انتشاراً إلى حدّ ما، فيمتد لمجموعات من قبائل المَهرة والشِّحرة والقَرَا ولكن تأثيره يظلّ، بصفة عامّة، نادراً ومتذبذباً. وعادة ما يكون الأنف معقوفاً وبارزاً خلافاً للشّكل النّموذجي للأنف الارمني الذي يتّسم بأنه مفلطح ومقوّس.

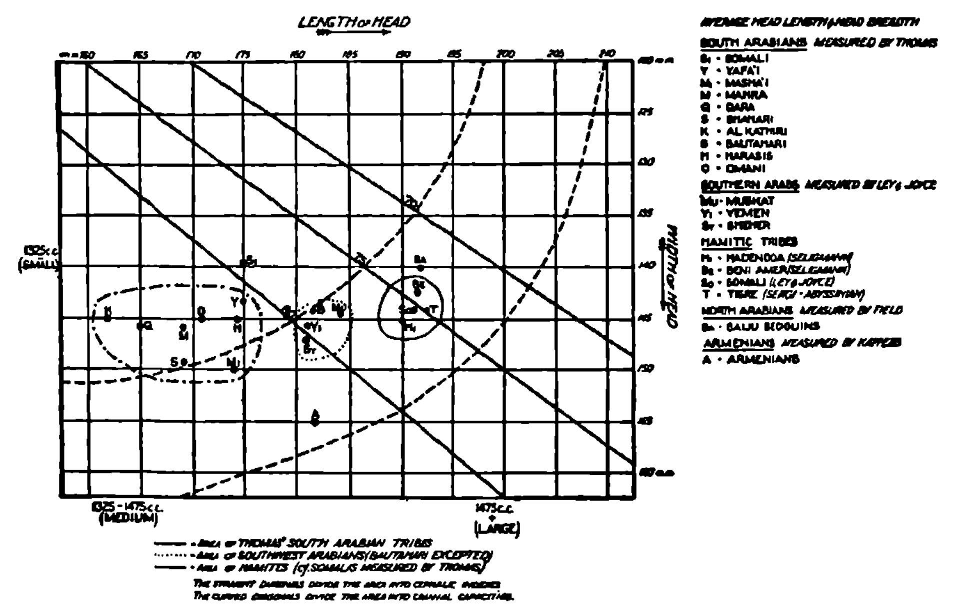


FIG. 15. A CEPHALIC CHART TO SHOW THE POSITION OF THE VARIOUS SOUTH ARABIAN TRIBES MEASURED BY CAPT. B. THOMAS.

جدول لشكل الرّأس يوضح مكان تواجد مختلف

قبائل جنوبي جزيرة العرب التي قام الكابتن توماس بقياس رؤوسها

ويجـدر بنا في هـذه المرحلة أن نلقي نظرة فاحصة شـاملة علـى علاقات وصلات القبائـل بعضهـا ببعض. وقد قمت في الشّـكل 15 بتعيين موقع متوسـط طول وعرض الـرّؤوس للعديـد مـن القبائل، وقد عرضت الأرقـام والبيانات التـي توصّلت إليها في الجدول 1. أما الآن فأقدّم جدولاً للمقارنة بين القبائل:

الجدول رقم 2

القبيلة	الطول	العرض	النسبة المتوسطة
مسقط	184.35	144.58	78.28
اليَمَن	180.95	145.50	81.07
الشّحر	180.21	145.76	80.92
الصّومال	191.81	143.19	74.79
الهَدَندوَة	189.97	145.10	76.39
بنو عامر	190.49	142.25	74.70
التغري	192.10	143.20	74.0
بدو البايجو	191.37	140.26	73.0
الأرمن	182.00	155.40	85.38

TABLE II

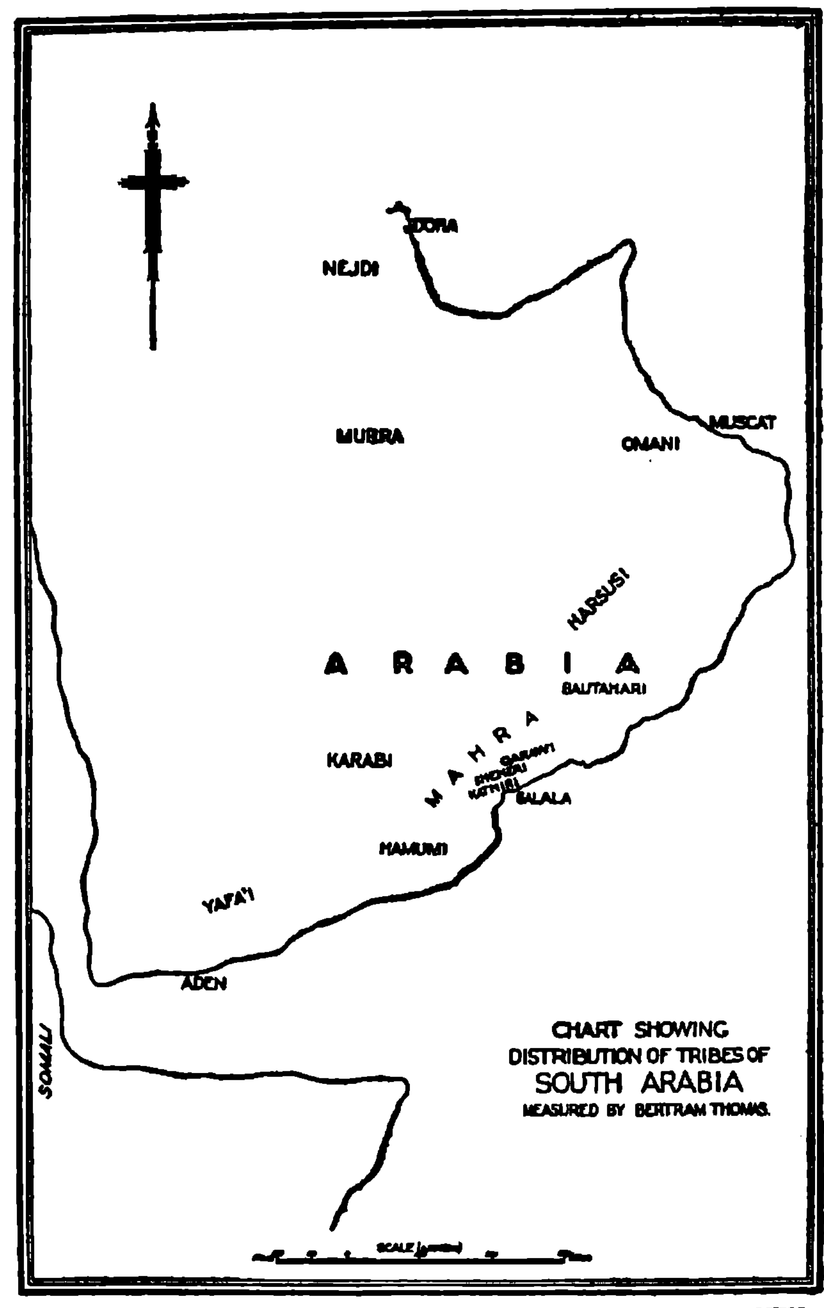
Tribe.	*Length.*	*Breadth.*	*Index.*
Muscat . . .	184·35	144·58	78·28
Yemen . . .	180·95	145·50	81·07
Sheher . . .	180·21	145·76	80·92
Somali . . .	191·81	143·19	74·79
Hadendoa . .	189·97	145·10	76·39
Beni Amer . .	190·49	142·25	74·70
Tigre . . .	192·10	143·20	74·0
Baiju Badawin .	191·37	140·26	73·0
Armenian . .	182·00	155·40	85·38

وعنـد مقارنـة جدول 1 و 2 تبـرز على الفور حقيقة مثيرة للاهتمام، وهي أنّ السّـمة التي تجمع بين كافة المجموعات هي أن طول الرّأس يتعدّى طول رأس ساكن جنوبي جزيرة العرب، بينما يتسـاوى عرض الرّأس - باسـتثناء الأرمن. وبمعنى آخر، إنّ قصر رأس القبائل التي نقوم بدراسـتها يرجع بصورة أساسية إلى تضاؤل طول الرّأس وليس إلـى تغيّـر عرضه. وما نسـتطيع اسـتنتاجه بصورة قاطعـة هو اختلاطهم بشـعب قصير الـرّأس. كمـا أنّ اسـتدارة رأس العربي من جنوبـي جزيرة العرب مختلفـة عن نظيرتها عند الأرمن.

إذن مـاذا يوضـح لنا الشّـكل 15؟ أولاً يؤكد صغـر حجـم رأس المجموعات التي ناقشـها ويسجل الرّسـم البياني، في الوقت نفسه، انعزالهـم النّسـبي عن المجموعات الأخـرى. ثانياً، يوضـح العلاقات والصّـلات الوثيقة التي أقامتهـا قبائل جنوب غرب جزيرة العرب - اليَمَن والشِّـحر ومسـقط - مع الحاميين مسـتطيلي الرّأس من ناحية، ومـع عرب جنوبي جزيرة العرب قصار الرّأس من ناحية أخرى. وأخيراً، إنّ الفروقات والاختلافات بين تلك القبائل وقبائل شمالي الجزيرة والأرمن تظهر بجلاء.

* * *

يظهر الرّسم البياني أنّ أدمغه سكان جزيرة العرب صغيرة الحجم، فالخطوط تنحني بصورة تصاعدية من يسـار الجدول إلى يمينه (شـكل 1) وتصوّر بدقّة ثلاثة مسـتويات لسعة الرّأس: تحت 1325 ومن 1325 إلى 1475 وفوق 1475.



A CHART TO SHOW THE DISTRIBUTION OF THE VARIOUS SOUTH ARABIAN TRIBES MEASURED BY CAPT. B. THOMAS.

خارطة توزّع قبائل جنوبي جزيرة العرب المختلفة التي قام الكابتن توماس بقياسها

لكن هذا التّقسيم ليس مطلقاً، فصغر أبعاد الطّول والعرض يستعاض عنها بزيادة ارتفاع سعة الجمجمة أو الأبعاد الرّأسية لصيوان الأذن، والعكس بالعكس. وقد يعود طول الوجه للتّجاويف الأمامية كبيرة الحجم، أمّا العرض فيعود جزئياً إلى سُمك جُذُر الـرّأس القفوية العلوية، وهلم جرّا. وهكذا تتناقص سعة الـرّأس الفعلية، ولكن يظلّ تصنيف تلك المجموعات قائماً على أيّة حال. ورغم اعترافنا باحتمال تأثّر المجموعة العُمانية بالعرق الأرمني، إلّا أننا لا بدّ أن نؤكد أن تلك المجموعة وحدها هي التي تملك سمة قصر الرّأس وارتفاعه المميّزة للعرق الأرمني، أمّا بقية المجموعات فتتميّز بقصر الرّأس دون أدنى شك، وإن كان شكل الرّأس هنا يرجع إلى تناقص طول الرّأس وليس لزيادة عرضه! ومن المهم على أيّة حال أن نشير إلى أنّ تناقص الطّول لا يرجع لزيادة عرض منطقة صيوان الأذن، وهي السّمة المميزة للأرمني النّموذجي.

لذا فان المحصّلة النّهائية المنطقية أنه يوجد في جنوبي جزيرة العرب سِمة فريدة نسبياً من قصر الرّأس، فشكل الرّأس يكون عريضاً، أمّا الجمجمة فقصيرة متوسطة الأبعاد وخالية من أيّ اثر للأبعاد الأرمنية، أي طول منطقة صيوان الأذن. أمّا فيما يتعلّق بالعنصر الحامي فتأثيره يمتدّ إلى أقصى الشّرق، حيث توجد مجموعات المَهْرة والقَرَا والشِّحرة. وتتضح السّمات الحاميّة في الشّعر ذي الزّغب وشعيرات الذّقن وصبغيات الشّعر والبشرة وقسمات الوجه بصورة عامة. وقد تكون تلك السّمات مكتسبة وفقا للكابتن توماس الذي قام بوصف أحد أفراد قبيلة القَرَا بأنه يشبه البِشارين، كما وصف مَهْرياً بأنّ لديه ذقناً بارزة كالمصريين.

وبالطبع ربّما تكون مجازفة غير محمودة العواقب أن نخوض موضوع التّشابه العرقي بالاعتماد على بعض الصّور. لكن يجب أن يسترعي انتباهنا المشايعة (شكل توضيحي 17 و 18) وبشكل أقل الكثيري (شكل 19 و 20) الذين يشبهون إلى حدّ بعيد سكان جنوب الهند الدّراڤيديين، أي التّاميل والسّنهاليين. كما أن الرّسومات التي تصوّر أطفال الشّحرة والكثيري تشبه إلى حدّ كبير الهنود (انظر الشّكل 21 و 22). إن بروز تلك السّلالات في جنوبي جزيرة العرب يثير تساؤلاً مهمّاً عمّا إذا كانوا ذوي

أصول شرقية هندية أو عمّا إذا كان سكان جنوب الهند قد هاجروا إلى الغرب، أو عمّا إذا كانا كلاهما قد أتيا من مكان متوسّـط مشـترك؛ وأخيراً، عمّا إذا كانا البقية الباقية من شعب أصلي مشترك واحد طُمست آثاره إلى حدّ بعيد بتأثير موجات الهجرة اللاحقة.

وفـي نهاية المطاف نودّ أن نعبّر عن شُـكرنا وامتنانا للكاپتـن توماس للامتياز الذي خصّنا به بالسّماح لنا بمساعدته للوصول لملاحظاته الأنثروپولوجية.

ومـن الواضح ممّا كتبناه حتـى الآن أنّ التّوصّل إلى معرفة تامّة بالشّـعوب الأصلية لجنوبـي جزيـرة العـرب أمرٌ أساسـي لمن يبحث عـن تفسـير أصل وتوزيـع الأعراق والأجناس في العالـم القديم، خاصّة الأعراق التي كانت تقطن البلاد التي تحدّ المحيط الهندي.

كيف يمكننا إذن تعليل التّشـابه بين الحاميين في أفريقيا وسـكان جنوب الهند؟ لقد عرقلتنا حتى اللحظة قلّة وشحّ المعلومات والبيانات. لقد قدّم الدّكتور سيليغمان لعلماء الأجناس البشرية أُطراً منظّمة لحالة المعرفة المتعلقة بالسّكان الأصليين لسكان جنوبي جزيرة العرب قبل الكاپتن توماس. وقد نجح، واضعاً روحه فوق كفه، في إعطائنا نتاج الحقائق المتعلقة بالقبائل الممثلة لأعمق مجاهل آسـيا. لقد تطرّقنا للمسـائل المتعلّقة بعرب الجنوب اقتناعاً منّا بأنّ الأعراق المتنوعة لبني البشـر قد تطوّرت بطريقة منظّمة، ونحـن نفترض، إلى أن يثبت العكس، بـأنّ أيّ عرق مفترض قد جاء إلى الوجود بفعل عملية التّطوّر، داخل أو قُرب الأرض التي نجده بها الآن.

تقـوم الأجنـاس البشـرية بتوسـيع نطـاق أقاليمها، فهـي تهاجر وتسـتعمر، ويمكن لأعراق جديدة أن تأتي إلى حيّز الوجود عن طريق التّهجين مع أعراق وأجناس أخرى. ولو أمكن إثبات الهجرة والتّهجين بالبرهان - حتى ولو كان غير قاطع - فيمكننا القبول بهذه العوامل على أنها تفسّر سمات عرق من الأعراق.

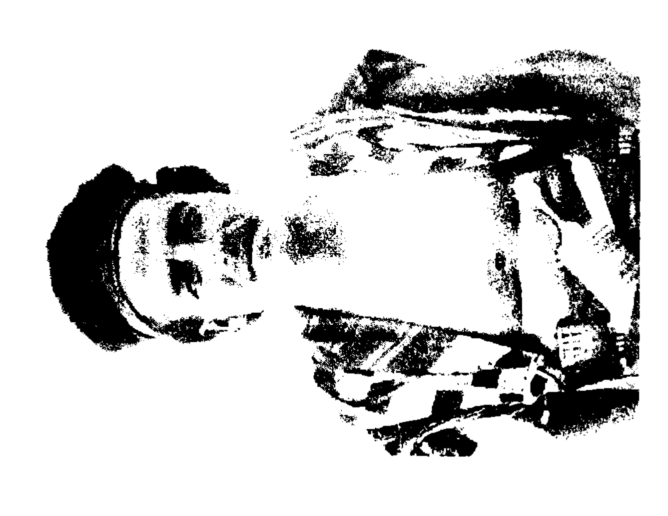
لكننا نعتقد بأنّ الأعراق المتوسّطة نادراً ما تنشأ عن تمازج نمطين متباعدين، وإنّما تمثل مرحلة من مراحل التّطوّر المتوسّـطة بين النّمطين. لقد سعينا من وجهة نظر عالم

التّطوّر إلى تفسير أصل القبائل التي عاش بينها الكاپتن توماس في جنوبي جزيرة العرب. استنتاجنا الأخير إذن بخصوص الطّبيعة العرقية لعرب الجنوب، هو أنّهم يمثلون بقايا من السّكان الحاليين الذين استوطنوا في وقت ما كامل جزيرة العرب. لتفسير السّبب الكامن وراء استدارة رؤوسهم وتميّزهم ببعض السّمات القوقازية، علينا أن نسلّم جدلاً بفرضيتي الهجرة والتّمازج العرقي. نحن ندرك مع ذلك بأنّ الحقائق الأنثروپولوجية قد تُفسَّر بطرق تختلف جذرياً عن الحلّ الذي اقترحناه.

ربما كان السّكان الأصليون ذوو البشرة الدّاكنة لجنوبي جزيرة العرب من ذوي الرّؤوس المدوّرة، ثم قام الحاميّون من أفريقيا والقوقاز ذوو الرّؤوس المدوّرة بغزو أرضهم والتّزاوج معهم. مهما كان الأمر، نحن نعرف أنّ العديد من الموجات العرقية قد تكون انتشرت جنوباً أو شمالاً في جزيرة العرب في الأزمنة الغابرة. وكما أسلفنا سابقاً، فإن مفاتيح حلّ مثل هذه الألغاز تكمن تحت رمال جزيرة العرب.









شاب يافعي (صورة مواجهة)　　شاب يافعي (صورة جانبية)





مجموعة من قبيلة المَهرة   قَراوي ورجل أبرص



مجموعة من قبيلة الشّحرة



رجل حمومي وشاب كثيري



رجل من المشايعة



رجل كثيري

الملحق الثّاني

الحياة الحيوانية في جزيرة العرب

بقلم و. تي. كولمان، إف. آر. إس.

تعـدّ جزيرة العرب نقطة التقاء ثلاث مناطق من العالم زاخرة بشـتّى أنواع وصنوف الحيوانـات المختلفة، ولذلك فهي تحتوي على الكثير من المشـكلات والألغاز ذات الأهمّيـة الخاصة بالنّسـبة لعالـم الجغرافيـا الحيوانية. إنّ مجموعـات الحيوانات التي تـمّ جمعهـا من تلـك المنطقة تكتسـب أهمية وقيمة بالغة لتسـليطها الضّـوء على تلك المشـكلات. لأجل ذلك كان المتحف ينتظر عيّنات الحيوانات التي قام السّيد توماس بجمعها على أحرّ من الجمر، ولم يكن الدّافع لذلك احتمال اكتشاف أنواع جديدة من تلـك الكائنات. وعلى أيّة حال تكتسـب رحلتنا السّـيد توماس أهمّيـة إضافية حيث أنه نجح في عبور مجاهل الرّبع الخالي ومرتفعات القَرَا ولم نتمكن في السّابق - على حدّ علمـي - من الحصول على أكثر من مجموعـة واحدة فقط من عيّنات التّاريخ الطّبيعي من المنطقة الأخيرة! لقد سـافر السّـيد والسّـيدة ثيودور بِنت في عام 1890 في بعثة في مرتفعـات القَرَا وجلبا معهما مجموعة من النّباتات والسّـحالي. وقد قام الدّكتور جون أندرسـون بوصـف تلك النّباتـات في كتابـه «الزّواحـف والبرمائيات فـي قلب جزيرة العرب» في عام 1896. ولقد تلقّى المتحف البريطاني عدّة مجموعات من العيّنات من أجزاء مختلفة من جنوبي جزيرة العرب، سواء من المقيمين أو المسافرين عبرها. أمدّنا الكولونيل جي. أو. يربُري والسّـادة أي. بي. پرسيڤال و أو. دودسون بمجموعات من

العيّنات قاموا بجمعها من منطقة عَدَن. وفي اليَمَن، سخّر الرّحالة الشّهير، وايمان بُري، وقتاً كبيراً لجمع مجموعة واسعة وشاملة من العيّنات خلال رحلاته العديدة. وقد قام السّيد فيلبي بإرسال عيّنات كثيرة مثيرة للاهتمام من منطقة في الشّمال. أمّا من مسقط، فقد تلقّينا مجموعات من العيّنات ذات الأهمية والقيمة الكبيرة من السّير پرسي كوكس وكبير الأطبّاء أي. اس. جاياكار والكولونيل إس. بي. مايلز والدّكتور جي. إم. ليز. وقد تلقينا مؤخراً مجموعة من العيّنات ذات الأهمية الاستثنائية من الميجور آر. اي. تشيزمان تمّ جمعها من منطقتي الهفوف وواحة يَبرين.

وسيتّضح من هذه القائمة أنّ مجموعة العيّنات التي قام السّيد توماس بجمعها تسدّ أكبر قدر من الفراغات الباقية في خارطة الجغرافيا الحيوانية لجزيرة العرب.

وسيقدّم زملائي - من قسمي الحيوان والحشرات في المتحف في القائمة التّالية تفاصيل مجموعات الحيوانات المتنوعة التي تمكنوا حتى الآن - بعد جهد جهيد - من التّوصّل إليها. ولا بدّ أن نشير هنا أنّه لا ينقص من قدر وقيمة العيّنة عدم قدرتنا الآنية على تحديد اسم وتصنيف محدّد أو بديل لها. فثعلب الفنك ذو الأذنين الكبيرتين، على سبيل المثال، الذي حصل عليه السّيد توماس من المؤكد أننا بحاجة لإطلاق اسم جديد عليه، لكن حكمة وحصافة الكاپتن دولمان منعته من تقديمه كنوع جديد أو ثانوي من السّلالات حتى نتمكن من القيام بجمع ودراسة كل المعلومات والعيّنات المتاحة من تلك الحيوانات في أفريقيا وشمالي جزيرة العرب ونخضعها للفحص والتّحليل الدّقيق. وبالنّسبة لمجال علم الحيوان، فقد كانت أهم نتائج تلك البعثة إثبات غياب أيّة عناصر شرقية (هندية) في حيوانات تلك المنطقة، على الرّغم من كونها من أكثر الأماكن المتوقع تواجدها فيها. ولا يمثّل الذّئب الهندي، الذي تعرّفنا عليه من قبل في مسقط وعَدَن ذلك العنصر الشّرقي، فمن الواضح انه ينتمي لفصيلة ذات صلة ببقايا حيوانات من عصور جيولوجية سالفة تسلّلت إلى قلب الهند من ناحية الشّمال.

تعليق على مجموعات التّاريخ الطّبيعي

بقلم الأعضاء العاملين في المتحف البريطاني قسم التّاريخ الطّبيعي

قـام الأعضاء بإصدار هذا التّعليـق بعد الفحص الأوّلي للعيّنات، ويجب أن تخضع تلـك العيّنات لفحوص مكثّفة قبل تحديد عدد الفصائـل والأنواع الجديدة المتواجدة فيها، ومن المحتمل أن يصل عدد الحيوانات التي تحتاج للوصف إلى عشرين أو أكثر تتضمّـن ثعلبـاً وثعباناً وحشـرات متنوعة. أولهـا كتاب الطّيور بقلم إن. بـي. كينير (مع خالص الشّكر والعرفان لدار نشر *The Ibis*).

في مسـتهل عـام 1930 قام السّـيد برترام توماس برحلـة تمهيدية في أعمـاق الرّبع الخالـي إلـى أن وصل إلى حافـة صحراء العين. وقـد قام باصطحاب سـكرتيره، علي محمّـد الذي تعلم كيفيّة سـلخ جلـود الحيوانات، خلال الرّحلة، وقد تمّ جمع خمسـة عشر طائراً بالإضافة إلى عدد من الثّدييات وعيّنات من أنواع الحيوانات الأخرى. ولكن - بكل أسـف - لم يكن مع السّـيد برترام خلال رحلته الأخيرة هذا العام أيّ شـخص يسـتطيع سـلخ الحيوانات، وعلى الرّغم من أنّه قام بجلـب مجموعات من الحيوانات الأخرى، فإنه لم يستطع جلب أيّ طائر واكتفى بجلب بيضتي عقاب من عُشّ عثر عليه في الحاذ ومزيريق (صحراوان رئيسـيتان). وقد كنت حريصاً كل الحرص على مقارنة البيضتيـن بـكل الطّيور الجوارح المحتملة الموجودة فـي مجموعتنا، وعلى الرّغم من أنّ الاعتماد على البيض بحدّ ذاته للتّعرّف على نوع الطّائر الذي تنتمي إليه يُعدّ مجازفةً غير محسـوبة العواقب. وفي اعتقادي الشّـخصي أنّهما تنتميان للنّسر الإثيوبي الأسمر المصفرّ.

الغراب الأسحم ذو العنق بنّي اللّون

فمن الواضح أنّه نادر الوجود، فالعيّنة الوحيدة التي تمكنّا من الحصول عليها كانت في رملة المُقْشِـن وكانت ذات لون داكن بصورة غير طبيعية، وقد تم العثور عليها على حافة الصّحراء في 31 من يناير.

الغراب ذو الذّيل مروحي الشّكل

قـام السّـيد توماس بصيد أنثـى الغراب يوم 19 من يناير علـى ارتفاع 1080 قدماً في منطقة حيلة الشّـصر. وقد تم سـلخ جلدها بتسرّع ووجدت بيضة مكتملة النّمو في قناة البويضات، وبسبب ضيق الوقت لم يتم سلخ جلد الرّأس والأجنحة، وتم تأجيل ذلك لمحطة الاسـتراحة القادمة. وبسـبب عدم وجود ضوء كافٍ لإتقان عملية السّـلخ ليلاً وأهميـة الإسـراع للتمكّـن من البدء مبكراً في السّـير، فقد بدأ الرّيش بالتّسـاقط قبل أن يتم العناية به والمحافظة عليه! وهكذا كان لا بدّ من التّخلّص من الجلد المعيب. لكن تمّـت المحافظـة علـى البيضة وقد عقـدتُ مقارنة بينهـا وبين بيض آخـر من مجموعة المتحـف وتوصّلتُ إلى أنّه من المرجّح إنها تنتمـي إلى الفصيلة المذكورة أعلاه. كما أنّـه عندمـا قمتُ بعرض جلود الغـراب ذي الذّيل المروحي والغـراب ذي العنق البنّي على السّيد توماس، أكّد لي أنّ النّوع الأول أكثر شيوعاً من الثّاني.

طائر الثّرثار (بحجم طائر الشّحرور) بني اللون

إنّ موطنه الأصلي في العَقَبَة بشـمالي جزيرة العرب، ويوجد في فلسـطين ومسـقط (بشهادة ميلز وجاياكار وكوكس) وفي شبه جزيرة عُمان (بشهادة ليز).

وقد عثر السّيد توماس على الأنثى الوحيدة من ذلك النّوع من الطّيور بين مجموعة مبعثرة من أشـجار اللُّبان في منطقة شيبة في الجهة الشّمالية من جبال القَرَا على ارتفاع 2000 قدم.

البلبل العربي

تم الحصول على ذكر البلبل وسـط مجموعة من أشـجار السّـنط والنّخيل بالقرب من بن جوعي Bin Ju'ai على ارتفاع 1500 قدم في الجهة الشّمالية لتلك المرتفعات. وعقـب فحص تلـك السّلسـلة التي جُمعت مـن أجزاء متفرّقـة من جزيـرة العرب في المتحف البريطاني، تأكّدتُ أنّه لا يوجد من بينها النّوع الذي أطلق عليه لورنز وهلماير

اسم رايخينوڤي *reichenowi* الذي يوجد في جنوب غربي جزيرة العرب.

قُبّرة الرّمال العربية ذات الذّيل الأسود

شـوهدت ورُسمت لأول مرة في منطقة قنفذة على البحر الأحمر عام 1850، وبعد 79 عاماً تمكن تشيزمان من جمع أربع عيّنات منها أثناء رحلته إلى واحة يَبرين. وقد عثر السّـيد توماس على أنثى هذا النّوع من الطّيور مـن حيلة بالرّزاز[1] Hailat Bil Rizaz، على ارتفاع 1060 قدماً، بين بعض الشّجيرات الخفيضة على مساحة من الأرض تكاد تخلو من الأشجار على بعد 18° ´2 درجة شمالاً.

طائر الذّعرة الأبيض

طائـر صغير ذو ذنب طويل يرفعه ويخفضه وكأنه مذعور. وقد تم صيد أحدها وهو يلتقط أنفاسـه بعد الهجرة في عين ماء في العين في 28 من يناير، ولكن لم يكن مغطى بكمية كافية من الرّيش لتمييز النّوع الذي ينتمي إليه.

الحميراء

طائر مغرّد موطنه في كشـمير. وقد تم صيد أحـد ذكور الحميراء عند قيامه بالهجرة في عين ماء في العين في منطقة مُقْشِن في 28 من يناير. وقد شاهد تشيزمان ذلك الطّائر في الهفوف. كما أنّه رأى عدداً منه في جنوب منطقة الحَسَا (الأحساء) في شهر مارس.

طائر دجّ أسود الزّور الهندي

وقد حدّدتُ أنه نوع يطلق عليه أوريوفيلا، وقد قمت بتسجيله في الصّحيفة الدّورية الجغرافيـة على هذا الأسـاس. ولكنني بعـد أن أخضعتُه للفحـص والتّمحيص الدّقيق تأكّدتُ انه دجّ أسـود الزّور هندي (سـمّنة مغرّدة) دون أدنى شـك! وتضمّ المجموعة

---

(1) هكذا تبيّن لي الاسم، ولم أجده في الخرائط.

ذكريـن مـن هذا النّوع تم العثور على أحدهما في يوم 28 من يناير على حافة الرّمال في واحة العين، أما الآخر فعُثر عليه في سعتن على ارتفاع 2065 قدماً على الجهة الشّمالية من جبل القَرَا في يوم 11 من شهر فبراير.

وقد صادف تشيزمان النّوعين الشّـرقيين كليهما من ذلك الدّجّ أسـود الزّور Chat المهاجر في صحراء الحَسَا (الأحساء) ويَبرين.

صقر العوسق

تم صيد أنثى العوسق في اليوم الثّاني من يناير بالقرب من بومطحان Bu Matahan على ارتفاع 3070 قدماً في جبال القَرَا.

الصقر السّلاب الشّاحب

حصلنـا على ذكـر مغطى بالرّيش في مسـتهل الشّـتاء في منطقة مسـتان[1] Mistan فـي جبال القَرَا (الجهة الشّـمالية) على ارتفاع قدره 1650 قدمـاً، وذلك في 15 فبراير. وقد تم تسـجيل تلـك الفصائل المهاجرة في أوقات عديدة علـى أنّ موطنها هو جزيرة العرب. وقد شاهدها تشيزمان في منطقة الهفوف في شهر نوفمبر وديسمبر، وفي واحة يَبرين في شهر فبراير، وعلى مسافة من ساحل حضرموت في 11 من شهر أبريل.

طائر الكروان العربي

تم قنص أنثى الكروان في يوم 11 فبراير بين أشجار الطّشقوت (التي يُستخرج منها اللُّبان) في القُطن وعلى ارتفاع 2500 قدم إلى شمال الحدّ الفاصل بين مرتفعات القَرَا. كانت المنطقة الواقعة خلف سـاحل عَدَن (بشـهادة دودسـون ومواينرتزهاغن) ومنطقة العبدلي في اليَمَن (بشهادة بُري) وساحل الصّومال الشّمالي (بشهادة تسيدليتس) دائماً موطنـاً للكـروان. لذا فإنّ تسـجيل رؤيته فـي الأماكن الجديدة يدلّ علـى أنه خرج عن

(1) هكذا تبيّن لي الاسم، ولم أجده في الخرائط.

نطاق موطنه الأصلي وتوطّن في مناطق جديدة.

طائر القطا السّنغالي

تـم العثـور عليه فـي العين على حافـي الصّحراء في منطقة مُقْشِـن. وقد قام السّـيد تومـاس بوصـف أحد عيون المـاء كالآتي: «عين مـاء ضحلة خضراء اللـون قطرها لا يتعـدّى الياردة، وعلى بعد ياردات قليلة وخلف بعض الشّـجيرات متشـابكة الأغصان عثرتُ على عين ماء أخرى قد امتدّت لتكوّن بركة ضحلة من المياه». ومن الواضح أنّ تلك البقعة كانت موئلاً للطّيور المهاجرة، وقد شـاهد السّـيد توماس بنفسـه عدداً منها هناك، كما أنه في صباح أحد الأيام وبينما كان ينتظر، شـاهد سـرباً مكوّناً من 150 قطاة جاءت للتزوّد بالماء، وقد تمكّن من قنص أحد الذّكور وإحدى الإناث في 28 من شهر يناير.

السّيسي العربي

لقد تم قنص زوج من السّيسي في يوم 11 فبراير في سيق حوار Saig Hawar وكانا يطيـران علـى ارتفـاع 2000 قدم في الجانب الشّـمالي مـن مرتفعات القَرَا. والسّيسـي العربي أصبح معروفاً في كل مكان من عدن حتى مسقط[1].



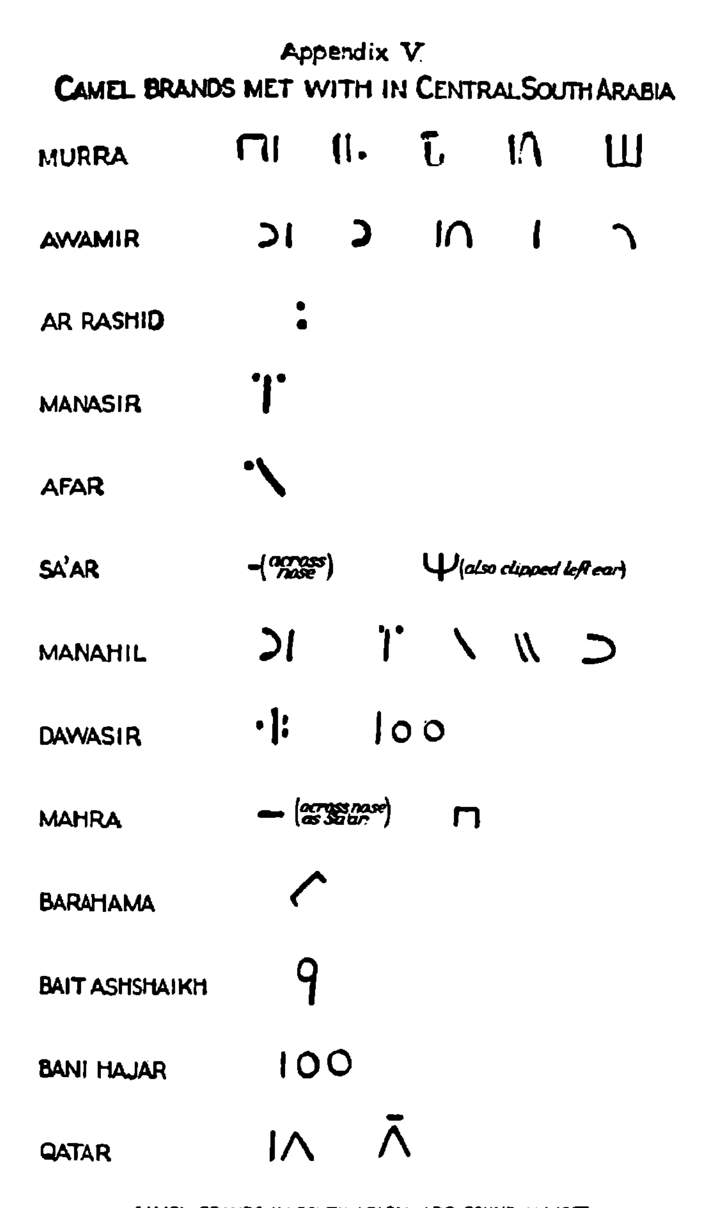
(1) حتى هنا تصل طبعة دار Read Books من الكتاب التي اعتمدتُ عليها في التّرجمة بالأصل، ثم لمّا حصلتُ على الطبعة الأصلية 1932 تبيّن لي أنّ هناك تتمّة للملحق الثّاني، وبعدها أربعة ملاحق أخرى صغيرة، سأعود إليها في طبعة قادمة.

الملحق الخامس

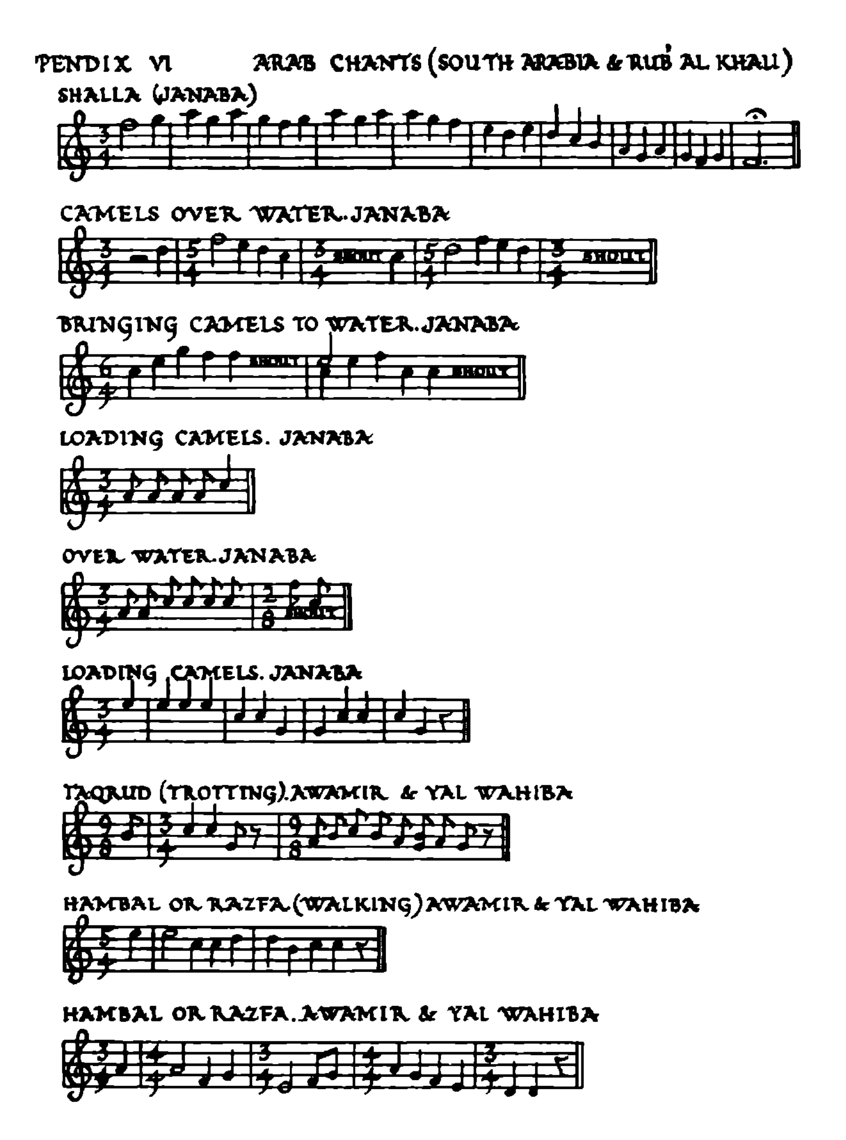
وسوم الجمال التي صادفناها في وسط جنوبي الجزيرة

الملحق السّادس

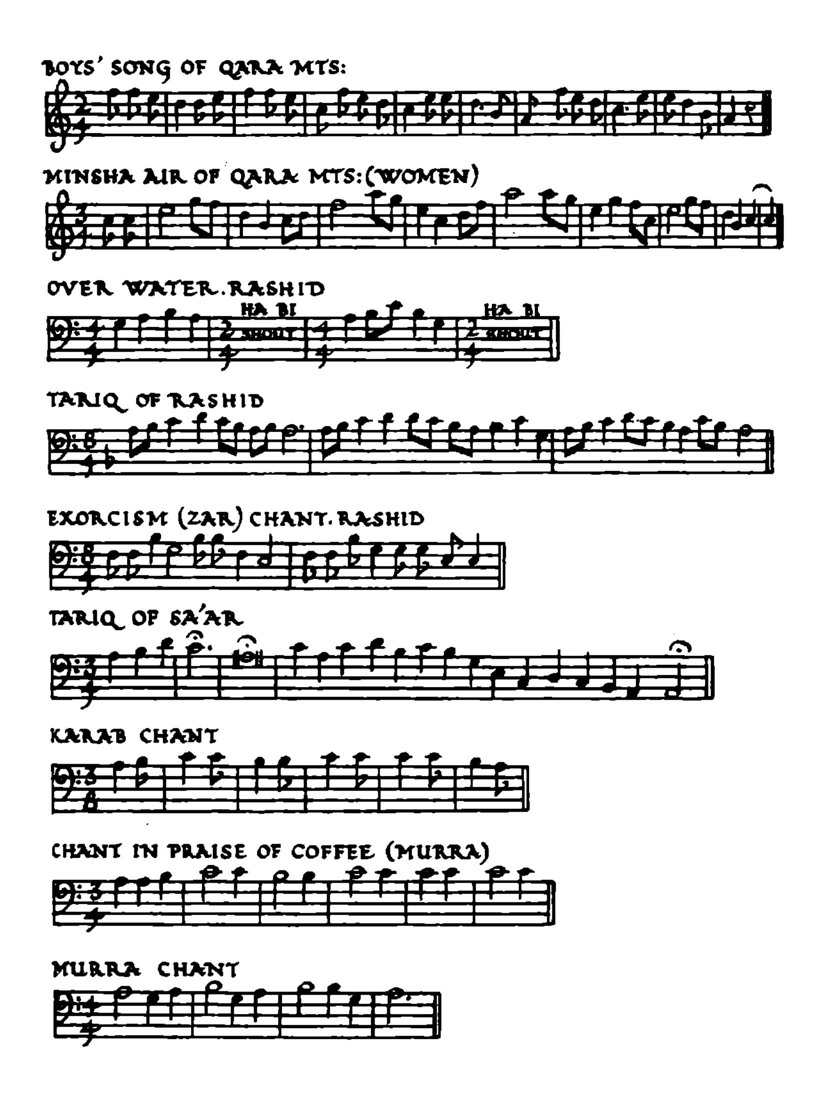
نوطات موسيقية لبعض الأهازيج في الرّبع الخالي

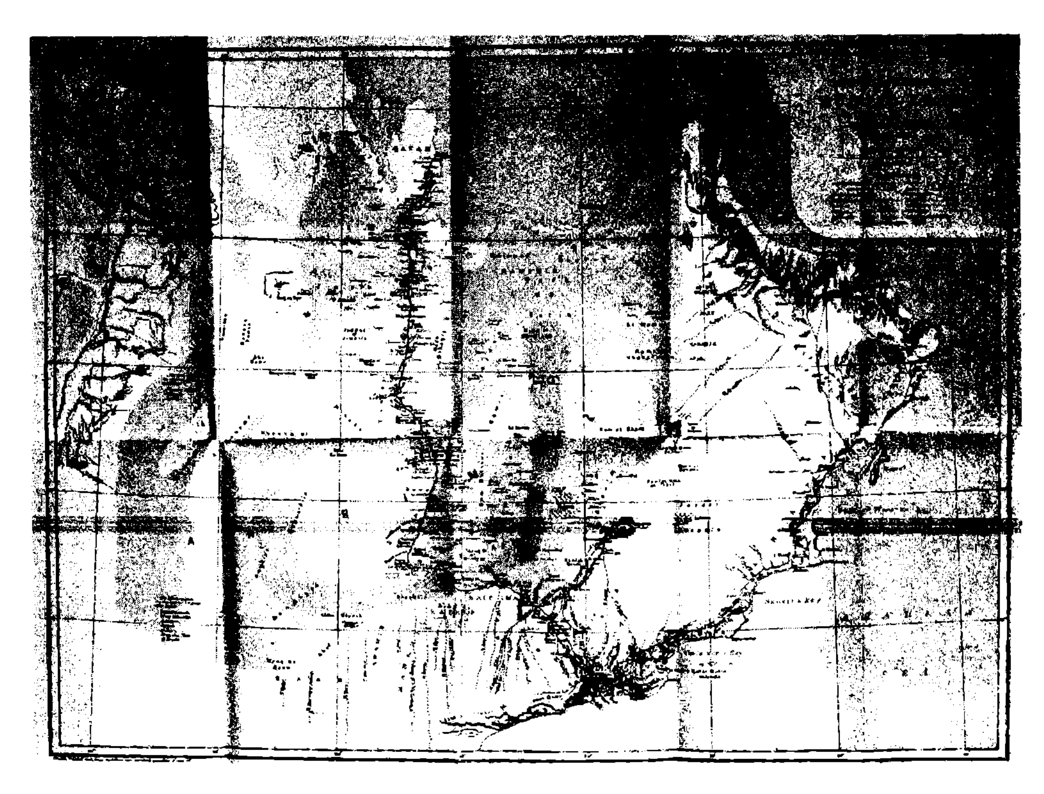


CAMEL BRANDS IN SOUTH ARABIA ARE FOUND ALMOST INVARIABLY ON THE NEAR SIDE – CHEEK, NECK, OR QUARTER


PENDIX VI ARAB CHANTS (SOUTH ARABIA & RUB' AL KHALI)
SHALLA (JANABA)
CAMELS OVER WATER. JANABA
SHOUT
SHOUT
BRINGING CAMELS TO WATER. JANABA
SHOUT
SHOUT
LOADING CAMELS. JANABA
OVER WATER. JANABA
SHOUT
LOADING CAMELS. JANABA
TAQRUD (TROTTING). AWAMIR & YAL WAHIBA
HAMBAL OR RAZFA (WALKING) AWAMIR & YAL WAHIBA
HAMBAL OR RAZFA. AWAMIR & YAL WAHIBA


LUTE SONG & DRUMS. DHUFAR TOWN
SLAVE SONG. DHUFAR
MURRA CHANT
MURRA CHANT
LOADING UP CHANT (RASHID OR MURRA?)
'RAGAZAIT OF MAHRA TRIBE — HAY DANADON
HIBOT OF QARA MTS:
MINSHA AIR OF QARA MTS: (WOMEN)


BOYS' SONG OF QARA MTS:
MINSHA AIR OF QARA MTS: (WOMEN)
OVER WATER. RASHID
HA BI
SHOUT
HA BI
SHOUT
TARIQ OF RASHID
EXORCISM (ZAR) CHANT. RASHID
TARIQ OF SA'AR
KARAB CHANT
CHANT IN PRAISE OF COFFEE (MURRA)
MURRA CHANT



خارطة الرّبع الخالي





فهرس الكتاب

الفصل الثالث: قياس جماجم ورقصة الشّيطان

الأصناف العرقيّة - الحضارات السّابقة للإسلام - جمجمة أب - أخذ قياسات الرّأس - التباينات الاجتماعيّة - إباء محارب وحاجاته - حاكم ظُفار - شديدو التّديّن في جزيرة العرب - طرد الأرواح - عادات زنجيّة - مؤسّسات الرّق - مراسم صباحيّة - رقصة الجواري - بلوغ الذّروة - طرد الرّوح الشّريرة.

الفصل الرّابع: في جبال القَرَا، عين رزات

تطلّعات إلى صيد وفير - تجهيز النّماذج - الحضارات الغابرة - قبور قديمة - ابن حُرّ - قرابين للأرواح - طقوس وثنيّة - الكذب والسّلب والنّهب - جمّاعة جريء - أرواح شرّيرة - نصب كمين لضبع.

الفصل الخامس: في جبال القَرَا، عقب الأسلاف القدامى وقربان الدّم

رؤى ابن بطوطة - هَدورام وحَضَرْموت - جبال مغطّاة بالغابات - أباعر حرونة - خطر من الثّعابين - كهوف صخريّة - عرض زواج - وادٍ بهيج - رقصة قبليّة - قتل ضبع - مراسيم صباحيّة مكلفة - صحوة عربيّة - قوانين الميراث المحلية - واجبات الزّوجة وحقوقها.

الفصل السادس: جبال القَرَا، الضباع والشِّفاء بالصّلوات والخِتان

أفاعٍ سامّة - عادات الطعام - مطيّة السّاحرة - الغزال والضّبع - خطيئة القرد - طلبات من صندوقي الطّبي - تعويضات الحقوق الزّوجيّة - علاج لمرض الدّوالي - المعالجة بالكيّ - سلب ونهب - قَبليّون وغيرُ قَبليين - ناقة صالح بن هود - أصل قبيلة القَرَا - العادات النّصرانيّة - بنو آدم - ختان الإناث - عادات قصّ الشَّعر - التّزيين النّسائي - حقيبة السّيدة العجوز - عقوبة المغازلة - الأعراف الاجتماعيّة - أشعار الحب.

الفصل السابع: جبال القَرَا، طرد العين الشريرة والامتحان بالنّار

التّخييم في الجبال - الإبل وقطيع الحلال - الغنم والمعزى - طرد العين الشّريرة - طرائق الطب البيطري - القَرَا عند خينوت - العُرف والعادات المحلّيّة - كفّارة الدم - عُرف الضّيافة - القَسَم بالقرآن - الاختبار بالنّار - أتون الفتنة - الاعتقاد بالسِّحر - ثرثرة مع قاتل.

الفصل الثامن: جبال القَرَا، الوداع

التّقاليد المرتبطة بالأم - قضيّة لدغة أفعى - قضيّة طبيب - نصب كمين لفهد - قربان الدم - عادات الزّواج، والطّلاق والزّواج من جديد، وأملاك المرأة - عادات الخطوبة - مشكلة بيت قُطن - مخيّم في Fuzah - جريمة بدم بارد - سيكولوجيّة ومعايير ثأر الدّم - صباح في عَربوت.

الفصل التاسع: ظُفار - السّاعة الحادية عشرة

وصول مركب السّلطان - نقاش مع الشّيخ صالح - الوالي يتدخّل - موافقة الشّيخ صالح - تقديرات وحسابات - موقف قبيلة مُرّة.

الفصل العاشر: فوق التلال والمتابعة بعيداً

مخيّم اللّيلة الأولى - التّعامل مع الجمال - نبوءة ديانا - كهف صحور Lehez - جزاء السّرقة - ليلة رطبة - في جبال القَرَا - نقاش حول التقاليد الدّينية - شجرة اللُّبان - رياض اللُّبان - شهوة بريئة - هانون وغبرتن - مكان ملائم لقبر - آثار قديمة، ونقوش وطقوس دينيّة - غدون وسعتن - أرصاد فلكية - أجهزة قياس الزّمن - نهر اصطاح - مَهاتي الأولى - العذراوات ووحيد القرن - الخنافس والسّحالي.

الفصل الحادي عشر: نجد - الحياة في السّهوب الجنوبية

قلعة شصر - الحرب والموت - إغارة صحراويّة - البادية الجنوبيّة - مُقشِن - أمّ الحيّات - وديان البادية - التّوزّع القبلي - حياة البادية - ممارسة طبّ الكيّ - طرد الأرواح الشّريرة - الحياة الحيوانيّة - اختفاء النّعام - سَحالٍ صالحة للأكل وأخرى غير صالحة.

الفصل الثاني عشر: المسير عبر الحافة الجنوبية للرّمال

توجّس - عاصفة رعدية - ماء في أرض عطشى - أشعار حب - جماعة من المدخّنين - متعة المدخّن - الحياة البسيطة - أرصاد فلكيّة - المخيّم في نخدة فَسَد - العناية بالجمال - الممارسات الدّينيّة في الصّحراء - نقاش حول الدّين - أهميّة غطاء الرّأس - مخيّم جائع في ميتَن - الطريق إلى وَبار - جزيرة العرب والعصر الجليدي.

الفصل الثالث عشر: عبر جبال عروق الضّحيّة الرّملية

الجمال المُتعبة - اللّيالي القارسة - تحضير الخبز - الخبز وسوء الهضم - الأرنب والغزال - عزيف الرّمال - الكُثبان الكبرى - إنذار كاذب - فنّ الإغارة في الصّحراء - قوانين حرب الصّحراء - رمال رخوة - خور ضحيّة - عشاء ليلة عيد الميلاد - أباعر منهوكة القوى - المياه المواتية - خبرة قصّاص الأثر - التقاؤنا بالشّيخ صالح.

الفصل الرابع عشر: لمحة جغرافية حول الرّبع الخالي

التّخوم الجنوبية والشّرقية - السّكّان في الرّمال - معدّلات الارتفاع في الرّمال الوسطى - غورٌ في الرّمال - قضيّة الرّمال المتحرّكة.

الفصل الخامس عشر: عبر صحراء الدّكاكة، المحطة الثانية للجمال

إتيكيت الطّاولة - حَمَد بن هادي وفريقه - يوم الحساب في الصّحراء - الرّجل

والمطيّة - عروس ومهرها - أحاديث المائدة وسلوكيّاتها - رمال الدّكاكة - حَمَد بن هادي - طقس وممارسة طرد الأرواح الشّريرة - نتيجة طقس طرد الأرواح الشّريرة - الأرنب والنّسوة والنّبي - الرّجل والبعير - الإنسان والطّبيعة - الإنسان وقوت المعاش - لحم جمل، أرز، تمر، حليب - غازٍ شهير - نكتة عمليّة.

الفصل السادس عشر: وقفة عند بئر شَنَّة قبيل الانطلاق نحو الشمال

ناقة لوجبة العشاء - إلقاء قرعة حول اللّحم - شرابٌ مقوٍّ مُبتكر - وادي الرّسوم (شِقّ المصاوير) - مرويات بني هلال - مخططاتي تتحقق - زوّار غير مرغوب بهم - كرم بو زيد - زوّار جدد - التماس مسلَّم - طالب المُرّي - متطهّرو الصحراء.

الفصل السابع عشر: الانطلاق نحو الشمال

الرّحيل عن شَنَّة - بو زيد وامرأته - بو زيد وولده - علاجات بيتيّة - بيت صحراوي ومفروشاته - مياه مسبّبة للإسهال - براعة دليل - متاهة الرّمال - في البْواح - أمّ المليسة - الصّيعَر - قصة إغارة.

الفصل الثامن عشر: في قلب الصحراء

مشهد القحط والإقفار - حياة الحيوان في الصّحراء - صحبة البدو - الدّويبات والطّفيليّات في الصّحراء - عشق بو زيد لعليا - أمّ قراين والسّنام - ابتداء رمضان عند فرجة - الالتزام بالصّوم - مخاطر ثقالات الأبار - تقويم الصّحراء أطلال أثريّة - ثلاثي بو زيد والجنّي - بو زيد والحاكم - بو زيد والجارية - براعة مقتفي الأثر - عمليّة بوليسيّة في مسقط - اكتشاف المتّهم - دروب الفيافي - مخيّم لقبيلة مُرّة - عواصف رملية في غُبيلة - رملٌ في معدّاتي - حنين الجمال إلى أوطانها - مرعى مسحور - خيوط البريدان - بنيّان.

* * *